العدد ١٢٩ - صفر ١٤٠٨ - نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٨٧م

الدوحة

مجلة شهرية ثقافية جامعة
ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية





- تطبيق الشريعة وحقوق الأقليات
  يوسف القرضاوي
- أزمة الواقعية: هل تؤدي إلى انتصار الروحانية؟
  د. محمد جابر الأنصاري

كتاب الشهر:
العمارة في العالم الإسلامي






تريجفي لي : أول أمين عام للأمم المتحدة (١٩٤٦-١٩٥٣)



داج همرشولد : (١٩٥٣-١٩٦١)



المنظمة العالمية
إنجازاتها الهامّة.. وتحدّيات المستقبل



يحتفل العالم هذا العام بمرور أربعين عاماً على إنشاء الأمم المتحدة التي تعتبر تجربة فريدة في تاريخ البشرية، ونموذجاً ليست له سابقة في التنظيم الدولي. وقد أدى وجود الأمم المتحدة إلى إحداث تغييرات جذرية في خريطة العالم السياسية إذ تبنت المنظمة قضية تصفية الاستعمار، وتحرير الشعوب المحكومة من سيطرة الدول الاستعمارية، وتعتبر تلك نقطة مضيئة في تاريخ المنظمة. ويكفي شاهداً على ذلك أن نذكر أن عدد أعضاء الأمم المتحدة عند التوقيع على الميثاق في ٢٦ يونيو ١٩٤٥ كان خمسين دولة، أما الآن وبعد مضي أربعين عاماً فقد تجاوز عدد الدول الأعضاء ثلاثة أمثال ذلك الرقم، ليبلغ ١٥٩ دولة، وبهذا تكون المنظمة العالمية قد حققت هدف شمولية العضوية لكل دول العالم. والواقع أنه لم يبق من بلدان العالم خارج المنظمة إلا تلك التي اختارت ألا تنضم، مكتفية بصفة المراقب مثل سويسرا، وكوريا الشمالية، وكوريا الجنوبية لظروف خاصة بوضعهما منذ التقسيم الذي أعقب الحرب الكورية، ثم هناك البقية الباقية للحكم الاستعماري القديم في أفريقيا الجنوبية وناميبيا وأخيراً فلسطين التي يناضل شعبها دون هوادة لتحتل دولته مكانتها بين دول العالم اعمالاً لحق تقرير المصير.

بقلم: حمد عبدالعزيز الكواري

وجدير بنا في هذه الذكرى الأربعين لهذه المنظمة العالمية الفريدة أن نحاول إلقاء الضوء على بعض انجازاتها الرئيسية، وعلى نواحي القصور فيها، وأن نستوحي من دروس الماضي دليلاً على العمل في المستقبل حتى يتاح للمنظمة أن تصل إلى آفاق من النجاح لم تصل إليها بعد، وأن تحقق هدفها النبيل في إحلال الأمن والسلام والتعاون محل الخلاف والنزاع والتنافس في علاقات أعضاء المجتمع الدولية.

والحديث عن الأمم المتحدة يطول، فهي حلبة تلاقي الأنداد وتراضي الأضداد، وفي قاعاتها يلتقي الشرق بالغرب والجنوب بالشمال والأسود بالأبيض والرأسمالي بالشيوعي والمحافظ بالثائر، ومن فوق منابرها تثار القضايا التي تهم دول العالم قويها وضعيفها، كبيرها وصغيرها، وهي الملجأ الذي تتجه إليه الدول إذا وجدت نفسها على شفا المواجهة المسلحة لتخرجها المنظمة من المأزق الذي ينذر بالاشتباك، ثم هي الحارس الأمين يقف بين القوات المتحاربة لحفظ السلم متى وضعت الحرب بين الطرفين أوزارها، وأخيراً هي المحفل الذي يجري فيه بحث أكثر الطرق جدوى من أجل التوصل إلى هدف نزع السلاح.

هذا المجال الواسع تحتاج تغطيته كله إلى عشرات المقالات، ولذلك فلا خيار لنا إلا أن نحدد نقاطاً معينة نتناولها كنموذج لنشاطات الأمم المتحدة وكمعيار لقياس فعاليتها. وقد اخترنا في هذا المقال ـ بعد تمهيد تاريخي عن عصبة الأمم المتحدة التي سبقت الأمم المتحدة في الوجود: تقييم معالجة الأمم المتحدة لقضية العرب الكبرى





يوثانت : (١٩٦١-١٩٧١)



كورت فالدهايم : (١٩٧٢-١٩٨٢)



دي كويلار : الأمين العام الحالي (١٩٨٢)

● لن يتغير موقف الأمم المتحدة من قضايانا العربية مادمنا في حالة من التمزق والانقسام والضعف

● حق الاعتراض "الفيتو" جعل الدفاع الجماعي عن النفس في الميثاق حبراً على ورق

فلسطين ، ثم الأنشطة الاقتصادية للأمم المتحدة وأنشطتها في مجال القانون الدولي وأخيراً قضية نزع السلاح. ومن مجموع ذلك نلخص للقارئ صورة واضحة عن انجازات المنظمة خلال أربعين سنة ، والعقبات التي حالت دون بلوغ تلك الانجازات على المدى الذي كانت آمال شعوب العالم قد علقتها عليها عند انشائها.

وقد اعتاد الرأي العام أن يقيس انجازات الأمم المتحدة بالتركيز على انجازها في المجال السياسي متجاهلاً انجازاتها في مجالات حيوية هامة كالجانب الاقتصادي والانساني والثقافي ، وهي انجازات يحق للأمم المتحدة أن تفخر بها.

عصبة الأمم

كانت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) تجربة مريرة جاوزت خسائرها البشرية والمادية حدود الخيال. وكانت دافعاً للدول المنتصرة إلى التفكير في خلق تنظيم دولي يكفل عدم تكرار مثل تلك التجربة ، ويقوم على مبدأ استبعاد الحرب العدوانية كوسيلة لحل الخلافات بين الدول أو لتحقيق الأهداف الوطنية لأية دولة ، فكان أن تضمنت معاهدة فرساي (ميثاق عصبة الأمم) التي كان للرئيس الأمريكي ويلسون فضل التفكير في انشائها والدعوة إلى تأييد كافة الدول لها ، ومن سخرية القدر أن الولايات المتحدة لم تنضم إلى العصبة تحت تأثير بعض الاتجاهات الانعزالية التي كانت تريد أن تنأى بالولايات المتحدة عن المشاركة ؛ وبذلك رفض مجلس الشيوخ الموافقة على معاهدة فرساي وما تضمنته من ميثاق عصبة الأمم فكان نكوص الولايات المتحدة عن الاشتراك في العصبة أول عامل سلبي أثر على فعالية التنظيم الدولي الجديد.

وبالرغم من أن شمول العضوية لكافة دول العالم كان هدفاً مقصوداً من انشاء العصبة إلا أن الطابع الأوربي غلب عليها ، فلم يتجاوز عدد الدول غير الأوربية التي انضمت إلى عضوية العصبة إحدى عشرة دولة هي : أفغانستان والصين واليابان والهند ومصر والعراق وتركيا وايران وليبيريا والحبشة وسيام (تايلاند) ، بالاضافة إلى بعض دول أمريكا اللاتينية ، وكان هذا النقص من عوامل ضعف العصبة ، ولو أن قلة عدد الدول المستقلة في ذلك الوقت يمكن أن يفسر إلى حد ما عدم شمولية العضوية لكافة دول العالم أو معظمها.

وكان تنظيم العصبة حسب ميثاقها يقوم على وجود جمعية عامة ومجلس هما الجهازان الرئيسيان للعصبة بالاضافة إلى محكمة العدل الدولية الدائمة ، المشكلة من خمسة عشر قاضياً. وكانت الجمعية العامة تجتمع في سبتمبر من كل عام ، ولو أن الميثاق لم ينص على اجتماعات سنوية لها ، وكان اجماع المشتركين في التصويت مطلوباً لاصدار قرارات الجمعية العامة ، ولو أن ذلك لم يعطل صدور القرارات كثيراً ، لأن الدول غير الموافقة كانت تكتفي عادة بابداء وجهة نظرها في اللجنة المختصة ، ثم تمتنع عن التصويت في الجمعية العامة ، وبذلك لا تحول دون الحصول على اجماع المشتركين في التصويت.

أما المجلس فكان مشكلاً من خمسة أعضاء دائمين من بينهم الولايات المتحدة ، التي لم تنضم إلى العصبة كما رأينا ، ومن أربعة أعضاء غير دائمين تنتخبهم الجمعية العامة لفترة محدودة. وقد زيد عدد الأعضاء غير الدائمين إلى ستة في ١٩٢٢ ثم إلى تسعة في سنة ١٩٢٦ فكانت لهم الأغلبية في المجلس ، وكان المجلس ينعقد أربع مرات في السنة وأيضاً في دورات غير عادية متى اقتضى الأمر ذلك.

وكان اختصاص المجلس الأساسي هو الشئون السياسية وأهمها المنازعات الدولية التي تهدد السلم وكذلك الخلافات بين الدول على مستوى أقل خطورة مثل الخلاف حول بنود بعض المعاهدات ومسائل تعيين الحدود ومعاملة الأقليات وما إلى ذلك ، وكانت طريقة اصدار قرارات المجلس تتطلب اجماع الدول الأعضاء غير ذات الشأن في النزاع المطروح ، وبذلك كان لكل دولة عضو حق النقض عملياً ، ولو أن ذلك لم يحدث إلا في حالات قليلة جداً حيث كان المجلس يستهدف التوفيق ، فاذا تعذر كان يؤجل البت في المسألة المطروحة بدلاً من طرحها على التصويت.

وكان للعصبة أمانة عامة دائمة مشكلة من موظفين دوليين مستقلين عن حكومات الدول التي ينتمون إليها بجنسياتهم. ونجحت الأمانة العامة في اضفاء الحيدة على نشاطها واستهدف مصلحة العصبة في كل أعمالها فوق أي اعتبار آخر ، وكانت للعصبة أجهزة أخرى ثانوية بعضها ذو طابع



قانوني أوسياسي مثل محكمة العدل الدولية الدائمة ولجان نزع السلاح والأقليات والانتداب أوبعضها الآخر ذو طابع اقتصادي مثل منظمة العمل الدولية ومنظمة المواصلات والنقل والمنظمة الاقتصادية والمالية.

على أن الضعف الذي صاحب العصبة منذ انشائها لم يلبث أن أثر على سير أعمالها وظهر جلياً أن الدول لم تقتنع بمبدأ عدم اللجوء إلى الحرب لتحقيق الأهداف الوطنية ، ولم تعمل بالمبدأ الآخر الذي حواه الميثاق وهو أن العدوان على عضو يعتبر عدواناً على باقي الدول الأعضاء مجتمعة ، وهكذا اعتدت اليابان على منشوريا ثم انسحبت من العصبة عقب صدور قرار بإدانتها ، كما أن إيطاليا لم تتورع عن غزو الحبشة ، وانسحبت كذلك من العصبة ؛ ففقدت العصبة بذلك ماكان باقياً لها من فعالية في المجتمع الدولي . ومالبثت الحرب العالمية الثانية أن اندلعت فظلت العصبة خلال السنوات ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ قائمة شكلاً ومنعدمة فعلاً إلى أن تقرر حلها رسمياً في جنيف في أبريل ١٩٤٦ بعد أن حلت محلها في التنظيم الدولي «هيئة الأمم المتحدة» التى أبرم ميثاقها في سان فرانسيسكو في ٢٥ يونيو عام ١٩٤٥ .

الأمم المتحدة والقضية الفلسطينية

جرت العادة أن يحتل الحديث عن نزع السلاح الصدارة حين يتعرض الكاتب للأمم المتحدة ، لأن الهدف الرئيسي الذي قامت من أجله هذه المنظمة في الأساس كان «انقاذ الأجيال القادمة من ويلات الحروب».

ولكننا سنخرج عن هذه القاعدة لنتحدث أولاً عن الأمم المتحدة والقضية الفلسطينية باعتبارها القضية الأولى للعرب ، وأم القضايا للأمم المتحدة لكونها ولدت في أحضانها . وأول مايدور في ذهن مواطننا عن الأمم المتحدة هو دورها في هذا المجال وعجزها حتى الآن عن تحقيق نتائج واضحة وملموسة .

ويمكن أن يقال بغير تجاوز إن القضية الفلسطينية ولدت على يدي الأمم المتحدة عندما أصدرت الجمعية العامة قرار التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٨ بانشاء دولة عربية وأخرى يهودية ومنطقة دولية تضم مدينة القدس . وكانت تلك أول مرة تقطع فيها أوصال اقليم ذي كيان محدد ، بقرار منظمة دولية . وهناك شك كبير في أن للأمم المتحدة السلطة أوالحق في اتخاذ مثل ذلك القرار الذي يتضمن إنكاراً لمبدأ جوهري من مبادئ الميثاق هو مبدأ تقرير المصير ، لا فرض أمر واقع على شعب من الشعوب . لذلك لم يكن غريباً أن يرفض الشعب الفلسطيني هذا القرار ، وأن يبدأ مسيرة نضال طويل وشاق لن يتوقف مهما بلغ حجم التضحيات حتى يعود إلى وطنه ، ويقيم دولته .

إن لمجلس الأمن ـ بوصفه الجهاز الرئيسي للأمم المتحدة ذى الصلاحيات التنفيذية والمسئول عن حفظ الأمن والسلم الدوليين ـ اتصال مباشر ومستمر بالقضية الفلسطينية منذ يومها الأول وحتى هذه اللحظة ، وفي خلال أربعين عاماً لم يوفق مجلس الأمن للأسف إلى معالجة تتمثل فيها العدالة لتلك القضية التي لا تزال تهدد الأمن والسلم الدوليين ليس في المنطقة العربية فقط بل وفي العالم كله نتيجة لمضاعفاتها غير المقصودة التي يصعب التنبؤ بها أوالتحكم فيها .

لقد كان لمجلس الأمن دور في محاولة ايقاف حرب ١٩٤٨ فأصدر قراراته المعروفة بوقف الأعمال العسكرية واعلان الهدنة ، كما أنشأ فريق مراقبة الهدنة . غير أن محاولات المجلس لم يحالفها التوفيق وأخطأها النجاح لسبب هام هو تضارب سياسات الدول العظمى ـ الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ـ التي لابد من توافق أصواتها الايجابية من أجل انجاح أي قرار للمجلس . لذلك فإن تقييم العارفين وحكم التاريخ على مجلس الأمن وموقفه من حرب ١٩٤٨ هو أن «قرارات المجلس كانت بصفة عامة غير مجدية في وقف النزاع المسلح في فلسطين» وأن «سلطات المجلس في ظل الميثاق لم تمارس بشكل جدي» ، كما قال الفقيد الدولي استيفان بوغاني في كتابه : «مجلس الأمن والنزاع العربي الاسرائيلي» الذي صدر عام ١٩٨٤ .

مضت على حرب فلسطين أعوام ثمانية إلى أن وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ : فكان لابد لمجلس الأمن أن يتصدى لذلك الوضع المهدد للسلم والأمن الدوليين ، ولكن المجلس كان مكتوف اليدين ، لكون دولتين من دول العدوان الثلاثي وهما بريطانيا وفرنسا من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ، فتقرر إحالة الموضوع إلى الجمعية العامة مما جعل مساهمة مجلس الأمن في مواجهة حرب عام ١٩٥٦ شبه معدومة بسبب خرق دولتين من أعضائه الدائمين مبادئ الميثاق التي تحظر استخدام القوة لحل الخلافات الدولية .

ثم جاءت حرب عام ١٩٦٧ التي أتاحت لمجلس الأمن فرصة اصدار أهم قراراته في النزاع العربي الاسرائيلي ، وهو أكثر القرارات إثارة للجدل ونقصد بذلك القرار رقم ٢٤٢ ، والذي حدد فيه المجلس الأسس التي رآها لانهاء النزاع . وأهم تلك الأسس عدم اكتساب الأراضي بالقوة وانسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة وتعايش جميع دول المنطقة بسلام .. ولاجدال في أن هذا القرار من أخطر القرارات إذ أن تنفيذه يلقي على الأمة العربية القبول باسرائيل كدولة ذات سيادة بالوضع الذي كانت عليه حين قامت بعدوانها عام ١٩٦٧ .. كما أن هذا القرار يتجاهل تجاهلا تاماً الشعب الفلسطيني ومصيره وحقوقه ويعتبر القضية الفلسطينية قضية لاجئين ، والمستقبل سيقرر إذا كان هذا القرار قد ساهم في احقاق الحق أو أنه في حد ذاته إحدى العقبات الرئيسية لتحقيق حل عادل للقضية الفلسطينية ، حيث أنه ومنذ صدور ذلك القرار فإن الولايات المتحدة الأمريكية تشترط على منظمة التحرير الفلسطينية الاعتراف به ، كشرط أولي لتعاملها معها .

ورغم ذلك فإن الكيان الصهيوني مازال يجادل في تحديد مدلول ذلك القرار وهل يلزمه بالانسحاب من جميع الأراضى المحتلة أو من بعضها فقط ، وكانت حجة ذلك الكيان على غرار أسانيد دارسي التلمود ضرباً من الحرفية غير المعقولة وتغليب المبنى على المعنى فتمسكت بعدم وجود أداة التعريف في كلمة «أراضي» في النص الانجليزي للقرار ، رغم أن مهندس القرار اللورد كارادون الذي كان المندوب الدائم لبريطانيا قد ذكر في مقال له منشور في مجلة الشئون العربية الأمريكية عدد الخريف عام ١٩٨٤ «أن مبدأ اكتساب الأراضي بالقوة ، المنصوص عليه في ديباجة القرار مرتبط بالنص الوارد في صلب القرار على الانسحاب من كافة الأراضي المحتلة لامن بعضها دون البعض الآخر» .

إن ما آلت إليه القضية الفلسطينية من ضعف وتراجع في المحافل الدولية انما يعكس الأوضاع التي آل إليها العرب .. وإني لأتفق مع ما ورد في مقال للدكتور محمد الفرا ، الأمين العام المساعد للجامعة العربية ، في مقال له في إحدى الجرائد العربية تحت عنوان : الأمم المتحدة في عيدها الأربعين ، نحن والأمم المتحدة أمس واليوم :

«كنت في الأمم المتحدة بعد ثماني سنوات من انشائها .. كانت ما زالت هناك نقمة كبيرة على المنظمة وقراراتها . والنظرة العربية لها كانت لاتخلو من عدم الرضى . وكان تمثيل العرب فيها لا يتعدى سبع دول عربية . وكان العرب يهاجمون المنظمة في كل مناسبة : هي المسئولة عن اقامة اسرائيل .. وهي التي تنكرت لميثاقها .. وهي التي تعمل كأداة لأمريكا ونواياها الخبيثة ، وأمريكا سخرتها لانتزاع تراب فلسطين من أهلها الشرعيين .. وتقديمه للحركة الصهيونية لتقيم عليه اسرائيل .

وأخذت دول العالم تحتفل بيوم الأمم المتحدة كل عام ، وعقد البرامج للمشاركة في الاحتفال لاذاعتها في الاذاعة والتلفزيون ولتنقل في صحفها . وأخذت تعد كلمات من رؤساء الدول بهذه المناسبة ولهذه المناسبة .

أما الدول العربية فكانت تمتنع عن المشاركة في مثل هذه المهرجانات .

«ومرت الأيام .. وتغيرت النظرة للأمم المتحدة . وقبل العرب قراراتها .. وطالبوا بتنفيذها .. وأصبحت هذه القرارات تكاد تكون مطلباً قومياً .. ورفضت اسرائيل كل القرارات بعد أن استغلتها مدة طويلة لتحقيق أغراضها وتنفيذ ما تريد .. وأخذ العرب يطالبون بتنفيذ هذه القرارات

وأخذت اسرائيل ترفض تنفيذ أي من هذه القرارات ».

« وبعد ..

لم تتغير الأمم المتحدة بالنسبة لتقسيم فلسطين .. ولم يتغير القرار الذي رفضناه ومن أجله عاقبنا الأمم المتحدة بعدم المشاركة في احتفالاتها .. بل إن قراراتها التي نصفق لها اليوم تحمل أقل بكثير من مطالبنا القومية ، وأقل بكثير من ماأقرته المنظمة نفسها عند مقاطعة احتفالاتها .. ولم تتغير نظرتها لنا .. ولا لقضيتنا التي نقول إنها القضية المركزية أوقضية العرب الأولى. انما نحن الذين تغيرنا .. نظرتنا التي تغيرت .. اصرارنا الذي تغير .. ايماننا بامكانية تحرير ترابنا هو الذي تزعزع .. روح النضال التي أخذت بفضل مواقفنا الكثيرة المتباينة .. وبسبب تفكك صفنا هي التي تغيرت .. نظرتنا القومية هي التي تغيرت واستبدلت بنظرة قطرية ضيقة »..

ولا أعتقد أننا نتوقع أن يتغير موقف الأمم المتحدة من قضايانا العربية ما دمنا على ما نحن عليه من تمزق وانقسام وضعف. وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

على أن للمجلس انجازات جزئية في اطار القضية الفلسطينية من الانصاف أن نشير اليها ، وأهمها دور المجلس في المعالجة الفورية للأزمات المستعجلة ومنع خطرها من الانتشار ومن تهديد سلم العالم بأسره ، وانشاء قوات حفظ الأمن التي قامت بدور مشكور ، رغم الصعاب التي تحيط بها والعقبات التي توضع في طريقها.

حق الاعتراض .. أو « الفيتو »

ما كان للموضوع أن يستكمل حقه من الدراسة دون التطرق للحديث عن حق الاعتراض (الفيتو) ، إذ بهذا (الفيتو) تمكنت الدول المتمتعة به قتل الكثير من القرارات ، التي كان يمكن أن تتيح لمجلس الأمن أن يحقق بواسطتها إعادة الاعتبار والثقة له ، وحق الاعتراض تمنحه المادة ٢٧ من الميثاق للدول ذات العضوية الدائمة ، والذي من شأنه أن يحول دون صدور القرار قد أسيء استعماله مرات عديدة من جانب الدول المتمتعة به ، وترتب على ذلك شل فعالية مجلس الأمن بحيث أصبح حق الاعتراض من أهم المشكلات التي تقتضي الدراسة ، ولو أن السبيل العملي لتعديل الميثاق بهذا الصدد غير متاح لأن التعديل نفسه عرضة لاستخدام حق الفيتو.. وقد أوضح العلامة هانز مرغنثو في كتابه الشهير « السياسة بين الأمم » عيوب حق الاعتراض ومن بينها (١) أن ذلك الحق يمنع امكانية اتخاذ الأمم المتحدة لأية تدابير جماعية ضد دولة عضو دائم في مجلس الأمن . (٢) نتيجة لذلك فإن سلطة مجلس الأمن في تطبيق أحكام الميثاق التنفيذية قاصرة في الواقع على الدول الصغرى والمتوسطة التي ليست من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن .(٣) أن حق الاعتراض يجعل من الدفاع الجماعي عن النفس طبقاً للمادة ٥١ من الميثاق حبراً على ورق لأنه قل أن يوجد أي نزاع مسلح في هذا العصر لا تكون إحدى الدول الأعضاء الدائمين متحازة لفريق فيه دون فريق .

وكما قال الدكتور حامد سلطان في كتابه : (القانون الدولي العام) « حق الاعتراض لا ينطوي على ضرر دائماً ، بل يكون فيه نفع في بعض الحالات وعلى الظروف التي يستعمل فيها ، ولا يعيب الحق من حيث هو أن يسيء صاحبه استعماله . ولاشك أنه إذا عادت الدول العظمى إلى ذلك التعاون الرائع الذي قام بينها للفوز بالنصر في الحرب العالمية الثانية ، فإن بناء الأمم المتحدة سيظل قائماً سليم الجوهر يثمر للعالم أطيب الثمار ، أما إن ظلت عوامل التنابذ والتفرق قائمة فلا فائدة من قيام بناء مختل الأساس ، ولا أمل في استتباب السلم والأمن الدوليين » .

النشاط الاقتصادي للأمم المتحدة

لقد تعاصر اهتمام الأمم المتحدة بالأمور الاقتصادية على المستوى العالمي مع نشأة الأمم المتحدة ذاتها ، إذ نص الميثاق في الفصل العاشر منه (المواد من ٦١ إلى ٧٢) على تشكيل « مجلس اجتماعي واقتصادي » يعتبر من الأجهزة الرئيسية للأمم المتحدة .

على أن الاهتمام بالمسائل الاقتصادية ـ وخاصة من زاوية تنمية اقتصاد بلدان العالم الثالث ـ قد ازداد منذ أوائل الستينات حينما أعلنت الجمعية العامة « عقد التنمية الأول » لدفع حركة التنمية الاقتصادية في البلدان النامية خلال الستينات . واصطحب ذلك بتكتل الدول النامية فيما عرف باسم « مجموعة ال ٧٧ » التي شكلت في عام ١٩٦٤ م من ذلك العدد من الدول والتي يبلغ عدد أعضائها الآن ١٢٨ دولة . وهدف هذه المجموعة هو الترابط الاقتصادي بين الدول النامية والدفاع عن مصالحها المشتركة إزاء الدول الصناعية المتقدمة .

ثم كانت سنة ١٩٧٤ م من المعالم البارزة في النشاط الاقتصادي للأمم المتحدة ، ففيها عقدت الجمعية العامة دورتها الخاصة السادسة لبحث الوضع الاقتصادي العالمي ، وأسفرت تلك الدورة عن اصدار الاعلان الخاص « بالنظام الاقتصادي الجديد » الذي استهدف أسس العدالة والانصاف والمساواة بين الدول والاعتماد المتبادل بينها سعياً نحو أهداف مشتركة بغض النظر عن وضعها من حيث النمو الاقتصادي أو اختلاف نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، كما أصدرت الدورة الخاصة السادسة « برنامج عمل » خاصاً بالنظام الاقتصادي الدولي الجديد شمل قطاعات الاقتصاد العالمية مثل مشاكل النظام النقدي الدولي وأسعار المواد الأولية ، والتصنيع ونقل التكنولوجيا ، والتعاون بين الدول النامية فيما بينها وازالة العوائق من طريق التبادل التجاري الدولي ، إلى غير ذلك . كما أكد برنامج العمل على حق كل دولة في السيطرة الكاملة على مواردها الطبيعية وثرواتها القومية دون تدخل أوتأثير من أي دولة أخرى .

وخلال عام ١٩٧٤ كذلك أصدرت الدورة العادية للجمعية العامة « ميثاق حقوق الدول وواجباتها الاقتصادية » الذي يستهدف وضع أسس وقواعد تحسم العلاقات الاقتصادية العالمية ، مع رسم حدود واضحة لحقوق وواجبات كل دولة عضو في المجتمع الدولي ، ذات مسؤولية مشتركة تجاه باقي دول العالم .

ومن أهم مبادئ هذا الميثاق التأكيد على الحق الكامل لكل دولة في السيطرة الدائمة على ثرواتها الطبيعية داخل حدودها ، وحقها الكامل في تنظيم وتقنين طرق وأسس الاستثمار الأجنبي في بلادها ، بما في ذلك ، حق التأميم ونقل ملكية هذه الاستثمارات الأجنبية ، مع دفع التعويضات المناسبة علي هذه الأملاك حسب القوانين المحلية لكل دولة أو أي طرق أخرى عند موافقة جميع الأطراف على ذلك .

وبعد انتهاء عقد التنمية الأول في نهاية الستينات ، أعلنت الجمعية العامة أن السبعينات ستكون « عقد التنمية الثاني » ثم أعلنت أن الثمانينات ستكون « عقد التنمية الثالث » وقد اصطحب اعلان هذين العقدين وضع « استراتيجية دولية للتنمية » الغرض منها هو وضع غايات وتحديد أهداف ورسم وسائل التعجيل بالتنمية الاقتصادية للدول النامية في الفترة من ١٩٨١ ـ ١٩٩٠ يقيناً من الأمم المتحدة بأن تنمية تلك الدول بصورة مضطردة أمر ذو حيوية للاقتصاد الدولي وضرورة لاستقرار أمن العالم وسلامته . ومن أهم الأهداف التي تحدد الاستراتيجية الدولية للتنمية في عقد التنمية الثالث :

- ينبغي أن يكون متوسط المعدل السنوي لنمو الناتج المحلي الاجمالي للبلدان النامية ٧ بالمائة .
- ينبغي أن يكون التوسع في الصادرات والواردات من البضائع والخدمات بمعدلات سنوية لا تقل عن ٧,٥ بالمائة و٨ بالمائة .
- ينبغي أن يزداد اجمالي المدخرات بحيث يبلغ ٢٤ بالمائة من الناتج المحلي بحلول عام ١٩٩٠
- زيادة سريعة وكبيرة في المساعدات الانمائية الرسمية التي تقدمها الدول الصناعية المتقدمة إلى الدول النامية ، وذلك بهدف بلوغ الهدف الدولي المتفق عليه وهو ٠,٧ بالمائة من الناتج القومي الاجمالي للبلدان المتقدمة النمو التي تمنح تلك المساعدات .
- ينبغي أن يكون متوسط المعدل السنوي للتوسع في الانتاج الزراعي هو ٤ بالمائة .
- ينبغي أن يكون متوسط المعدل السنوي للتوسع في الانتاج الصناعي هو ٤ بالمائة .
- تهدف الاستراتيجية الانمائية الدولية إلى تحقيق العمالة الكاملة بحلول عام ٢٠٠٠ ، مع





زيادة متوسط عمر الأفراد وتدبير التعليم الالزامي لهم.

وبالاضافة إلى ذلك ، تضع الاستراتيجية تدابير محددة في السياسة العامة للتجارة الدولية والتصنيع والأغذية والزراعة والموارد المالية لأغراض التنمية وتسخر العلم والتكنولوجيا ، والنقل والتعاون وتتخذ تدابير خاصة لأقل البلدان نمواً والبلدان الجزرية النامية والبلدان غير الساحلية .

وبمناسبة مرور عشرة أعوام على اصدار ميثاق حقوق الدول وواجباتها الاقتصادية شكلت الجمعية العامة لجنة خاصة لمراجعة وتقييم طرق تنفيذ هذا الميثاق في العلاقات الاقتصادية الدولية ... ولقد أتمت اللجنة أعمالها في شهر ابريل ١٩٨٥ م وأحالت نتائج أعمالها إلى الجمعية العامة للنظر فيها واتخاذ قرارها بشأنها .

هذا ويعتبر ميثاق حقوق الدول وواجباتها الاقتصادية ، من أهم الوثائق التي أصدرتها الأمم المتحدة للمحافظة على حقوق الدول النامية وبخاصة الدول الصغيرة في علاقاتها الاقتصادية مع القوى الاقتصادية العالمية .

ورغبة في اخراج النظام الاقتصادي الدولي الجديد من حيز الفكر إلى حيز العمل عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورتها الخاصة الحادية عشر في سنة ١٩٨٠ م من أجل البدء في مفاوضات عالمية شاملة بغرض تطبيق مبادئ وأسس النظام الاقتصادي الدولي الجديد ، غير أن تلك المفاوضات تعثرت نظراً لتشبث الدول الغربية ومعها اليابان بمواقفها ، وتعددت المحاولات لاحياء تلك المفاوضات بين الشمال الصناعي المتقدم ، والجنوب السائر في طريق التنمية من غير جدوى ملموسة حتى الآن ، ويعود ذلك إلى تعنت دول الشمال وأنانيتها ، وسوف تنظر الجمعية العامة في هذه المسألة من جديد في دورتها هذا العام (١٩٨٥) م . ومع ما هو واضح من أهمية جهود ونشاطات الأمم المتحدة في المجال الاقتصادي إلا أنه يجب الاعتراف بما يحيط هذا القطاع من صعوبات جمة ناجمة عن تضارب المصالح الاقتصادية المباشرة للدول ، وخاصة تلك الدول التي يعطيها النظام الاقتصادي الدولي الراهن مزايا كبيرة قد لا يحققها النظام الجديد ، غير أن هذا الموقف يقوم في الواقع على قصر النظر والتمسك بمزايا وقتية في مواجهة نتائج مستقبلية وخيمة العقبى على الدول كلها غنيها وفقيرها فيما لو استمرت المشكلات المعقدة الحالية دون حل ، ومن أهمها تأثير الركود الاقتصادي على اقتصاد البلدان المتقدمة نفسها على المدى الطويل ، وعلاج الأزمة النقدية العالمية ، وأزمة ديون العالم الثالث ، وضمان أسعار عادلة ومجزية للمواد التي تنتجها الدول النامية ، ثم تنظيم نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة إلى الدول النامية في مجال تصنيع تلك الأخيرة ... وتعتبر هذه المشكلة الأخيرة مثالاً واضحاً على العقبات التي تواجه عمل الأمم المتحدة في المجال الاقتصادي والعراقيل التي تصادف اخراج القرارات إلى حيز التنفيذ ، فقد عقدت الأمم المتحدة في عام ١٩٧٩ م في مدينة فينا مؤتمراً دولياً للعلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية وكان من أهم قرارات ذلك المؤتمر قرار بانشاء « صندوق الأمم المتحدة الدائم لتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية » . وقد تم الاتفاق منذ عامين فقط — أي بعد أربع سنوات من اتخاذ القرار — على قواعد ووسائل تمويل هذا الصندوق ، ولكن لم يتم انشاؤه حتى الآن نظراً لصعوبة الاتفاق على مقادير التبرعات التي يجب أن تدفعها كل من الدول النامية والدول المتقدمة لهذا الغرض .

الأنشطة القانونية للأمم المتحدة

نقطة الانطلاق في الحديث عن الأنشطة القانونية للأمم المتحدة هي المادة الثالثة عشرة (ب) من الميثاق ، التي تنص على أن من وظائف الجمعية العامة تشجيع التقدم المطرد للقانون الدولي وتدوينه ؛ وتباشر الجمعية العامة هذا الاختصاص الهام من خلال جهازين من أجهزتها بصفة أساسية . وعن طريق مؤتمرات دبلوماسية تعقد خصيصا في مناسبات قليلة ... والجهازان المذكوران هما : لجنة القانون الدولي ولجنة القانون التجاري الدولي .

واللجنة الأولى أقدم عهداً من الثانية التي لم تبدأ نشاطها إلا في عام ١٩٦٨ م .

وتتشكل لجنة القانون الدولي من أفراد تنتخبهم الجمعية العامة ، بصفتهم من فقهاء القانون الدولي العام وليسوا ممثلين للدول التي ينتمون إليها بجنسياتهم ، مع مراعاة التوزيع الجغرافي بصفة عامة ، وتمثيل كافة النظم القانونية . وعدد أعضاء اللجنة حسب التنظيم الحالي أربعة وثلاثون ، وهي تعقد دورة سنوية في جنيف من مايو إلى يوليو كل عام وتعرض تقريرها على الدورة التالية للجمعية العامة في خريف العام نفسه .

وتختص لجنة القانون الدولي بالتطوير التدريجي للقانون الدولي العام ، الذي يحكم علاقات الدول فيما بينها بوصفها دولاً ، وبتدوين ذلك القانون حيث أن معظمه غير مدون بل ترد أحكامه في مصادر شتى بعضها مكتوب كالمعاهدات والاتفاقات الدولية وبعضه الآخر غير مكتوب كالعرف والممارسات التي درجت عليها الدول في معاملة بعضها البعض . وفي قيامها بمهمتها تحت إشراف الجمعية العامة تقوم لجنة القانون الدولي باعداد مشروعات ومعاهدات دولية متعددة الأطراف في الموضوعات التي تقترحها عليها الجمعية العامة أو تتخذ اللجنة المبادرة باقتراحها وتعتمدها الجمعية العامة .

وأحياناً تدعو الأمم المتحدة إلى عقد مؤتمرات دبلوماسية لبحث تلك المشروعات واعتمادها ، ثم فتح باب التوقيع عليها ، ومن ثم التوقيع والتصديق أصبحت الاتفاقية جزءاً لا يتجزأ من القانون الدولي العام في شكله المطور والمدون .

ومن أهم انجازات لجنة القانون الدولي من هذا القبيل تدوين كامل للقانون الدبلوماسي في اتفاقيات فينا الشهيرة الخاصة بالعلاقات الدبلوماسية وبالعلاقات القنصلية ، ثم بالبعثات الخاصة ، فقد قننت هذه الاتفاقيات الثلاث كل أحكام القانون الدبلوماسي في نصوص جامعة .

ومن تلك الانجازات كذلك اتفاقية فينا الخاصة بقانون المعاهدات التي دونت فيها كافة أحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية من حيث انعقادها ونفاذها وتفسيرها وانقضائها ، وكذلك الاتفاقية الأحدث عهداً الخاصة بالمعاهدات التي تبرم بين إحدى الدول ومنظمة دولية حكومية أو بين اثنتين أو أكثر من تلك المنظمات .

ولا تزال لجنة القانون الدولي ماضية في عملها المشكور ، ومن أهم الموضوعات التي لا تزال مطروحة عليها موضوع الأنهار الدولية في استعمالاتها غير الملاحية ، وموضوع الحصانات القضائية للدول الأجنبية وموضوع المسئولية الدولية .

أما لجنة القانون التجاري الدولي فتختص بالمسائل القانونية المتعلقة بالتجارة الدولية . فهي تعمل في مجال القانون الخاص — الذي يحكم ملابسة الأفراد فيما بينهم — لا في مجال القانون العام — الذي يحكم علاقات الدول فيما بينها .

وترجع أهمية هذه اللجنة إلى اعتبار هام هو أن تباين أحكام القوانين الوطنية السارية داخل كل دولة من شأنه ايجاد صعوبات واثارة شبهات متى تجاوزت العلاقات حدود الدولة الواحدة أي متى كان البائع مثلاً مقيماً في دولة معينة والمشتري مقيماً في دولة أخرى كما هو الحال دائماً في التجارة الدولية . وتسعى لجنة القانون التجاري الدولي إلى توحيد القواعد القانونية المنطبقة على شتى أنواع النشاط التجاري الدولي ، بحيث تنطبق تلك القواعد الموحدة وحدها دون القواعد الوطنية المتباينة للدولتين التي ينتمي إليها طرف العلاقة التجارية وذلك لتحاشي الصعوبات الناتجة عن الاختلافات في أحكام القوانين الوطنية المتعددة .

وخلافاً للجنة القانون الدولي المشكلة من أفراد من الفقهاء ، فان لجنة القانون التجاري الدولي مشكلة من ممثلين للدول الأعضاء أي أن عضوية اللجنة هي للدول التي توفد بالطبع ممثلين مشهودا لهم بالمعرفة في القانون التجاري الدولي . وتعقد هذه اللجنة دورة سنوية ، كما قد يكون لها اجتماعات أخرى لفرق ، أو لجان فرعية ، ويعرض تقرير اللجنة على الدورة السنوية للجمعية العامة . ومن أهم انجازات لجنة القانون التجاري الدولي الاتفاقية الخاصة بعقود البيع الدولي للسلع والاتفاقية

الخاصة بالتوفيق والتحكيم في المنازعات التجارية . ولاتزال اللجنة تواصل عملها ، ومن أهم ماهو مطروح عليها الآن تقنين قواعد النظام الاقتصادي الدولي الجديد ، وتوحيد أحكام السندات الاذنية في العلاقات التي تتجاوز حدود الدولة الواحدة .

ولعل أهم انجاز قانوني للأمم المتحدة تم عن طريق مؤتمر خاص وليس عن طريق أي من الجهازين سالفي الذكر ، اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار ، التي استغرق اعدادها عدة سنوات من العمل المستمر والجهد الصادق ، وتعتبر تلك الاتفاقية فتحاً جديداً في مجال التعاون الدولي وتحتوي على تجديدات في القانون الدولي العام ، لعل أجدرها بالذكر اعتبار ثروات قيعان البحار ملكاً مشتركاً لدول العالم كله تستغل عن طريق (السلطة) التي أنشأتها الاتفاقية ، ويعود مردودها على كافة الدول لا على الدول الصناعية المتقدمة القادرة بإمكاناتها الخاصة على استغلال تلك الثروات دون غيرها من الدول . وقد قامت دولة قطر بالتوقيع على اتفاقية قانون البحار في ٢٧/نوفمبر/١٩٨٤ م وبذلك بلغ عدد الدول الموقعة عليها إحدى وثلاثين دولة . ومن المأمول أن يتم التصديق على الاتفاقية قريباً من عدد كاف من الدول التي وقعت عليها ، وبذلك تدخل هذه الاتفاقية الهامة حيز النفاذ .

وإذا ذكرت الأنشطة القانونية للأمم المتحدة فلابد من الاشارة إلى دور الأمين العام كوديع للمعاهدات والاتفاقيات الدولية طبقاً للمادة ١٠٢ من الميثاق . وتقوم الأمانة العامة بنشر تلك المعاهدات تباعاً في « سلسلة المعاهدات » التي صدر منها حتى الآن أكثر من ألف مجلد ، وهي تعتبر مرجعاً لاغنى عنه لكل المشتغلين بالقانون الدولي وبالعلاقة الدولية . وفي مجال النشر تصدر الأمم المتحدة كذلك « الكتاب السنوي القانوني » و « حولية لجنة القانون الدولي » و « حولية لجنة القانون التجاري الدولي » و « سلسلة قرارات التحكيم الدولية » و « السلسلة التشريعية » التي يختص كل منها بموضوع معين . وكل هذه المنشورات مراجع قيمة لاغنى عنها للباحث .

وللأمم المتحدة أيضاً برنامج يسمى « برنامج الأمم المتحدة للتعريف بالقانون الدولي والتوسع في تدريسه وتقديره العملي » ويتضمن ندوات سنوية وفترات من التدريب العملية يستفيد منها بصفة خاصة أبناء البلدان النامية من العاملين في حقل القانون الدولي .

وأخيراً لابد من الاشارة العابرة إلى محكمة العدل الدولية التي هي الجهاز الرئيسي للأمم المتحدة ، وتقوم بدور لاتخفى أهميته في حل المنازعات القانونية بين الدول طبقاً لأحكام القانون الدولي العام الذى تعتبر المحكمة الأمين على تطبيقه والساهر على احترامه في التنظيم الدولي المعاصر .

الأمم المتحدة ونزع السلاح

كان طبيعياً وقد قامت الأمم المتحدة في الأصل بغية « انقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب » أن يكون نزع السلاح — أوعلى الأقل وقف سباق التسلح — على رأس القضايا التي تهتم بها المنظمة ، رغم علم الجميع بأن المسئولية الأولى في سباق التسلح تقع على الدول نفسها ، ولا يمكن احراز أي تقدم نحو نزع السلاح مالم تبرهن الدول على ارادة سياسية كافية لتحقيق نتائج ايجابية .

وقد عقدت الجمعية العامة دورة استثنائية في عام ١٩٧٨ خصصتها لنزع السلاح صدرت عنها وثيقة ختامية أكدت أن للأمم المتحدة دوراً رئيسياً حول مفهوم ذلك « الدور الرئيسي » الذي للأمم المتحدة ، وتحديد الوسائل العملية التي تستطيع بها المنظمة القيام بتلك المسئولية الأساسية .

والواقع الملموس أن وقف سباق التسلح النووي بصفة خاصة قد أصبح قضية محصورة فيما بين القوتين العظميين وتدور المفاوضات حولها — إن دارت — خارج نطاق الأمم المتحدة فيما بين أصحاب الشأن مباشرة، ولكن الأمم المتحدة سعياً منها إلى تأمين جو النجاح وإمكانات التوصل إلى اتفاق قد طالبت بوضع اجراءات لتدعيم الثقة بين الدول الكبرى من خلال الرقابة الدولية للتحقق من خطوات نزع السلاح وحث الدولتين العظميين على استئناف المفاوضات بشأن الأسلحة النووية . وسوف يعقد هذا العام ١٩٨٥ مؤتمر دولي (هو الثالث من نوعه) تحت رعاية الأمم المتحدة لاستعراض ماتم من اجراءات تنفيذية لاتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية (وهي التي كان للأمم المتحدة فضل وضع نصوصها ، والدعوة إلى الانضمام إليها) والأمم المتحدة في ذلك تنطلق من واقع ادراك دول العالم قاطبة لكون وقف سباق التسلح — نووياً كان أم تقليدياً — أمراً يهم الدول كلها كبيرها وصغيرها وليس من الشئون الخاصة بالدولتين العظميين أوالدول الكبرى دون سواها .

ولسباق التسلح جانب آخر غير تهديد السلم والأمن الدوليين ألا وهو تأثيره السيء على التنمية الاقتصادية للدول النامية ، وهذا الترابط بين قضية التنمية وقضية نزع السلاح كان ولايزال من اهتمامات الأمم المتحدة ذات الأولوية ، وقلما تخلو دورة للجمعية العامة من قرار يصدر بهذا الشأن ، ولا يقتصر الأمر على تبديد موارد الدول الصناعية المتقدمة على التسابق في التسليح مما يؤثر على قدرتها على تقديم العون الاقتصادي للدول النامية ، بل أن الدول النامية نفسها لم تسلم من شرور سباق التسلح . إذ تجد نفسها مدفوعة إلى الانفاق العسكري المتزايد مستهلكة في ذلك مواردها المحدودة التي هي في مسيس الحاجة اليها من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية لشعوبها المتطلعة إلى حياة أفضل ، وتبذل الأمم المتحدة مايمكنها بذله من جهود من أجل معالجة هذا الجانب من جوانب قضية نزع السلاح ووقف سباق التسلح .

والواقع أنه لامهرب من الحقيقة المرة وهي أن سباق التسلح لن يقف ، ونزع السلاح لن يتحقق إلا إذا نجحت المنظمة في اقامة نظام عالمي جديد على أساس الأمن الجماعي وتسوية المنازعات بالطرق السلمية ، وهو الهدف الذي داعب آمال شعوب العالم عند صدور الميثاق ، وقد مضت على ذلك أربعون سنة ولم ينفذ بعد نظام الأمن الجماعي الذي نص عليه الميثاق ، وما ذلك إلا بسبب الهوة التي تفصل بين الواقع السياسي وبين المثل العليا التي قامت عليها منظمة الأمم المتحدة

وبعد ...

إن لمرور أربعين سنة مغزى كبيراً في المفهوم الثقافي العربي ، فقد وصف القرآن الكريم سن الأربعين بأنها سن النضج والاكتمال للفرد (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) — الأحقاف السورة٤٦ الآية ١٥ . وما أجدر أن يكون كذلك بالنسبة للتجمعات الانسانية وعلى رأسها المنظمة العالمية فيكون انقضاء أربعين سنة على انشائها بشيراً بتجاوزها مرحلة النمو ، بما يصاحبها من كبوات ، وبدخولها في مرحلة النضوج والاكتمال بما تتطلبه من حفز الجهود ، وتقوية العزائم ، على علاج النقائص وتقوية الايجابيات انطلاقاً نحو ترجمة مبادئ الميثاق إلى حقائق تحياها شعوب العالم في ظل السلام والرفاهية والتقدم .

لقد نجحت الأمم المتحدة بتجنيب العالم ويلات حرب عالمية ثالثة أربعين عاماً ، بينما لم ينقض بين الحربين الأولى والثانية إلا نصف تلك المدة وهذا في ذاته انجاز يحق للأمم المتحدة أن تعتز به ، والواقع الذي سيسجله تاريخ البشرية ، أن انشاء الأمم المتحدة وكالاتها المتخصصة وبرامجها العالمية واستمرار ذلك كله طوال أربعين عاماً هو حدث لا سابقة له في التاريخ ، وهو بداية موفقة لتنظيم عالمي شامل لم ير العالم مثيلاً له من قبل ، ويعتبر وجوده بداية مرحلة جديدة في تاريخ الشعوب تنتقل بها من عصر السيادات الوطنية المتصارعة إلى عصر المجتمع الدولي الذي يتعايش أفراده من الدول ويتعاونون في اطار تنظيم هيكلي يضمهم جميعاً ، ويحفز على تقوية تضامنهم وتعاونهم وشعورهم بالانتماء إلى مجتمع واحد مشترك لكل منهم فيه نصيبه العادل ، ولعل أكبر التحديات التي تواجهها الأمم المتحدة في قابل أيامها هو تقوية ذلك الإطار التنظيمي للمجتمع الدولي بما يزيد من شعور الانتماء ويقلل من النوازع الانفرادية للدول الأعضاء بحيث يسير عالمنا قدماً نحو مستقبل من الخير والبركة والنماء والتقدم لجميع شعوب العالم في رحاب مجتمع أفراده الدول ولديه من الهياكل الأساسية ومن البنيات التنظيمية ومن الوسائل التنفيذية ما يكفل له البقاء والنماء ويضمن لشعوب العالم الأمن والسلم والرخاء .

حمد عبدالعزيز الكواري
مندوب قطر الدائم في هيئة الأمم المتحدة



العودة إلى.. رومانسية القلب الواعية!

بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

بعد أن أخرج من زحمة المدارس الأدبية من كلاسيكية ورومانسية وواقعية وسريالية، وهي مدارس واتجاهات أدبية يعيشها المرء بحكم الحرفة الأكاديمية والهواية النقدية.. بعد أن أخرج من زحمة هذه المدارس وفلسفتها وعلومها الكلامية، وحروبها النقدية، بكل ما تخلفه في الذهن والنفس من ضجيج متفلسف ومتفنن، يخالجني الشوق ــ من أجل استعادة صفاء النفس ــ إلى ترديد أبيات بسيطة.. (وساذجة جداً في عرف المدارس الوقورة المذكورة أعلاه).. مثل قول الشاعر العربي القديم:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد

ومثل قول الآخر:
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادي القرى.. إني إذن لسعيد

وكقول جبران:
أعطني الناي وغن
فالغنا سر الخلود
وأنين الناي يبقى
بعد أن يفنى الوجود

أو قول أبو القاسم الشابي:
اهدئي يا جراح
واهدئي يا شجون
راح عهد النواح
وزمان الجنون
وأطل الصباح
من وراء القرون!

مثل هذه الأبيات وما ينحو منحاها في البساطة والحديث المباشر إلى القلب الإنساني والشعور الإنساني الطفل، هي التي تستطيع أن تبقى على الزمن، وأن تخرج منتصرة بعد سيادة مدرسة أدبية وأخرى، أو بعد انحسار جميع المذاهب الأدبية، لتقول للمتأدبين المتحذلقين:

فقل لمن يدعي في العلم معرفة
عرفت شيئاً.. وغابت عنك أشياء!

ولكنها.. الرومانسية!

لكن، لو أردنا العودة إلى لغة المسميات والمصطلحات، لاكتشفنا أن هذا المنحى الشعوري الوجداني البسيط هو الذي يطلق عليه «الرومانسية» أو «الرومنطيقية»، وأن جبران والشابي، اللذين استشهدنا بشعرهما قبل قليل هما من أقطاب هذه المدرسة في أدبنا العربي.

هذه النزعة الرومانسية ــ ولنسمها نزعة أو منحى لتجنب تقسيمات المدارس والمذاهب المغلقة ــ هي النزعة الشعرية الأدبية القادرة على التجدد في عصور كثيرة، وتلبية احتياجات القلب الانساني والعودة به إلى نقائه الوجداني وصفائه الشعوري، كلما ألمت به تعقيدات الحضارة، أو فذلكات الفلسفة، أو جفاف العلم المختبري، أو أسلاك التكنولوجيا الشائكة أو تلوث البيئة أو اضطراب البورصة وتدهور سعر الأسهم!

* * *

الرومانسية احتاج لها الإنسان في عصر الكهوف، واحتاجها بعد الثورة الصناعية وغربة المدن الكبرى، وسيحتاج لها اليوم وغداً عندما تحيط به النفايات النووية في العالم الأول أو العالم الثالث على حد سواء، فيسارع إلى قيثارته الشعرية ليقول شيئاً بسيطاً جداً وعميقاً جداً ضد إثم



الكاتبة الفرنسية كاترين ريهوا

● سيحتاج الإنسان إلى الرومانسية عندما تحيط به النفايات النووية!

● كاتبة فرنسية تقول: التكنولوجيا ألغت القلب.. لم نعد ندري.. أنحن نركب السيارة.. أم السيارة هي التي تقودنا؟!

الحضارة والتمدن والتعقيد الذي ظل يطارده منذ خرج من الكهف.. إلى أن وصل القمر!

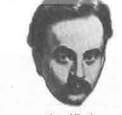
* * *

لذلك لم أستغرب عندما لاحظت هذا الصيف بباريس الترحيب الحار الذي يقابل به القراء ودور النشر روايات الكاتبة الفرنسية «كاترين ريهوا» في ذلك الجو الأدبي الفرنسي المشبع بالوجودية والسريالية والواقعية الجديدة ومختلف المدارس الأدبية التي صدرتها فرنسا إلى العالم، وحيث الرومانسية تصنف تاريخياً كمدرسة تجاوزها الزمن..

هناك في قلب أوربا التي تعيش عصر ما بعد الثورة التكنولوجية اكتشف الإنسان أنه بحاجة من جديد إلى شئ من الرومانسية!

وهذا ما تمثله ظاهرة الروائية «كاترين ريهوا» التي تقول:

«يجب رد الاعتبار إلى القلب (في وجه العقل الجاف والتكنولوجيا) وتضيف: هدفي إعلان الحب على الإنسان (بدل الحرب) وشعاري: العالم هو القلب!».



جبران خليل جبران



أبو القاسم الشابي

ولأن رواياتها التي تترجم إلى لغات عدة، ستأخذ بعض الوقت للوصول إلى المكتبة العربية، فإن في أقوالها وأحاديثها المباشرة ما يجسد باختصار هذه النزعة الجديدة أو القديمة المتجددة.

هكذا تتكلم كاترين ريهوا: «التكنولوجيا ألغت القلب. لم نعد ندري أنحن نركب السيارة أم السيارة هي التي تقودنا، وتحدد اتجاهنا. هل بقي مكان فوق سطح القمر لأحلامنا بعد أن تكاثرت عليه المركبات الفضائية؟ يقولون ان أجيال المستقبل ستكون أطفال أنابيب.. إنهم يجهلون أن جيلنا أيضاً من أطفال الأنابيب. جلدنا بفضل التكنولوجيا صار رداء حديدياً. الوصول إلى الكواكب شئ رائع. فكل المسافات سقطت بفضل العلم.. كل المسافات إلا المسافة بين الإنسان والإنسان!».

الأرض.. لم تعد كروية

وتضيف: «الكرة الأرضية لم تعد كروية. صارت غرفة مربعة بمقاعد خشبية وكتب مهملة وعيون نصف مغلقة وعقول مغلقة تماماً وتلفزيون متواصل البث يدعونا للتكيف مع الانهيار. كل ما أفعله في كتاباتي هو محاولة تدمير الجدران

العــودة إلى ..
رومانسيّة القـلب الواعيـــة !

الأربعة في الغرفة المربعة واعادة الأرض إلى شكلها الكروي . والتأكيد على أن قلبي لم يعد جهازاً ثانوياً في جسم ثانوي »

وتعود إلى الارث الرومانسي الأول عندما تعيد إلى ذاكرة العالم ، هذا المأخذ : « العقل منذ ديكارت يعطي للبربرية كل مبرراتها ، يجب أن نقتل الآن حتى لا يقتلنا أحد غداً ، يجب أن نضع رؤوسنا في حبل المشنقة حتى لا يظل الجلاد عاطلاً عن العمل ، وتتفشى البطالة ! .. هذه هي واقعية العالم الجديدة . العقل يجب أن ينتهي إذا كان دوره يقتصر على تحطيم الخيال (الخيال هنا بمعنى الرؤية البعيدة النافذة لعمق الأشياء وكبديل لتعريفاتها العقلية المحددة الضيقة) . وعلينا أن نثبت أن القلب بامكانه أن يغير وجه العالم .. » ..

تحطيم الوجودية

وفي التفاتة أخرى لتحطيم وجودية سارتر القائلة « الجحيم هم الآخرون » تقول ريهوا : « لو سكن كل منا الآخر لألغينا على الفور الجحيم في هذا العالم » ..

والرومانسية الجديدة تدرك بأنه لا يمكن الاستغناء عن المنهج العقلي والعلمي في حياة العصر ، لذلك تقول ريهوا : « إن هدفي ببساطة أن تتكيف التكنولوجيا مع الإنسان ، لا الإنسان مع التكنولوجيا . أعرف أنني أبدو أفلاطونية بهذا القول ، لكن هل من حل آخر ؟ »

كلام .. يطفئ الشمس

وتسخر من « واقعية » الاعلام المعاصر قائلة : « بدلاً من سلة الخبز التي تعود بها ربة البيت إلى المنزل نجد سلة مليئة بالجرائد . كلام يطفئ بداخلك آخر أصابع الشمس . لا تحاول أن تفتح الجرائد على مصراعيها ، على الأقل حتى لا تفاجأ بقنبلة ما تستقر في وجهك » .

أخيراً تسجل شهادتها النهائية : « لا أحد يملك عصا موسى الآن . لكن الكثيرين يملكون البنادق . شاهدت صوراً من كمبوديا لأحد الأطفال التي اكتشفوا بها حقلاً للجماجم البشرية . لم تكن الجماجم ميتة قط . فقد نبت فيها العشب وبعضها تحول إلى أوان للأزهار بكل معنى الكلمة . إذن هذه الجمجمة التي لا تزال عالقة حتى الآن ـ ويا للعجب ـ فوق أكتافنا يمكن أن تكون مكاناً لغابات البنفسج » .

* * *

هذه الرومانسية الجديدة ، كما يتضح ، ليست رومانسية كئيبة منزوية . إنها رومانسية انتقادية ساخرة استوعبت حقائق العالم ، ثم قررت أن تعيده إلى مملكة القلب . أي مملكة الوجدان والايمان .

.. وغارودي يقف هنا أيضا !

وكاترين ريهوا ، بموقفها القلبي الايماني الرومانسي الرافض للعقل المادي المختبري الذي يقدس التكنولوجيا ، تلتقي إلى حد كبير مع الموقف الايماني والروحاني للمفكر الفرنسي المسلم رجاء غارودي الذي اتخذ في كتابه « كيف أصبح الإنسان إنساناً » ـ وذلك قبل أن يسلم رسميا ـ النظرة ذاتها تجاه مادية الاستهلاكية الغربية من رأسمالية وماركسية ـ وقيم حضارات الإنسان من حيث جوهرها الروحي والصوفي والإيماني أي من حيث هي ممالك للقلب ومحبة الإنسان لا من حيث هي أسواق ومصانع وغزوات واختراعات للدمار .

تحويل العالم إلى .. شعر

الرومانسية الجديدة ، كاترين ريهوا وغيرها ، ماذا تعني لنا أدبياً ؟؟ .. تعني ألا نكرر مع التقنية والمادية والاستهلاكية ما وقع فيه الغرب . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أن نتجاوز مدرسة الغموض والرموز العمياء في شعرنا الجديد بالعودة إلى رومانسية القلب الواعية .

فهذا النوع من الرومانسية المستوعبة لواقع العالم والقادرة على تحويله مرة أخرى إلى شعر ، قد تمثل في أدبنا العربي القفزة المنتظرة فوق بلادة الواقعية الرتيبة التي انتهت إلى واقعية .. مضادة تتسلح بكهنوت الغموض المظلم ..

« واعطني الناي وغن
فالغنا سر الوجود ! ! »

محمد جابر الانصاري

● الرومانسية الجديدة تدرك بأنه لا يمكن الاستغناء عن المنهج العقلي في حياة العصر !

● السخرية من واقعية الإعلام المعاصر والدعوة إلى مملكة الوجدان والإيمان !

حـــواريـــث

شعر: محمد إبراهيم أبو سنّة

كانت ترقبني ..
.. ترسل مخلبَ عينيها
يتحسس أعضائي
كانت تعرف أن دمــائي
تصرخ في منحنيات عروقي
تتسكع في أجزائي
باحثةً عن ثقب يدخل منه النور إلى قلبي
كي ترحل آلاف الأحلام
بآلاف الأجنحة
إلى زمن آخر
لتقيمَ بأعلى جبل في الجزء القطبي من العالم

....

عيناي تجوّلتا
.. حول المائدة الخاوية الباردة الأطباق
يتساقط منها بعض شعاع
من إشفاق
عيناي دموع وأشعّــه

....

كانت تسألني
ــ هل تعشق أخرى ؟
ــ مالــي والعشق
ــ عيناك الهائمتان تقولان
بأنك تخفي أسرارا ؟
ــ أخفــي نفســيَ عن نفسي
فأنا أنقل أحجار الأيام
صبحا ومساء
هذا حجرٌ للذكرى
تنتفض عليه نقوش الأحلام
تتراقص في صفحته
« غزلان مذبوحه »
هذا حجر القلب الأول
يمشــي تتناثر منه تجاعيد الشيخوخه
هذا حجر الأصحاب القدماء
يأخذني لسراب الصحراء

ــ أنت تضللنــي
ما معنى هذى الأحجار الكاذبة الخرساء ؟
أنت تحب امرأةً أخرى
ــ ياسيدتي
لا يشغلني الآن العشق
ــ ما يشغلك سواى ؟
ــ يشغلني العتق
تشغلني الأحجار
فأنا أبني هرماً للأسرار
وأراوغ هذا الزمنَ الدوار
أن يمهلَني حتى أبني للجسد المنهار
قبراً يرقد فيه الإعصار
ــ أنت تراوغني
هل ذَبلَ جمالي ؟
ــ لست سوى صعلوك يملك مملكةً
يوشك أن يخلَعَ عنه التاج
ياسيدتي
لست سوى محتاج
لقليل من ضوء الشمس
لهواء يقبل من ناحية البحر
لفضاء يأخذ أجنحتي
يلقيني في الجزء القطبيّ من العالم
يا سيدتي
لا يشغلني الآن العشق
يشغلني في عصر الأحجار
الأحجار
الأحجار
أن يصعد قمرٌ من قلب الأشجار
فأمد إليه عيونــي
يتسارع في قلبــي الخفق
لا يشغلنــي الآن العشق
يشغلني
ياسيدتي
«العتق » !

تطبيق الشريعة وحقوق الأقليات

بقلم : الدكتور يوسف القرضاوي

من مظاهر الصحوة الاسلامية المعاصرة في العالم الاسلامي ، ارتفاع أصوات الجماهير منادية بضرورة العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، واحلالها محل القوانين الوضعية المستوردة ، ويكاد يكون هذا مطلبا اجماعيا ، التقت على المناداة به شتى الطبقات . فلم يعد مطلب علماء الدين وحدهم ولا الجماعات الدينية وحدها بل هو مطلب الشعوب المسلمة التي تريد به تحقيق وجودها الاسلامي ، و التحرر من كل رواسب الاستعمار الغربي والاستجابة لداعي الله ، والاذعان لأمره وحكمه ، بمقتضى عقد الايمان والاسلام « وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

ولقد كان من ضغط الشارع المسلم ، وتأثير الرأي العام الاسلامي الكاسح ، أن رأينا بعض العلمانيين يتراجعون ــ ظاهرا على الأقل ــ ويعلنون في صراحة : إننا لانرفض شريعة الله ولكن نرفض التفسيرات الخاطئة لها ، أو نرفض العجلة في تطبيقها دون اعداد كاف لتقديم البدائل ، ولا تهيئة للإطارات البشرية القادرة على قيادة المسيرة المرتقبة بقوة وأمانة .

ومعنى هذا أن الجميع غدوا يؤمنون (مبدئيا) بوجوب تحكيم الشريعة وانما البحث في الكيفيات أو الاجراءات . وهذا تقدم كبير بالنسبة لما كان عليه الحال قبل نصف قرن مضى .

بيد أن هناك شبهات أو اعتراضات يثيرها بعض الناس ، ينبغي أن يتصدى لها أهل الفكر بالرد ، احقاقا للحق ، وتصحيحا للمفاهيم .

ومن أبرز الشبهات التي يثيرها أعداء الاتجاه الاسلامي كلما نادى مناد بحتمية الحل الاسلامي وبوجوب العودة الى نظام الاسلام وأحكام الاسلام : ان في البلاد الإسلامية أقليات لاتدين بالاسلام ، ففي البلاد العربية ــ مثلا ــ توجد أقليات مسيحية أورثوذكسية أوكاثوليكية ، وربما بروتستانتيه ، .. كما يوجد بعض اليهود في بعض الأقطار .

فكيف يقبل هؤلاء « الحل الاسلامي » وهو يستمد أحكامه من دين لايؤمنون به ، ولايرتضونه حكما في شئون حياتهم ؟ وكيف يرغم هؤلاء على أمر يخالف دينهم ؟ وهذا ينافي مبدأ « الحرية » الذي قرره إعلان حقوق الانسان كما ينافي مبدأ « عدم الاكراه » الذي قرره الاسلام نفسه منذ أربعة عشر قرنا حين قال : « لا إكراه في الدين »

لهذا يكون الأولى أن يحكم المواطنون جميعا حكما علمانيا ، يستوى فيه أهل الأديان جميعا ، ولامجال فيه لطائفية ولاعصبية دينية كما هو مفهوم الدولة الحديثة . فالدين لله والوطن للجميع .

هذه هي شبهة القوم حول الأقليات غير المسلمة في المجتمع الاسلامي . وهي شبهة واهية ، بل باطلة . كما سنبين ذلك فيما يلي : ــ

الحل الاسلامي ومبدأ الحرية

أما دعواهم : أن الاتجاه الى الحل الاسلامي والشرع الاسلامي ينافي مبدأ الحرية لغير المسلمين وهو مبدأ مقرر دوليا واسلاميا ، فقد نسوا أو تناسوا أمرا أهم وأخطر ، وهو أن الإعراض عن الشرع الاسلامي والحل الاسلامي من أجل غير

المسلمين ــ وهم أقلية ــ ينافي مبدأ الحرية للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم وهم أكثرية .

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية فأيهما نقدم ؟

إن منطق الديمقراطية ــ التي يؤمنون بها ويدعون اليها ــ أن يقدم حق الأكثرية على حق الأقلية .

هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا ، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين . وإنما بحسب نظام ما ، أن ينال قبول الأكثرين ورضاهم ، بشرط ألا يحيف على الأقلين ويظلمهم ويعتدي على حرماتهم . وليس على أهل الأديان الأخرى بأس ولاحرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم ، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم ولايكونوا من الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين ، اذا لم يحكموا بما أنزل الله كما قال تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .. فأولئك هم الظالمون .. فأولئك هم الفاسقون » . سورة المائدة .

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك ، وتمسكت بأن تنبذ الأكثرية ماتعتقده ديناً يعاقب الله على تركه بالنار ، لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية دكتاتورية على الأكثرية .

الحكم الاسلامي والحكم العلماني

• وهذا على تسليمنا بأن هناك تعارضا بين حق الأكثرية المسلمة : وحق الأقلية غير المسلمة .

والواقع أنه لاتعارض بينهما .

فغير المسلم الذي يقبل أن يحكم حكما علمانيا لادينيا ، لايضيره أن يحكم حكما اسلاميا .

بل الكتابي الذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة ينبغي أن يرحب بحكم الاسلام ، لأنه حكم يقوم على الايمان بالله ورسالات السماء ، والجزاء في الآخرة كما يقوم على تثبيت القيم الايمانية ، والمثل الاخلاقية ، التي دعا اليها الأنبياء جميعا ، ثم هو يحترم المسيح وأمه والانجيل ، وينظر الى أهل الكتاب نظرة خاصة ، فكيف يكون هذا الحكم ــ بطابعه الرباني الاخلاقي الانساني ــ مصدر خوف أو إزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر ؟ على حين لايزعجه حكم لاديني « علماني » يحتقر الأديان جميعا ، ولايسمح بوجودها ــ ان سمح ــ الا في ركن ضيق من أركان الحياة ؟ !

من الخير للكتابي المخلص أن يقبل حكم الاسلام ونظامه للحياة ، فيأخذه على أنه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة ، ويأخذه المسلم على أنه دين يرضى به ربه ، ويتقرب اليه .

ومن الخير لأهل الكتاب ـ كما قال الاستاذ حسن الهضيبي رحمه الله : ــ أن يأخذه المسلمون على أنه دين ، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل في تنفيذه ، وعين الله الساهرة ترقبهم ، لا رهبة الحاكم التي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان (١) .

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من أهل الكتاب بالنظام الاسلامي بوصفه السد المنيع في وجه المادية الملحدة التي تهدد الديانات كلها ، على يد الشيوعية العالمية كما سنذكر شيئا من ذلك من كلام العلامة فارس الخوري .

الحكم الاسلامي لايرغم أهل الكتاب على أمر يخالف دينهم

• والادعاء بأن سيادة النظام الاسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على مايخالف دينهم ، ادعاء غير صحيح .

فالاسلام ذو شعب أربع : عقيدة ، وعبادة ، وأخلاق . وشريعة . فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الاسلام على أحد .

وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله : احداهما مكية والأخرى مدنية .

في الأولى يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢) .

وفي الثانية يقول سبحانه في أسلوب جازم « لااكراه في الدين » (٣) .

وقد نزلت هذه الآية في شأن رجال من الأنصار كان لهم أبناء على الديانة اليهودية أو النصرانية ، فأرادوا أن يجبروهم على تغيير دينهم الى الاسلام ، فنزلت الآية قاطعة مانعة « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » . (٣) .

وجاء عن الصحابة في أهل الذمة : اتركوهم ومايدينون .

● الأخلاق - في أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية ، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والإحسان

● أطلق الإسلام على اليهود والنصارى : أهل الكتاب ، أهل الذمة

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم ، في حرية وأمان ، كما هو منصوص عليه في العهود التي كتبت في عهد أبي بكر وعمر ، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل ايلياء « القدس » .

ومن شدة حساسية الاسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين ، لما لهما من صبغة دينية ، باعتبارهما من عبادات الاسلام الكبرى ــ مع أن الزكاة ضريبة مالية والجهاد خدمة عسكرية وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس ، أعفى منها النساء والاطفال والفقراء والعاجزين وهي ماسمي « الجزية » .

ولئن كان بعض الناس يأنف من اطلاق هذا الاسم ، فليسموه مايشاءون . فان نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولايدفعوا هذه الجزية وقبل منهم عمر ، وعقد معهم صلحا على ذلك ، وقال في ذلك : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا بالمعنى ، وأبوا الاسم ! (٤) .

أما الأخلاق فهي ــ في أصولها ــ لاتختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض ، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والاحسان والمحبة والعفاف والشجاعة والسخاء ، والتعاون على الخير (إلا ماوضعه اليهود في شريعة « التلمود » الخارجة على الأديان والأخلاق جميعا) .

فالزنا ــ مثلا ــ محرم في هذه الديانات كلها . والمسيح يقول : من نظر بعينه فقد زنا ، والرسول يقول : العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش .. الخ . والظلم والغش ، وأكل مال اليتيم ، والقسوة على الضعفاء . وغير ذلك من الرذائل ، تحرمها كل الأديان .

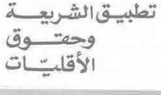
بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص : معنى القانون الذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض ، علاقة الفرد بأمته وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقته بالدولة ، وعلاقة الدولة بالرعية وبالدول الأخرى .

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك ، فهم مخيرون بين الاحتكام الى دينهم والاحتكام الى شرعنا . ولايجبرون على شرع الاسلام باعتبار هذه « الأحوال الشخصية » كما تسمى مما له علاقة مباشرة بالدين ومساس به وقد أمرنا بتركهم ومايدينون « لااكراه في الدين » فمن اختار منهم نظام الاسلام في المواريث مثلا كما في بعض البلاد العربية فله ذلك ، ومن لم يرد فهو ومايختار .

وأما ماعدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والادارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق ، وترتضيها الأغلبية .

وفي العقوبات قرر الفقهاء : أن الحدود لاتقام عليهم الا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنى (٥) ، لا فيما يعتقدون حله كشرب الخمر .

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون اليها ان شاءوا والا ــ لجأوا الى القضاء



تطبيق الشريعة وحقوق الأقليات

الاسلامى ، كما سجل ذلك التاريخ .

يقول المؤرخ الغربى (آدم متز) فى كتابه عن « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » :

« لما كان الشرع الاسلامى خاصا بالمسلمين فقد خلت الدولة الاسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم . والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنه كانت محاكم كنسية ، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضا . وقد كتبوا كثيرا من كتب القانون . ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج ، بل كانت تشمل ـ الى جانب ذلك ـ مسائل الميراث وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لاشأن للدولة به .

على أنه كان يجوز للذمى أن يلجأ الى المحاكم الاسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر الى ذلك بعين الرضا . ولذلك ألف الجاثليق تيموتيوس ـ حوالى عام ٢٠٠ هـ ـ ٨٠٠ م ـ كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية (لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية) إلى أن يقول :

« وفى عام ١٢٠ هـ ـ ٧٣٨ م ولى قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى .. ثم خصص القضاة للنصارى يوما يحضرون فيه الى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧هـ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم .

ثم قال متز : أما فى الاندلس ، فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون فى خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى الا فى مسائل القتل » (٦) .

وبهذا نرى أن الاسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجبا ولاعلى فعل أمر يرونه عندهم حراما ، ولاعلى اعتناق أمر دينى لايرون اعتقاده بمحض اختيارهم .

كل ما فى الأمر أن هناك أشياء يحرمها الاسلام مثل الخمر والخنزير وهم يرونها حلالا والأمر الحلال للانسان سعة فى تركه ، فللمسيحى أن يدع شرب الخمر ولاحرج عليه فى دينه ، بل لا أظن دينا يشجع شرب الخمور ، ويبارك حياة السكر والعربدة . وكل مافى الانجيل : أن قليلا من الخمر يصلح المعدة ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم فى موقفهم من الخمر والسكر .

وكذلك بوسع المسيحى أن يعيش عمره كله ولايأكل لحم الخنزير ، فأكله ليس شعيرة فى الدين ، ولاسنة من سنن النبيين ، بل هو محرم فى اليهودية قبل الاسلام ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الاسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير ، ويشربوا الخمر ويتاجروا فيهما بينهم وفى القرى التى تخصهم ، على الا يظهروا ذلك فى البيئات الاسلامية ولا يتحدوا مشاعر المسلمين .

وهذه قمة فى التسامح لامثيل لها : ألا يضيق عليهم حتى فى شىء أحل لهم ، وحرمه الاسلام تحريما قطعيا ، مع أن المباحات لاحرج فى تركها دينا ولاخلقا ، بل يحبذ تركها إذا كان فيه إيذاء للآخرين ، فكيف إذا كان هذا المباح عندهم مثل الخمر التى أجمع على أضرارها أهل الدين والدنيا جميعا ؟ وقامت جمعيات لمنع المسكرات ومقاومة الكحوليات فى العالم كله ؟ ومنعها بعض الدول بقوانين وضعية وجادل ذلك آخرون وأن اخفقوا فى النهاية .

العلمانية لا ترضى الجميع

أما القول بتفضيل الاتجاه العلمانى على الاتجاه الاسلامى ، لأنه يجمع المواطنين جميعا دون تفرقة ولاطائفية ولاعصبية دينية ، فهذا القول مردود .

فالاتجاه العلمانى دائما تعارضه ـ من الناحية القومية البحتة ـ أقليات ترى أن لنفسها قومية غير قومية الأغلبية .

فاذا كان الكتابى يقبل الحكم العلمانى . لأنه غير ملزم بشريعة ولأن كتابه يقبل قسمة الحياة بين قيصر والله ، « دع مالقيصر لقيصروما لله لله » فالمسلم ـ مادام مسلما ـ لا يقبله ، لأنه مقيد بشريعة مفصلة تحدد له منهج حياته من أدب المائدة ، الى بناء الدولة ، وشئون الخلافة أو الامامة العظمى ، ولأن الحياة عنده لاتقبل القسمة بين الله وبين أحد غيره ، فقيصر وغيره والناس جميعاً عباد لله ، يجب أن يخضعوا لأمر الله وشرع الله .

والحكم العلمانى بطبيعته ضد رغبات المسلمين لأنه ضد التزامهم بعقيدتهم وشريعة ربهم ، فكيف يقال إنه يجمع المواطنين جميعا ، وهو يعارض دين الأغلبية واتجاهها ؟؟

بقيت قضية لا أحب أن أهرب من مواجهتها بصراحة ، وهى قضية عقوبة المرتد عن الاسلام

وأود أن أبين هنا أن المرتد عن الإسلام نوعان :

إما مسلم جديد ، دخل الاسلام حديثا ، ثم أراد أن يعود مرة أخرى الى دينه القديم .

وإما مسلم قديم الاسلام أصيل فيه ، برقت له بارقة ما ، فأراد أن يخرج منه ليدخل فى دين آخر ، أو ليبقى زنديقا بغير دين .

فأما الأول فلا شك أن الجميع يعلمون أن الاسلام لايكره أحدا على الدخول فيه بأى حال من الأحوال ، وهو فى هذا واضح كل الوضوح ، حاسم كل الحسم والقرآن الكريم مكيه ومدنيه ينكر هذا ويمنعه كما أشرنا من قبل . ففى المكى يقول تعالى لرسوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفى المدنى يقول « لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، كما جاءت آيات شتى تلغى اعتبار أى ايمان لايصدر عن ارادة حرة واختيار كامل .

ولكن الاسلام لايرضى من الناس أن يجعلوا الدين « ملعبة » يدخل أحدهم فيه اليوم ليخرج منه غداً على طريقة اليهود الذين قالوا فى عهد النبوة « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

ولطالما شكا المسيحيون فى مصر من أولئك المتلاعبين بالدين من النصارى حتى أن أحدهم ليترك دينه رغبة فى التخلص من زوجته المسيحية ، وآخر يدخل الاسلام ليتزوج من حبيبته المسلمة ولا مانع لدى هذا أو ذاك أن يرجع لدينه القديم متى حن الى زوجته ، أو نفر من حبيبته والاسلام غنى عن هذا الصنف الذى لايعتنق إلا لغاية دنيوية زائلة والمسلمون لايعتزون بهؤلاء ولايرحبون بهم .

والعلاج الناجع لهؤلاء وأمثالهم أن يعلموا مقدما أن الاسلام لايقبل الهزل والتلاعب والتنقل بين الاديان كتنقل المتفرج بين المسارح والملاهى : وأن من دخل فى الاسلام يجب أن يدخله بعد اقتناع

كامل بصحته ، ويقين تام بأحقيته وأن من دخله بارادته الحرة لم يجز له الخروج منه ، فمن أراد الاسلام فليؤمن به على هذا الشرط . فإذا آمن بهذا الوصف أصبح واحدا من جماعة المسلمين ومن حق الجماعة أن تعاقب من يخونها ويتمرد عليها من أبنائها ، بعد أن التزم مختارا بشريعتها . فهذا ما يتعلق بمن دخل جديدا في الاسلام ثم أراد الخروج منه .

وأما المسلمون القدماء فلا وجه للاعتراض على عقوبة المرتد منهم ولم تحدث في تاريخ أى بلد اسلامى ردة تكون إشكالا ، فان ارتداد المسلم إلى النصرانية أمر في غاية الندرة بل الشذوذ ، والمجتمع الاسلامى عموما لا يقبله ولا يسكت عليه لو حدث وان لم يكن هناك تشريع بعقوبة المرتد .

فالأولى منع هذا بالتشريع المحكم بدل أن يترك لعواطف العامة ومشاعر الجماهير التى لا أساس لها ولاقيود تضبطها . على أن هذه الحالات الشاذة ليست هى المقصودة بالتشريع المذكور (عقوبة المرتد) أولا وبالذات انما المقصود الأول هو من يرتد عن الاسلام الى غير دين بل يعتنق مذاهب مادية لاتؤمن بالله ولابرسالاته ، لا بمحمد ولا بالمسيح وتريد هدم الأديان كلها كالشيوعية التى تزعم أن الدين أفيون الشعوب ، وتعمل على اقتلاع المجتمعات الدينية قاطبة لحساب الالحاد العالمى الأحمر ولا أحسب المسيحيين في أى بلد يشجعون هذا اللون من الردة لأنه خطر علينا وعليهم جميعا ولهذا يتنادى المؤمنون بالدين في العالم كله بالتعاطف والتكاتف لصده والوقوف في وجهه .

اذن لاداعى لهذه الضجة ولامبرر لها ، ولاثمرة لمثل هذا الموقف الا الاستفزاز واثارة الحزازات .

الحكم العلمانى والعصبية الدينية

« أما القول بأن الحكم العلمانى لامجال فيه لطائفية ولاعصبية دينية مما يفهم أن الحكم الاسلامى يثير التفرقة الطائفية والتعصب الدينى ، فكلا الأمرين غير صحيح .

فقد يوجد الحكم العلمانى وتوجد معه التفرقة الطائفية والعصبية الدينية . وهذا لبنان بلد علمانى الحكم ، ولاتزال الطائفية فيه على أشدها ، ولايزال المسلمون والدروز يشكون من سوء نصيبهم في مناصب الدولة ومغانم الحكم ، حتى انتهى الوضع الى الحرب الأهلية الأخيرة التى جرت الخراب على الجميع ، والتى يأسف لها كل ذى دين وكل ذى عقل .

وفى بـريـطـانـيـا مظـاهـرات الـكـاثـولـيك واحتجاجاتهم المتكررة في ايرلندا وقد تحولت في السنوات الأخيرة إلى ثورة دامية .

وفى الهند تقوم المذابح الرهيبة بين حين وآخر ، يذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين ، الذين يكونون أقلية ضخمة تزيد على ثمانين مليونا مع أن الحزب الذى يحكمها الآن هو حزب « المؤتمر » المعروف بعلمانيته .. كما تقوم المذابح بين السيخ والهندوس من فترة لآخرى .. وقد ذهبت ضحية ذلك رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندى .

وفى البلاد الشيوعية التى يقوم حكمها على الالحاد وعدم الاعتراف بأى دين يعامل المسلمون خاصة معاملة شاذة مصدرها بقايا الحقد القديم من أيام بطرس ودولة الخلافة العثمانية (٧) .

وبهذا ـ وأمثاله كثير ـ تسقط الدعوى القائلة بأن الحكم العلمانى لا يدع مجالا للتفرقة الطائفية ولا للعصبية الدينية .

الحكم الاسلامى والتعصب الدينى

« بقى ما يلمح به فريق ، ويصرح به آخرون ، من اتهام الحكم الاسلامى بالتعصب الدينى ، والحيف على الفئات الأخرى ، التى تعيش في ظل دولته وفي كنف سلطانه .

وهو اتهام ظالم : ليس له أساس من شريعة الاسلام ولامن تاريخه .

العدل والتسامح

أما شريعة الاسلام فحسبنا قول الله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٨) .

والخلط يقع دائماً بين الصنفين المذكورين : الذين نهى الله عن توليهم لأنهم عادوا المسلمين وآذوهم وأعانوا عليهم ، والذين رغب الله في برهم والاقساط إليهم لأنه يحب المقسطين .

وإذا كانت هاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين ، كما هو مبين في أسباب نزول السورة ـ الممتحنة ـ فان لأهل الكتاب منزلة خاصة في اعتبار الاسلام ، فقد أباح القرآن مؤاكلتهم ومصاهرتهم . أي اعتبر ذبيحتهم حلالاً . كذبيحة المسلم على حين حرم ذبيحة الملحد والوثنى ، وأجاز للمسلم أن يتزوج كتابية عفيفة كما قررت ذلك سورة المائدة . ومعنى هذا أنه أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده كتابية ، وأن يكون اصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم وأجدادهم وجداتهم من أهل الكتاب . وهذا ذروة التسامح .

أطلق الاسلام على اليهود والنصارى الذين يعيشون في كنف دولته اسمين يوحيان بمعان كريمة سامية :

الأول : اسم « أهل الكتاب » اشارة إلى أنهم في الأصل أصحاب كتاب سماوي وهذه التسمية لسائر اليهود والنصارى وإن لم يعيشوا في دار الاسلام .

والثاني : إسم « أهل الذمة » ايماء بأن لهم ذمة الله وذمة رسوله : أي عهد الله وعهد رسوله ألا يؤذوا ولا تهدر حقوقهم أوتخدش حرماتهم ، وهذا الاسم خاص بالذين يعيشون في ظل سلطان الاسلام .

وفي الحديث الشريف « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وأن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » (٩) والمعاهد يشمل من له عهد مؤقت بأمان ونحوه وهو المستأمن ومن له عهد مؤبد وهو الذي عهده أوثق وأوكد ، وهو الذمي .

وفي حديث آخر : « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (١٠) وقد كتبت بحثاً مستقلاً وضحت فيه حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي وضمانات الوفاء بهذه الحقوق وما عليهم من واجبات بازاء هذه الحقوق ، فليرجع اليه .(١١)

يوسف القرضاوى

بقية الدراسة في العدد القادم

هوامش

١ من رسالة « دستورنا » للاستاذ حسن الهضيبي المرشد العام السابق للاخوان المسلمين .

٢ يونس / ٩٩

٣ البقرة / ٢٥٦

٤أنظر المغنى لابن قدامه جـ٩ ص ٣٥٥ ، ٣٣٦ طمطبعة العاصمة شارع الفلكي بالقاهرة ..

٥ ويرى أبو حنيفة أن عقوبة الذمى والذمية في الزنى هى الجلد أبدا لا الرجم لأنه يشترط الاسلام في توفر الاحصان الموجب للتغليظ في العقوبة . على أن في اقامة الحدود عامة على أهل الذمة كلاما وخلافا بين الفقهاء انظر المحلى لابن حزم جـ(١١) المسألة ٢١٨٣ .

٦ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى لادم متز ترجمة الدكتور أبى ريدة جـ(١) ص ٨٥ـ٨٧ .

٧ أنظر كتاب : الاسلام في وجه الزحف الأحمر للغزالى .

٨ سورة الممتحنة .

٩ رواه البخارى من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص .

١٠ رواه أبو داود .

١١ نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة تحت عنوان « غير المسلمين في المجتمع الاسلامى » كما نشرته مؤسسة الرسالة في بيروت .

خواطر تسر الخاطر

بقلم: زكريا تامر

الحيطان السعيدة

شاهدت أديباً أعرفه واقفا قبالة حائط بيت ، وكان يتكلم وحده بصوت خافت ، فدنوت منه متعجبا ، وسألته بفضول : « مع من تحكى ؟ » .
فأشار بسبابته الى الحائط قائلا : « مع هذا الحائط » .

قلت : « لو لم أكن واثقا بسلامة قواك العقلية لاتهمتك بالجنون » .

قال : « أن تتهمنى بالجنون خير من أن يصبح أبنائى الأيتام فى مآدب اللئام والكرام » .

فقلت له متسائلا بهزء خفي : « وماذا تقول للحائط وماذا يقول لك ؟ » .

قال : « أنا اقول له ما أشاء من أفكار وآراء دون أن أخشى أن ينقل ماقلته منقحاً الى مالكي السياط والقيود والعصي والسجون » .

فابتعدت بخطى مسرعة عن ذلك الأديب مشفقاً ومقتنعاً بأنه فريسة لنوع غريب من الجنون الخطر . ولكني عندما نمت الليل شاهدت فى أثناء نومى العرب من المحيط الى الخليج يكلمون الجدران بأصوات خفيضة ، ولم أشاهد مواطنا يخاطب مواطنا . وما أن أفقت من نومي صباحا حتى بادرت الى ارتداء ثيابى ، وهرعت الى المقهى الذى اعتدت التردد اليه ، وهناك جلست مع ثلاثة من أصدقائى ، ورويت لهم منامي ، وطلبت منهم تأويلاً له .

قال الصديق الأول : « هذا نذير بأن البلاهة السائدة الآن ليست سوى مقدمة لجنون آت لاريب » .

قال الصديق الثاني : « مارأيته يفضح تأثرك بآراء مظلمة لاتؤمن بأن الانسان أثمن رأس مال » .

قال الصديق الثالث : « منامك باختصار هو تعبير عن حنين خفي الى أن تصبح بورجوازيا صغيرا » .

ففكرت مليا فيما قاله أصدقائى الثلاثة ، فرأيت أن تفسيراتهم لاتقنع دجاجة غبية ، فقصدت أبا معشر الفلكى ، ونبأته بما رأيته في نومى ، فابتسم ، وقال لي : « منامك سهل التفسير . أنت تتمنى أن تتحول من مواطن عربى الى حائط ، وستفوز بأمنيتك فى يوم ليس بالبعيد ، فتأهب لاستقباله » .

فتخيلت فوراً أني قد صرت حائطا لايجوع ولايمرض ولايحزن ولايتألم ولايرتعد ذعرا كلما كتب كلمات للنشر ، فطغى علي فرح عظيم لم أعرف له مثيلاً من قبل ، وانتظرت بلهفة مقدم ذلك اليوم المنشود ، ولم يطل انتظارى ، وتحولت الى حائط سعيد ، ولكن أحدهم جاء : وألصق بي صورة كبيرة لراقصات سياسيات ، فلم أجرؤ على التذمر أو الاحتجاج خوفا من المعول

لاتحكوا ولاتمشوا

حكيم قديم ، مجهول الاسم والجنسية ، قال ما يلي :
للكلام ست فوائد موثوق بها ، وهى التالية :
أولا : الكلام رياضة تمرن اللسان بوصفه عضلة اذا لم تستخدم باستمرار ضمرت وهزلت وأصبحت مهددة بالاضمحلال .

ثانيا : الكلام من غير أفعال يبدد مافي القلوب من عواصف وأعاصير ، فيسعد الحاكم والمحكوم .

ثالثا : من يتكلم يبرهن على أنه ذو صوت ، والأصوات فى البلدان الديمقراطية لها أهمية وقيمة وثمن .

رابعا : الانسان هو الذى يتكلم بينما الحيوان لايتكلم . ومن المثير التمتع بمزايا هذا الفارق ولاسيما أنه بات فى العصر الحديث يحتاج الى أدلة لاثباته .

خامسا : كان المدعو ديكارت يقول : أنا أفكر اذن أنا موجود ، أما الذي يتكلم فهو يقول : أنا أتكلم اذن أنا موجود ، وينام مغتبطا بأنه موجود وجوداً يوافق عليه الفلاسفة ، وينجو من شكوكهم .

سادسا : الميت هو الفاقد القدرة على الكلام بينما الحي هو الذي يتكلم ، والحي خير من الميت .

وقال حكيم معاصر لتلاميذه معلقا على الفوائد الست للكلام : « تكلموا ليل نهار ، أما الفعل فاجتنبوه ، فلا فوائد له ، ويجلب الضرر فقط ، فهو ذاك الذي يمتلك القدرة على أن يبدل ويغير ، فاذا كنتم من أنصار الفعل ومن خصوم الكلام هلكتم أوهلك ظالمكم ، فاختاروا ما ترغبون فيه » .

فأطاع تلاميذه ، وفكروا محاولين اختيار إما الفعل وإما الكلام وإما الفعل والكلام معاً ، فلم يتمكنوا من اتخاذ قرار ، وماتوا من دون أن يتكلموا أو يفعلوا .

هل الكتابة جليس سوء ؟

الكاتب : « سأكتب نقداً لسياسة راجيف غاندي » .
الرقيب : « أأنت من المناوئين لكتلة عدم الانحياز » ؟ .
الكاتب : « سأندد بسياسة ريغان وغورباتشوف » .
الرقيب : « قد يفسر ماستكتبه تفسيرا يسئ الى الصداقة بين الشعوب » .
الكاتب : « سأكتب عن مواطنين تزهق أرواحهم في السجون » .
الرقيب : « أتريد الكتابة عن الأوضاع الداخلية في السلفادور؟ السلفادور بعيدة جداً عن البلاد العربية . اكتب عن همومنا » .
الكاتب : « سأستنكر أحوال الثوار الفلسطينيين » .
الرقيب : « من تدخل فيما لايعنيه سمع ما لا يرضيه » .
الكاتب : « سأكتب عن الأسباب التي أدت الى ضياع فلسطين » .
الرقيب : « اكتب عن ضياع الأندلس » .
الكاتب : « سأكتب عن الحب العذري » .
الرقيب : اكتب عن حب الشعوب

الكاتب : « سأكتب عن الصوفية » .
الرقيب : « اكتب عن القطن ثروتنا القومية » .
الكاتب : « سأكتب عن الطيور » .
الرقيب : « اكتب عن الأسماك والقطط » .
الكاتب : « سأكتب عن الجبال » .
الرقيب : « اكتب عن الوديان » .
الكاتب : « سأنتقد نجوى فؤاد » .
الرقيب : « انتقد محرم فؤاد » .
الكاتب : « سأكتب ممجداً الحرية » .
الرقيب : « هذا موضوع غير لائق وطنيا اذ يضلل الناس فكريا وسياسيا ، ويحضهم على الاهتمام بقضايا هامشية غير مصيرية » .
الكاتب : « سأبكي » .
الرقيب : « لاتبك . البكاء تخاذل يسر أعداء أمتنا العربية » .
الكاتب : « سأضحك » .
الرقيب : « لاتضحك . الضحك في المرحلة الراهنة هو شماتة وسخرية من آلام الشعب العربي » .
الكاتب : « سأموت » .
الرقيب : « مت في ساحات الوغى وأنت تردد الأناشيد الحماسية » .
الكاتب : « سأكتب محاولا الوصول الى جواب عن السؤال التالي : من أنا ؟ » .
الرقيب : « لا تتعب وترهق نفسك بلا مبرر . أنت كاتب يكفل له القانون حرية التعبير عن أفكاره » .

الوطن خاو

أصبت برضوض في يدي اليمنى التي تعودت امساك القلم والكتابة . كما أصيبت عيناي بالتهاب حاد حرمني متعة الحملقة الى أبناء آدم ، فاحترت وأحسست أني أرمني في تركيا في عهد السلطان عبد الحميد . فاذا لم أكتب لم آكل .

وقد فكرت مطولاً باحثاً عن حل ما ، ولما لمحت قلمي ابتسمت بحبور ، وقلت له بلهجة تهديد ووعيد : « من لايشتغل لايأكل » .

قال القلم : « مساكين قراؤك . ابتعد عن الرموز والأحاجي والألغاز ، وقل ما تريد بلا مراوغة » .

قلت للقلم : « ما أريد قوله هو أنك اذا لم تشتغل فستنفد نقودي القليلة وأجوع وتجوع ، ولايبقى لدي ما يكفي لاشباعك أردأ نوع من أنواع الحبر » .

قال القلم : « أنا مستعد للقيام بأي عمل شريف ، وسترى نشاطا يدهشك وينتزع اعجابك » .

قلت : « اذهب وعش مع الناس واكتب عن آلامهم » .

قال القلم : « ما تطلبه ليس بالأمر العسير ، وسأنفذه فورا » .

وغاب القلم من الصباح الى المساء ، ثم عاد ، وقدم الي بعض الأوراق قائلاً لي باعتداد : « اقرأ ماكتبته ، وستفخر بي حتما » .

قلت : « وما الذى تشتمل عليه هذه الأوراق ؟ » .

قال القلم : « مقابلات مثيرة مع شخصيات خطيرة » .

فأمسكت الأوراق ، وشرعت في قراءة التالي :

تجولت في العديد من الشوارع العربية ، وكان النسيم يهب عليلاً لحظة التقيت دجاجة لايفارق منقارها التراب ، فسألتها : « عما تبحثين ؟ » .

الدجاجة : « أحفر خندقا » .
القلم : « ولماذا تحتاجين الى الخندق ؟ » .
الدجاجة : « لأدفن فيه الكيان العنصري الصهيوني الدخيل ، وليكون مقبرة للغزاة كافة » .
القلم : « مارأيك في الأوضاع العربية الحالية ولاسيما الفكرية ؟ » .
الدجاجة : « وضاءة » .
القلم : « والمستقبل ؟ » .
الدجاجة : « جليل ساطع » .
القلم : « هل لديك شكوى ما ؟ » .
الدجاجة : « شكواى الوحيدة منحصرة في السؤال الآتي : لماذا أبيض وحدي ؟ » . فتركت الدجاجة لتستأنف عملها ، ثم قابلت حماراً ينهق بنزق .
القلم : « لماذا تنهق ؟ » .
الحمار : « اعجاباً بالشعر الحديث والقصة الحديثة والمسرح الحديث والنقد الحديث » .
القلم : « ماهي مطالبك ؟ » .
الحمار : « لا مطلب لي سوى أن تسود المساواة قليلاً ، فهناك أدباء أقل موهبة وأصالة مني ، ومع ذلك فهم ناجحون ماديا ومعنويا بينما يقال عني بهزء إني حمار » . فابتعدت عن الحمار مسرعا لأشاهد بعد قليل غراباً جاثماً على غصن شجرة بلا حراك .
القلم : « لماذا لاتعمل وتشارك في تنمية المجتمع وتطوير الوطن ؟ » .
الغراب : « ومن ذا الذي كذب وقال لك إني لا أعمل ؟ » .
القلم : « هل أصدق كلامك وأكذب عيني ؟ » .
الغراب : « أنا أفكر . أليس التفكير عملا ؟ » .
القلم : « وفي أي موضوع خطير تفكر ؟ » .
الغراب : « أفكر في ايجاد وسيلة ما تخلصني من لوني الأسود الذي لا أستحقه ، فلماذا يظل غيري أبيض مع أن ما يفعله يوميا يؤهله لأن يصبح أسود الوجه والدم ؟ » .

توقفت عن قراءة ما كتبه القلم ، وقذفت بالأوراق الى الأرض بحركة مفعمة بالاحتقار ، وصحت قائلا للقلم بغضب : « ما هذا الهراء ؟ أنا طلبت منك أن تكتب عن الناس وآلامهم ، فاذا أنت قد كتبت عن دجاجة وحمار وغراب » .

قال القلم : « هل تريد مني أن أكذب ؟ الشوارع كانت خاوية . وعندما سألت عن الناس قيل لي إن بعضهم قتيل وبعضهم متوار عن الأنظار وبعضهم يبيع ويشتري ولاوقت لديه لاجراء المقابلات ، فلماذا غضبت ؟ » .

فلم أنطق بكلمة واحدة ، وكان سكوتي شبيها بالاعتراف بغباوتي ونسياني المخجل لكثير من الحقائق المتباهية بعروبتها الأصيلة .

رحيل الى عالم القرود

لكل سنة في عالم القرود أزياؤها الفنية والفكرية والسياسية ، وقد انتشر طوال أعوام تمثال لثلاثة قرود بأوضاع مختلفة غير متشابهة .

القرد الأول يضع يديه على عينيه : لايرى ولن يرى ولايريد أن يرى .

القرد الثاني يضع يديه على أذنيه : لايسمع ولن يسمع ولايرغب في أن يسمع .

أما القرد الثالث فهو يضع يديه على فمه : لن يتكلم ، ولسانه مجرد أداة لمزج الطعام باللعاب حتى يسهل ابتلاعه .

وكانت هذه القرود الثلاثة تطمح الى تقديم حكمة مفادها أن القرد الذي يعيش في عالم القرود اذا أراد أن تكون حياته آمنة سعيدة ، فينبغي له ألا يبصر وألا يسمع وألا يتكلم . أما اذا خالف هذه الحكمة وتجاهلها فان عالم القرود سينبذه ويعامله المعاملة التي لاتليق بقرد محترم .

وفيما بعد من السنين ، شاع تمثال مشابه ، ولكن قروده الثلاثة كانت أوضاعها مختلفة عن الأوضاع السابقة .

القرد الأول يضع على عينيه منظاراً ضخم الحجم : سيبصر كل شيء ، ولن يعتمد على عينيه فقط لنيل غايته .

القرد الثاني يلصق بفمه بوقاً كبيراً : سيتكلم صارخاً بأقوى صوت .

القرد الثالث ذو أذنين تشبهان أشرعة سفينة ، وهما مصممتان على سماع همس النمل .

وقد وجه مفكرو عالم القرود نقداً قاسياً مراً الى هذين النوعين من تماثيل القرود ، فالنوع الأول ذو مساوئ جمة . فالقرد الذي لايرى سيتكلم ويسمع ، والقرد الذي لايتكلم سيرى ويسمع ، والقرد الذي لايسمع سيتكلم ويرى .

أما مساوئ النوع الثاني من تماثيل القرود ، فهي تتلخص في أنه لايوجد في عالم القرود ماهو جدير بالمشاهدة والسماع والتكلم عنه .

ولذا فان مهمة صانعي التماثيل في عالم القرود هي درس الواقع بعمق ونزاهة واخلاص ، وتصميم تمثال جديد يتلاءم مع حقائق ذلك الواقع .

ومن المتوقع أن يكون التمثال الجديد على النحو التالي :

لن يكون التمثال لثلاثة قرود بل سيكون تمثالاً لقرد واحد .

واذا كان لكل قرد من القرود الثلاثة في التماثيل القديمة يدان ، فالقرد الواحد في التمثال الجديد لن تكون له يدان بل ستكون له ست أيد ، يدان على العينين ، ويدان على الأذنين ، ويدان على الفم ، فالمطلوب في عالم القرود الغاء البصر والسمع والصوت في آن واحد .

وكل مايريده عالم القرود المعاصر يظفر به .

الإسلام يدعو إلى استقلال القضاء

بقلم : عبدالقادر بن محمد العماري

لا يوجد دين احتفى بالعدل وأشاد به وأقام ميزانه كدين الاسلام ، فقد أكد القرآن في آيات عديدة منه على وجوب الالتزام بالعدل ، والاتصاف به وإقامته بين الناس ، ومدح القائمين بالعدل وأشاد بهم ، وذم أهل الظلم والبغي والانحراف ، لأن العدل هو أساس الحياة الآمنة المستقرة للعباد ، فهو هدف كل الأديان وكل الرسالات وكل الحكماء وكل الفلاسفة وكل العقلاء .

وقد طالب الاسلا م اتباعه أن يكونوا رواداً في العدل ونصراء للمظلومين . (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) النساء /١٣٥ (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) المائدة/٨ (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) النساء ٥٨ (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتائ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) النحل/٩٠ (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) الشورى/١٥ (سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) المائدة/٤٢ (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ص/٢٦ (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين) الحجرات /٩ (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) الانعام/١٥٢ .

أول منشور قضائي

والرسول عليه السلام حث على العدل ، وبين مقامه عند الله وندد بالظلم والظالمين في أكثر من حديث نبوي فمن ذلك قوله (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وماولوا) رواه مسلم والنسائي . وقوله (اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي . وقوله (إن الله يملي للظالم فاذا أخذه لم يفلته وقرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وغير ذلك من الاحاديث الكثيرة ، على ضوء تلك الآيات القرآنية وغيرها وتلك الاحاديث النبويةوغيرها واقتداء بسلوكه عليه الصلاة والسلام في قضائه وحكمه قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوضع أسس للقضاء في الاسلام لتكون دليلا ومرشداً للقضاة في عملهم لأن السلطة القضائية أهم مجال للعدل بين الناس،فمما جاء في هذا الشأن كتابه إلى قاضيه بالبصرة أبي موسى الأشعري . ونستطيع أن نصف هذا الكتاب بأنه أول منشور قضائي في الاسلام يبين بوضوح واجبات القاضي في عمله . وقد جعل الامام ابن القيم كتاب عمر هذا موضوعاً للكتاب الذي ألفه والمسمى « أعلام الموقعين » والذي شرح فيه كتاب عمر بالتفصيل ، ونص كتاب عمر هو:

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس سلام عليك . أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي اليك ، وانفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآسي بين الناس في وجهك ، وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيت به بالامس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق .

فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم أعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها . وأعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن أدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه . فان أحضر بينة أخذت له بحقه . والا وجهت القضاء عليه فان ذلك أبلغ للعذر وأجلى للغمة .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور . أو ظنيناً (متهما) في ولاء أو نسب فان الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرء بالبينات والايمان . وإياكم والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فان الحق في مواطن الحق يعظم الأجر ويحسن به الذكر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته ـ والسلام) .

فالقضاء فريضة فرضها الله من أجل حفظ التوازن بين الأفراد ، فلا يطغى كبير على صغير ، ولا قوي على ضعيف ، ولا يتصارع الناس بعضهم بعضا فتعم الفوضى في المجتمع ، ويقوض الأمن والاستقرار ، وقد عرفت المجتمعات من قديم نظام القضاء ، ولذلك قال عمر إنه سنة متبعة .

ضرورة فهم القضية

ويشير خطاب عمر إلى أمر مهم في واجبات القاضي وهو أنه يتحتم عليه أن يتفهم القضية المطروحة أمامه ، ويلم بها من جميع وجوهها حتى يكون عنها رأياً صحيحاً ، فاذا ألم بعناصر القضية بالنسبة للوقائع ، وبالنسبة للقانون الواجب تطبيقه عليها أمكنه أن يكون الرأي الصحيح ، وبمقتضاه يصدر الحكم المطابق للأدلة المقدمة فيكون حكمه مطابقاً للحق الملزم باتباعه في كل تصرفاته ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان القاضي متعمقاً في العلم ، ويتمتع بقوة في الادراك والفهم ، والعلم بمفرده لا يكفي ، كما أن الذكاء بمفرده لا يكفي .

جاء رجل إلى أياس وكان قاضياً مشهوراً بالعلم ويضرب به المثل في الذكاء ، فقال له علمني القضاء ، فرد عليه اياس أن القضاء لا يعلم ، إنما القضاء فهم ، ولكن قل علمني العلم ، ولذلك قال تعالى عن داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فخص سليمان بفهم القضية . ويقول عمر بن العزيز (خمس من الخصال إذا أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة (أن يكون فهماً حليماً عفيفاً صليباً عالماً سؤلاً) . والحلم والأناة من مستلزمات القضاء الصحيح المطابق للحق ، والغضب في حالة الحكم يؤدي إلى اختلال النظر الصحيح إلى الأمور ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا يقضين حكم بين إثنين وهو غضبان) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجة وأبو داود والنسائي . وقد أجمع العلماء أن هذا الحكم يشمل جميع المؤثرات من جوع وعطش ومرض وغير ذلك مما يخل بالتوازن العقلي .

والتثبت في الحكم يقتضي عدم الاصغاء لأحد طرفي القضية دون الآخر ، فليس للقاضي أن يعتمد على كلام أحدالخصمين من غير أن يمكن الآخر من دفاعه عن نفسه . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن قاضياً (فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول) وقال علي رضي الله عنه (إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقضين له فلعل الآخر قد فقئت عيناه) . وجاءت امرأة إلى القاضي شريح تشكو زوجها وهو غائب وتبكي بكاء شديداً ، فقال له أحد جلسائه أصلحك الله ما أراها إلا مظلومه ، فقال له شريح وما أعلمك أنها مظلومة فقال إنها تبكي ، فقال له شريح : فان أخوة يوسف جاؤا أباهم عشاء يبكون وهم له ظالمون . ومن الانحراف عن الحق أن ينحاز القاضي لأحد الخصمين لمجرد أنه فقير وأن الخصم الآخر غني ، والواجب أن ينظر القاضي إلى الأدلة ، وموضوع القضية ، ولا يتأثر بأمر عاطفي . فقد يلجأ غني أو كبير إلى القضاء فيكون هناك قاض تأخذه العاطفة نحو الفقير ، أو ليقال أنه جرئ وعادل ، وكذلك من الانحراف أن يسعى القاضي لارضاء الجمهور على حساب العدالة ، فيحكم بالظلم ، فهذا النوع يستوي مع من حكم بالظلم للطرف الأقوى ، أو حكم بالرشوة ، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه القضية ، وأوجب التقيد بالعدل في قوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) .

ويجب أن يكون القاضي مستقلاً في قضائه ، ولا يخشى أحداً إلا الله (فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون) المائدة/ ٤٤ .

ومواقف القضاة في التاريخ الاسلامي وعدم تأثرهم بنفوذ السلطة التنفيذية قد بلغ مبلغاً لا تصل أليه أنظمة القضاء الحديثة ، وقد كان الخلفاء والأمراء يخضعون للقضاء ولا يعترضون على أحكامه ، وإذا حاول أحد التدخل والاعتراض فيوقف عند حده ، وهذه نماذج من مواقف القضاء الاسلامي .

نماذج من القضاء الاسلامي

● ـ تخاصم عمر بن الخطاب وهو في الخلافة مع أبي بن كعب على حائط (بستان) ، فترافعا إلى زيد بن ثابت ، فادعى أبي بأن الحائط له وأن عمر لاحق له فيه ، ولما لم تكن بينةمع أبي ، طلب من عمر أن يحلف أنه لا حق له في الحائط ، فوجه زيد بن ثابت اليمين على عمر فحلف عمر أن الحائط ملكه ، وأنه لا حق لأبي بن كعب فيه فاستحق عمر الحائط بيمينه ، وقبل أبي هذا الحكم واقتنع أنه لا حق له في الحائط بعد أن حلف عمر اليمين ، وهذه الواقعة هي التي قيل فيها المثل المشهور (في بيته يؤتى الحكم) إذ عندما جاء عمر ومعه أبي بن كعب إلى بيت زيد بن ثابت قال زيد : هلا أرسلت إلي يا أمير المؤمنين لآتيك فقال عمر (في بيته يؤتى الحكم) . كما أنه عندما أخرج زيد وسادة ليجلس عليها عمر قال عمر : هذا أول الجور ليلفت نظر زيد إلى أنه لا يجوز أن يميزه في المجلس على خصمه ، وما يجدر ذكره هنا أن هذه القضية أثارت جدلاً بين الفقهاء حول مسألة فقهية وهي هل يجوز الحكم بالنكول في حالة امتناع المدعى عليه عن اليمين ؟ أو لابد من اليمين ليحكم القاضي للمدعي ، وهذه المسألة فيها خلاف بين فقهاء المذاهب مبين في كتاب المحلىلابن حزم جـ ١٠

● ـ أمر القاضي نصر بن ظريف اليحصبي بتسجيل ضيعة تحت يد حبيب القرشي لكونه قيماً عليها وليست ملكه ، وكان حبيب يريد اغتصابها وادخالها في ملكه ، فشكى حبيب إلى الأمير عبدالرحمن بن معاوية فطلب الأمير من القاضي أن يتريث في الحكم ولا يستعجل ، فاحتج القاضي على تدخل الأمير ، وأصدر حكمه في الحال ونفذه ، فغضب الأمير وقال للقاضي ما الذي أقدمك على الحكم وقد أمرتك بالتأخير ؟ فقال القاضي : أقدمني عليه رسول الله فانما بعثه الله بالحق ليقضي به على القريب والبعيد ، والشريف والدنيّ ، وأنت أيها الأمير ما الذي حملك أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض وأنت تستطيع بأن ترضي من مالك ؟ فما وسع الأمير إلا أن يتراجع أمام صلابة القاضي بل ويشيد بالقاضي وبموقفه .

● ـ اشتكى إلى قاضي قرطبة المصعب بن عمران أيتام ، بأن لوالدهم ضيعة اغتصبها العباس بن عبد الملك المرواني ، فدعى القاضي العباس ليجيب على الدعوة ، فلم يحضر فسمع الشهود في غيابه وأعلمه بأن يقدم دفاعه وطعنه فيما تقدم به المدعون ، وأعطاه مهلة لذلك ، ولما انتهت المهلة أعلمه أنه سيصدر عليه الحكم ، فهرع العباس إلى الأمير وطلب منه أن ينقل القضية إليه لينظر فيها ، وأن يمنع القاضي عن الحكم فيها ، فأرسل الأمير إلى القاضي ليحيل إليه القضية ، ولكن القاضي رد على الأمير أن القوم قد أثبتوا حقهم ولزمهم في ذلك عناء طويل وتصب شديد لبعد مكانهم وضعف حالتهم ، فلست أتخلى عن النظر وانفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير ما يراه صواباً بعد ذلك من رأيه ، فأرسل الأمير إلى القاضي مرة أخرى بعد أن أغراه العباس وقال له : إن القاضي يستخف بك

الإســـلام
يدعـو إلى اســتقلال القضــاء

وبأمرك . ولما حضر رسول الأمير أمره القاضي بالجلوس ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ثم قال للرسول قد حكمت بالعدل فلينقضه الأمير إن قدر . ولما بلغ الأمير ذلك استشاط غيظاً ولكنه أطرق ملياً ، ثم أقر حكم القاضي .

● — وكانت للقضاء هيبته وحرمته حتى في وقت تكون فيه الأوضاع السياسية غير سليمة ، فأبو جعفر المنصور على جبروته وقوته لا يتدخل في شؤون القضاء ، بل يخضع لأحكامه فقد تحاكم مع زوجته الحميرية عند غوث بن سليمان بعد أن طلبت هي ذلك فقدمت الحميرية كتاباً بصداقها وشروطها على أبي جعفر فتسلم غوث الكتاب من الوكيل وقرأه على أبي جعفر ، ثم قال لأبي جعفر أتقر بذلك . فاعترف أبو جعفر بما في الكتاب فقال غوث إن في الكتاب شروطاً وسأله فهل عندما خطبت إليهم ولم تقبل هذه الشروط أكانوا يزوجونك ؟ فقال لا . فقال غوث فبهذا الشرط تم النكاح وأنت أحق من وفى لها بشرطها . فقال أبو جعفر لغوث علمت إذا اجلستني هذا المجلس أنك ستحكم علي .

● — جاءت أمرأة إلى شريك قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم . فقالت أنا بالله ثم بالقاضي قال لها من ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين . كان لي بستان على الفرات فيه نخل ورثته عن أبي وقاسمت اخوتي وبنيت بيني وبينهم حائطاً ،فاشترى الأمير من اخوتي وساومني في نصيبي فلم أبعه . فلما جاءت هذه الليلة بعث بخمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط . فإصبحت لا أعرف من نخلي شيئا . فأرسل القاضي في طلب الأمير للحضور ليجيب على الدعوى . وعندما وصل رسول القاضي إلى الأمير أرسل الأمير إلى صاحب الشرطة . وقال له امض إلى شريك وقل له ما أعجب أمرك أمرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها علي . فقال صاحب الشرطة إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك . فقال امض ويلك فخرج صاحب الشرطة وجاء إلى شريك وقال له ما أمره به الأمير . فما كان من شريك إلا أن سجن صاحب الشرطة ومن معه من رجاله لأنهم تدخلوا فيما لا يعنيهم . والمفروض أن يكونوا مع المظلوم وينفذوا أمر القضاء . فركب الأمير إلى باب السجن وأطلق سراح صاحب الشرطة ورجاله . ولما علم بذلك القاضي قال لغلامه الحق بثقلي إلى بغداد . والله ما طلبنا هذا الأمر منهم . ولكن أكرهونا عليه . ولقد ضمنوا لنا فيه الاعتزاز إذا تقلدناه ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بغداد ليرفع الأمر إلى الخليفة . وعندما علم الأمير ركب وذهب خلفه وجعل يناشده الرجوع فلم ينتقل من مكانه حتى استجاب الأمير لجميع ما طلب منه . ومن ذلك أن يحضر الأمير مجلس القضاء . فحضر الأمير وجاءت المرأة فقال لها القاضي هذا خصمك فما تقولين ؟ فذكرت قصتها فاعترف الأمير — فقال القاضي : ترد ما أخذت منها وتبني حائطها سريعاً كما كانت . قال الأمير : أفعل ذلك واستجاب للأمر .

وقد دعم الخلفاء الراشدون استقلال القضاء بمواقفهم الرائدة . فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يفقد درعه يوم صفين فيجدها عند يهودي . فلم يشأ أن يأخذها بيده بقوة سلطته كأمير للمؤمنين . ولكنه لجأ إلى القضاء . والقاضي لم يقبل دعوى الامام علي إلا ببينة فطلب منه تقديم البينة ولما رأى اليهودي العدل من القاضي أقر بالدرع للأمام علي واعتنق الاسلام لأنه دين العدل .

والقاضي في الاسلام حر في قضائه . يقضي بما يمليه عليه ضميره . وطبقاً لاجتهاده المعتمد على نصوص الشريعة . ولا يجوز عزله إلا إذا جار في أحكامه متعمداً . وثبت ذلك باقراره أو بالبينة . وكذلك إذا ظهر عجزه أو عدم كفاءته . أو إذا ولى وظهر أن هناك من هو خير منه . لأن ولاية غير الكفؤ مع وجود الكفؤ تعتبر خيانة من قبل الذي ولاه لما رواه الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم رجلاً وهو يعلم أن فيهم من هو أولى بذلك وأعلم منه بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين) وقد عزل عمر بن الخطاب شرحبيل بن حسنة عن القضاء فقال له : أعن سخط عزلتني ؟ فقال عمر لا ولكن وجدت من هو مثلك في الصلاح وأقوى منك في العمل . فقال يا أمير المؤمنين إن عزلك لي عيب فأخبر الناس بعذري . ففعل عمر. وجاء في كتاب الأحكام السلطانية لابي يعلي الفراء الحنبلي (وليس للمولى أن يعزل القاضي ما دام مقيماً على الشرائط لانه بالولاية يعتبر ناظر للمسلمين على سبيل المصلحة لا عن الامام) .

وتعسف القاضي ضد الخصوم يدخل في باب الجور الذي يعزل بسببه القاضي . فقد حدث أن تظلم يتيم للقاضي في مصر يحيي بن ميمون وأتى ببينة على شكواه . فلم يستمع القاضي إليه . فأرسل اليتيم إلى القاضي أبياتاً من الشعر يدافع فيها عن ظلامته . فأمر القاضي بسجنه بسبب أبيات الشعر . فرفع الأمر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فكتب إلى عامله بمصر الوليد بن رفاعة ما يلي (اصرف يحيي عما يتولاه من القضاء مذموماً مدحوراً وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفاً ورعاً فقيهاً سليماً من العيب لا تأخذه في الحق لومة لائم) فعزله .

● لضمان سلامة القضاء حرّم الإسلام الرّشوة والهديّة على القاضي

ولخطورة منصب القاضي فقد جاء في الحديث الصحيح (القضاة ثلاثة واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار) .

ولضمان سلامة القضاء حرمت الرشوة والهدية على القاضي . فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الراشي والمرتشي والساعي بينهما . كما حرمت الرشوة والهدايا أيضاً على كل من يتولى وظيفة عامة . فقد قال عليه الصلاة والسلام(هدايا الأمراء غلول) وبعث رسول الله من الأزد على الصدقة اسمه ابن اللتبية فلما جاء قال هذا لكم وهذا أهدى إلي . فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً في المسجد وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال ما بال العامل نبعثه يجيء فيقول هذا لكم وهذا أهدي إلي . ألا جلس في بيت أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا نبعث أحداً منكم فيأخذ شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر . قال الراوي أبو حميد الساعدي فرفع يديه حتى رأيت عفرة ابطيه فقال اللهم هل بلغت ثلاثاً . متفق عليه . كما أنه ليس للقاضي أن يعمل في التجارة أو غيرها مما يؤدي إلى انشغاله عن عمله ومحاباته . والمهم من كل ذلك ألا يكون القضاء عرضة للمؤثرات . فشرع ما يحميه منها وما يحمي الخصوم من انحرافه وإذا كانت الدول الحديثة قد نصت في دساتيرها وقوانينها على استقلال القضاء وحمايته من المؤثرات بفصله عن السلطة التنفيذية والتشريعية . وجعلت هناك مجالس قضائية للنظر في كل ما يتعلق بالقضاة . وحددت مرتباتهم وحقوقهم بحيث لا يكون هناك مجال للتأثير من قبل أي جهة . فإن ذلك هو ما يدعو إليه الاسلام ليأمن الناس على حقوقهم ودمائهم وأعراضهم ومن أجل أن تعلو كلمة الحق فلا يطمسها ظالم أو صاحب نفوذ .

وقد دلت السوابق التاريخية في الاسلام أن رئيس الدولة هو الذي يقوم بتعيين القضاة . ويدعو الاسلام إلى أن يتحرر القاضي من كل شعور الخوف من أي سلطة أو جماعة أو فرد فلا يفكر أنه مدين في تعيينه أو ترقيته إلى جهة من الجهات . بل عليه أن يعتقد أنه انما حصل على هذا المركز نتيجة كفاءته وأهليته لهذا المنصب . ومن الضمانات التي أقرتها الدول الحديثة أن يقوم مجلس قضائي مكون من عدد من القضاة المتخصصين باختيار القضاة الأكفاء وتثبيتهم وترفيعهم ونقلهم . على أن تكون هذه القرارات الصادرة من المجلس حائزة على موافقة الدولة . قال الدكتور محمد عبدالقادر أبو فارس في كتابه(القضاء في الإسلام) إن هذه الطريقة هي أقرب الطرق سلامة وتحقيقاً لاستقلال القضاء . وهي أقرب الطرق إلى روح الاسلام وقواعده العامة . بل إن السوابق التاريخية في نظام القضاء الاسلامي قريبة من هذه النظرة وقد كان قاضي القضاة في عهد

العباسيين يختار القضاة ويشرف عليهم ويراقب أحوالهم وأقضيتهم ويعزلهم بعد أن ينال هو موافقة رئيس الدولة ، ومن الضمانات أيضاً في الأنظمة الحديثة لا يعزل القاضي ولا ينقل ولا يحال إلى التقاعد إلا إذا كان هناك أسباب موجبة لذلك ، وأن يتولى العزل وغيره جهة قضائية مختصة بعيدة عن السلطة التشريعية والتنفيذية ، ومن ضمانات استقلال القضاءأن القاضي غير مسؤول عن الأحكام الصادرة عنه ، لا مسئولية جزائية ولا مدنية إلا إذا تبين أنه كان متعمداً الإساءة في حكمه إلى أحد من الناس فلا يعاقب القاضي على خطئه في الحكم وكل ما هنالك أن تقوم الجهة العليا المختصة بنقض الحكم .

ونحن نأسف أن نرى العدالة في بلاد المسلمين منقوصة ، فقل أن تجد قضاء مستقلاً لا تأثير ولا سلطان لأحد عليه ، بينما نرى في الدول الغربية أن كل من تعرض لهضيمة من جانب كبير أو صغير أو حكومة أو مصلحة حكومية أو غيرها ، يلجأ إلى القضاء لينال حقه الذي أقرته له القوانين السائدة كاملاً غير منقوص فهنالك القضاء الاداري وهناك القضاء المدني والقضاء الجنائي فلا يصدر أمر أو قرار أو تصرف من أي جهة كانت حكومية أو غير حكومية إلا وهو عرضة للتظلم أمام القضاء .

ونحن المسلمين الذين كان تاريخنا ناصعاً في القضاء ، لا نرى منه الآن شيئاً فلا نحن مع الاسلام ولا نحن مع الحضارة الحديثة ، فان مما سجله التاريخ للمسلمين أن قاضيهم حكم بسحب الجيش الاسلامي من سمرقند بعد أن اشتكى أهل سمرقند أنهم أخذوا على غرة ، ولم ينبذ إليهم كما تقضي بذلك الحرب في الاسلام أي أنهم لم يعلنوا بالحرب ، وذلك مخالف لما جاء في القرآن الكريم . فأحال الخليفة قضيتهم إلى القاضي الذي حكم بأن ينسحب جيش المسلمين من المدينة ويعطيهم الفرصة للاستعداد للحرب ، والتفكير في شروط الاستسلام ، إلا أنهم بعد أن حكم القاضي بصحة دعواهم وسحب جيش المسلمين وعرفوا عدالة الاسلام قبلوا الدخول في الاسلام وحكم الاسلام في مدينتهم .

فلابد أن تسعى إلى الكمال ولا نقف عند نظام معين فالتطور في النظام مطلوب ولا نجمد على كل قديم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان في بداية تكوين المجتمع وهو يعتبر رئيس أول دولة اسلامية يجمع بين الولاية العامة والقضاء ثم خصص قضاة عندما اتسعت الدولة وكذلك خليفته أبو بكر ، ثم عندما اتسعت الدولة أكثر في عهد عمر فصل القضاء عن الولاية العامة وجعله مستقلاً ، فلم يجمع الخليفة بين القضاء والخلافة وقام عمر رضي الله عنه بادخال أنظمة كثيرة في الدولة فادخل نظام الديوان وهو نظام أجنبي .

وهكذا الظروف والأحوال تقتضي التطور إلى الأحسن والأنسب والأصلح،أما آن لنا أن نفعل مثل ما كان يفعل سلفنا الصالح ؟

عبدالقادر بن محمد العماري

حارس الصمت

شعر :
محمد القيسي

أنا حارسُ الصمتِ ، والنزهاتِ القصيرةِ ،
أنفقت عمريَ في اللومِ ،
كابدتُ في اليومِ ،
عاما
توزّعني مثلَ قَشِّ البيادرِ في الريحِ ، هذا الهوى
وانكسرتُ تماما

هي الوحشةُ المغربيةُ تعبَقُ فيَّ ،
ويعبَقُ بُعْدُ الندامى

ألا مَنْ يقولُ هــلا
ألا مَنْ يقولُ ســلاما

إذا جئتِ يومَ الخميسِ ، إذن ، فافرديني
قميصاً على شرفة
واطلقيني حماماً

رجاءً ، ولا تقتليني
إذا جئتِ يومَ الخميس
دعي العشبَ يقتاتُ روحي ،
وينشرني في الجهات خُزامى
ولا تقتليني تماما
دعي ساعديك ينامان مثلَ أسيرينِ ،
لا يعرفَانِ خِصَاما
إذا جئتِ يومَ الخميسِ ، دعي مقعدِنا ،
دعي البحرَ حيثُ أقاما
وحيداً ،
ولا تقتليني تماما
دعي الموجَ حتى يناما
دعي كلَّ شيء على حالهِ ،
مرمريني ملاما
إذا جئتِ يوم الخميسِ اقتليني تماما
ولا تصمتي ساعةً ،
دون أن تُشعلي الأرضَ لوزاً ،
وأن تملئيني زحاما
أنا حارسُ الصمتِ ،
كابدتُ في اليومِ عاما .



قصة حياة عادية

في هذه الحلقة يواصل الكاتب الكبير يحيى الجمل رواية « قصة حياة عادية » بعد ان قدم في الحلقات السابقة صفحات من الذكريات التي عاشها في الثلاثينيات .

بين دار الكتب والسراي والأزهر

كان الفتى في يوم الجمعة من كل أسبوع يركب الترام من شبرا إلى العتبة الخضراء ثم يبدأ السير في شارع محمد علي متجهاً نحو « باب الخلق » حيث توجد دار الكتب . وكان شارع محمد علي في تلك الأيام مليئاً بالمكتبات . بعضها يشغل أجزاء من مباني الشارع وبعضها يحتل جوانب أعمدة « البواكي » . وكان فتانا خبيراً بذلك الشارع ومكتباته إلا أنه كان يؤثر بائع كتب معينا نسي الآن اسمه وإن كان ما يزال يذكر صورته . كان شيخا يلبس جلبابا فوقه « جاكتة » لونها كالح .ظهره محني قليلاً . يعرف أسماء الأدباء والكتاب وأسماء المؤلفات حتى الكتب المترجمة يعرف أسماءها أيضاً وأسماء مؤلفيها ، إلا أنه كان ينطق ذلك كله بلهجة لا تخلو من سذاجة وغرابة .

وكان فتانا ينال من هذا الرجل خصماً يجاوز عشرة في المائة في أغلب الأحيان ، إذ كان يشتري منه كل شهر كتباً بما يقرب من جنيه كامل . وكان هذا يعني أن الفتى يشتري خمسة أو ستةكتب من مستوى كتب طه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم بهذا الجنيه . وأغلب الظن أن مكتبة صاحبنا على كثرة ما أصابها من انتقال مازالت تضم بعض الكتب التي يرجع تاريخها إلى تلك الفترة منذ أكثر من أربعين عاماً .

وبعد أن كان يراجع الكتب ويعرف أسماء المؤلفات الحديثة كان يكمل طريقه إلى دار الكتب في ميدان باب الخلق . وهناك كان يودع ما معه من أوراق وكتب في مكان قرب الباب . ثم يدخل ومعه ما يريد أن يعيده من كتب مستعارة انتهى من قراءتها ، وفي ذهنه ما يريد استعارته من كتب جديدة .

ولم يكن الفتى يستعير بطبيعةالحال إلا ما لا يقدر على شرائه ، إما لأنه غال الثمن أو لأنه من كتب التراث التي لا يسهل العثور عليها .

ويذكر الفتى أنه استعار ديوان المتنبي شرح « العكبري » وأنه قرأ أجزاءه الأربعة وأنه حفظ بعض قصائده ، وأنه كان يقرأ في الوقت نفسه « مع المتنبي » للدكتور طه حسين ، وكان يجد في تلك القراءة متعة لا تعدلها متعة أخرى .

لا يذكر الفتى أن يوماً من أيام الجمعة طوال السنة الدراسية لم يكن يشهد رحلته هذه من حيث يقيم في شبرا إلى ميدان العتبة راكباً الدرجة الثانية في الترام ثم سائراً على قدميه في شارع محمد علي إلى حيث يصل إلى ذلك المبنى العتيق الجليل ، مبنى دار الكتب بباب الخلق . وكثيراً ما كان يتوقف قبل أن يصل إلى قاعات الفهارس أو قاعات المطالعة في تلك القاعات الواسعة التي كانت تعرض فيها بعض المصاحف النادرة أو بعض المخطوطات القديمة ثم يكمل رحلته إلى حيث يعيد بعض ما إنتهى من قراءته ، ولكي يستعيد ما قد جاء قاصداً استعارته من كتب . وقد أصبحت دار الكتب بالنسبة له مكاناً مألوفاً يأنس إليه ولا يجد فيه وحشة ، ويعرف غير قليل من موظفيه وسعاته ، ويعرفه غير قليل من هؤلاء . وأظن أن الفتى كان من أصغر المترددين على الدار سناً وأكثرهم انتظاماً في إعادة ما استعار والمحافظة عليه . بدأت علاقته بالدار وهو لم يكمل الخامسة عشرة واستمرت بعد ذلك إلى ما شاء الله .

وكانت « السراي » قريبة من دار الكتب وميدان باب الخلق على يمين المتجه إلى القلعة سائراً في شارع محمد علي بعد أن ينتهي من باب الخلق . وكانت تلك « السراي » تقع من شارع محمد علي في الموقع الذي تتفرع عنده حارة يقال لها « الحبانية » .

ولا يدري الفتى إذا كانت تلك الحارة « الحبانية » مازالت بهذا الاسم أم أن تلك العادة الخبيثة التي لا تنبئ عن فهم ولا علم ولا وعي لا بحقائق التاريخ ولا بحقائق الجغرافيا ولا بمبادئ علم الاجتماع . عادة تغيير أسماء الشوارع قد نالت من تلك الحارة واسمها ما نالته من غيرها : لقد غيرنا ميدان العتبة الخضراء بعديد من الاسماء ، ولكن الناس حتى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا يعرفون لذلك الميدان اسماً آخر . وشارع محمد علي أطلقنا عليه على ما أظن اسم شارع القلعة وكأن محمد علي باني مصر الحديثة ومؤسس الدولة فيها وأحد صناع التاريخ الحديث لا يستحق أن يطلق اسمه على ذلك الشارع الذي ينتهي بالقلعة التي أقام فيها قصراً حكمت منه مصر سنين عدداً . ومع ذلك فإن المصريين لا يعرفون هذا الشارع إلا باسم « محمد علي » وهم في ذلك على حق .

كان فتانا عند ما ينتهي من زيارته الأسبوعية لدار الكتب يتجه إلى « السراي » حيث كان يسكن عدد من طلاب الأزهر لقاء قروش قليلة يدفعونها . كانت تلك « السراي » بديلاً عما يعرف في أيامنا هذه بالمساكن الجامعية . والحقيقة أن ذلك المبنى لم يكن له من مقومات السرايات شئ قط . كان عبارة عن منزل قديم من منازل شارع محمد علي المملوكة للأوقاف والتي لا تحظى بأقل قدر من العناية أو الصيانة . وكان الطلاب يعيشون فيما يشبه « العنابر » التي تمتلئ بالأسرة . وكان يعيش في تلك « السراي » إثنان من أقارب الفتى : أما أولهما فهو « أمين » الذي التقينا به كثيراً من قبل ، وأما ثانيهما فهو « محمود » . وكان محمود من قرية مجاورة . أما أمه فكانت « عمة » الفتى أو في حكم ذلك . وكان محمود مثالاً فريداً من شباب تلك الفترة في حياة المجتمع المصري .

كان كسولا كأشد ما يكون الكسل ، طيباً كأعمق ما تكون الطيبة ، سهلاً سمحاً لا يحمل في قلبه إلا المشاعر الطيبة للناس أجمعين . وكان أزهرياً في كلية الشريعة . ولم يكن بينه وبين الأزهرولابينه وبين الشريعة أي صلة نفسية . وما كان يخفي ذلك أو ينكره . وكان يبذل أقل جهد ممكن من أجل الدراسة وتحصيل المعرفة . ورغم كسله الشديد إلا أنه كان يحب المشي حباً جما حتى أنني لا أكاد اتخيل صورته إلا ماشياً .ورغم أنه من أعماق الريف ومن قرية موغلة في التخلف ــ بالنسبة لقريتنا على الأقل ــ إلا أنه كان لا يحب أن يغادر القاهرة إلى القرية . ومما يروى عنه أنه كان يتعمد أن يبقى بعض مواد الامتحان للدور الثاني حتى يجد في ذلك حجة يعود بها إلى القاهرة كأسرع ما يستطيع . كان أبوه ، رحمه الله ، يعتقد أن ابنه لا يتمتع بأي قدر من الذكاء . وكثير من الآباء لا يتصورون أبناءهم إلا أطفالاً صغاراً غير ناضجين مهما بلغوا من العمر . وكان رأي والده في ذكائه لا يرضيه بطبيعة الحال . وأراد محمود أن يظهر لوالده كيف أن أصدقاءه وزملاءه يعتبرونه « حجة » بينهم ويلجأون إليه كلما حزبهم أمر من الأمور . فاتفق مع واحد من هؤلاء الأصدقاء عرفت عنه خفة الدم وطلاقة اللسان وسرعة البديهة على أن يكون رسوله عند والده ليظهره على ما يتمتع به محمود من « عبقرية » وحظوة لدى إخوانه ولداته .

وذهب صاحبنا ذاك يزور محمود في القرية وجلس إلى والده وإخوته . وأخذ يتحدث ويفيض في الحديث ، وكيف أن الأساتذة عندما يطرحون مشكلة من المشاكل الدراسية العويصة يعجز الطلاب جميعاً عن إيجاد حلها فيتصدى لها « محمود » ، فاذا به يجد الحل الصائب السديد ، وكيف أن الزملاء إذا صادفهم في حياتهم العامة أو الخاصة مالا يقدرون على مواجهته أو التصدي له لجأوا إلى محمود ليجدوا عنده النصيحة والرأي السديد . واستمر ذلك الصديق على هذا النحو من المديح والاطراء واظهار براعة « محمود » وعبقريته



بقلم: الدكتور يحيى الجمل

وتميزه أكثر من ساعة . ووالد محمود يسمع ذلك كله وهو صامت لا ينبس ببنت شفه حتى إذا انتهى صاحبنا من حديثه وأطرق ليرى أثر كل هذا الذي قاله على والد صديقه إذ بذلك الوالد العجوز الصغير الحجم يقول كلمة واحدة لا يزيد عليها « دا غبي » ! ! ووقعت تلك الكلمة على المجلس وكأنما قد ألقت على الجالسين مزراباً من الماء الشديد البرودة ولاذ الحاضرون جميعاً بصمت عميق .

كان فتانا إذا انتهى من زيارته لدار الكتب يذهب إلى « السراي » ليلقى هذين القريبين اللذين يكبرانه سناً بفارق بعيد واللذين لا يتعاملان معه مع ذلك على أنه بالنسبة لهما فتى صغيراً وكان يحمل إليهما أحيانا بعض الرسائل من البلدة أو يستعير كتاباً من « أمين » أو يناقش معه كتاباً سبق أن قرأه . أما « محمود » فكان يلقاه هاشاً باشاً مرحباً ترحيباً شديداً على أن ذلك كله لم يكن يخرج محمود عن كسله أو يدفعه إلى الحركة . وما أكثر ما كان الفتى يذهب قرب الظهر ليجد أن محمود ما زال في سريره لم يغادره ولكن يسمعه يقول له إن الله ساقه إليه لكي يشتري له افطاراً يتناوله في وقت يكون فيه الناس يستعدون لوجبة الغداء. ولكن محمود بكل الكسل المحيط به لا يريد أن يبرح سريره طوال صبيحة يوم الجمعة ومع أنه أزهري ومع أنه طالب في كلية الشريعة إلا أنه لم يكن يكترث كثيراً لمواعيد الصلاة حتى ولو كانت صلاة الجمعة .

كان أخوه « سعيد » في كلية الحقوق ، وكانت أسبابه قد اتصلت بالاخوان المسلمين ، وكان من الشباب القريب من حسن البنا ، وكان أكثر حرصا على دينة واهتمامه به من كثيرين من الأزهريين وغير الأزهريين وما أكثر ما كان يثور الجدل بينه وبين أخيه حول بعض القضايا الدينية ويبدو أن الفتى منذ شبابه الباكر وهو أكثر ميلا إلى إعمال العقل واخضاع ما يمكن إخضاعه له . وكان أخوه أكثر ميلا إلى العاطفة والمشاعر والوجدان . وكانت مناقشاتهما حول تلك القضايا توشك أن لا تنتهي وكان الوقت المفضل لهما هو أثناء رياضة المشي بعد العشاء في شارع شبرا الذي لم يكن له صلة من حيث الازدحام وكثرة المارة بما هو عليه الآن . كانا يسيران ويذكر الفتى أنهما كانا يسيران لابسين جلبابا وفوق الجلباب « جاكتة » ولم يكن مثل ذلك اللباس آنذاك نشازاً أو غير مألوف في الطريق العام . وكان حديثهما يدور إما حول تلك القضايا العقلية وإما حول الأهل وتصرفاتهم . وكان سعيد يأخذ في الأغلب الأعم موقفا نقديا من هذه التصرفات وكان الفتى بحكم صغره أكثر ميلاً إلى الاستماع لما يقوله أخوه يوافق على بعضه ولا يوافق على بعضه الآخر ولكنه مستمع في الأغلب من الوقت وعلى أي حال فإن سعيدا لم يكن على استعداد ليعطه فرصة الكلام في كل حين .وحتى ان أعطاه تلك الفرصة فإنه لم يكن يشجعه كثيرا على أن يختلف معه في الرأي.كان سعيد يحب أن يشجعه وأن يدفعه إلى الأمام ولكن في مواجهة الأخرين فإذا تعلق الأمر به فإن علاقة الأخ الكبير بالأخ الصغير هي التي يجب أن تسود .

وكانت حركة الاخوان المسلمين تشتد عودا وتمتد في كل اتجاه وتكسب كل يوم أنصارا جددا خاصة بين الشباب المثقف . وكان أخوه قد ارتبط بتلك الحركة وأصبح من الشباب البارز في صفوفها . ويبدو أن صفاءه ونقاءه وحرصه على درس الثلاثاء من كل أسبوع قربه ذلك كله من الأستاذ حسن البنا . وكان يعود كل ثلاثاء متأخرا جدا إلى البيت ليجد أمه قد تركت له عشاءه على المائدة يتناوله وحيدا . أو قد يجد فتانا في انتظاره ليسمع منه ما جرى في اجتماع ذلك اليوم من حديث ومن مناقشات .

وسمع صاحبنا أسماء مثل سعيد رمضان ومصطفى موسى وحسان حتحوت وغير ذلك من أسماء شباب الإخوان المسلمين الذين التقى بهم بعد ذلك في قادم الأيام . وكانت صحابة أخيه ورفقاؤه الذين يترددون عليه في تلك الأيام جلهم من شباب تلك الجمعية المتحمسين لها ، المؤمنين بمبادئها المعتقد ين أن طريقها هو طريق الخلاص .

وكان الفتى يسمع ذلك لكله ويعجب به وينفعل معه ولكنه لم يفكر في الانخراط في الجمعية رغم أنه تردد أحيانا على بعض شعبها ورغم أنه لم يكن بعيدا نفسيا عما تنادى به . ولكن الفتى كان قد اتخذ طريقا آخر من طرق العمل العام .

عرف في مدرسة شبرا الثانوية « أحمد مجاهد » وأعجب به . سمعه يخطب في مظاهرة من المظاهرات بمناسبة « وعد بلفور » ذلك الوعد الذى أعطاه وزير خارجية بريطانيا للزعيم الصهيوني وايزمان يقرر له فيه أن بريطانيا ستمكن الصهاينة من أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم ، وبذلك اعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق . وخرج تلاميذ المدرسة لكي يلتقوا بتلاميذ المدارس الأخرى ويهتفون جميعا بسقوط وعد بلفور وفي ذلك الوقت لم تكن دولة اسرائيل قد قامت وان كانت الوكالة الصهيونية قد أعدت كل شيء .

أعجب الفتى بأحمد مجاهد أيما إعجاب ، ورأى فيه صورة مصغرة لمصطفى كامل الذى قرأ عنه وأحبه من بعيد ، وأحس بعمق حبه لمصر . وكانت سعادة الفتى بالغة إذ عرف أن صاحبه هذا من شيعة مصطفى كامل ، وممن ينتمون إلى الحزب السياسى الذى أسسه ذلك الزعيم ، والذي كان يعرف باسم « الحزب الوطنى » .

وكان الحزب الوطنى حزبا صغيرا من أحزاب الأقلية في مصر وكن قوامه مجموعة من الطلاب والمثقفين المتطهرين الذين لا يرضون عن الاستقلال الكامل لمصر والسودان ووحدتها بديلا.ورغم أن مصر والسودان كانتا محتلتين بالقوات البريطانية فإن الحزب الوطنى كان يرفض مبدأ المفاوضة مع المحتل وينادى أن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء .

ودعاه أحمد مجاهد مرة ليذهب معه إلى نادى الحزب الوطنى في المنيل ومنذ ذلك اليوم أصبح فتانا واحدا من شباب ذلك الحزب .

ولم يكن الحزب الوطنى بعيدا عن الحركة الاسلامية ولا عن الأفكار الاسلامية منذ نشأته وتأسيسه ولذلك فإن صاحبنا لم يجد تناقضا بين ما كان يسمعه من أخيه ويميل إليه نفسيا وما تعلمه عن القضية الوطنية من رجال الحزب الوطنى ودفعه إلى أن يكون بين شباب هذا الحزب .

وما أكثر ما كان الفتى يتحمس لتلك المفاوضات التى كانت تجرى أحيانا بين زعماء الأخوان المسلمين ورجال الحزب الوطنى لتوحيد الحركتين أو التأليف بينهما على نحو أو على آخر . كان الحزب الوطنى مجموعة من القيادات والشباب المثقف تكاد لا تتعدى حدود العاصمة وكانت حركة الاخوان المسلمين قد انتشرت في كل نجع وكفر ويبدو أن كلا من الفريقين كان يجد عند الآخر شيئا يفتقده ومن هنا كان سعى الواحد منهما للآخر ذلك السعى الذى لم ينته إلى شيء محدد والذى ضاع كله فيما ضاع بعد ذلك في تيه الحياة السياسية المصرية وما أصابها من إعصار .

ورغم أن فتانا قد تفتح للحياة السياسية إلا أن اتجاهاته الأدبية ورغبته في تثقيف نفسه كانت غلابة على كل شيء وعرف بين لداته في المدرسة بحبه للقراءة الأدبية وشغفه بها أكثر مما عرف به باعتباره من هواة السياسة .

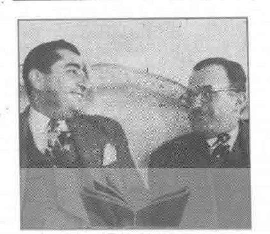
وكانت مجلة « الثقافة » هى التى تتربع على عرش المجلات الأدبية في تلك الفترة من منتصف الأربعينيات واشترك الفتى في « الثقافة » وكتب عنوانه على المدرسة . ولم تكن إدارة التوزيع في المجلة تعرف شيئا عن ذلك المشترك إلا أنه مشترك في المجلة وحسب . وكانوا يكتبون اسمه مسبوقا بوصف الأستاذ إذ يبدو أنه لم يخطر لهم إلا أن يكون ذلك المشترك استاذا في المدرسة ، ولكن ذلك الوصف لم يمر بسهولة ، واستدعى الفتى إلى حجرة الناظر مرة أخرى حيث لقى من التعنيف ما لقيه ، وطلب منه الناظر أن يكتب لإدارة الثقافة ليخبرها أنه مازال « تلميذا » وليطلب منها أن لا تصفه بوصف « الأستاذ » .

وانصاع الفتى وصدع بالأمر بطبيعة الحال .

وكانت مكافأته الكبرى ، حدث في الجمعية الأدبية في مدرسة شبرا الثانوية .

يواصل عميد الأدب العربي القومي الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الرائعة مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة

بدوي الجبل.. وإخاء أربعين سنة



الشاعر الكبير بدوي الجبل مع كاتب المقال

شاعر بين العواصف

بقلم: أكرم زعيتر

لما علم البدوي أن رسالته إلى الخطيبة لم تحل دون استعجال العقد ، بادر والزعيم نبيه العظمه إلى الابراق إلي يقولان : « حياة المؤمن كفاح وجهاد وقد كسبت معركة الوطن بزواجك رفيقة تشد أزرك ، وتزيل بحبها وحنانها همك وصبرك » .

الشاعر الوزير

ثم حدث أن تمرد من الجيش السوري متمردون على العقيد اديب الشيشكلي وتألب عليه الوطنيون فقرر مغادرة سورية ، وبذلك أنهى عهده ، وعقد الوطنيون من ممثلي الأحزاب مؤتمراً في حمص برآسة هاشم الأتاسي رئيس البلاد الشرعي ، واستدعي البدوي من بيروت إلى المؤتمر ، ولكنه لم يكد يصل إلى اللاذقية حتى أقعدته الحمى عن مواصلة السير .. وقرر المؤتمر أن تقوم وزارة مؤتلفة تضم ممثلي الأحزاب الوطنية ، ورشح الحزب الوطني بدوي ليكون أحد الوزراء الأربعة الذين يمثلونه في الوزارة واختير وزيراً للصحة . فكتبت إليه مهنئاً واعتذرت عن تقاعسي عن الشخوص إلى دمشق للتهنئة بكوني أرتقب مولوداً ، وأومأت إلى الأمل الذي أعلقه على العهد الجديد وحنيني الدائم إلى دمشق ، وما لبثت حتى تلقيت منه الجواب ، وإذا أنا حرصت على نشر رسائله الاخوانية ، فلأنها مرآة كاتبها ، وأسلوبه « العفوي » في المراسلة ، وهي ذاتها من ذخائر الأدب . يقول البدوي في رسالته التي أرخها ١٨/٤/٥٤ :

« أأقول لك إنني مشتاق إليك . إن هذه الكلمة — وحقك — مهما كانت قوية صادقة ، حارة ، لا تعبر عن بعض ما يغمر قلبي من حنين إليك وظمأ ملح إلى لقياك وإلى السعادة بقربك . أم أقول لك إن كتابك — على ما فيه من ايجاز — قد سرني وأسعدني . حروفك وكلماتك وتوقيعك نقلتني من العالم الهزيل الحقير المظلم إلى عالم وفائك وإخائك . وحروفك وكلماتك هذي تشيع في نفسي غبطة رفيعة ، حتى ولو حملت شتيمة ! فأنا أقرأ فيها ما لا تعنيه الحروف وأرى فيها ما لا تجلوه الكلمات . نحن نعيش بجو لا وصف له . لأنه لم يمر بخاطر من وضعوا الكلمات للمعاني حتى يجدوا له الكلمة المعبرة المصورة . ومن أول يوم وليت فيه الوزارة كان كل همي أن أراك قريباً مني ولكنني كنت أوجل دعوتك حتى يصفو الجو قليلاً ، فيطلع علينا اليوم الثاني بما هو أكثف ظلمة وجهامة .. ومهما يكن من أمر فوالله ما فارقتني



وزيـــر الصحـــة بـــدوي الجبل يزور احـــد المستشفيـــات عـــام ١٩٥٤



في دار الحياة (٢-١٢-١٩٥٩) من اليمين : كامل مروة صاحب الحياة ، دكتور هاني فياض ، أكرم زعيتر ، بدوي الجبل ، الشـاعـر الليبـي عـبـد ربه الغناي ، السفير عبد الجليل الراوي

ذكراك ، ولا الحنين إليك . وما حمل لك إنسان ــ عدا أهلك ــ وهذا موضع شك كذلك ما أحمله لك من إجلال وحب ووفاء وإخاء .

هل أقبل الحادث السعيد المنتظر . إننا نترقب ولي عهدك ، ووارث مجدك ، وترف عليه قبل قدومه ضمائرنا ، وتحنو عليه سرائرنا ، فاذا كانت بشائر قدومه عطرت الدنيا فاطبع على وجنتيه ــ أو وجنتيها ــ فالأنثى تصلح لأن تكون ولية عهد في عرفي ومذهبي ــ أخلص قبلاتي مشفوعة بأفضل تمنياتي . أرجو أن تقدم للسيدة الرفيعة الغالية تحية أخ لأخته وإجلال قومي عربي للمرأة الممتازة التي وكل إليها القدر الرحيم أمرك ، فكنت وديعة هذه الأمة لديها ، وهي خير من يرعى الوديعة ويصونها ويكرمها . احترامي وإجلالي لاستاذنا وإمامنا عادل بك ولك كل ما في نفسي من حب ووفاء وإخلاص .. »

وكتبت إليه أعلمه : أنني رزقت ولداً أسميته سرياً (من السراوة) ثم أخبرته ما اتصل بي من رغبة تكليفي العمل مساعداً لأمين سر الجامعة العربية وما رأي الوزارة السورية ؟ فتلقيت منه جواباً يقول فيه : « لا أعلم كيف أعتذر اليك عن الانقطاع في المراسلة وشفيعي إليك أنك واثق من إجلالي لك ومن حبي ووفائي . فأنت لست صديقاً ولست أخاً ولست موجهاً فحسب : بل أنت هذه كلها مجتمعة في إطار رفيع من الخلق العالي ومن القومية المؤمنة ومن السجايا التي يعز نظيرها في دنيا العرب . ويشهد الله أنني أرى بشرف إخائك أثمن ما حصلت عليه في حياتي . إن الارهاق في العمل وما يحيط بنا من مشاكل داخلية وخارجية لا تجعل في نفسي الصفاء الذي يجب أن يغمرني عند سعادة الكتابة إليك فاشملني بعفوك إذا قصرت .

إن ما تفضلت بهِ من أمور هي موضع فخر لي واعتزاز . بل هو عمل وطني أنت الدائن ونحن المدينون . وثق أن موقفي من ذلك ــ حتى ولو لم تنبهني إليه ــ هو موقف نفسك من نفسك . أرجو أن تقدم كل احترامي وحبي الأخوي إلى السيدة الرفيعة وأن تقبل عني ولي العهد الذي تربطني به رابطة لا أمتن منها ولا أوثق .

احتراماتي لعلامتنا الأكبر(١) . ولك كل إخلاصي وإجلالي وحبي .. ١٣ ــ ١٢ ــ ٥٤ .
بدوي الجبل

وهاتفني يدعوني إلى دمشق للمذاكرة والمشورة . ولحظت من الحاحه ما يحتم الاستجابة لدعوته فاعتمرت دمشق وضيفني في بيته وكانت ثم أزمة وزارية والحاح من السياسي العبقري فارس الخوري المكلف بتأليف الوزارة على البدوي في دخول الوزارة وزير دولة للدعاية والأنباء . ومن الذكريات حينئذ أن انعقدمؤتمر الأدباء العرب في دمشق وكان الدكتور طه حسين مقدمة الحضور ، وفي حفل عام لفت نظر البدوي أن سفير مصر في سورية أبى أن يصافح الدكتور طه حسين حين مد يده إليه . ذلك لأن طه حسين كان قد أدلى بتصريح يستروح منه أن العهد في مصر لا يبيح الحريات ! فكان مما قاله البدوي الوزير في خطابه موجهاً الكلام إلى طه حسين : « يفنى الرؤساء ، ويزول الحكام ، وتبقى أنت .. يذهب العظماء ويبقى أدبك خالداً .. » ولما انتهى المؤتمر وأراد طه حسين العودة إلى مصر ماراً ببيروت أبرق البدوي إلى صاحب « الحياة » الأستاذ كامل مروة يؤذنه بموعد وصول طه حسين فاتصل برئيس وزراء لبنان عبدالله اليافي الذي بادر الى اقامة مأدبة لتكريم عميد الأدب العربي . وقد رافقه البدوي وزميله الوزير الأديب الدكتور منير العجلاني إلى بيروت مبالغة في تكريمه ووداعه .

وعدت من دمشق إلى نابلس وكتبت إليه شاكراً حفاوته بي ومهنئاً بالوزارة الجديدة ومشيراً إلى خيبة أملي في العهد الجديد . فأجابني بكتاب قال في مقدمته : « كتابك في يدي . وقد قرأته بعيني وقلبي وبكل جوارحي .. وأنت على حق في كل ما تقوله . وإخوانك شركاء مع الحوادث القاهرة في ظلمك وفي ظلم أنفسهم . ومن ظلمك من إخوانك فهو في الواقع يظلم نفسه وخلقه ووجدانه » فكتبت إليه راجياً ألا يهتم بالموضوع ، وحسبه النهوض بأعبائه الجسام في هذا الظرف العصيب .. وما أسرع ما أجابني برسالة ورد فيها : « كتابك كأنه ليس كتاباً . بل رسولاً وفياً يتحدث إلي وأتحدث إليه ... أما أنا فأعيش حياة أقل ما يقال فيها إنها ممتلئة ، ولكنه امتلاء خير منه الفراغ . امتلاء فيه مغارم الامتلاء بلا جدوى ! نسأل الله العفو والعافية والخاتمة الحسنة . ولا بارك الله بالساعة التي جرتني فيها الضعف الإنساني إلى النيابات والوزارات . » ثم شفع هذه الرسالة بأخرى كانت أشبه بوسام زين به شاعر العربية سيرة أخيه بقوله : « يشهد الله يا أكرم أنني لأغبط نفسي على شرف صداقتك . أنت كنز من المروءات ومن تجاوز هذا الكنز فما جنى على الكنز ولا على قلائده وفرائده . بل جنى على نفسه . » ويقول : « إننا في مهب عواصف داخلية وخارجية ، عواصف لا تهدأ ولا تفتر ونحن في الدوامة نسأل الله فرجاً وخلاصاً ، وشاء أن يختم رسالته مداعباً : « وقبلاتي لصاحب السمو ولي العهد المعظم أمتع الله به وبأبيه وأمه . »

ولا أدل على غربة البدوي النفسية يومئذ من رثائه صديقه الزعيم الصفدي المجاهد النازح : علي رضا النحوي ، وقد ألقاه في أربعينه . وفي مطلعه يقول : « هذه الغوطة الخضراء تحنو بعطور أورادها وبعطور أمجادها ، وبالعبق من كبريائها ، وبالوهج من دم شهدائها على قبرك أيها النازح الشهيد ، فتكاد وأنت وديعة الثرى ورهن الردى

شاعر بين العواصف

تنهل الشذا كما تنهل الريحانة الندى . وفيها : « وواحسرتا لهذه القبور الظامئة تطوف بها أحلام صرعاها . أحلام نسيم وطنها ونجومه ولباناته وذكرياته . والسنابل في وهاده . والدروب الملتوية في أنجاده . الأحلام المغفية في غابات الزيتون بالكرمل . الحالمة عند ملاعب الموج على رمال حيفا . لشد ما تستوحش هذه القبور ! هي في مكان ، وطيوفها وذكرياتها في مكان . وواحسرتاه لها ، انها صامتة كئيبة ولكنها في صمتها تتكلم لأنها تتألم . وواحسرتاه لقبرك بينها . إنه يطوي جوانحه على أرفع لهفة لأرفع هوى ، لأرفع وطن . حتى القبور تبكي وتستوحش وتتغرب » وفيها : « عالم القبور هو الدنيا التي ينور بها بياني ووجداني ، وتندى بها سريرتي وأريحيتي ، أما عالم الناس فأنا غريب عنه ، وهو غريب عني ، كلانا ينكر ملامح صاحبه ، ما أشد وحشتي منه وما أوجع غربتي . كلما طعنني الغدر قررت بدمائي وأشلائي إلى القبور الحبيبة أناجيها وتناجيني وأشكو إليها وتشكو إلي .. وما أمره من يأس يردني عن الأحياء إلى الأموات » وختم المرثية ، وهي طويلة : « ويا أيها النازح الشهيد ، إن تحية العروبة لفلسطين ، تحية العين لإنسانها ، والسريرة لوجدانها والعقيدة لايمانها » .

المؤامرة المزعومة

وتأزمت الحال في دمشق ولا سيما بعد أن اغتيل الضابط المتحمس عدنان المالكي ، وأسرف المكتب الثاني للجيش في الاتهام ، وبالغ في الاعتقالات . وعلمت أن البدوي برح دمشق ولجأ إلى بيروت نجاة بنفسه ، وأنه في محنة نفسية بسبب مايلقاه بكر أولاده من العنت .. فيممت بيروت . وقد سجلت في « يومية » الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٥٧ ما يلي : « نزلت فندق ريزيدانس ، حيث ينزل البدوي وأسرته ، لأكون قريباً منه وأستطيع مواساته . إن مما يرمضه أن محكمة عسكرية بدمشق أخذت تحاكم إخوانا له من ذؤابات الوطنية بتهمة التآمر على سلامة سورية وجيشها . وقد ورد اسمه في شهادة أحد الشهود أمامها فحمد الله الذي نجاه من البلاء بوجوده في بيروت . ومما علمته أن ولده « منير » قد عذب عذاباً شديداً لحمله على الإقرار باشتراك أبيه في المؤامرة المزعومة . جاءه ذات ليلة جندي يخبره أن المحكمة قضت باعدام أبيه

بخط بدوي الجبل

وخاله . ونفذت الحكم فيهما رمياً بالرصاص . فلا ضرر من اعترافه بصلتهما بالمؤامرة لأنهما ماتا ، ولكنه ينجو هو بنفسه . فكان يكتب « إفادته » ويشير إلى أبيه بقوله المرحوم أبي .. وسمع « طقطقة » سلاح وجاء من أنبأه أن المحكمة قررت اعدامه رمياً بالرصاص فكتب وصيته لأمه ثم أخبر أن التنفيذ قد تأجل ريثما يستدعى شيخ ليلقنه الشهادة ... وكان يحز في قلب البدوي أن يجري هذا ورئيس الجمهورية ، شكري القوتلي الزعيم المناضل لا يستطيع ردع العسكريين وحماية إخوانه من الوطنيين المتهمين !! كلا ، بل إنه في خطاب له لمح إلى المؤامرة كما لو كانت صحيحة !! ويقص البدوي أنه كتب للرئيس يرجوه انقاذ ولده فما أجدت الكتابة ، وكتب لعبد الحميد سراج رئيس المكتب الثاني الذي يتولى تلك الأفاعيل ، فأطلق سراح الولد بكفالة رمزية وأذن له بالسفر إلى بيروت والالتحاق بأبيه .. »

وفي يومية « أخرى » تلا علي البدوي بضعة أبيات من قصيدة هائلة مهولة يعاتب فيها كبيراً مسؤولاً .. فأخذتها ونشرتها في جريدة « الحياة » تحت عنوان : « إلى صديق قديم » : وقلت في تقديمها : « هذه رائعة خالدة لشاعر العربية الأكبر ، بدوي الجبل ، وفيها يعرب البيان البليغ العبقري والقول الناصع السري عن مشاعر أرهفتها الأحداث وسكبتها سحراً تتباهى به الكلمة ويتجاهى به الشعر » ، وهذه هي الأبيات :

ما راعنا الدهر بالبلوى وغمرتها
لكننا بالأبناء المر رعناه
إن نحمل الحزن لا شكوى ولا ملل
غدر الأحبة حزن ما احتملناه
وما رعانا على عصف الخطوب بنا
هوى حبيب رعيناه ونرعاه
ليت الذين وهبناهم سرائرنا
في زحمة الخطب أغلوا ما وهبناه
ولا وفاء لقلب حين نؤثره
حتى تكون رزايانا رزاياه
أشامت عند جلانا وما نزلت
إلا على الحب والإيثار جلاه
لاه ومحنتي العصماء دامية
راو ومن لوعتي الشماء سقياه
ما ضج في قلبه جرح فكابده
ولا ألم به وجد فعاناه
تضن باللهفة الحرى جوانحه
والقلب أخصبه بالنور أسخاه
فما ترشفت ايماناً بمعبده
ولا شممت طيوباً في مصلاه
قد هان حتى سمت عنه ضغينتنا
فما حقدنا عليه بل رحمناه
يرضيه أن يتشفى من مدامعنا
لم نبك منه ولكنا بكيناه
حسب الأحبة ذلا عار غدرهم
وحسبنا عزة أنا غفرناه
أغضى الندي حياء حين أنهبنا
للشامتين : هوىً كالروح صناه
جاه خلقناه من ألوان قدرتنا
فكيف يكفر فينا من خلقناه ؟
لو رف حبك في بيداء لا هبة
على الظماء رحيقاً ما وردناه
جليت طيفك عن عيني فأسلمه
إلى الدجى وإلى الاعصار مأواه
فيا لكنز شكت منه جواهره
وضاع عن نفسه لما أضعناه

على أنني قرأت بعد حين في مجلة « شعر » هذه الأبيات في قصيدة طويلة ذات أربعة وسبعين بيتاً تحت عنوان « اللهب القدسي » وجعل المخاطب فيها أنثى .. ثم جاءت القصيدة تحت العنوان ذاته في ديوانه في واحد وثلاثين بيتاً .. ولم أفطن إلى ذلك إلا بعد طبع الديوان !

ومما يدخل في ذكريات هذه القصيدة أن مجلة « الهلال » المصرية قد نشرت بعد سنوات أبياتاً من القصيدة وعزتها خطأ إلى أديبة لبنانية تحت عنوان « عزة المغفرة » وكان البيت الأول :

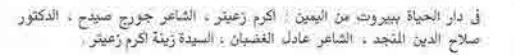
يا من سقانا كؤوس الهجر مترعة
بكى بساط الهوى لما طويناه

وكان البيت الأخير :

صحا الفؤاد الذي مزقته اربا
خرى الجراح وللمنا بقاياه



من اليمين : جورج صيدح ، شفيق المعلوف ، وبدوى الجبل فى بيروت ربيع ١٩٥٤ .



فى دار الحياة ببيروت من اليمين : اكرم زعيتر ، الشاعر جورج صيدح ، الدكتور صلاح الدين المنجد ، الشاعر عادل الغضبان ، السيدة زينة اكرم زعيتر .

وقرأ الشاعر المهجري الكبير جورج صيدح تلك الأبيات في « الهلال » فأرسل إلى من باريس قصاصتها وعلق عليها : « هذه الشاعرة الساحرة تسجد أمامها قوافي الشعر ؛ ويحني هامتهم شعراء العصر .أدعو لها بطول العمر . » فبادرت إلى اطلاع البدوي على عبارة صيدح التي جاءت على وجازتها تقويماً عفوياً لشعر من شاعر .. ثم ما لبثت المجلة حتى صححت أغلوطتها .

البدوي في مغترب نفسي

وعدت إلى نابلس وقصصت على شقيقي عادل وعلى زوجتي محنة البدوي في مغتربه النفسي ثم سكبت مشاعرنا في كتاب بعثت به إليه ، وما أسرع ما أجابني : « إذا كان فى الدنيا ما تندى به سريرتى ، ويطمئن إليه إيماني ، ويغفو على هناءته وجداني فهو ، يميناً بمروءتك وأريحيتك ، هذا الاخاء تغمرني بنعمته ، وهذا الوفاء يبدع جمال الحياة بقدرته . ولقد كان لي ثلاثة أهفو في الهجر إلى ظلالهم ، وفي ظمأ التيه والوحدة إلى الرحيق المصفى في شمائلهم .. أما سعد الله فقد طواه الردى ، وأكرم الله به الثرى ، وزين به جنات الرضى .. وأما « الصديق القديم » فقد .... وبقيت لي وحدك يا أكرم عزاء عن سعد الله ، وصورة أنيقة وسمة عن سعد الله. متعني الله بك ، وفديت من عيني بضيائها ومن جوانحي برجائها ، فأنت وحدك البسمة في هذه الغمرة من الكآبة ، والأنس والنور والفرح بهذه الظلمة الحالكة من تنكر الاخوان وخيانة الأتراب والأصحاب .والأحقاد اللئيمة والضغائن المتبرعة المتطوعة !

كتابك بين يدي أقرأه فهل تقرأ الريحانة ؟ وأعيده ثم أعيده متملياً بكل كلمة من كلماته . بل بكل حرف من حروفه . وانني لمعتز بالعاطفة النبيلة التي تشمل بها أم سري ولدي منيراً وما تفضل به أستاذنا الأكبر (٢) فخر العربية وزهوة بيانها الأصيل من أسى ومشاركة لنا في المحنة التي ألمت بنا والتي نحتسبها عند الله وعند الوطن .. »

وأقول استطراداً إنني والبدوي سرنا بعد عشر سنوات في تشييع الرئيس القوتلي (الصديق القديم) بدمشق وظللنا نسبل الدمع غزيراً ونشعر لظى حرقتنا القلبية لوداعه باستعراض ذكريات ما أغلاها !

وعدت إلى بيروت لاجراء « عملية » جراحية في مستشفى الجامعة الأمريكية .. وكان البدوي يعودني صباح كل يوم ومساءه ، وكان كثيرون من الأدباء والأصدقاء ولا سيما السوريين السياسيين النازحين إلى بيروت يوالون الزيارة ويتواصون بألا أخلو إلى نفسي ، وبحجب الصحف عني ، ثم علمت بعد الشفاء أن شقيقي الأكبر وأستاذي عادل توفي في نابلس ، حين كنت رهن مبضع الجراح وكتمت الخبر حتى اندمل الجرح الجثماني ليتفتح الجرح النفساني !

وكانت جلسات البدوي واخوانه في العيادة اليومية أشبه بندوات أدبية وقومية .. وأذكر أنني تلقيت ـــ وأنا في المستشفى ـــ من صديقي الوطني الوفي النائب المصري محمد محمود جلال برقية نبيلة يسأل فيها عن صحتي . وحدثت الاخوان عن هذا السري الأمثل ومما قلت : أنه يتذوق الأدب . خطيب شاعر. وانه معجب بالشاعر المجدد خليل مطران ويردد معجباً ، هذا البيت :

كسالك وعر راقه حسن كوكب
فأرجله تدمى وعيناه في السما

واستعادني البدوي البيت ثم قال : « الصورة رائعة أما الديباجة فدون الصورة فهلا قال :

ومنفرد في البيد أغرته نجمة
فأرجله تدمى وعيناه في السما

وهنا ذكرت قول شفيق معلوف في « البستاني » :

يداه على التراب ومقلتاه
معلقتان بالأفق البعيد

وقال الشاعر عمر النص الذي كان البدوي يعجب بشعره :

تظل تغذ السير هيمان لا تعي
وطرفك في الأفق القصي معلق

* * *

وفي حديث عن أهمية إلقاء الشعر في نفوس السامعين .. وأن القارئ أدرى من السامع بقيمة الشعر ، فروى البدوي لنا : « كنا مدعوين إلى تأبين أحمد شوقي في أربعينه في القاهرة .. وأجلسنا معشر الشعراء على المسرح وقد امتلأت القاعة بالحضور . وكان الشاعر خليل مردم بك يجلس بجانبي . ولمحنا فلاناً (وسمي شاعراً نظاماً من لبنان) يدخل القاعة ، ويصعد المنبر فتساءل خليل مردم بك : ومن الذي دعاه ؟أيجوز أن يكون مثله في صف مؤبني شوقي في هذا الحفل ؟ فأجبته :اصبر وسترى ما يسرك !! ودعي المذكور إلى إلقاء قصيدته ، فلم يكد يتلو البيت الأول بالقائه البديع حتى دوت القاعة بالتصفيق واستعيد البيت ، وتصاعد التصفيق الحاد وصاح أحدهم : « والله إن مثل هذا الشعر لا يجوز أن يتلى إلا ونحن وقوف » فوقف الجمهور ، ووقفت وخليل مردم بك تحية لهذا الشاعر مع الواقفين وأمرنا لله ، حتى أنهى قصيدته في عواصف من التصفيق ، وأخرج مردم بك « علبة » سيكارة من جيبه وكتب على ظهرها عبارة سخرية لاذعة من جمهور كهذا .. »

وسأل أحدهم البدوي عن قصيدته يومئذ فذكر مطلعها :

لا الأمس يسلبك الخلود ولا الغد
هيهات أنت على الزمان مخلد
تتجدد الدنيا وقلبك وحده
دنيا تعيد شبابها وتجدد

ومن أبياتها :

خلع الحياة على البلى فكأنه
للبعث من قبل الأوان يمهد

وختامها :

شاعر بين العواصف

ولك الأمارة في البيان يقرها
أمس الزمان ولا يضيق بها الغد !

وذات صباح قال لي : اخوانك يقدمون إليك باقات الزهور ، ويهدون إليك مجامع الحلوى .. وأما أنا فدونك هذه الطاقة من زهور هذا الصباح !

إلى أخي الأعز الأغلى أكرم زعيتر
لي أخ سكب المروءات إذا الداعي دعاه
أريحي اليد والفكر ، وللفكر نداه
ما حكاه الهندواني ولا أغنى غناه
أكرم السود تفيأنا على الجلى حماه
صاغه الخير من الخير لبابا واصطفاه
معرق الأمجاد والأنساب ، طابت نبعتاه
فاذا عدت غطاريف العلى فاذكر أباه(٣)
وإذا عدت أساطين النهى فاذكر أخاه(٤)
وإذا الميدان جلى الشوط كان ابن جلاه
ضاحك ما شئت تخفي عزة الكبر أساه
عبقري القلب والعقل ترشفنا سناه

وعدت إلى نابلس ويممت ضريح شقيقي الذي غاب من دون أن أودعه وأن أجثو على قدميه في الساعات العصيبة الأخيرة في حياته الضخمة ..

من ذخائر المحفوظات

وفي أربعينه حمل إلي البريد رائعة البدوي في تأبينه وهاهي ذي تجمل هذه الحلقات ، وما أجدرها بأن ترويها الرواة من ذخائر المحفوظات :

« أخي وسيدي ، ما أروع هذا الحزن الوسيم الكريم . إنه حزن العبقري الذي يخلع من لوعته ومن دموعه جمالاً على الدنيا وحناناً يؤنس كل ما هو موحش منها وينضر حتى الرمال الظامئة ويثور حتى الهجير اللهفان .

هؤلاء الذين نفقدهم من أحبابنا ، أحقاً إنهم انتهوا وانطوا . أم واقع الأمر وجوهره أننا نعيش فيهم ونطوف جزءاً صغيراً دقيقاً في عالمهم الكبير الغني بالطوف والأحلام والذكريات . هؤلاء الذين فقدناهم ، ما أقربهم إلينا عيناً ساجية ورنوة حالمة وابتسامة ناعمة وصمتاً وكلاماً وهناءة أسارير وكآبة ملامح . هنا في سرائرنا مغان مأهولة بهم . هنا في سرائرنا نسكب لاحبابنا كؤوس الحنان ليرتشفوها نهلة نهلة ! هنا في سرائرنا ننمنم لاحبائنا أنغام الجنان ليستعيدوها أغرودة أغرودة ! هنا يعيشون على الشهي من لباناتنا ، وعلى المصفى من صباباتنا . إن النسيان وحده هو المنية ، فما أبعد أحبابنا عن المنية ، أعني عن النسيان . هنا في ضمائرنا قصورهم السندسية ، وخمائل هواهم ، ومساحب الذيول تنفح بالطيب . وكل ما يتخيلونه من نعيم وزهو وربيع وشباب وترف فكر وترف حضارة . نعطي أحباءنا كل هذا ونأخذ أحزانهم وأسقامهم وسهد عيونهم ، فما أسعد أحباءنا وما أشقانا بهم ! ما أترف ما ينعمون منا وما أقسى ما نلاقيه منهم ! بعض الحنان أيها الأحبة الغائبون عن نواظرنا ، الساكنون في ضمائرنا بعض الحنان . ويالها من مرارة حين تسأل الحياة من الموت حنانه ورفقه !

لك الله يا أخي أبا سري ، إنني لأتسرب مع أحزانك في وجدانك فتروعني فيها ألوان من الجمال مقطوفة على طلة الندى من سدرة المنتهى . ألوان من الحزن مجلوة بزينتها ، وفتنتها ليشهدها الله بين جراح الشهداء ودموع المؤمنين المستغفرين في الاسحار . ـ كلها وأحزانك بينها ـ تتبرج لتصل الى الله رائعة وسيمة ولتنسكب على الأديم القدسي أوراداً من خميلة ، وأوراداً من عبادة .

ان الحزن ليحب الوجدانات الرفيعة ويهنأ بها غدوة وروحة حتى ليصبح جزءاً منها أو تصبح هى جزءاً منه . كل عبقرى في الدنيا ينزل الحزن على وجدانه نزول الكريم على الكريم فيختلط الدمع بالعطر والكآبة بالأريحية . أحزان العبقريين احزان أحلى من حور الجنة وحزنك بينها أصفاها نميرا وأنداها عبيرا !

إنني اسكب أحزاني في وجدانك لتستعير منه بعض الجمال : بعض السحر بعض الرحيق المصفى . وأريد أن تسكب أحزانك في وجداني لتستعير منه بعض السلوان ، ولا أقول النسيان ، وقد يكون السلوان أحياناً أمر في قلوبنا من الأحزان وأقسى على قلوبنا من الخطوب .

ويا أيها الأحباب الذاهبون : سلوا الله بنعمته عليكم في جواره ، وبمحنته لنا في فراقكم ، سلوا الله أن يندي قلوبنا باللوعة الهادئة والدموع الوافية ولا تسألوه أن يمنحنا النسيان ، فلو ألمت بنا خاطرة منه لطفنا بقبوركم نجدد هوانا ونستغفر أسانا » ..
١٨ ـ ١٢ ـ ٥٧ .

بدوى الجبل

وما كدت أقرأ هذه المرثية وأمسح بيد التجلد دموع الحنان لذكري أخي ، حتى ابرقت إليه : « ما إن قولاً سرياً نبيلاً ـ ومن القول سري ونبيل ـ قيل في التأساء مثل هذا القول العبقري . إنها آية الآيات وسر أسرار البلاغات . بها يجمل شجني ويسرو حزني ويسمو تجلدي واصطباري ويتعاظم بأخي اعتزازي وبمروءتكم افتخاري حفظكم الله لجمال العبقرية وللوفاء » .

وفي الرابع عشر من آذار ١٩٥٨ أقيم في نابلس احتفال تأبيني كبير لذكرى عادل زعيتر رثاه فيه اعلام الأدب في مصر والعراق وبلاد الشام : بنت الشاطىء والشعراء محمد عبد الغنى حسن وعادل الغضبان ومحمد الشريقي والأدباء العلماء مصطفى



العلامة المرحوم الاستاذ عادل زعيتر



أحمد شوقي

جواد وعمر البرغوثي ونظير زيتون وقدرى طوقان وكامل مروة وممثلة الهيئات النسائية ونقيب المحامين . ثم وقف عريف الحفل الاستاذ عجاج نويهض يقول : « بينما كان الاستاذ بدوى الجبل يهم بالمجيء وقع عارض فأصيبت يده ، فأبرق ـ حفظه الله للعربية ـ الى شقيق الفقيد بالبرقية التى وصلت الآن وفيها يقول : « لقد انسجم في أخيك العظيم البيان العبقرى الأصيل ، والخلق الوديع المتكبر ، والقومية المؤمنة الصافية لحناً سماوياً عاد الى معدنه ، فهو طيوب من سدرة المنتهى ينعم بها الرفيق الأعلى ، ويميناً بشمائلك المترفة وبما ضمت جوانحك من كنوز الحق والخير والجمال . لقد حز في قلبى أنني لا أستطيع أن أكون إلى جانبك في هذه الذكرى وأنت الذى غمرتني بمروءاته واريحياته ، وكان لى عند محنة الدهر وخيانه الصديق ضياء وعزاء ورجاء » .

وأقبل عيد الفطر وهو أول عيد يطل علينا بعد وفاة شقيقي عادل ، فتلقيت من صديقي البدوى برقية يقول فيها : « ينزل العيد على آلامك فيسكره جمالها . وآلامك وضيئة كسريرتك ، رفيعة كإيمانك خصيبة كعبقريتك » .

لقد ترددت كثيراً في ايراد بعض هذه الرسائل والبرقيات ثم استجبت للهاتف الجوانى يهامسني : « من تمام الحديث عن إخاء أربعين سنة ألا تتغافل عما أنعم به عليك أخوك البدوى من سراوات وإن هو أفرط بالتكرمة وبالغ في السخاء !

كانت سنة ١٩٥٨ حافلة بالأحداث في العراق وسورية ولبنان . محكمة المهداوي في بغداد غبرت في وجه محاكم الثورات !! وكاد شررها يصيب الشاعر القابع بمنزله في بيروت ! وكان همى حين

بخط بدوي الجبل (٥-١١-١٩٥٧)

زرت بيروت أن ألقى البدوى فنتباثث الهموم ، ونتواصى بالصبر . واهتديت إلى منزله في أقصى حي من الأشرفية في معزل عن الناس إلا عن صديقه وشاعره الأثير أمين نخلة . وقد ترافدت عليه الهموم ، فحملته على مغادرة صومعته وزيارة أصدقائه .

فن الشوق

وحدث أن زرت صديقي القصصي النابغ ، الشاعر الثائر الاستاذ توفيق عواد السفير في وزارة الخارجية اللبنانية وكنت لم ألقه منذ سنوات ، فكان عناق بعد طول الفراق .. وبادرني توفيق قائلاً : « أنت يا أكرم من عصبة مهما طال فراق أهلها فإنهم يظلون مجتمعين كل يوم . وراح يهمهم ثم نهض الى مكتبه وكتب الأبيات التالية ووقعها وأعطانيها فشدوتها معجباً :

عصبة من خلصاء
هم على الدهر مجني
نلتقي يوماً وعاماً
لا تسل عنهم وعني
ففلان قلت عنه
وفلان خال أني
وأنا إما تغنوا
رفرفت روحي تغني
أو بكوا أترعت كأسي
بالمرارات وَدَنّي
أو بنوا مجداً تطاولت
على الناس كأني
لست ادرى منهم شيئا
ولا يدرون مني
قد جعلنا البعد فن
الشوق أو علم التمني

وفي جريدة « الحياة » اطلعت البدوي على هذه القصيدة فردد معجباً : « قد جعلنا البعد فن الشوق » ونشرت القصيدة في « الحياة » ..

وفي أمسية اليوم التالي ، في لقائنا في جريدة « الحياة » فاجأنا البدوي بقصيدة عارض فيها قصيدة العواد ورنحنا وهو يتلو :

أيها المعرض عني
ما الذي رابك مني ؟
أنت حلو في الرضى السمح
وحلو في التجني
دع يقيني ـ وهو الجمر ـ
إلى أفياء ظني
لي كنوز الحب يستغني
بها قلبي ويغني
والمنى ضاعت فهبني
منك نعماء التمني
تعدل الدنيا طيوف
علقت منك بجفني
وأنا البلبل في الأيك
وفي الأسر يغني
ترف الإحسان أن أضفي
على دنياي حسني
قد جلاني الله من نعماه
إشراقة يمن
أنا والأنجم أغفينا
على مهد وجفن
وابتدعنا ألف دنيا
وخلقنا ألف فن
أنا والانجم لا نفنى
على الدهر ونفني
أنا إن أدن من الله
فإن الشوق يدني
ناعم النور نماني
والاعاصير تمتني
يظمأ العقل فأسقي
العقل أسطورة جن
لم يضق حبي بما ألقاه
من حقد وغبن
أنزل الآثام أضيافاً
على جنة عدني

ولم يكد ينتهي من تلاوتها حتى رن جرس الهاتف .. وقال العامل : « المطار يطلب الاستاذ أكرم » إنه الشاعر جورج صيدح العائد من باريس يقول لي :

بلغوا العواد عني
أن فن الشوق فني

والى اشعار آخر وفي اليوم التالي نشرت الحياة قصيدة البدوي ، وفي المساء اتصل صيدح بالحياة ليكمل قصيدته ذات الأبيات الستة :

بلغوا العواد عني
أن فن الشوق فني
عاش في قلبي شعوراً
لم يعش علماً بذهني
ما تراني بين أحبابي
بلا علم أغني ؟
عدت يا من عاد قبلي
للمنى لا للتمني
للقا يسكب نعماه
على عيني وأذني
شاعري : ليتك تدري
أي حب لك مني

وبينما كنا نتسامر أقبل الآذن يقول : « ضيف من ليبيا » وأقبل الضيف يقول بعد السلام : « أخوكم عبد ربه الغناي المستشار في الاستئناف العالي في بنغازي » فرحبنا به ثم قال : « لقد تابعت المساجلة الشعرية بين بدوي الجبل وعواد وصيدح فوددت أن تكتنف المساجلة شطراً آخر من الشعراء .. وينتظم العقد بشاعر من ليبيا شقكم الغربي العربي » ثم أنشد :

هاجني شوق لفن
فهفا قلبي يغني
وانتشى من خمرة الروح
ومن عطر التمني
وأنا النازل من لبنان
في جنة عدن
هات من شعرك فجراً
يبعد الظلماء عني

وقد اشترك في هذه المساجلة نحو عشرين شاعراً من لبنان وسورية والكويت وفلسطين والأردن وضمن بعضهم معارضتهم بيت البدوي :

أنت حلو في الرضى السمح
وحلو في التجني

أكرم زعيتر

هوامش :

(١) المرحوم الاستاذ عادل زعيتر.
(٢) المرحوم الاستاذ عادل زعيتر.
(٣) المرحوم الشيخ عمر زعيتر الزعيم الفسطيني الكبير.
(٤) المرحوم العلامة عادل زعيتر

أخطاء وردت في الحلقة السابقة

مصطف وصحيحها مصطفى
نيسان سنه ١٩٤٥ وصحيحها ١٩٤٦
ولحت وصحيحها ولججت
والقى حكمة وصحيحها كلمة
من راح يحمل في جوانحه وصحيحها في جوانحه الضحى
ومحمود علي وصحيحها ومحمد كرد علي
وردن جنابها وصحيحها حنانها
وفي الصورة جاءت عبارة علي محمد الخوري وصحيحها علي يمين الخوري

حركة أبناء البلد

هل هي سرطان في جسم إسرائيل ؟

يتسم النضال الفلسطيني بسياسة النفس الطويل والاصرار على الهدف الاستراتيجي ، والصبر والأناة ، وتحمل صنوف الآلام المبرحة ، والقدرة على تقديم التضحيات مهما كبرت وغلا ثمنها . وتلك لعمرى ، معطيات لم يدركها العدو الصهيونى ، عندما بدأ مشروعه العدوانى لتهويد فلسطين ، والمضي بعد ذلك في سياسة التوسع في الأراضى العربية لتحقيق حلمه المريض : « اسرائيل من النيل الى الفرات » !

والذين يعرفون تاريخ الشعب الفلسطيني العربى ، يدركون هذه الحقيقة ، كما يدركون قيمتها التى لا تقدر بثمن في الصراع التاريخي والحضارى بين الصهيونية والأمة العربية .. ونشير هنا بشكل عابر إلى أن النضال الفلسطينى ضد الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية إنما بدأ في وقت مبكر من هذا القرن ، حيث تنبه الفلسطينيون إلى الخطر الصهيوني والتآمر الاستعمارى على بلادهم منذ صدور « وعد بلفور » المشؤوم بتاريخ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ .

بقلم : عصام شريح

بعد دخول قوات الانتداب البريطانى الى فلسطين ، بدأت المقاومة الفلسطينية ضد الانتداب والصهاينة ، وتمثلت أولا بالتظاهرات والاضرابات الشاملة . وفى عام ١٩١٩ نشب أول صدام دام بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال البريطاني التى كانت تحمي الصهاينة الوافدين . أما الثورة الأولى فقد نشبت فى عام ١٩٢٠ ، وتبعتها ثورات ١٩٢١ و١٩٢٥ و١٩٢٩ و١٩٣٣ و١٩٣٥ ، ثم الثورة الكبرى التى استمرت حوالي أربع سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ثم ثورة عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ .

ولم يتوقف الفلسطينيون عن النضال بعد نكبة عام ١٩٤٨ . وإن كان هذا النضال محدوداً بسبب ظروف عربية ودولية متشابكة ، لكن ما إن جاء عام ١٩٦٥ ، حتى كان ميلاد الثورة الفلسطينية المعاصرة .

أما فى الأرض المحتلة في عام ١٩٤٨ ، فإن الفلسطينيين الذين لم يكن يزيد تعدادهم آنذاك عن مئتي ألف ، والذين أصبحوا الآن سبعمئة ألف نسمة ، لم يتوقفوا أبداً عن النضال ضد الغزاة الصهاينة ، حيث بدأوا منذ مطلع السبعينات في انشاء الحركات والتنظيمات التي يمكن من خلالها متابعة النضال والمقاومة .

وقد كانت حركة الأرض ، ثم حركة « أبناء البلد » ، أهم هذه التنظيمات وهي مدار حديثنا في هذه المقالة .

أبنـــــاء البلد

كان تأسيس « حركة أبناء البلد » التي هي فى الواقع امتداد « لحركة الأرض » ، التي منعت السلطات الاسرائيلية أعضاءها من مزاولة أي عمل سياسي ، في عام ١٩٧٠ ، دليلا جديداً وبرهانا آخر دامغاً على حيوية الشعب الفلسطينى . وقدرته على ابتكار أساليب النضال ، في أشد الظروف ظلاماً وظلماً .

وقد بدأت الحركة نشاطها في ذلك العام ، بمجموعة من المثقفين والمهنيين لا يزيد عددها عن عشرين شخصا ، على رأسهم المحامي محمد كيوان وحسن جبارين وكان ميلاد هذه الحركة في بلدة « أم الفحم » التي عرفت بنضالها الصلب ضد النازية الصهيونية .

ويقول محمد كيوان ، وهو محام يملك مكتباً للمحاماة بقرية « الخضيره » حالياً ، إن اسم « أبناء البلد » لا يعبر بشكل دقيق عن فكر الحركة ، « فنحن أبناء البلد خاضعون لسيادة المغتصبين المستعمرين ، واسمنا بالعربية هو أبناء البلد ، وهو اسم يقود إلى مغالطات أحيانا ، حيث أن كلمة بلد تعني قرية ، أو بلاد ، أو وطن » ويضيف كيوان : « ونحن لسنا أبناء القرية فحسب ، بل نحن أيضا أبناء هذه البلاد ، وأبناء الوطن (فلسطين) » .

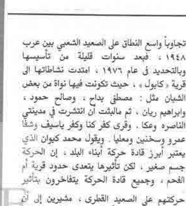
وفى الواقع فإن حركة أبناء البلد ، قد وجدت



محمد كيوان



حسن جبارين



تجاوباً واسع النطاق على الصعيد الشعبي بين عرب ١٩٤٨ ، فبعد سنوات قليلة من تأسيسها وبالتحديد فى عام ١٩٧٦ ، امتدت نشاطاتها الى قرية « كابول » ، حيث تكونت فيها نواة من بعض الشبان مثل : مصطفى بداح ، وصالح حمود ، وابراهيم ريان ، ثم مالبثت أن انتشرت في مدينتي الناصره وعكا . وقرى كفر كنا وكفر ياسيف وشفا عمرو وسخنين ومعليا . ويقول محمد كيوان الذي يعتبر أبرز قادة حركة أبناء البلد ، إن الحركة جسم صغير ، لكن تأثيرها يتعدى حدود قرية أم الفحم ، وجميع قادة الحركة يتفاخرون بتأثير حركتهم على الصعيد القطرى ، مشيرين إلى أن للحركة اليوم فروعاً في معظم قرى الجليل والمثلث ، مثل قرى الطيبة والطيره وعاره وعرعره ونحف وجث وعرابه وكابول ، إضافة الى القرى والمدن التى سبق ذكرها ، بل إن للحركة فروعا ونشاطات في الجامعة العبرية بالقدس المحتلة ، وفى تل أبيب وحيفا وبئر السبع واللد أيضا .. لكن وزير الدفاع الصهيونى مناحم بيجن الذى كان كذلك رئيسا لحكومة العدو ، سارع بتاريخ ١٦ نيسان ١٩٨١ ، إلى اصدار أمر منع بموجبه « لجنة التنسيق » التى تمثل التنظيم القطري للحركات والمنظمات العربية العاملة فى منطقتي الجليل والمثلث من عقد أي اجتماعات أو مزاولة أى نشاط بحجة أنها وضعت نصب عينيها محاربة اسرائيل والصهيونية الأمر الذي دفع بحركة أبناء البلد ، الى استبدال اسم الحركة في بعض الفروع خارج المركز الرئيسى في بلدة أم الفحم ، فأصبح اسم الحركة في الجامعات الاسرائيلية : القدس وحيفا وتل أبيب حيث يدرس حوالى ألفي طالب عربى ، « الحركة الوطنية التقدمية » ، وفي بلدة الطيبة ، أصبح اسم الحركة « النهضة » ، وان كانت هاتان الحركتان قد أخذتا في تمييز نفسيهما خلال السنتين الماضيتين عن حركة أبناء البلد ، دون أن تقطعا صلتهما بها ، ويرأس الحركة الأولى المحامي ابراهيم نصار ، فيما يرأس الثانية صالح برانسي ، وهذا الأخير من مؤسسى حركة الارض ، وقد زجت به السلطات الصهيونية فى سجونها لمدة عشر سنوات .

ويقدر أعضاء حركة أبناء البلد بمئات النشيطين وآلاف المؤيدين لكن نقطة الضعف التى تعانى منها ، تتمثل في قلة مواردها المالية ، واضطهاد سلطات الاحتلال الصهيونى لأعضائها ، وضعف بنائها التنظيمي الناجم عن ضعف التنسيق بين فروعها ، بسبب طبيعة نشأتها . وبالنسبة لتمويل الحركة ، يقول الناطق باسمها حسن جبارين ، إن الحركة تتلقى تبرعات من عرب ١٩٤٨ ، ويضيف أنه قام فى عام ١٩٨٣ ، بجولة في الولايات المتحدة لجمع تبرعات مالية للحركة من خلال إلقاء محاضرات بدعوة من منظمة خريجى الجامعات الفلسطينيين ، كما حصلت الحركة على تبرعات من « الصندوق الأمريكى الفلسطينى » الذي يرأسه الدكتور هشام شرابي ، حيث تبرع الصندوق بستة آلاف دولار للمجلس المحلي بأم الفحم ، ومع ذلك ، فإن سلطات العدو ، توجه بين الفينة والأخرى اتهامات للحركة بتلقى مساعدات مالية من منظمة التحرير الفلسطينية ، بهدف إرباك تحركاتها وتخويف قادتها وجماهيرها .

● ميلاد هذه الحركة كان في بلدة « أم الفحم » التي عرفت بنضالها ضد الصهاينة

النظام الداخلى للحركة

مع تصاعد التفاف عرب ١٩٤٨ حول حركة أبناء البلد ، وجدت الحركة نفسها أمام ضرورة ملحة لوضع نظام داخلى ، ينسق عملها ويحدد مسؤوليات القياديين فيها ، فكان أن تم وضع هذا النظام في عام ١٩٧٦ . وقد حدد النظام الداخلى المؤسسات التنظيمية للحركة على الوجه التالي :

أولاً : المؤتمر العام وهو أعلى سلطة في الحركة ، وتعتبر قراراته ملزمة للأعضاء والهيئات ، وهو يعقد مرة في السنة بشكل دوري ، ويمكن عقده في دورات طارئة إذا استلزم الأمر ، أما مهمة المؤتمر العام ، فهي تقرير الاتجاه الاستراتيجى العام للحركة بين دورة وأخرى .

ثانيا : الهيئة الادارية وتتكون من خمسة





أعضاء ، يتم انتخابهم من قبل المؤتمر العام ، والهيئة الادارية مسؤولة عن ادارة وتوجيه نشاط الحركة بين فترات انعقاد المؤتمر العام ، وتشكيل لجان فرعية تابعة للحركة .

ثالثا : لجنة الرقابة ومهمة هذه اللجنة هي مراقبة جمع مؤسسات الحركة وأعضائها .

رابعاً : اللجنة المالية وتتولى جمع الاشتراكات الشهرية من الأعضاء وتنظيم الحملات والتبرعات المالية .

ولابد من الاشارة أيضا ، الى أن حركة أبناء البلد ، تعتمد من حيث التنظيم على خلايا في التجمعات السكنية والجامعات ، إضافة الى خلايا للأشبال والفتيات .

الأهداف السياسية

ينفي الناطق باسم حركة أبناء البلد حسن جبارين ، أن يكون للحركة برنامج سياسى وفكرى مكتوب ، لكنه يشير الى وجود برنامج متفق عليه شفهياً ، ومع ذلك يقول جبارين « إن الشعب الفلسطيني يعتبر منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الوحيد ، وعرب ١٩٤٨ جزء من الشعب الفلسطيني ، وكل موقف تتخذه المنظمة يجب أن يأخذنا بالحسبان » ويضيف : « ان القيادة العسكرية الاسرائيلية لم تستطع قصم ظهر حركة المقاومة الفلسطينية ، وقد حاولوا القيام بعملية تدمير بيولوجي للفلسطينيين .. لكن لن يكون هناك تنازل عن المطالبة بإقامة دولة فلسطينية على أرض الوطن ، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، كما لا مناص من رفع العلم الفلسطيني في مدينة القدس » .

أما محمد كيوان فيقول : « لقد قامت حركة أبناء البلد لكي تعالج مشاكل محلية ، مثل نهب الأراضي ومصادرتها ، واهمال المدارس والخدمات العامة الجماهيرية » . ويضيف كيوان : أنه في هذا المجال ، فإنه لا يوجد فرق بين حزبي المعراخ (العمل) والليكود ، كما أنه لا يوجد أي فارق بين تهويد منطقة الجليل وما يصفه الصهاينة بتطوير الجليل .

وفي الواقع فان حركة أبناء البلد ، تعمل بحذر وتكتم ، فهي لا تعلن بشكل صريح في أكثر الأحيان عن أهدافها الوطنية الاستراتيجية ، ولذلك نراها ترفع شعارات مختلفة كأهداف آنية أو مرحلية ، مثل رفع مستوى الحياة في القرى العربية ، والغاء النظام العشائري ، ورفع مستوى التعليم ، ووقف مصادرة الأراضي ... الخ .

بيد أن التصريحات التي يدلي بها بعض المسؤولين في الحركة ، والنشرات الصادرة عنها ، والمواقف المعلنة في المناسبات والأحداث الوطنية ، تلقي مزيداً من الضوء على الأهداف الاستراتيجية لحركة أبناء البلد ، وتضع الحركة بالتالي في واجهة الأحداث ، كإحدى أدوات النضال الفلسطيني في الداخل .

وربما كان الكراس الذي نشره أحد قادة الحركة ، واسمه « محمد محارب » في مجلة « الدستور » الصادرة بلندن (العددان ٤٣٦ و٤٤١ – ١٩٧٩) ، يشكل برنامج عمل ومنهجاً سياسيا استراتيجياً لحركة أبناء البلد . ويتكون البرنامج من سبعة أبواب ، يضم كل منها عدة بنود .

ففي الباب الأول ، تتناول الحركة قضية الشعب العربي الفلسطيني منذ فجر نضاله ضد الانتداب البريطاني والاستيطان الصهيوني ، مؤكدة على وحدة الشعب الفلسطيني – على الرغم من تشتته – وعلى أن حركة أبناء البلد ، جزء لا يتجزأ من هذا الشعب ، وأن أي حل للقضية الفلسطينية ، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ، مصير عرب ١٩٤٨ ضمن هذا الحل . وترى الحركة ، أنه لابد للشعب الفلسطيني من أن يمارس حقه في تقرير مصيره بنفسه على أرض وطنه ، كما تؤمن الحركة بأن منظمة التحرير الفلسطينية ، هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني .

ويتحدث الباب الثاني عن الحركة الصهيونية ، وممارساتها الاستيطانية في فلسطين المحتلة . ويصف منهاج الحركة الصهيونية في هذا الباب ، بأنها حركة استيطانية استعمارية عنصرية ، ترمي إلى بناء وجودها على أنقاض الشعب الفلسطيني ، فضلاً عن ارتباطها مصيريا بالاستعمار الدولي ، ويستخلص المنهاج من ذلك ، أن الحركة الصهيونية وأداتها « اسرائيل » ، عدوتان للشعب الفلسطيني والأمة العربية .

أما الباب الثالث فيتطرق الى المسألة اليهودية ، وتقترح حركة أبناء البلد في هذا الباب من منهاجها ، على الشعب العربي الفلسطيني « وعلى اليهود » ، أن يمارسوا ما تصفه « بحقهم في تقرير المصير ، في إطار مجتمع علماني ديمقراطي اشتراكي ! ! وفي نطاق وحدوي تقدمي ، مع الوطن العربي ، تكون الحقوق القومية والدينية والحضارية مضمونة فيه ، لمختلف الأقليات القومية والدينية » .

وفي الباب الرابع ، يحدد المنهاج ، نضال الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت نير الاحتلال منذ عام ١٩٤٨ ، فتراه جزءاً لا يتجزأ من نضال الشعب العربي الفلسطيني ، ومن حركة التحرر الوطني والقومي الشاملة ضد الاستعمار العالمي .

وفي الخامس تؤكد حركة أبناء البلد ، أن الظروف الموضوعية والمرحلة التاريخية التي يمر بها الشعب الفلسطيني والأمة العربية ، تؤكد أن النضال في الأساس ، هو نضال تحريري وطني .

أما في الباب السادس ، فيعطي المنهاج صورة عن نضال الشعب الفلسطيني اليومي في الأرض المحتلة في عام ١٩٤٨ ، ضد سياسة النظام الصهيوني العنصري ، وممارساته القمعية والقهرية .

وفي الباب السابع تحدد حركة أبناء البلد ملامح أسلوب نضالها ، فتقرر أنه نضال سياسي واجتماعي وتربوي وحضاري ، يهدف الى تنظيم وتعبئة الجماهير العربية في منطقتي الجليل والمثلث وكل المناطق الأخرى المحتلة في عام ١٩٤٨ ، من أجل تحقيق أهداف الحركة ، وتؤكد حركة أبناء



جانب من مظاهرة وطنية اشترك فيها عرب الأرض المحتلة في قرية «أم الفحم»

البلد . رفضها لجميع التسويات السياسية ، وخاصة تلك التى ينص عليها قرارا مجلس الأمن الدولى رقما ٢٤٢ و٣٣٨ .

عودة الى حركة الأرض

ولاستكمال عملية تسليط الضوء على حركة أبناء البلد ، لابد من العودة الى جذور هذه الحركة ، أعني العودة إلى حركة الأرض ، التى تأسست في عام ١٩٥٩ ، خلال اجتماع ضم بعض المفكرين والكتاب من الشبان من عرب ١٩٤٨ ، هم منصور كردوش وحبيب قهوجي ومحمود السروجى وعبد الرحن يحيى ، وتوفيق عوده وحنا مسمار وزكى البحري . وقد تم اختيار اسم « حركة الأرض » للتنظيم ، للتعبير عن تعلق الفلسطينيين بأرضهم . وقد أصدرت الحركة ، التى أخذت تمارس نشاطها بشكل شبه سرى ، لعدم اعتراف السلطات الاسرائيلية بها ، أصدرت جريدة خاصة بها تحت اسم « الأرض » . ولما ماطلت هذه السلطات في الترخيص لها ، بدأ أعضاء الحركة بإصدارها باسم كل عضو مرة ، حيث وجدوا أن القانون يتيح لكل فرد اصدار نشرة لمرة واحدة دون ترخيص ، وهكذا صدرت « الأرض » بأسماء الأعضاء على التوالى ، وتحت عنوان مختلف بعض الشيء في كل مرة . مثل « الأرض الطيبة » و« شذى الأرض » و« نداء الأرض » و« هذه الأرض » .. الخ ،

بيد أن سلطات العدو أغلقت الجريدة وصادرت أعدادها في عام ستين ، بعد أن شنت حملة تشويه عنيفة ضد أعضاء الحركة الذين انضم اليهم خلال هذه الفترة كل من صبرى جريس والياس معمر . لكن جماعة الأرض ، حاولوا تسجيل حركتهم كحزب سياسى في عام ١٩٦٤ ، وأعدوا مذكرة بهذا الشأن رفعوها الى السلطات الاسرائيلية ، ووضعوا أمامهم أهدافا تنص على « حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم في نطاق الأماني العليا للأمة العربية » . غير أن السلطات الصهيونية رفضت المذكرة ، وأصدرت اتهاما ضد حركة الأرض « باعتبارها جمعية تهدف الى المس بكيان اسرائيل وبسلامتها » . وطالبتها بحل نفسها . وأتبعت هذا الاتهام باعتقال القياديين في الحركة ، ثم ما لبث رئيس حكومة العدو الصهيونى آنذاك « ليفى اشكول » أن أصدر قرارا بحل « حركة الأرض » وباعتبارها خارجة على القانون وهكذا بقي نشاط الحركة مجمداً حتى عام ١٩٦٥ ، عندما عادت إلى الظهور ثانية ولآخر مرة ، حيث شكل أعضاء الحركة قائمة لخوض الانتخابات العامة للكنيست السادس ، وكان من أعضاء هذه القائمة صالح برانسي وحبيب قهوجى وصبري جريس ومنصور كردوش وغيرهم . غير أن السلطات الصهيونية رفضت ترشيح القائمة أو أي من أعضائها ، كما نفت أربعة من قياديى الحركة إلى أماكن متفرقة داخل فلسطين المحتلة ، لتحول بينهم وبين خوض الانتخابات ، وكان ذلك إيذانا بتشتيت « حركة الأرض » وبعثرة قادتها ، الذين تعرض بعضهم للاعتقال عشية حرب عام ١٩٦٧ ، فيما تعرض البعض الآخر للابعاد من وطنه ، مثل حبيب قهوجى وصبرى جريس .

لكن فشل « حركة الأرض » ، لم يثن عرب ١٩٤٨ ، عن ايجاد صيغة أو صيغ أخرى للنضال ، فكانت « حركة أبناء البلد » أهم التنظيمات الفلسطينية التى انبثقت الى الوجود في مطلع السبعينات وأثبتت قدرة في المناورة ، مستفيدة من الدروس السابقة ، التى واجهتها « حركة الأرض » .

شعب لا يمل النضال

إن مسيرة حركات النضال لعرب عام ١٩٤٨ ، تثبت بجدارة حيوية الشعب الفلسطينى ، وقدراته الخارقة على التكيف مع المراحل النضالية واجتياز جحيم الآلام والعذابات ، واصراره على التعلق بالأرض ، والدفاع عن الحضارة العربية والتراث العربى .

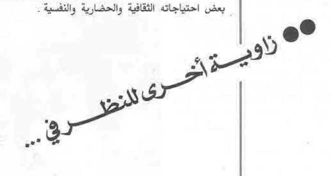
وحركة أبناء البلد تأتى في الخط الأمامي في مصادمة الأعداء ، والتصدي لهم بكل الوسائل المتاحة ، فهذه الحركة ، لا تعمل تحت الأرض ، بل في العلن وفي وضح النهار ، ولذلك فإن الزائر اليوم لبعض قرى منطقة الجليل بشمال فلسطين المحتلة ، وخاصة قرية « أم الفحم » ومدينة الناصرة تأخذه الدهشة إزاء جرأة الأعضاء في حركة أبناء البلد ، الذين تركوا بصماتهم في كل مكان من هذه القرى ، وعلى سبيل المثال ، تطالعك وأنت تدخل قرية « أم الفحم » التى تصدت للحاخام العنصري مئير كهانا قبل عام ونيف ومنعته من اقتحامها ، تطالعك علامات وشعارات الاستنكار والشجب والتنديد بالسلطات الصهيونية ، وبسياسة الاستيطان ، في كل شارع وعلى كل جدار في البلدة ، حيث رسمت أعلام فلسطينية ، وكتبت شعارات تقول : « كلنا فدائيون » ، « دم الثوار يطالبكم بالاضراب » ، « شعب واحد » ، « طريق واحد » وبعد هذا كله ، فإننا قد لا نعجب ، ونحن نسمع أحد جنرالات الجيش الصهيونى البارزين ، الجنرال « افيغدور بن غال » ، يصف عندما شغل منصب قائد المنطقة الشمالية ، عرب عام ١٩٤٨ ، والبالغ عددهم سبعمئة ألف نسمة حاليا ، بأنهم « سرطان في جسم اسرائيل » .

عصام شريح

لاشك أن قسما معتبرا من جمهور المسرح العربى يفتقد فنه المحبب ..

فالجمهور العربى للمسرح ليس موحد الذوق والهوى الفنى ، ولايرضى بعضه عما ينشئه القطاع الخاص المسرحى من قيم فنية أو فكرية .

مايزال بعض الجمهور يتطلع بشوق إلى مسرح جاد فى هزله كما فى جده ، عاقل فى إرسال عواطفه ، مترفع عن الهذر والإسفاف ، تتوازن فيه القيم الأدبية والقيم الفنية ، يرسخ الشخصية العصرية للمواطن ، ويلبى بعض احتياجاته الثقافية والحضارية والنفسية .



أزمة النصوص المسرحية

بقلم : ألفريد فرج

وليس هذا الشوق وهذا الأمل مما يهتم له بعض الجمهور فحسب ، وانما تهتم به أيضا السلطات الثقافية الرسمية فى معظم الاقطار العربية ، حيث تتطلع تلك السلطات والإدارات إلى أن يكون للمسارح القومية والمسارح المدعومة من المال العام .. عائد ثقافى وفنى لائق يوازى ما تغدقه تلك السلطات من مال على هذا الفن العربى اللامع .

ولأن الانتاج المسرحى الرسمى بخاصة وغير الرسمى بعامة لايطال هذه الأشواق والتمنيات ، ولايرتفع إلى سمت الآمال المعقودة عليه .. يتردد على صفحات الصحف وفى الندوات أن المسرح فى أزمة .

وأول ما يطالعنا فى الصحف وفى أقوال وآراء الفنانين فى هذه القضية هو الشكوى من ندرة النصوص المسرحية الجيدة ، ومن انصراف كتاب المسرح بخاصة وكتاب الدراما عموماً عن المساهمة الجادة أو الكافية فى إقالة المنصة من عثراتها .

وما دام هذا الجمع الكبير من الفنانين والنقاد قد اتفقوا على أن ندرة النصوص المسرحية الجيدة هى من أهم أسباب الأزمة ، فلا بديل لنا عن موافقتهم والدخول إلى لب المشكلة من بابهم .

أزمة النصوص المسرحية مشكلة .

نعم . ولكن .. هل هى مشكلة كامنة فى مكاتب المؤلفين وفى بيوتهم ، أم هى مشكلة فى الادارات المسرحية ذاتها .. أى فى منهج التعامل مع النصوص المسرحية ؟

ولايتعجل أحد بالمصادرة على بالتوهم أو الايهام بأن اختيار النصوص المسرحية الجيدة ان وجدت هو المبادرة البديهية والتى لايختلف عليها أحد فى أى مسرح .

لا . ان اختيار النصوص المسرحية ليس عملا عشوائيا وانما يحكمه منهج يعبر عن فكر ورأى واتجاه الادارة المسرحية .

ولكى أوضح ذلك فانى أعرض للمسرح القومى بالقاهرة وأميز بين أسلوب اختيار النصوص المسرحية فيه خلال ثلاث مراحل من تاريخه .















نعمان عاشور — عزيز أباظه — خليل مطران — زكي طليمات — سعد الدين وهبة

مرحلة البرج العاجي

أنشئت الفرقة القومية المصرية في أكتوبر ١٩٣٥ ، وتولى إدارتها شاعر القطرين خليل مطران طوال سبع سنوات .

وقد أنشئت الفرقة بدعم من الدولة في جو من الأزمة كان يعاني منه فن المسرح كله . وكانت الأزمة تتمثل في النسبة العالية للبطالة بين الممثلين وفي هبوط المستوى الفني للمسرح بعد الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٣٠ .

ولأنها كانت أول تجربة للدولة في مجال المسرح ، ولأن الدولة خشيت أن يتدنى مسرحها إلى مستوى المسرح الخاص ، ولأن الحكومة كانت حكومة توفيق نسيم باشا التي تضم نخبة من نجوم الأرستقراطية الزراعية وأبنائهم من خريجي السوربون واكسفورد ..

.. فقد حرصت في تشكيل الفرقة على أن تضع على رأسها الشاعر الكبير خليل مطران ، وأن تؤلف لجنة اشرافية تساعده برئاسة الدكتور حافظ عفيفي وعضوية الدكتور طه حسين والأستاذ محمد العشماوي وكيل وزارة المعارف والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد ماهر .

أما لجنة القراءة فقد ضمت الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والأساتذة عبد العزيز البشري وخليل مطران ومحمد عبد الرازق وخليل ثابت وهم على حد تعبير الصحف المعاصرة « أئمة الأدب بمصر » .

وقد رسمت اللجنة العليا للجنة القراءة سياسة تلتزم بها في اختيار النصوص فقررت أن الفرقة لابد أن « تلتزم باخراج الروائع العالمية مترجمة بأقلام الصفوة من أهل الأدب » .. ثم اشترطت على الفرقة « ألا تقدم أية مسرحية باللغة العامية » !

وطبقا لهذا المنهج الذي اتفقت عليه قيادات الفرقة لم يجد الأدب المسرحي الواقعي أو المتصل بحياة الناس العصرية ثغرة ينفذ منها إلى تلك المنصة الرفيعة . وكيف يمكن أن تصل إلى تلك المنصة شخصيات من عامة الناس كانت تجذب الجمهور في مسرح الريحاني ويوسف وهبي ؟ .. حتى توفيق الحكيم لم يجد طريقه الى الفرقة إلا بمسرحيتين بالفصحى هما « أهل الكهف » و« سر المنتحرة » .

وبدلا من أن يكون المسرح مرآة تعكس حياة الناس ، أصبح مرآة تعكس نزوع قياداته إلى التغريب والانبهار بالنموذج الفني الأوروبي .

● اختيار النصوص المسرحية ليس عملا عشوائيا ، وإنما يحكمه منهج يعبّر عن فكر ورأي

● كيف تحولت الفرقة القومية المصرية عند إنشائها إلى مرآة تعكس التغريب والانبهار بالنصوص الأوربية ؟

وهكذا قدمت الفرقة خلال ٧ سنوات ٣٢ مسرحية مترجمة ، و٦ مسرحيات مقتبسة ، في مقابل ١٥ مسرحية مؤلفة .

وكانت مسرحياتها المؤلفة في مجملها تلتهب بالعبارات البلاغية الجياشة في الفصحى متعلقة بحبال التغريب ذاته .

ولا نجد مع ذلك مؤلفا أحب تكرار تجربته مع المسرح ، ففيما عدا مسرحيتي الحكيم ومسرحيتين للشاعر أحمد شوقي نجد مسرحية واحدة لكل من محمد السوادي والسعيد يوسف موسى وطاهر حقي ومحمد خورشيد وابراهيم رمزي .. إلى آخر القائمة .

وكانت الفرقة تسمى المسرحيات العربية « بالتأليف المحلي » ، في مقابل « المسرحيات العالمية » صفة للمسرحيات المترجمة ، مما يوضح مرتبة المؤلف العربي عندهم .

ولم يكن انكار الفرقة للغة العامية رغبة منها في تثبيت الهوية العربية للمسرح . وهو هدف لو توخاه أصحاب الشأن لأثمر أفضل الثمرات وثبت اقدام « المؤلفين المحليين » .. عفوا أقصد المؤلفين العرب ، فوق منصة فرقتهم « القومية » . ولكن كان انكار العامية في الفرقة تأكيدا لمنهجها في الترفع عن حياة الناس ، والتعلق بأوهام البرج العاجي وبروح الصفوة والشعور بالامتياز .

الثقافة عندهم لم تتمثل في فهم قضايا الناس ، وانما كانت تتمثل في الترفع عن الخوض في تلك القضايا ، والتخلص منها .

وقد تمثل ذلك النزوع الغريب في اختيار الفرقة نصوص شكسبير وراسين وسوفوكليس وشيللر . ولم يلحظ أحد المثقفين المهيمنين على الفرقة أن المسرح الفرنسي ذاته ، أو المسرح الانجليزي لم يقدم مسرحية كلاسيكية أو قديمة إلا ليثير قضية معاصرة ويطرح رأيا في مشكلة معاصرة .





حتى ذلك لم تحاوله الفرقة قط ، وانما كانت تقدم تلك المسرحيات الحية بعد أن تستل منها الروح وتطرحها ميتة على المنصة .

ولاتجد الفرقة الى جانب ذلك قد قدمت مسرحية واحدة لتشيكوف أو جين أونيل أو جان انوى أو ابسن أو بيراندللو .. وكانوا فى ذلك الوقت أكثر الكتاب التماعا وملء السمع والبصر فى أوروبا وأمريكا .

فقد أنكرت الفرقة الواقعية والأدب الأوربى الحديث كله .. فيما عدا مسرحية وحيدة لبرنارد شو هى « تلميذ الشيطان » .

ولكن ترفع الفرقة لم يمنعها أحيانا فى مواجهة العزلة وإعراض الجمهور أن تتدنى لتتملق الناس بالاحتيال على المنهج وتقديم بعض المسرحيات الأوربية الرخيصة وتنتحل لها صفة « الروائع العالمية » . فقدمت بذلك مسرحيات لمارسيل بانيول ، وبرنشتاين ، والفونس دوديه ، وسمرست موم ، وهم من كتاب المسرح التجارى الثير .. فى محاولة يائسة لخدمة سيدين متناقضين : القيادة المثقفة المترفعة ، والجمهور المتعجب من مسرح الدولة الذى يحتضر .. بينما .. مسارح الريحانى ويوسف وهبى والمسرح الغنائى المستند الى تراث سيد درويش تمتلئ بالجمهور !

وقد انتهت حياة الفرقة القومية الأولى نهاية فاجعة تليق بترفعها وكبريائها الثقافى المزعوم ، بعد سبع سنوات من الاعراض عن الجمهور ، بقرار بحل الفرقة أصدرته حكومة الوفد عام ١٩٤٢ اتهمت فيه الفرقة بالفشل وبتبديد أموال دافعى الضرائب بلا طائل .

دفــاع الشــاعر

وقد دافع الشاعر خليل مطران عن سياسة الفرقة المنحلة فى بيان نشرته الصحف . قال فيه :

« ان ما يقال من أن الفرقة فشلت فى أن تجمع للحكومة إيرادا هو آخر ماكنت أظن أن أحداً يأخذه علينا . فحين عهد إلينا بادارة الفرقة لم يقل لنا المسئولون إن هذا واجبنا . بل قيل لنا إن مهمتكم هى ترقية التمثيل باخراج المسرحيات العظيمة والانتصار للغة العربية الفصحى وتثقيف الجمهور من طريق الفن .

« فاذا كان جهدنا لم يأت بالايراد الذى يتناسب مع تكاليفه فليس الذنب ذنبنا ، ولا يمكن لمنصف أن يعتبر هذا مقياسا لنجاح الفرقة أو فشلها ..

« ان الصالات فى مصر تربح أكثر من أى مسرح آخر ..

« وأكبر كتاب علمى يطبع وينشر على الناس لايزيد عدد النسخ التى توزع منه عن خمسين أو ستين نسخة .. بينما تباع من الروايات والكتب الرخيصة عشرات آلاف النسخ كل يوم » (!)

واضح أن الشاعر غضب ، ولعل اللجان المؤلفة من أئمة الأدب قد غضبت بدورها .

من البرج العاجى .. إلى السوق

ألفت الدولة فرقة جديدة باسم « الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى » .

وألفت لجنة اشرافية للفرقة من د . محمد صلاح الدين (وزير الخارجية فيما بعد) ومحمد الشريف (مدير البحوث الفنية بوزارة الشئون الاجتماعية) ويوسف وهبى ومحمد عبد الوهاب وزكى طليمات .

وكتب الأستاذ المخرج فتوح نشاطى الذى عاصر العهدين يقارن بينهما فذكر أنه « مما لاشك فيه أن الفرقة القومية كانت تسير فى الطريق السوى بما تقدمه من روائع الأدب العالمى ومن المسرحيات المصرية الرفيعة شعرا ونثرا . بيد انها كانت برجا عاجيا من أبراج الثقافة العالية (!) يخاطب

● كان المسرح القومي يرى أن انطلاق المسرح يكمن في الزواج الصحيح والصحي بين المسرح العربي والأدب العربي

● هكذا اتجهت الفرقة الجديدة إلى الناس ، بل ونازعت الفرق الهابطة جمهورها !



شيللر



سوفكليس



ابسن

> ● عندما دافع الشاعر خليل مطران عن سياسة الفرقة المنحلة في بيان نشرته الصحف

الخاصة أكثر مما يخاطب العامة ويضع سدودا بيننا وبين الشعب . وكان هذا من أهم اسباب ركود الفرقة القومية .. فجاءت اللجنة الجديدة وفتحت النوافذ المغلقة ، وكان من أولى حسناتها أن قررت تمثيل المسرحيات المحلية باللغة الدارجة الى جانب المسرحيات الأدبية » .

اتجهت الفرقة الجديدة إلى الناس .

قدمت فى سنواتها الأولى ثلاث أوبريتات لسيد درويش .

وقدمت خلال ١٤ سنة ٥٠ مسرحية مؤلفة بالفصحى وبالعامية مقابل ٣٠ مسرحية مترجمة و ٣٠ مسرحية مقتبسة .

وقد أدار الفرقة الأستاذ محمد حسن ، وهو موظف حكومى ، مدة ٦ سنوات ، ثم تقلب عليها من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٦ ستة مديرين غيره خلال ثمانى سنوات من اضطرابها فى منهج اختيار المسرحيات .

ويتضح هذا الاضطراب فى أن خمسين مسرحية مؤلفة قدمتها الفرقة فى ١٤ سنة كان من بينها ٣٠ مسرحية من تأليف يوسف وهبي وحده ، وهى مسرحيات مقتبسة قديما تغيرت أسماؤها مع مرور الزمن !

وكان للشاعر عزيز أباظة من جملة هذه المسرحيات سبع مسرحيات فقط ، بينما لم تقدم الفرقة لتوفيق الحكيم غير ثلاث مسرحيات ، وقدمت على أحمد باكثير فى ثلاث مسرحيات ومحمود تيمور فى ثلاث مسرحيات .. ثم مسرحية يتيمة لم تتكرر لكل من باقى المؤلفين الذين كره بعضهم تكرار التجربة وفشل بعضهم فى تكرارها .

فاذا دققنا فى الوصف وأدخلنا مسرحيات يوسف وهبى ضمن المسرحيات المقتبسة فان الفرقة تكون قد قدمت ٦٠ مسرحية مقتبسة و ٣٠ مسرحية مترجمة مقابل ٢٠ مسرحية مؤلفة .

ولعل الفرقة الجديدة قد تعلمت الدرس من فاجعة الفرقة القديمة أكثر مما ينبغى لها أن تتعلمه ، فانها نزلت السوق ونازعت الفرق الهابطة جمهورها ، وقررت غواية الجمهور بمسرحيات مقتبسة تراوحت عناوينها بين « كلنا كده » و « ابن مين فيهم ؟ » و « شارع البهلوان » و « أول بختى » و « بناقص واحد » و « زوج أمريكانى » و « ياتلحقونى » !

أضف إلى ذلك المواسم الكاملة لمسرحيات رمسيس وفواجع يوسف وهبى وميلودراماته الفاقعة التى تحولت بمرور الزمن إلى هزليات فكاهية يتندر بتقليده فيها الطلبة فى حفلات المدارس .

وفى إبان الحركة الوطنية والسياسية فى الأربعينات كانت الفجوة بين الفرقة والناس تتضح والخرق يتسع ، وتملق الجمهور تقل جدواه .

لم تستطع العامية أن تقرب المسرح للناس ، ولا استطاع اقتباس المسرحيات الأجنبية بكثرة أن يقنع الجمهور بأن المسرح مسرحه أو أن الفن موجه له ومن أجله ، حيث أن العامية وحدها لم تكن الا شكلا فنيا خاويا حيث كان المسرح لا يجأر بشكوى الناس أو يردد أمانيهم أو يحلق فى آفاقهم الفنية .

وقد استمر حال الفرقة مضطربا فكريا وجماهيريا حتى أدركته وزارة الارشاد القومى على عهد الوزير الأستاذ فتحى رضوان والوزير الدكتور ثروت عكاشة فتقرر تكوين المسرح القومى ثم مؤسسة المسرح على أسس جديدة .

المؤلفون

قياسا على ما قدمته الفرقة المصرية من مسرحيات خلال ١٤ سنة قدم المسرح القومى خلال نفس المدة من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٠ :

٧٣ مسرحية مؤلفة .. مقابل ٢٠

٢٨ مسرحية مترجمة .. مقابل ٣٠

٨ مسرحيات مقتبسة .. مقابل ٦٠

ومن بين المسرحيات المؤلفة قدم المسرح القومى ١٠ مسرحيات لتوفيق الحكيم ، و ١٠ مسرحيات لنعمان عاشور ، و ١٠ مسرحيات لسعد الدين وهبه ،و ٦ مسرحيات لكاتب هذه السطور ،و ٥ مسرحيات ليوسف إدريس ، ومسرحيتين لفتحى رضوان وثلاث مسرحيات ليوسف السباعى وثلاث مسرحيات لعبد الرحمن الشرقاوى وثلاث مسرحيات لرشاد رشدى ، كما قدم أكثر من عشرة مؤلفين مسرحيين لأول مرة للجمهور .

وهذه النسبة الواضحة بين مرحلة ومرحلة توضح اختلاف المرحلتين فى منهج التعامل مع النصوص المسرحية .

التعامل مع المسرحية المؤلفة تغير .. فبعد التعالى والترفع الأجوف فى المرحلة الأولى ، وبعد التصاغر والتدنى أمام الآداب الأوروبية ومحاولة تقليدها واقتباسها والتعلق فى حبالها .. فى المرحلة الثانية ، بادر المسرح القومى فى مرحلته الثالثة الى الاحتفاء بالمؤلف وضمان حقوقه على عمله والثقة فى حكمه وفى حقه فى التجربة والمبادرة ، ووضعه فى مكانته مما أتاح لعدد معتبر من المؤلفين أن يتخصصوا للمهنة ويتوفروا عليها .

وحتى توفيق الحكيم الذى زعم فى يوم من الأيام أنه كان غائب الوعى خلال المرحلة الأخيرة للمسرح القومى .. فقد كان حاضرا بمسرحه حضورا مكثفا لم يسبق أن تمتع به قبلها أو بعدها ، منتجا ومجربا وجماهيريا كما لم يكن فى أى وقت آخر .

وقد كان الاتجاه الى تكثيف الانتاج المسرحى المؤلف هو الطريق الصحيح لتأصيل هذا الفن فى التربة الوطنية ، وسار مسيرته بنجاح ، بالفصحى وبالعامية ، بالشعر وبالنثر ، فى الاطار الواقعى والعصرى وفى الاطار التاريخى وفى أطر التراث ..

ولم يكن هذا كله مجرد مبادرات للمؤلفين ، وانما كانت مبادرة حاسمة للمسرح فى منهج تعامله مع النصوص والحرص عليها أثناء عمليات الانتاج المعقدة وتكريم مؤلفيها بذلك الحرص فى انتاجها .

ان لكل مسرح منهجاً فى التعامل مع النصوص المسرحية : وهذا المنهج ينطلق من نظرية فكرية كاملة تملى عليه المفاضلة والانتخاب .. بما يحقق نظرية الفرقة الفكرية وغاية وظيفتها .

اهتمامات المسرح وتوجهاته هى الأبواب المفتوحة للكتاب مترجمين كانوا أو مقتبسين أو منشئين وهى الصلة الوثيقة بين المنصة وكتابها .

وقد كان المسرح القومى فى مرحلته من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٠ التى ذكرنا صورة لبرنامجها قد قرر أن تأصيل فن المسرح العربى لايتحقق إلا بالتأليف العربى ، وبالزواج الصحيح والصحى بين المسرح العربى والأدب العربى . وهذه كانت نقطة انطلاق هامة فى تاريخ المسرح .

ولنعد إلى أول الموضوع .

أزمة النصوص المسرحية مشكلة .. نعم ، ولكن .. هل هى مشكلة فى مكاتب الادارة المسرحية ذاتها ؟.. أى فى منهج التعامل مع النصوص المسرحية ، الذى تمليه النظرية الفكرية التى تحدد أهداف المسرح كمؤسسة ثقافية وقومية ؟

هذا هو السؤال .. الذى حاولت من جانبى الاجتهاد فى الإجابة عليه من وجهة نظرى .

الفريد فرج

التراث العربي
بين السابق.. واللاحق

بقلم: جمال الغيطاني




محمد علي — جمال الدين الأفغاني — الجبرتي

أثار الحوار الذي أجرته مجلة الدوحة معي (عدد اغسطس ١٩٨٥) ردود فعل مختلفة ، وقد آثرت كتابة هذا المقال لتوضيح بعض الأفكار التي جاءت به ، ومن أجل مناقشة موضوعية .

.. بداية يجب القول إن توجهي الى التراث العربي بمفهومه الشامل ، من تراث مكتوب ، وفن عربي ، وعمارة عربية ، كان نتيجة عوامل عديدة وربما امكنني ايضاح بعضها الآن ، من ذلك طبيعة نشأتي في حي عريق ما زال التاريخ القديم سيالا حيا فيه ، لا يتمثل فقط في الآثار المعمارية ، وشوارع وحارات لم تنلها مخططات المدن الحديثة . انما يمتد ليتواجد في العلاقات الانسانية بالناس ، ايضا رغبتي وطموحي منذ بدئي الكتابة في عام ١٩٥٩ الى الوصول الى أشكال فنية جديدة من التعبير . ليس التوصل الى أشكال فنية جديدة فقط هو الهدف في حد ذاته . لكنها الرغبة في إيجاد أفضل شكل ممكن للتعبير عما أريد أن أعبر عنه ، شكل يحقق لي قدرا أكبر من حرية التعبير ، وقد وجدت من خلال توجهي التلقائي الى التراث العربي أن هذا التراث يحتوي على عناصر القص ، وفلسفة الرؤية التي تمكنني من تحقيق هذا القدر من الحرية . وأذكر انني عندما كتبت قصة « هداية أصل الورى لبعض ما جرى في المقشرة » أن أحد الأصدقاء قرأها مخطوطة ، وقال لي ، انها مرحلة جديدة في القصة . ويومها عدت الى البيت وأنا أردد بيني وبين نفسي « انه يجاملني .. أحقا تمثل شكلا جديدا » ، ولكن بعد صدور مجموعتي القصصية الأولى « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، كتب النقاد عديداً من الدراسات حولها . هذه الدراسات ساعدتني في بلورة وتعميق اتجاهي الى التراث العربي . والشعور الأعمق بالثقة فيه ، والاتجاه الى وصل السابق باللاحق ، اذ إنني نشأت على التراث العالمي في الابداع ، في نفس الوقت كنت أعي شيئاً فشيئاً أن ثمة اشكالاً من القص والحكي والروى . قد انقطع عهدنا بها ، أو اذا جاز التعبير قد حدث انفصال بيننا وبينها ، وقد جاء هذا الانفصال أو بدأت هذه الفجوة في تقديري اعتباراً من نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ قدوم الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة الجنرال بونابرت ، حدثت هذه الفجوة في الابداع في اطار توجه عام الى الحضارة الأوربية ، شمل جميع المجالات ، بدءا من المعمار وحتى أساليب الكتابة ، وصاحب ذلك شعور عام أن الحضارة الأوربية هى المصدر ، وهي المرجع الذي ينسب اليه القياس ، ووصل ذلك في بعض المراحل الى شعور بالدونية الثقافية ، في الفلسفة مثلا نجد أن معظم الجهود التي تمت ، تمت في حدود نقل فلسفات ولدت في الغرب ، وشرحها ، وفي الجانب المقابل نجد بعض الجهود التي اتجهت الى شرح الفلسفة الاسلامية ، واعادة نشر بعض مصادرها ـ وليس كلها أو معظمها ـ ولم تتم حتى الآن محاولة متكاملة تستهدف التوصل الى فلسفة ذات أصول عربية متكاملة ، وان تنوعت الاجتهادات والجهود . وأخص منها بالذكر جهود الدكتور ابراهيم مدكور في تحقيق مصادر الفلسفة العربية والاسلامية وشرحها وتدريسها ، والجهد العلمي الممتاز الذي بذله الدكتور حسين مروة ، والدكتور الطيب التزيني ، والاجتهادات الاخيرة والدراسات التي يقوم بها الدكتور محمد عابد الجابري والدكتور جلال أمين والدكتور محمد عمارة وعادل حسين والشاعر الكبير ادونيس ، كل منهم في مجال اختصاصه ، وفي حدود اجتهاداته ، وبالطبع فإن عرض أفكار كل منهم مما يخرج عن هدف هذا المقال ، ان الجهود عديدة ، والقضية مثارة في أكثر من مجال ، ولكن ما يعنيني هو المجال الابداعي ، هو اعادة التئام هذه الفجوة التي حدثت بين القديم والحديث ، بين السابق واللاحق ، بين ما تعلمته وترسب في وجداني من تراث عالمي . وتراث عربي أصبح مهجورا .

من خلال تجربتي الخاصة ، ومن خلال كتابات النقاد عنها ، والجهود الفكرية الحديثة التي تتخذ التراث العربي محوراً لها ، وليس بهدف التقوقع ، أو الاحتماء بالقديم ، ومن خلال فهمي للتراث على هذه العناصر الحية المستمرة فى واقعنا اليومي المعاش ، وفى عناصر الثقافة الشفاهية أو المكتوبة ، ومن خلال احساسى بخطورة التوجه الكامل الى الحضارة الأوروبية ، والذي ترجع

جذوره إلى الحملة الفرنسية ، أمكنني بداية تحديد المنابع أو المصادر التي يمكن ان نثرى بها فن القص العربي . ويمكنني أن أوجزها فيما يلي :

• هناك بالطبع المصادر التي يتحدد فيها القص العربي المباشر ، وأبرزها ، شكل المقامة . والملاحم العربية الكبرى التي أصبح بعضها شعبيا وشائعا ، مثل سيرة عنترة ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، والزير سالم . والأميرة ذات الهمة وأبو زيد الهلالي . وقد وجدت السيرة الأخيرة شاعرا كبيرا يهتم بها ويجمع نصوصها الشفاهية من صعيد مصر ، والجزيرة العربية ، وتونس ، وحتى حدود تشاد ، أعني الشاعر عبدالرحمن الابنودي ، والذي آمل أن ينشر ما قام به من جهد خلال السنوات العشرين الماضية ، عندئذ سيضاف الى التراث العربي ، نص ملحمي فريد ، قد تكون له آثاره العميقة على الابداع الروائي في المستقبل ، هناك أيضا أيام العرب ، وموسوعات الأمثال العربية ، وأخص بالذكر موسوعتين الأولى للميداني ، والثانية للزمخشري . ان أهمية هاتين الموسوعتين لا تقتصر فقط على ايرادهما لآلاف الأمثال العربية التي مازال كثير منها حيا حتى الآن ، ولكن في ايرادهما لمئات الحكايات التي تشرح الاحداث التي أدت الى ضرب هذه الامثال ، سوف نجد فيهما فنا فريدا للقص ، خاصة للقصة القصيرة ، أسلوب خاص جدا لا يمكن إلا أن نجده في هذين المصدرين .

• اما الشق الثاني من المصادر فلأسميه أساليب القص غير المباشرة ، ومن ذلك حوليات التاريخ العربي الكبرى ، تلك التي تسجل الأحداث التاريخية الكبرى ، والتي تصل في دراميتها الى مستوى العمل الابداعي ، أو توحي بأعمال ابداعية كبرى ، أو تلك الحوليات التي تسجل ملامح الحياة العادية للناس في أزمنة مختلفة ، يمكننا أن نجد هنا أساليب مختلفة للقص هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية المضمون فلا حدود للحوادث الموحية ، والتي تضفي عمقا على الحاضر ، اليومي المعاش الآن وهنا أذكر حوليات الطبري ، وابن كثير ، والدينوري ، أما فيما يتعلق بتاريخ مصر ، فإنه يكاد يكون مدونا يوما بيوم منذ الفتح العربي وحتى يومنا هذا ، بدءا من ابن الحكم مرورا بالقضاعي والمسبحي والمقريزي وابن واصل وابن تغري بردي وابن اياس وابن عبدالظاهر والجبرتي ، بل ان هذا الشكل من الكتابة « الحوليات » ينفرد به التراث العربي ، وهناك العديد من الدراسات الاستشراقية لعلم كتابة التاريخ عند العرب ، أبرزها دراسة روزنتال .

• ينفرد التراث العربي أيضا بوجود شكل آخر من التأليف أعتبره مصدرا هاما من مصادر القص ، أقصد « الخطط » ، حيث يدون تاريخ المكان ، ليس مجردا ، انما في تطور ما جرى عليه من أحداث ، وما تعاقب عليه من بشر ، وما جرى عليه من معمار وهدم . وأشير هنا الى خطط المقريزي ، وخطط علي باشا مبارك ، وخطط الشام لمحمد كرد علي .

• مؤلفات السحر والتنجيم في التراث العربي ، مثل شمس المعارف الكبرى ، وتذكرة العارفين ، وغيرهما ، وهنا أشير إلى التراث الشعبي في هذا المجال ، فلم نكن نعيشه كتراث ، ولكن كواقع حي ، فالطفل الذي يمرض. وتعد له أمه حجابا تفعل ذلك باعتباره تصرفا حيا وجزءا من ممارساتها اليومية ، قد يقول البعض إنني ادعو الى الخرافة ــ فما أكثر ما عانيت من سوء الفهم ــ ولكنني أبادر إلى القول انني ألفت النظر الى أساليب القص في هذه المؤلفات وهو أسلوب جدير بالدراسة .

• في التراث العربي فرع هام يمكنني أن أسميه « كتب العجائب » والتي هي في معظمها تفسير للعديد من الظواهر الطبيعية التي كان الذهن البشري يعجز عن تفسيرها بحكم محدودية العلم الطبيعي في هذه الحقب ، وأخص بالذكر كتاب عمر بن الوردي « خريدة العجائب » وكتاب ابراهيم بن وصيف شاه « مختصر العجائب » ، والجزء الأول من تاريخ الرسل والملوك للطبري ، لماذا ينظر البعض إلى هذا الجزء من التراث على انه اقل من تراث الأساطير اليونانية ؟ ألم تحفل قصائد الشعر العربي بالرموز اليونانية ولم يجر التعامل مع التراث العربي بنفس القدر ــ باستثناء المرحوم الشاعر أمل دنقل ــ ، وابادر الى القول أيضا أنني لست ضد الميثولوجي اليوناني أو الاغريقي ، ولكنني أدعو الى الاهتمام بنفس القدر ، بنفس المستوى بالتراث الأسطوري العربي ، أدعو الى عدم اعتباره أقل شأنا من التراث الذي تعلمناه من الغرب ، ان التوجه اليه ليس فقط لتفرده ، وانما لأنه متصل بأعماقنا ، وكثير من عناصره مستمرة في حياتنا الحاضرة ومؤثرة أكثر مما نتصور ، لقد وجهت اهتمامي خلال السنوات الأخيرة الى محاولة استيعاب التراث الفارسي والهندي ، كثيرون منا يعرفون الالياذة والاوديسة ، لكن كم اهتم بقراءة « المهابراتا » الهندية ، أو الشاهنامة الفارسية ، وهنا يجب الاشارة الى صعوبة الحصول على مصادر هذا التراث ، فالشاهنامة الفارسية التي ترجمها الدكتور عبدالرحمن عزام لم تطبع الا مرة واحدة في الأربعينات ،كذلك ترجمات الدكتور يحيى الخشاب للقصص الفارسية ، أما المهابراتا فلم تطبع الا مرة واحدة في بيروت ، والأدب الفارسي يظل محصورا في اطار الدراسات الجامعية على الرغم من الدراسات العميقة التي قدمها الدكتور حسين مجيب المصري والدكتور أمين عبدالمجيد بدوي وغيرهما من الباحثين ، للأسف فان معرفتنا بتراث الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى تظل محكومة بما وصل الينا عن طريق الغرب .

• من مصادر القص العربي أيضا المؤلفات التي تدور حول الآخرة ، حول تصور ما سوف يجري في العالم الآخر ، ومضمون هذه المؤلفات قائم على عملية ابداع متكاملة . وأشهرها « التذكرة في أحوال الموتى والآخرة » للقرطبي ، ومؤلف آخر عن الآخرة للشيخ حسن العدوي ، اضافة الى أن العديد من حوليات التاريخ تتناول هذا الموضوع .

• من أهم المصادر للقص العربي ، التراث الصوفي ، في رأيي أن دراسة الأدب العربي لن تكتمل الا بتوجه جديد الى هذا التراث الروحي ، الصوفي ، وأن البحث عن أصول القصة العربية أو الرواية العربية ، أو فن القص العربي ، يجب الا يقتصر على دراسة المقامة ، والمنامة (الوهراني) ، والسير والملاحم ، انما يجب أن يشمل التراث الصوفي ، خاصة قصص الكرامات ، فالكرامة باختصار هي خرق العادة ، الخروج الى اللامألوف ، الى تجاوز الواقع ، المكان والزمان . انها قصص قصيرة ، مركزة ، موحية ، ضامرة المحتـوى . انني لست بصـــدد الخــوض في الكرامة أو تفسيرها ، ولكنني أحاول لفت الأنظار اليها كجنس أدبي ، وقد سبقني الى ذلك الدكتور علي زيعور في كتابه « الكرامة الصوفية » وهو جزء من موسوعته الكبرى « التحليل النفسي للذات العربية » وهي الدراسة العلمية الوحيدة لموضوع الكرامة . ان الخيال الابداعي في أدب الكرامة جدير بالتوقف طويلا والتأمل ، كثيرون انبهروا عندما قرأوا « مائة سنة من العزلة » وتوقفوا أمام مشهد طيران احدى بطلاتها في الهواء ، والتراث العربي الصوفي حاشد بالذين مشوا فوق الماء ، وعبروا المسافات البعيدة في الزمن القليل ، ولم يتوقف أمامهم أحد .

.. تلك هي معظم العناصر التي توجهت اليها في التراث العربي في محاولة لتأصيل شكل عربي من القص ، في فرنسا ، سألني أكثر من صحفي أو مثقف ، هل عرف العرب فن الرواية ، وكنت اجيب قائلا ، ان الفن القصصي العربي عرف أعظم ــ في رأيي ــ نص قصصي في العالم ، وهو ألف ليلة وليلة ، ولكن عندما يوجه البعض مثل هذا السؤال ، فانما يقصد الشكل الروائي كما عرفته الثقافة الأوروبية ، هذا ما يبحثون عنه أو يتساءلون عنه في التراث العربي ، بالطبع لن نجد هذه الأشكال الابداعية ، ولكن المؤكد أن التراث العربي فيه أشكاله الخاصة من القص .

* * *

إن همي الأساسي ينحصر في البحث عن العناصر التي عرضتها سابقا ، وتوجيه هذا كله الى النشاط الابداعي ، غير ان الأمر لا يتم بمعزل عن أطراف عديدة ، منها مثلا التوجه الى الغرب ، واعتباره المصدر المهيمن الذي نستقي منه التقاليد الثقافية ، والأشكال الابداعية ، والفلسفة ، وأساليب الحياة ، لقد بدأ هذا التوجه مع مجيء الحملة الفرنسية التي أحدثت صدمة حضارية لا شك فيها ، ولكن عندما جاءت الحملة لم يكن في منظور قائدها أو منظميها أو أفرادها نقل الحضارة الغربية الى مصر وبالتالي الى الشرق ، ولكن كان

الهدف استعماريا بحتاً ، صحيح أن نابليون أتى معه بالمطبعة . ولكنه لم يأت بها ليطبع الكتب العربية ، انما ليطبع المنشورات التي يوجهها الى الشعب المصري ، صحيح أنه أتى بالعلماء الفرنسيين ولكن لا لينقل العلم الحديث الى أبناء الشعب ، ولكن ليدرس هذه البلاد تمهيدا لجعلها هامشاً للحضارة الأوروبية وتابعة ، وقراءة مصادر الحملة الفرنسية تؤكد نظرة المستعمر لديهم . سواء في اليوميات التي كتبها بعض قادة الحملة ، أو في الصحيفتين اللتين أصدرهما نابليون في مصر ، « كوريبه دي ليجيبت » و « لاديكاد اجيبسيان » حيث ترد تعبيرات كثيرة منها « الشعب الهمجي » ، « الجهلاء » « المتخلفون » .. الخ ، لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة الحد القاطع الذي وضع حداً لتطور طبيعي كان يمكن أن يمضي ، انني من المؤمنين أن كلمة « لو » لا محل لها في التاريخ ، فما حدث وما جرى جرى ، ولكن ما يدعوني اليوم الى الاجتهاد هو محاولة لتدارك آثار التوجه التام الى الغرب ، بعد أن وصلت الى حد خطير في السبعينات دخل الى صميم حياة الناس اليومية ، والى النسق القيمي للمجتمع . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة بتر لتطور تاريخي يمكن أن يستمر في مصر بشكل طبيعي ، البعض منا لا يريد أن يرى أي امكانية للنهوض أو التقدم خارج الأنماط الأوروبية ، ولكن ماأريد أن أقوله هو أن مصر شهدت محاولات للتقدم والنهوض قبل مجيء الحملة الفرنسية بمعزل عن المؤثرات الأجنبية وأشير على المستوى السياسي الى محاولة علي بك الكبير التي أجهضت ، وفي رأيي أن بذور التحرك الداخلي المنطلقة من الظروف الخاصة لواقعنا لم تدرس تماما ، لقد بدأت بدايات نهضة مبكرة في مصر وتركيا قرب نهاية القرن الثامن عشر . العثمانيون بدأوا محاولة ادخال تحسينات على الجهاز العلمي والاداري والعسكري ، بدأ ذلك في عهد سليم الثالث ، ولم تكن مجرد محاولات ، بل أصبح نهجا ثابتا تم اقراره على الرغم من المعارضة القوية في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذي قضى على عسكر الانكشارية والذين كانوا يمثلون قوة محافظة تعمل على ابقاء أسس النظام القديم . أما في مصر فلم يكن الأمر جامدا عند مجيء الحملة الفرنسية ، بل كانت هناك ارهاصات أولى لهذا التطور الذي كان ممكنا أن يمضي طبيعيا لولا مجيء الحملة الفرنسية . ثم اتسعت الفجوة مع مجيء محمد علي ، وبالقضاء على المماليك في مذبحة القلعة انقطع العهد تماما بالقديم وكل ما كان ممكنا أن يحمله من إمكانيات ، وبدأ التوجه الى الغرب ، لقد أوفد محمد علي باشا البعثات الى أوروبا في جميع المجالات ، والى مصر جاء الأوروبيون ليحدثوا الجيش ، وليؤسسوا مدارس الطب والهندسة والحربية ، وأصبحت مصر في عهده دولة قوية ، ووصلت جيوشه الى مشارف الآستانة ، غير أن نظام محمد علي انهار في عام ١٨٤٠ . هذا الانهيار استوقفني طويلا ، لماذا حدث وكأن النظام القوي الذي شيده محمد علي أقيم فوق بحر من الرمال ؟ صحيح أن القوى الاستعمارية تضافرت عليه ، وقد كانت وما زالت استراتيجية الاستعمار تحرص على عدم قيام دولة قوية في مصر ، لأن مصر قلب العالم كما قال نابليون . في نفس الوقت كانت هذه القوى حريصة على تهميش الدور المصري خاصة الثقافي ، ومن خلال المثقفين الذين درسوا في أوروبا وعادوا الى مصر بدأ الاتجاه الى الغرب يتخذ مساراً أكثر عمقا ، يمس البنية الثقافية الاساسية للمجتمع . وللأفكار . والتقاليد والعادات . لقد كان هؤلاء مخلصين لوطنهم عندما درسوا في الغرب ونقلوا العلوم الحديثة الى مصر ، ولكن لم تبذل محاولة في اتجاه محاولة استيعاب هذا الوافد ، من خلال القديم . كما أن المؤسسات الثقافية التقليدية اتخذت موقفا متحجرا وانغلاقيا تجاه العلوم الجديدة والأفكار الجديدة ، وساهم النظام الحاكم في تعميق الاتجاه الى الغرب ، حتى ان الخديوي اسماعيل أعلن أنه يريد ان يجعل مصر قطعة من أوربا ، لقد أصبحت أوروبا اذن هي المثل ، وهي المرجع ، والمقصد ، وبدأ ذلك ينعكس على أوجه الحياة المختلفة ، ومعه بدأ أيضا ذلك الاحساس بالدونية تجاه الحضارة الأوربية وأنماطها الثقافية ، يقول جمال الدين الأفغاني :

« لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ .. نعم . ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وما شاكلها . وسموا أنفسهم زعماء الحرية ، ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية وعدوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ! واماتوا أرباب الصنائع من قومهم . وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها ! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الاعداء اليها ، وطلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم .. » (١)

* * *

ربما كانت العمارة أقرب الفنون الى الرواية ، من هنا جاء اهتمامي بها ، خاصة العمارة الاسلامية العربية التي نشأت في ظلال جدرانها ، وانطبعت تفاصيلها على الصفحات الأولى من ذاكرتي ، كما أن العمارة من ألصق الفنون بحياة الانسان ، اذ انها الاطار الذي يقضي فيه حياته ، سواء في بيته ، أو عمله ، أو عند تأدية شعائره الدينية . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

ما من شك في أن الانسان منذ أن وجد على الأرض وهو دائب الجهد في تكييف الطبيعة حوله لملاءمة حاجاته الجسدية والروحانية وانه كذلك بفطرته وحسه المرهف للجمال وعشقه للابداع قد حاول أن يصوغ كل ما تشكله يداه في قالب فني ، يحكيه مرة صورة ومرة تمثالا ومرة كلمة ومرة نغمة (٢)

اذن .. العمارة امتداد للبيئة . جزء من الواقع نفسه . ولكل واقع عمارته ومفهومه الخاص لهذا الفن النابع من الواقع : من المناخ ، من التقاليد الاجتماعية من المواد المحلية المتاحة ، وقد كانت العمارة العربية نابعة من الواقع نفسه ، تتكيف معه ، وتخضع لخصائصه ، واذا ما دخلنا أحد بيوت القاهرة القديمة ، على سبيل المثال بيت السحيمي ، سوف نجد عمارته تعكس التقاليد الاجتماعية،والتقاليد الفنية ، فالبيت مفتوح على الداخل ، حياة الانسان الخاصة مصانة . النوافذ تطل على الفناء الداخلي حيث الحديقة ، تماما كلوحات الخط العربي حيث تتجه حركة الخط الى الداخل في حركة مستمرة لا نهائية . تدور حول مركز موقعه القلب . مركز العمارة العربية ومحورها كان الانسان نفسه ، فالجدران مصممة بطريقة خاصة لتدرأ الريح والحر وقسوة المناخ ، وابتكر المعماري وسائله الخاصة للتهوية (الملقف)

● صحيح أن نابليون أتى معه بالمطبعة .. ولكنه لم يأت بها ليطبع الكتب العربية !

● إذا كان الإجتهاد مباحًا في أمور الدين ، أفلا يكون مباحًا في القضايا الفكرية ؟!



نابليون



على مبارك





الخديوى اسماعيل

ولتسخين المياه أو تبريدها . وفي ذروة الحرارة تكون درجة الحرارة داخل بيت السحيمي أقل من الخارج عشر درجات هكذا يقول المهندس المعماري العظيم حسن فتحي ، وفي العمارة الاسلامية العربية نفسها نجد فروقا واضحة . فالمئذنة العراقية لها شخصيتها المتميزة ، ولو ان معماريا مصريا وضع مئذنة عراقية على بناء مسجد مصرى لما اتسق الأمر . فما البال عندما تم استيراد الطرز المعمارية الغربية من بلاد الثلوج والضباب لتزرعها في قلب مدننا الحارة : ما البال وقد شيد المعماريون الذين درسوا المعمار الأوروبي ونقلوا تصميمات أبراج الالمونيوم المصمتة الى قلب عواصمنا العربية الحارة ، هنا يبدو الاتجاه الأعمى الى الغرب ، والانقياد التام ، ولكن كنت ابتسم ساخرا عندما أرى بعض الأثرياء الجدد وقد بنوا بيوتهم الخاصة ذات أسقف محدبة ، أسقف محدبة في بلاد لا يسقط فيها الثلج أما مطرها فشحيح ، يقول المهندس حسن فتحي في كتابه « عمارة الفقراء » هل يمكن تخيل شجرة ليمون تطرح ثمرة تفاح ؟ ، بالطبع لا . والوضع في العمارة التي استوحت تصميماتها من الغرب يترجم هذه المحاولات الشائعة لزرع طرز مستوردة غريبة في بيئة مختلفة . انه نفس المنطق الكامن وراء انتشار الأسماء الأجنبية في السبعينيات للمتاجر والمراكز التجارية ، حتى أن متجرا تخصص في بيع الأزياء الاسلامية أطلق صاحبه عليه « شوبنج سنتر » . لقد بدأ اتجاه العمارة الى الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أصبحت العمارة الغربية هى النموذج الذي يحتذى مع توجه الصفوة الى الغرب ، واعتباره المصدر الى أن وصل الامر الى ما وصل اليه في السبعينيات ، لقد تم التخلي عن تقاليد العمارة العربية ، وتحول البيت من الداخل الى الخارج ، واستبدلت مواد البناء بمواد غير ملائمة لطبيعة المناخ (الإسمنت ــ الألمونيوم) ، واليوم تقوم في القاهرة وفي العديد من العواصم العربية أبراج هائلة تقتدي بناطحات السحاب في نيويورك وتحمل أسماء أجنبية أصبح تداولها سهلا وشائعا (سكاي سنتر ــ كايرو سنتر ... الخ) ، وانتقل التشويه الى القرية المصرية نفسها ، فتخلى المعماري الريفي عن المواد الملائمة للطبيعة والمناخ التي كان يبني بها الأجداد منذ آلاف السنين ، ليستخدموا الطوب الأحمر والإسمنت ، ولم تلق نظريات المهندس فتحي طريقها الى التنفيذ ، وهى نظريات قائمة على تطويع العمارة للانسان بحيث تكون نابعة من البيئة . لقد انمحت الخصوصية التي تعبر عن ضرورة حياتية وليس عن قيم فنية مجردة ازاء تزايد الاتجاه الى الغرب والنقل المباشر عنه بدون مراعاة الواقع المحلي . وما يقال عن العمارة ينطبق أيضا على تخطيط المدن ، كان تخطيط المدينة العربية القديمة يخضع لاعتبارات عديدة نابعة من الواقع ذاته ، يقول الدكتور ثروت عكاشة :

وكان العرف المتبع في بعض قواعد التخطيط مثل مراعاة العوامل الجوية ، ومتطلبات الأمن والناحية التعبيرية الجمالية مطبقا في كلا المستويين الواعي والتلقائي ، فكانت الشوارع والحارات تخطط متعرجة ضيقة لأن المساكن والقصور والمباني العامة تضم أفنية وحدائق تستقبل الشمس والهواء من ساحاتها الداخلية التي لا تجعلها في حاجة الى الشارع المتسع ، فاقتصر اتساعه على ما يفي بمطالب المرور وغدو الباعة الجائلين ورواحهم ، كما كان بتعرجه وضيقه يوفر مساحات ظليلة ويتيح اختزان الهواء الرطب ليلا حتى يشيعه اثناء ساعات القيظ ملطفا من حرارة الجو . على العكس من الشارع المستقيم الواسع كالبولفار الأوروبي المعاصر الذي تستبيحه الريح صباحا ومساء (٣)

لقد بدأ التغير الكبير في مدينة القاهرة على يدي علي باشا مبارك الذي وضع أساس التخطيط الاوربي الحديث للمدينة . وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة على نمط الشوارع الباريسية . شارع محمد علي شق وكأنه نسخة أخرى من شارع ريفولي بباريس ، وبسبب شق هذا الشارع أزيل اكثر من ثلاثين أثرا اسلاميا ، وهكذا بدأ تغريب المدينة ، وعند مراجعة ما حدث للقاهرة ، فلا يعني هذا التهجم على دور علي باشا مبارك أو الانتقاص منه . ولكنه قام بذلك في اطار مفهوم معين يرى أن تطوير المدينة وتحديثها يجب أن يتم على النسق الاوربي ، وكان ذلك حلقة في الاتجاه الى الغرب ، ما أريد أن اوكد عليه أو أوضحه ان مراجعة دور علي باشا مبارك أو غيره من كبار المثقفين المصريين أو العرب الذين رأوا أن النقل عن الحضارة الأوروبية سوف ينتقل ببلادهم قدما لا يعني النيل من شخوصهم ودورهم ، لقد اجتهدوا ، وحق لنا أيضا أن نراجع ما قاموا به وأن نجتهد أيضا ، واذا كان الاجتهاد مباحا في أمور الدين ، أفلا يكون مباحا في القضايا الثقافية ، وتاريخ الفكر ، والتطور الفني ، والمعماري ؟ انني أرى باختصار شديد أن الاتجاه الى الغرب ، أو التغريب قد وصل الى نقطة خطيرة ، خاصة في سبعينيات هذا القرن ، بحيث أصبحت خصائص الشخصية القومية في معظمها مهددة بالاندثار والتغير ، ورافق هذا ظروف عالمية عديدة ، فالاستعمار القديم في الماضي كان يستفز المشاعر القومية ، والرغبة في الحفاظ على السابق ، وفي المغرب العربي الكبير . سواء في المغرب أو الجزائر أو تونس ، تمت المحافظة على الطابع المعماري للمدن القديمة ، صحيح أن العمارة الأوروبية موجودة ولكننا قائمة بعيدا عن الأقسام القديمة وفي تونس مثلا نجد الوزارات الهامة ورئاسة الوزراء في المدينة القديمة ، كما أن فاس القديمة ماتزال مختفظة بطابعها ، لقد كان الاستعمار القديم غشوما ، يستفز المشاعر القومية لأنه يحمل السلاح ، ويسعى الى الطمس التام للقديم ، أما ما نتعرض له في العقود الأخيرة فغزو من نوع آخر . غزو هادىء . يتم بالفيلم . بالفكر ، بتعميق الدونية الثقافية ، يتم باشاعة أنماط معينة من الحياة ، بمتاجر الأكلات الأجنبية ، وهو لا يأتي الينا على ظهور البوارج ، بل ان قوما منا يذهبون ويدفعون الأموال الطائلة ليأتوا به .

وهنا يجب أن أوضح أنني لست ضد الفكر الغربي أو الابداع الغربي ، فمنجزات الحضارة الاوربية ملك للانسانية الآن كلها ، ولكن ما أنبه اليه أن الخصوصية مهددة بالزوال ، وهذا يعني فقدان الأمة لهويتها . لا أريد استخدام تعبيرات تبدو مبالغة ، لكن هذا ما استشعره خلال السنوات الأخيرة ، والقضية الأساسية التي أتصور أن الفكر العربي والفن العربي مطالبان بالتوجه اليها ودراستها والتوصل الى نتائج محددة فيها ، هى كيف يمكن تزاوج السابق باللاحق ، بدون أن يطغي السابق على اللاحق ، وبدون أن يطمس اللاحق ما سبق .. تلك هى القضية .

جمال الغيطاني

هوامش

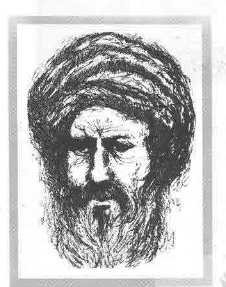
(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ١٩٥ ــ ص ١٩٧

(٢) القيم الجمالية في العمارة الاسلامية ص ١٢

(٣) القيم الجمالية في العمارة الاسلامية د. ثروت عكاشة ص ٥٨

أود الاشارة الى أن القسم الأول من الحوار الذي أجرته معي مجلة الدوحة عبارة عن مقتطفات من روايتي (كتاب التجليات) ، اختارتها السيدة المحررة . والتجليات عمل فني وليس سيرة ذاتية كما هو معروف .

كما ان الجزء الذي بدا وكأنه على لسان زوجتي مقتطف اختارته المحررة من موضوع صحفي نشر بمجلة صباح الخير القاهرية (فبراير ١٩٨٥)





العصبية والتضامن الاجتماعي عند ابن خلدون

بقلم : الدكتور علي الدين هلال

من القضايا التي انشغل بها الفلاسفة والمفكرون عبر التاريخ ، قضية تفسير طبيعة التضامن الاجتماعي والأسباب التي تدفع ببعض المجتمعات الانسانية إلى الافصاح عن درجة عالية من التماسك الداخلي والوحدة دون غيرها ، وعوامل تغير هذه الحالة في نفس المجتمع من مرحلة تاريخية لأخرى . وفي هذا المجال تعددت الاجابات وتنوعت التفسيرات ؛ فهناك من يقول بالدين ، وآخر يؤكد على اعتبارات الوطنية والقومية ، وثالث يقول بالحمية القبلية أوالعشائرية التي تستند إلى رابطة الدم ، ورابع يتحدث عن المصالح الاقتصادية .

فأين موقع مؤلفنا العظيم عبدالرحمن بن خلدون في هذا الشأن ؟ وأين مفهومه عن العصبية في هذا السياق ؟

لعل نظرية العصبية تعتبر من أهم النظريات التي توصل اليها ابن خلدون ، بل ربما لا نغالي إذا قلنا أنها المحور الذي تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية الأخرى في مقدمته ، وكما يذكر الأستاذ ساطع الحصري فانها أنظومة تامة التكوين في الاجتماع بصفة عامة والاجتماع السياسي بصفة خاصة (١) ولذلك نجد أن ابن خلدون قد تناولها من زوايا مختلفة في فصول مقدمته ، ويمكن تحديد أهم هذه الفصول فيما يلي (٢) .

ـ فصل أن سكن البدو لا يكون إلا بالقبائل أهل العصبية والفصول الخمسة التي تليه أي ص ١٢٧ ـ ١٣٤ .

ـ فصل أن الغاية التي تجري لها العصبية هي الحكم ص ١٣٩ ـ ١٤٥ .

ـ فصل أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية ، والفصول الستة التي تليه ، أي ص ١٥٤ ـ ١٦٢ .

ـ فصل أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة ، والفصل التالي ، أي ص ١٦٤ ـ ١٧٦ .

ـ فصل حقيقة الملك ص ١٨٧ .

ـ فصل كيفية طرق الخلل للدولة ص ٢٩٤ .

ـ فصل وجود العصبية في الأمصار ص ٣٧٧

ويقرر ابن خلدون أن الأساس الذي تقوم عليه العصبية هو الطبيعة الإنسانية والقرابة في الحياة الاجتماعية ، فصلة الرحم طبيعية في البشر وهي نزعة طبيعية (ص ١٢٩) وتلك النزعة في التقارب تؤدي إلى الالتحام والاتحاد والانصهار في بوتقة واحدة وتحمل البشر على التعاضد والتشيع والتناصر (ص ١٥٤) وعلى هذا الأساس نجد أن أفرادالنسب الواحد يتشاركون في حمل الديات ويتعاونون في دفع العدوان ، وعلى ذلك يمكن القول ان العصبية تتولد في القرابة من حيث الأساس وتستند إلى وحدة النسب في الدرجة الأولى (٣) .

ولا يكتفي ابن خلدون بذلك ولكنه يوسع مفهوم النسب من معناه الدموي الضيق ليضم الحلف

والولاء ويقول إن العصبية تكون بالنسب أوما في معناه (١٢٩) وأن اللحمة الحاصلة عن الولاء كلحمة النسب تماماً (ص ١٢٩) .

ثم يقرر ابن خلدون أن العصبية تكون قوية في الحياة البدوية ، ولكن في الحياة الحضرية فإن النسب والعصبية يفقدان قوتهما وذلك لأن البداوة تحمل في فحواها شيئاً من العزلة وعدم اختلاط الأنساب إلا فيما قل وندر (ص ١٢٩) كذلك فإن البداوة تفترض بطبيعتها نوعاً من العصبية القوية لأن الأفراد يقومون بمهمة الدفاع عن أنفسهم أما المنفردون بلا عصبية فيقعون ضحية يلتهمهم الأعداء (ص ١٢٨) . أما سكان الحضر والمدن والأمصار فيعتمدون في الدفاع عن أنفسهم وأموالهم على الحكم (ص ١٢٥) ولهذا فلا حاجة بهم إلى العصبية .

وبالرغم من أن ابن خلدون اعتبر العصبية من خصائص البادية وأن الحياة الحضرية تؤدي إلى ذبولها إلا أنه أوضح وجود العصبيات وتغلب بعضها على بعض في الأمصار (ص ١٧٧) وأن الالتحام شئ طبيعي عند البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد ولكن يكون أضعف مما لو كان عند الأنساب وهو يرى أن أهل الأمصار معظمهم ملتحمون بالصهر ويتجاذب بعضهم بعضاً حتى يكونوا لحمة وقرابة وتجد أيضاً بينهم عداوات وصداقات مثل الموجودة بين القبائل والعشائر وهكذا يتفرقون إلى شيع وعصائب . وعندما ينزل الهرم بالدولة وتضعف يتنازع كل صاحب صاحبه وفي النهاية لابد للبعض أن يغلب البعض الآخر وهكذا فإن الأسباب التي دعت إلى التنافس هي تقلص قوة الدولة من ناحية والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبية من ناحية أخرى .

الآثار الاجتماعيــــة والسياسية للعصبية

كما ذكرنا من قبل فإن العصبية تحمل الأفراد على التعاضد والتشيع والتناصر في القتال والمدافعة وهي ضرورية لأن من أراد بلوغ أي هدف لابد له من القتال لما في نفوس البشر من الاستعصاء وعند القتال لابد من العصبية (ص ١٢٨) وهنا يدرس ابن خلدون علاقة العصبية بالدولة ثم بالدين .

يرى ابن خلدون (١٣٩ ، ١٥٧) أن العصبية تلعب دوراً أساسياً في تكوين الدولة فغاية العصبية هي الملك ، فإن صاحب العصبية كلما نال مرتبة طلب ما فوقها (ص ١٣٩) ، وأنه في داخل كل قبيلة توجد عادة عدة عصائب ولكن تكون هناك عصبية واحدة أقواها تعلو هذه العصائب المتعددة وعندما تتغلب هذه العصبية على قومها تسعى إلى التغلب على أهل عصبية أخرى وثالثة وهكذا حتى تصبح قوتها في قوة الدولة .

فالعصبية ضرورية لتأسيس الدولة والملك ولكن بعد أن تستقر الدولة فقد تستغني عنها ، ففي أول الأمر تكون الدولة غير مألوفة عند الناس ويصعب على نفوسهم الخضوع لسلطانها والانضواء تحت لوائها ولن يتم ذلك إلا بقوة من العصبية ولكن عندما تستقر الرئاسة عبر فترة من الزمان يألف الناس وينسون ما كانوا عليه وتستقر فيهم روح الولاء ويومئذ لا يحتاج الحاكم لعصبية في حكمه (ص ١٥٤ ــ ١٥٥) .

● لماذا قدم ابن خلدون تفسيرًا للتطور السياسي أساسه فكرة العصبية ؟

وينتقد ابن خلدون الطرطوشي لقوله ان حماية الدولة تكون للجند وذلك لأن الطرطوشي أخطأ في اطلاق حكمه بناء على ملاحظة محدودة ذلك أنه شاهد دول الطوائف في فترة الاستقرار فقط دون أن يفطن إلى أن العصبية لابد منها في فترة التكوين (ص ١٥٦) ، ويؤكد مرة أخرى أن في مرحلة تكوين الدولة لابد من العصبية ، ويزيد ابن خلدون من أثر العصبية في بناء الدولة فيرى أن اتساع الدولة يتناسب تناسباً طردياً مع قوة العصبية وأن كل دولة لها حصة معينة من الممالك والمواطن لا تزيد عليها (ص ٦١) .

وهكذا فإن ابن خلدون يرى بأن نطاق الدولة محدود بالعصبية واتساع الدولة رهين بقوتها ويتزايد معها .

وعندما تنقص عصبية الدولة وتفقد قوتها تتجاسر عليها المدن والدول المجاورة وتستولى على بعض أجزائها (ص ١٦٩) ولتأكيد نظريته يستشهد ابن خلدون بالعرب في صدر الاسلام فعندما كانوا ذوي عصبية قوية غزوا العالم ولكن عندما فقدوا عصبيتهم تقلصت هذه الحدود وتراجعت أطرافها .

ولكن إذا كانت العصبية تلعب دورها كعامل مؤسس للدولة فانها يمكن أن تكون أيضاً عنصرا معوقاً لها فيكتب ابن خلدون فصلاً بعنوان: الأوطان كثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة . ويعلل ذلك بأن اختلاف الآراء وتعدد العصبيات يؤدي إلى كثرة الخروج على الدولة حتى وإن كان الحاكم له عصبية قوية لأن كل عصبية تظن في نفسها القوة والمنعة،ويستشهد بما حدث في شمال أفريقيا والمغرب في بداية عصر الإسلام فإن ساكنيها من البربر من ذوي القبائل والعصبيات ارتدوا وثاروا حتى بعد استقرار الدين فيهم وعادوا إلى الخروج (ص ١٦٤) والسبب في ذلك أن قبائلهم بالمغرب كانت أكثر مما تحصى ولذلك نجد طول فترة التمهيد والتكوين في أفريقيا والمغرب لتأسيس الدولة (١٦٥) وهذا يدل دلالة واضحة أن كثرة العصبيات تحمل في طياتها عدم الاذعان والانقياد وبعكس ذلك فإن الدول القليلة العصبيات أو الخالية منها أسهل ما تكون في تأسيس دولة (ص ١٦٤ ، ١٦٥) ويستشهد ابن خلدون في ذلك بالشام والعراق في صدر الاسلام فنظرا لعدم وجود العصبيات وكون الحاميات من فارس والروم غلبهم المسلمون على أمرهم وتأسست الدولة بسرعة ، كذلك يستشهد بمصر والأندلس فلم يتطلب تأسيس الدولة فيهما عصبية كبيرة نتيجة لعدم وجود العصائب الداخلية (ص ١٦٥ ــ ١٦٦) .





الفارابي

ساطع الحصري

العصبية والتضامن الاجتماعي عند ابن خلدون

وهكذا فإن هناك علاقة وثيقة بين العصبية وتماسكها من ناحية وتأسيس الدولة من ناحية أخرى ويبلور ابن خلدون هذه العلاقة عندما يتحدث عن أطوار الدولة وهي في رأيه :

(١) طور الظفر ويتم بقوة العصبية (ص ١٨٣) .

(٢) طور الفراغ والدعة حيث تسود الراحة والطمأنينة .

(٣) طور القنوع والمسالمة .

(٤) طور التبذير والاسراف ومن ثم انقراض الدولة وذبولها .

ولكن كيف يتم هذا التطور ؟ وماهي طبيعة هذه العملية ؟ يرى ابن خلدون أن الملك يقوم على أساسين :

١ ــ العصبية أو الجند .

٢ ــ المال الميسر لهؤلاء الجند .

والخلل يبدأ من هذين الأساسين فيقرر أنه في بداية الأمر لابد من وجود عصبية كبيرة وقوية تجمع العصبيات المتعددة ولكن هذه العصبية تزول في الطور الثاني للدولة وذلك لاستبداد صاحب الدولة بهم من ناحية ، ونتيجة لتأثير الترف في نفوسهم من ناحية أخرى نظراً لاشتراكهم في الحكم . وهكذا فان الترف والقهر يؤديان إلى زوال العصبية (ص ٢٩٥) .

وعندما يتم الفصل بين الملك وعصبيته الأصلية تتجاسر العصائب الأخرى عليه ويخرجون ضده وقد تنقسم الدولة حينئذ (ص ٢٦٥) ولكن قد يطول أمد الدولة بعد ذلك فتستغني عن العصبية وذلك برسوخ روح الانقياد والخضوع في أبنائها حتى تظهر عصبية أخرى جديدة ناشئة تقيم دولة جديدة وتبدأ الدورة من جديد . وهكذا يمكن القول أن ابن خلدون قدم تفسيراً للتطور السياسي أساسه فكرة العصبية فهو من ناحية مصدر الجماعة السياسية . ومن ناحية أخرى عنصر التطور الحركي فيها .

وبينما يؤكد ابن خلدون ضرورة العصبية الدينية فإنه يلاحظ نوعا من التشابه بين تأثير الدين وتأثير العصبية في الحياة الاجتماعية ، فالديانة تؤلف بين القلوب وتوجهها وجهة واحدة وينتج عنها التعاضد والتشيع (ص ١٥٧) ، ومن ثم فإن الدعوة الدينية تزيد قوة الدولة على ماكان لها من قوة نتيجة عصبيتها فالاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية فإذا حدث في قوم ما توفرت لهم الغلبة على من هم أقوى وأكثر عدداً منهم ، ولكن يلاحظ أنه إذا فقد هؤلاء القوم ذلك التجمع الديني فان التغلب الحاصل بفضل هذا الاجتماع سيزول وعندئذ يكون الغلب بناء على العصبية وحدها دون النظر للدين (ص ١٥٨) ويستشهد لتأكيد رأيه بما حدث للعرب في صدر الاسلام حين انتصروا في مواقع القادسية واليرموك على جموع فارس وهرقل مع ان الأولى كانت نحو مائة وعشرين ألفاً بالقادسية والثانية أربعمائة ألف باليرموك ، ويستشهد أيضاً بما حدث بين المصامدة وزناتة في دولة الموحدين فعندما لبس المصامدة لباس الدين تضاعفت عصبيتهم فغلبوا زناتة شر هزيمة رغم أنها أكثر بداوة ووحشية ولكن عندما تخلوا عن الدين هزمتهم زناتة .

وهكذا نجد أن أفكار ابن خلدون هي أقرب ما تكون إلى دائرة تدور حول فكرة محورية هي العصبية .

ابن خلدون وفلسفة التاريخ

يعتبر ابن خلدون من أوائل من تعرضوا لما عرف في أوروبا في القرن الثامن عشر بفلسفة التاريخ ويقصد به البحث الفلسفي في التاريخ ومحاولة استخلاص العناصر التي تحركه . لقد قدم لنا ابن خلدون دراسة في الاجتماع السياسي وفي الأساس الاجتماعي للنظم السياسية والتفاعلات الاجتماعية المتصلة بالجماعة السياسية الاجتماعية ، فالاوطان الكثيرة العصائب قل أن تستحكم فيها دولة وبالعكس الأوطان الخالية من العصبيات يسهل اقامة الدول فيها (١٦٤) كما نجد لدى ابن خلدون صياغات لعديد من الأفكار والنظريات المعروفة اليوم في العلوم الاجتماعية المعاصرة فالبعض يربط مثلا بين آرائه المتعلقة بالعصبية المركبة والعصبية البسيطة من حيث تتألف الأولى من عدة عصبيات بسيطة مكونة درجة أعلى من العصبية ورأى دوركهايم في المجتمعات المركبة والمجتمعات الحلقية . كما نجد لديه بعضاً من مفاهيم النظرية العضوية في الدولة فهو ينظر للدولة نظرته للفرد ويرى أن لها عمراً وأنها تهرم (ص ١٧١) وأن حدوث الهرم هو أمر طبيعي كما يحدث في الحيوانات ، وشبه ابن خلدون قوة العصبية بسائر القوى الطبيعية ويرى أن أثرها في مركز الدولة أقوى منه في أطرافها وذلك شأن الأشعة والأنوار عند انبعاثها من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء .

ان ابن خلدون يقدم مثالاً واضحاً لعظمة الفكر الاجتماعي العلمي في الإسلام فهو يعطينا صورة تحليلية للمجتمع في حركته الواقعية . لم ينشغل ابن خلدون بتقديم صورة مثالية للمجتمع الذي ينشده أو يبتغيه أو يتصوره للمدينة الفاضلة كما فعل اخوان الصفا والفارابي من قبل ولكنه اهتم برصد وتحليل التفاعلات الاجتماعية والسياسية في المجتمع وتحديد أنماط هذه التفاعلات وتفسير أسبابها وبواعثها ، ومن ثم قيمته المستمرة في مجال البحث الاجتماعي والسياسي في الشرق والغرب على حد سواء .

علي الدين هلال



هوامش

(١) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٣) ص ٣٣٤ ..

(٢) عمر فروخ : كلمة في ابن خلدون ومقدمته (بيروت ١٩٤٣) ص ١٤ ..

(٣) ساطع الحصري : مرجع سابق ص ٣٣٣ ...

نعـم أنت لا تدخن .. ولكنك محاصر بالضـرر في كل مكان !



التدخين السلبي



نعم أنت لا تدخن ، وهذه خطوة هامة للحفاظ على صحتك ، ولكنك بكل أسف معرض لأضرار التدخين أو مايسمى بالتدخين السلبي ، في المكاتب والمنازل ، وأماكن التجمعات المختلفة . فالخطر يلاحقنا في كل مكان ، وهو لا يكتفي بايذاء المدخنين أنفسهم ، ولكنه يطارد أيضاً غير المدخنين الذين يتعرضون لدخان السيجارة اللعينة . بل إن الخطر يلحق بالصغار الأعزاء حتى وهم مازالوا أجنة ، ما دام الأب مصراً على التدخين والأم تقلده في هذه العادة اللعينة ويظل الخطر يلازم الصغار في كل سنوات حياتهم ، حتى يشبوا متأثرين به أبلغ الأثر ..

والآثار والأمراض والمتاعب التي يتركها التدخين السلبي على حياة غير المدخنين لا حصر لها ولا عد ، وقد أثبتتها الدراسات العلمية الحديثة ، وهي تصل إلى حد الاصابة بالسرطان ، وولادة أطفال مشوهين ، وظهور أعراض الذبحة الصدرية وزيادة سرعة ضربات القلب وارتفاع الضغط ، وغير ذلك من المضار التي نتناولها هنا بالتفصيل . ولا شك أن هذه الخطورة تتطلب منا جميعاً خطوات بالغة الأهمية ، لنواجه هذا الأخطبوط الحقيقي ، قبل أن نتحول جميعاً إلى صرعى له ..



بقلم
الدكتور: عبدالله الباكر

وبداية فان التدخين السلبي : هو تعرض غير المدخنين لا إرادياً لدخان ومخلفات احتراق التبغ في الأماكن المغلقة ويعرف أيضاً باسم « التدخين اللاإرادي أو الاجباري » « والتدخين من الدرجة الثانية » .

دخان التبغ يسير في تيارين

١ ــ التيار الرئيسي « Main Stream » وهذا هو الدخان الذي يسحبه المدخن أثناء شفطه للسيجارة ، ويتجه رأساً إلى رئتيه ، ثم إلى أجزاء جسمه الأخرى ويخرج جزء منه مع الزفير .

٢ ــ التيار الجانبي « Side Stream » وهذا هو الدخان الذي يخرج من طرف السيجارة أو وسائل التدخين الأخرى ، وهو ناتج عن احتراق التبغ ، ويذهب رأساً إلى الهواء .

إذن فالدخن السلبي يستنشق دخان التيار الجانبي والدخان الذي يخرج مع زفير المدخن .

مكونات دخان التبغ

يحتوي دخان التبغ على أكثر من ٣٠٠٠ مادة معروفة ، وهذه المواد إما في شكل غازات أو في شكل دقائقي أو جزيئي ، وتوجد بتركيز أكثر في دخان التيار الجانبي والغازية منها بالذات . انظر جدول (١) الذي يبين أهم المواد الموجودة في دخان السيجارة مع نسبة وجودها في التيار الجانبي إلى التيار الرئيسي . هذه المواد الخطرة في الدخان بعضها مواد مسرطنة ، ولها تأثير على المدى البعيد . أما المواد الأخرى والتي لها ضرر حاد وسريع فهي أول أكسيد الكربون ومادة النيكوتين ، وهي ترتفع في الدم بعد ساعات قليلة من التعرض للدخان ، ويمكن اكتشافها في بقية الافرازات

التدخين السلبي

المكونات في الحالة الغازية	الكمية في التيار الرئيسى	نسبة الكمية في التيار الجانبي/ التيار الرئيسى	المكونات في الحالة الدقائقية	الكمية في التيار الرئيسى	نسبة الكمية في التيار الجانبى/التيار الرئيسى
ثانى أكسيد الكربون	٢٠ ــ ٦٠ ملغم	٨,١ ضعفاً	القطران	١ ــ ٤٠ ملغم	١,٣ ضعفاً
أول أكسيد الكربون	١٠ ــ ٢٠ ملغم	٢,٥ ضعفاً	الماء	١ ــ ٤ ملغم	٢,٤ ضعفاً
الميثين	١,٣ ملغم	٣,١ ضعفاً	تولين	١٠٨ مايكروغرام	٥,٦ ضعفاً
الاسيتالين	٢٧ مايكرو غرام	٠,٨ ضعفاً	فينول	٢٠ ــ ١٥٠ مايكرو غرام	٢,٦ ضعفاً
الامونيا	٨٠ مايكرو غرام	٧٣ ضعفاً	ميثايل نفثالين	٢,٢ مايكرو غرام	٢٨ ضعفاً
سيانيد الهيدروجين	٤٣٠ مايكرو غرام	٠,٢٥ ضعفاً	بايرين	٥٠ ــ ٢٠٠ ضعفا	٣,٦ ضعفاً
نيثايل فيوران	٢٠ مايكرو غرام	٣,٤ ضعفاً	بنزو بايرين	٢٠ ــ ٤٠ مايكرو غرام	٣,٤ ضعفاً
سينونايتران	١٢٠ مايكرو غرام	٣,٩ ضعفاً	أنيلين	٣٦٠ ملغم	٣٠ ضعفاً
ايروين	٣٢ مايكرو غرام	١٠ أضعاف	نيكوتين	١ ــ ٢,٥ ملغم	٢,٧ ضعفاً
ايمثايل نايتروكين	١٠ ــ ٦٥ مايكرو غرام.	٥٢ ضعفاً	٢ ــ نفثايل أمين	٢ ملغم	٣٩ صعفاً

بعض مكونات دخان السيجارة والنسبة بين كميتها في التيار الرئيسي والتيار الجانبي

وهناك من الدراسات ما يبين بأن النيكوتين يمكن اكتشافه لمدة طويلة في غير المدخنين المعرضين باستمرار للدخان السلبي ، مثل بعض الذين يعيشون في المدن المزدحمة .

أما أول أكسيد الكربون فإن أية زيادة في نسبته في البيئة الداخلية وهوائها عن « ٩ أجزاء من المليون » تعتبر خطراً على الصحة ، وآثار ذلك الفسيولوجية والصحية معروفة حيث إن هذا الغاز ينافس الأوكسجين في الارتباط بالهيموجلوبين وقوته تفوق الأوكسجين ٢١٠ مرات في هذا الشأن مكوناً اكسيجمور الكربون في الدم ، ليشكل خطراً على أنسجة الجسم بحرمانها من الاوكسجين الذي يحتاجه . ولولا أن التهوية تخفف من تركيز هذا الغاز لظهرت آثاره واضحة بالذات إذا علمنا أن التيار الجانبي من طرف سيجارة واحدة يقذف في هوائنا ٢٠٠ جزء من المليون .

وتأثير هذه المواد ونسبها الموجودة في التيار الجانبي يخضع لعدة عوامل ، منها عامل تخفيف التركيز عند الاختلاط بهواء الغرفة الأمر الذي يبين أهمية التهوية الجيدة ودورها ، عدد السجائر المدخنة في المكان ، عدد الأشخاص الذين يدخنون ، نوع السجاير المدخنة سواء بالفلتر أو بغيره ، وهل نسبة القطران والنيكوتين بها قليلة أو عالية ، حيث أن سجاير الفلتر والتي تحتوي على قطران ونيكوتين أقل ، أشد خطراً ، وتحتوي على نسب عالية من المواد في التيار الجانبي . كذلك الحال بالنسبة للسيجار بمختلف أحجامه ، والغليون . لذلك فإن درجة الحرارة والرطوبة والجفاف لها دور في التأثير ، مضاف اليها قرب المدخن أو سيجارته من غير المدخن أو المدخن السلبي .

التدخين وتلوث البيئة الداخلية

يتجه العالم اليوم إلى توفير الطاقة والحد من استهلاكها بالاتجاه إلى بناء الحجرات الصغيرة الحجم القليلة الارتفاع ، والتي تعتمد على الاضاءة الداخليةمع الاعتماد على العازل الحراري ومواده الكيماوية التي تكمن الخطورة في أكثرها .

فهناك من الدراسات الحديثة بالذات على المكاتب ومناطق العمل ما يؤكد أنه كلما ازداد الاتجاه في المكاتب الحديثة لتوفير الطاقة كلما ازدادت الضرورة إلى ايجاد نظام للتهوية غير المتوفر حالياً . فالخطر كامن في الدخان ، وفي المواد الكيميائية المنبعثة من بعض أنواع العازل الحراري ، ومن تفاعلات المواد الكيميائية في الدخان مع مواد العازل أو مواد اشعاعية في الجو ، حيث يحولها هذا التفاعل إلى مواد مسرطنة .

وتفيد نشرة حديثة صادرة من مؤسسة حماية البيئة الأمريكية عن الملوثات في البيت الأمريكي وتأثيرها على التحول الاحيائي أو الطفرة في الخلية البكتيرية ، بأن البيوت التي تستعمل أساليب طبخ غير كهربائية فان الملوثات في هوائها تؤدي من ١٠٠ ــ ٢٠٠ تحول احيائي في كل سم مكعب وهذا الفرق في التحول سببه المواد الملوثة الموجودة في التدخين .

ولقد قدرت نسبة أول أكسيد الكربون في بعض المناطق التي يكثر فيها الدخان ، وعلى سبيل المثال :

في قاعة المؤتمرات ٨ ــ ٣٣ جزءاًمن المليون
في الفواصات ٤٠ جزءاً من المليون
في الحانات ١٢ ــ ١١٠ أجزاء من المليون
في الغرف ١٥ ــ ٦٠ جزءا من المليون

المهم أن نعرف أن التعرض إلى هواء يحتوي على ٣٨ جزءاً من المليون لمدة ساعة واحدة يساوي تدخين سيجارة واحدة من النوع متوسط القطران .

قياس التعرض للتدخين

أصبح من الممكن قياس التعرض للتدخين السلبي بعدة طرق وأهمها قياس نسبة النيكوتين أو « الكوتينين » وهو من مخلفات تمثيل النيكوتين في الجسم وأكثر دقة في القياس . كذلك تقاس نسبة أول أكسيد الكربون ومادة الثايوسيئيت . ويستعمل من أجل قياس تلك المواد الدم والبول واللعاب والسائل الأمنيوتي والأغشية المشيمية ، وحتى حليب الأمهات وافرازات الثدى .

التدخين السلبي والسرطان

١ ــ سرطان الرئة : لا يزال سرطان الرئة يحتل المراكز الأولى في قائمة الوفيات في معظم البلدان . وبدأت نسبته تزداد في النساء إلى درجة أنه في الدول الغربية قارب نسبة حدوث سرطان الثدي ، ومن المتوقع أنه سيفوق نسبة الوفيات من سرطان الثدي في الولايات المتحدة في الثمانينات ، وذلك بسبب عادة التدخين التي انتشرت عند النساء .

إن علاقة التدخين بسرطان الرئة وصلت إلى درجة من القوة والتأكيد بحيث أن العلماء يميلون



فتاة أوربية تدخن وسط جو العمل .. وسواء كان المدخن رجلاً أو امرأة . فإن هناك ارتفاعاًواضحاً الآن في خطورة الاصابة بالسرطان في الأشخاص الذين يتعرضون للتدخين السلبي ..

● المدخِّن السلبي يستنشق دخان التيّار الجانبي والدخان الذي يخرج مع زفير المدخِّن!

● تدخين الزوج يُعَرِّض زوجته غير المدخِّنة للإصابة بسرطان الرئة بنسبة ستّين في المائة!

إلى عدم البحث عن سبب آخر لهذا السرطان غير السيجارة ، فهل للتدخين السلبي دور أيضاً في إحداث هذا السرطان ؟

لقد كان من الصعب الرد على هذا السؤال حتى أواخر السبعينيات وكان أي رد لا يحمل إلا التوقع والاعتقاد إلا انه منذ اوائل الثمانينات حتى يومنا هذا أصبح بالامكان الرد على هذا السؤال من خلال الدراسات المتوفرة الآن . ففي عام ١٩٨١ أطلق « هيرايايما Hirayama » أول صيحة عن هذا الدور في دراسة أجراها على ٩١٥٤٠ امرأة من غير المدخنات والتى استمرت ١٤ عاماً .

وقد وجد أن النساء اليابانيات المتزوجات من رجال يدخنون يزداد خطر وفاتهم بسبب سرطان الرئة عن النساء اللائي لا يدخن أزواجهن . وبرر ذلك على أساس تعرض النساء المتزوجات لدخان أزواجهن الدائم أثناء سنين الحياة الزوجية ، وبين أيضاً أن نسبة الخطورة تزداد مع زيادة التدخين وعدد السجائر المدخنة في اليوم ، وأظهر نسب الخطورة هذه على النحو التالي :

١ ــ نساء لايدخن ولايدخن أزواجهن ١٫٠

٢ ــ نساء لا يدخن ويدخن أزواجهن أقل من علبة في اليوم ١٫٦

٣ ــ نساء لا يدخن ويدخن أزواجهن أكثر من علبة في اليوم ٢٫١

وتزداد هذه النسبة في الخطورة في المناطق الزراعية في النساء المتزوجات لمدخنين وفي عمر متقدم .وأكد بذلك أن هناك علاقة واضحة بين الجرعة و بين ما تحدثه من أثر وأتبع « هيرايايما » ذلك بدراسة تكميلية عام ١٩٨٣ أي بعد ١٦ عاماً من الدراسة الأولى لتؤكد نتائجه الأولى ، ليس فقط على الوفيات بالنسبة للسرطان بل بالنسبة لحدوث السرطان نفسه . وقال : إن تدخين الزوج بغض النظر عن عدد السجائر يعرض المرأة غير المدخنة إلى اصابتها بسرطان الرئة بنسبة ٦٠٪

في هذه الدراسة الأخيرة لوحظ أن خطر الاصابة بسرطان الجيوب فوق الأنفية يزداد بشكل واضح أيضاً ، تبعاً لعادة الزوج في التدخين وكميته .

ولم يكن «هيرايايما» في الميدان وحده ، بل جاءت دراسة اليوناني « تروكوبولوس ومجموعته » سنة ١٩٨١ ، لتظهر نفس النتيجة وأعقبتها دراسة أخرى سنة ١٩٨٣ لتختتم الدراسة بنفس الاستنتاج . وفي الوقت نفسه صدرت دراسة كبيرة في أمريكا Garfinkel et al وبالرغم أن استنتاجها يؤيد ما توصلت إليه الدراسات الأخرى ، إلا أن الوفيات الاحصائية في النسب ليست ذات دلالة كبيرة . أما الدراسات الأمريكية "Correa et al" والألمانية « Knota et al » سنة ١٩٨٣ ودراسة ضخمة عن السرطان سنتعرض لها فيما بعد في أمريكا سنة ١٩٨٥ فنتائجها تؤيد النتائج الأخرىالتي نستخلص منها أن استنشاق دخان الآخرين لفترة طويلة من الزمن له علاقة بزيادة نسبة الخطورة من الاصابة أو الوفاة بسرطان الرئة ، وأن تدخين أحد الزوجين في المنزل وبالذات الرجال في مجتمعاتنا يؤدي إلى تلك النتيجة يضاف على ذلك خطورة تعرضنا خارج البيوت لدخان الآخرين أثناء العمل أو في المحلات العامة .

٢ ــ أنواع السرطان الأخرى :

إن علاقة سرطان الفم والبلعوم والمرئ والقصبات الهوائية والبنكرياس والمثانة ، وأخيراً أضيف اليها سرطان عنق الرحم بالتدخين بمختلف أشكاله أمر واضح ومعلوم ، لدرجة أن هذه الأنواع تسمى السرطان المتعلق بالتدخين . إلا أن النقاش حول دور التدخين السلبي فيها وفي أنواع السرطان الأخرى « غير المتعلقة بالتدخين » لم يظهر بوضوح إلا في الآونة الأخيرة . بعد أن نشر الدكتور ساندلر ومجموعته « Sandler et al » في أوائل سنة ١٩٨٥ دراسة بعنوان « التدخين السلبي في البالغين وخطورة الاصابة بالسرطان » والتي بين فيها ما يلي :

١ ــ هناك ارتفاع واضح في خطورةالاصابة بالسرطان عامة في الأشخاص الذين يتعرضون للتدخين السلبي .



التدخين في حضور الآخرين في البيت ، يترك آثاراً ضارة نتيجة الدخان المتصاعد ، تصل إلى الاصابة بالسرطان ..

٢ ـ هناك علاقة بين الجرعة والأثر حيث تزداد خطورة الاصابة بالسرطان بزيادة كمية التدخين وزيادة عدد المدخنين في المنزل الواحد .

٣ ـ أن خطر الاصابة به يزداد أيضاً كلما زادت فترة التعرض ، فالذين يتعرضون أثناء الطفولة وبعد البلوغ وفي فترة النضوج يكون الخطر فيهم أكثر من الذين يتعرضون لفترة واحدة فقط .

٤ ـ أن النســاء أكثر عرضة للاصابة بالسرطان ، وأن من هم أقل من خمسين سنة من العمر معرضون أكثر

٥ ـ يؤكد ما استنتجته الدراسات المذكورة أعلاه عن علاقة التدخين السلبي بسرطان الرئة ، مع أن عدد الحالات في دراسته كانت قليلة .

٦ ـ إن الربط بين التدخين السلبي ومواقع محددة للسرطان واضح احصائيا في هذه الدراسة ، حيث تبين :

• أن خطورة الاصابة بسرطان عنق الرحم تصبح ضعفين في حالة النساء اللائي يدخن أزواجهن ، ويؤكد بذلك ما سبقته من دراسات في هذا المضمار .

• أن خطورة الاصابة بسرطان الثدي تزداد بالتعرض للتدخين السلبي ، وأن هذه الخطورة ثابتة في مختلف الأعمار بين ٢٠ ـ ٥٠ سنة .

• وجد أن التدخين السلبي له علاقة بسرطان الغدد الصماء ، مع أن العدد الذي شملته الدراسة لم يكن كثيراً ومن بينهم ١١ حالة سرطان في الغدة الدرقية .

أمراض القلب والشرايين

مع أن العلاقة المدعمة بالأدلة العلمية بين التدخين بمختلف أشكاله وأمراض القلب والشرايين أصبحت في حكم المؤكد والمسلم به ، الأمر الذي تعترف به شركات السجاير بالرغم من نفوذها وسلطانها وتضعه في شكل عبارات تحذيرية على علبها ، إلا أن دور التدخين السلبي في هذه العلاقة واحداث المرض لا يزال في مراحله الأولى والأبحاث فيه قليلة . لكن تأثير هذا النوع من التدخين على مرضى القلب أصبح في حكم المعروف .

فلقد بين « اورنو Aronow et al » في أربع دراسات نشرها منذ سنة ١٩٦٤ أن وجود الدخان وتجمعه يؤدي إلى تقصير مدة ظهور أعراض الذبحة الصدرية في مرضى القلب بنسبة ٢٢٪ بعد اجراء التمارين في غرفة جيدة التهوية وتقصير المدة أيضاً بنسبة ٣٨٪ ان أجري التمرين في غرفة رديئة التهوية هذا بالاضافة إلى زيادة سرعة ضربات القلب ، وارتفاع الضغط وزيادة نسبة الكربوكسكي هيموجلوبين في الدم في الحالتين مع زيادته في الغرفة السيئة التهوية .

يعتقد أن اول أكسيد الكربون يلعب دوراً كبيراً إلى جانب النيكوتين في ظهور تلك الأعراض .كما أن دراسات أخرى وجدت أن سرعة ضربات القلب

● يجب أن نمنع التدخين تماماً في المكاتب والمؤسسات حرصاً على احترام حقوق غير المدخنين وحفاظاً على صحتهم

تزداد ، ويرتفع الضغط في الأطفال أيضاً عند تعرضهم للدخان الكثيف ، وأن الأطفال الذين يعيشون في بيوت ويدخن والداهم ، لديهم زيادة في الضغط وسرعة النبض أكثر من الأطفال الذين يعيشون في بيوت لا يدخن أحد فيها .

لذلك ينصح الأطباء جميع مرضى القلب سواء المتعالجين بالدواء أو الذين أجروا عمليات في الشريان التاجي بالامتناع عن التدخين ، والامتناع عن ارتياد الأماكن المكتظة سواء أماكن العمل أو البيوت ، أو أماكن التسلية التي يكثر فيها التدخين .

هذا إلى جانب أن بعض الدراسات الحديثة في محاولة لتفسيرها لعملية تصلب الشرايين تربط بين التدخين السلبي وتأثيره على الصفائح الدموية ، حيث أن قدرتها على الالتصاق تزداد بسبب نقص حساسيتها لمادة أوستاجلنديين المضادة لالتصاق الصفائح ، وهذا يؤدي إلى ترسيبها في جدار الأوعية الدموية .

التأثير على الأجنة

العلاقة بين تدخين الأم الحامل والمشاكل التي تصيب الأجنة مثل هبوط وزن المولود ، الولادة المبكرة قبل النضوج ، والاجهاض ، والنزيف أثناء الحمل ، وارتفاع نسبة الوفيات أثناء الحمل أو عند الولادة والتشوهات الخلقية وظاهرة الموت المفاجئ في الأطفال الرضع ، جميع هذه المشاكل مدونة علمياً . ولقد وجدت مجموعة من الباحثين أن النيكوتين أو ناتج التمثيل منه « الكوتينين » موجود في دم الأجنة والسائل الأمنيوتي وأنسجة المشيمة في النساء المدخنات .

أما في النساء غير المدخنات واللاتي يتعرضن للتدخين السلبي أثناء الحمل ، فلقد وجد أن السائل الأمنيوتي يحتري على كمية من الكوتينين ، ولا يعرف هل هذا ناتج من الأم أم أنها فضلات النيكوتين التي تكونت في الجنين ، ويسمى هذا التدخين السلبي « تدخين من الدرجة الثالثة » لدرجة أن دراسة من « ساوثهامبتون »بانجلترا تعتقد أن ثلثًا إلى ثلثي الأجنة هناك إما أن يكونوا مدخنين من الدرجة الثانية أو الثالثة .

التأثير على الأطفال

١ ـ التأثير على الجهاز التنفسي :

يربط العديد من الدراسات بين التدخين السلبي وأمراض الطفولة ، وزيادة أعراضها ، وغالبية هذه الدراسات توضح أن التأثير يزداد إذا كان الوالدان يدخنان ، وأن تدخين الأم أكثر أثراً وخطورة .

فالأطفال دون سن الثالثة والرضع في السنة الأولى بالذات معرضون للاصابة بأمراض الجهاز التنفسي كالتهاب الشعب الهوائية وداء الرئة في بيوت المدخنين ، مع ظهور هذا الأثر بسبب تدخين الأمهات لقربهن الدائم من الأطفال في هذه السن .

هذه الأمراض يقل حدوثها بعد سن الثالثة . ومع أن استمرار التعرض يحدث أعراضاً وأمراضاً في الجهاز التنفسي بعد ذلك إلا أن بعض هذه الأمراض التي تظهر في آخر مراحل الطفولة ومراحل النضوج يرى بعض الباحثين إرجاع أسبابها إلى الإصابة في مرحلة الطفولة الأولى . هذه الأمراض يعتقد أن سببها الإثارة من جراء تشبع أجواء المنزل وانتقال الميكروبات عن طريق الكحة التي يعاني منها المدخنون . لكن بعض الدراسات بينت حدوثها ،



حتى إذا كان الوالدان غير مصابين بأي مرض أو أعراض مرض الجهاز التنفسي.

أما الأطفال بعد ذلك من سن الثالثة فما فوق فإنهم معرضون للاصابات المزمنة كالكحة المزمنة وزيادة البلغم. كما أنهم معرضون أيضاً للالتهابات الحادة في الجهاز التنفسي حتى أن بعض الدراسات اعتمدت عدد عمليات اللوزتين كمؤشر لالتهابات الجهاز التنفسي المتكررة من جراء التدخين السلبي.

وتجمع الدراسات أيضاً على أن الأزيز يزداد في الأطفال المعرضين للتدخين السلبي أكثر من غيرهم ويخضع لنفس الأسس المذكورة أعلاه، حتى أن بعض الأطفال معرضون للأزيز المستمر الأمر الذي يحدث الارتباك والخوف في وسط العائلة هذا الأزيز والتأثر بالدخان قد يؤديان إلى الاصابة الصريحة بعرض الربو في الأطفال الذين يدخن والداهم.

ولقد بينت إحدى الدراسات أن تحسناً قد ظهر على حالات الأطفال الذين توقف والداهم عن التدخين بينما لم يطرأ أي تحسن على الذين لم يتوقف والداهم.

٢ ــ التأثير الفسيولوجي على جهاز التنفس:

بينت الدراسات الحديثة مع شيء من التأكيد أن التدخين يؤثر على وظائف الجهاز التنفسي باضعافها، وأن درجة هذا التأثير يمكن أن يكون لها دور كبير في معرفة الأشخاص المعرضين للاصابة بأمراض الجهاز التنفسي المزمنة كالتهاب القصبات الهوائية المزمن والانفزيما. هذا الاستنتاج جاء نتيجة تجارب مختبرية واكلينيكية على وظائف الجهاز التنفسي في الأطفال. حيث وجد بالاضافة إلى القصور في هذه الوظائف أن درجة نمو الرئة في أطفال المدخنين تقل بنسبة ٥٪ عن الأطفال العاديين.

٣ ــ التأثير على الأجهزة الأخرى:

ظهرت أخيراً دراسات مختلفة تبين أن التدخين السلبي له دور في التهاب الأذن الوسطى، واستمرار تدفق الإفرازات منها، وله دور أيضاً في احداث المغص المعوي لدى الرضع والأطفال الصغار. ويؤثر على الانتاج المدرسي والتركيز الذهني. كما بينت دراسة كبرى من بريطانيا على الأطفال من ٧ ــ ١١ سنة أن التدخين السلبي يؤثر على الطول حيث وجد أن أطفال المدخنين أقصر «بسنتيمتر واحد» من الأطفال غير المدخنين.

يبقى مع ذلك كله أن الأطفال الذين يدخن والداهم، أو أحدهم في الغالب يتجهون للتدخين، وفي سنين مبكرة مضيفيين بذلك خطرا جديداً لصحتهم.

بعض الظواهر المرضية

١ ــ ظاهرة فرط الحساسية في بعض الأشخاص: وحدوث الطفح الجلدي الاستشرائي. وهذه يحدثها النيكوتين حيث يعتقد أنه يعمل كمثير للأجسام المضادة، وبالامكان أن يحدث عند بعض الناس الحساسة لمجرد تعرضهم لنفخة واحدة.

٢ ــ ظاهرة رينود Raynaud وهي عبارة عن ازرقاق فجائي في الأطراف العليا، ويعتقد أن النيكوتين في التدخين السلبي يؤدي إلى تقلص شرايين الأصابع. ولقد سجلت هذه الحالة في زوجتين تزوجتا رجلا يدخن بكثرة، وتم شفاء الأولى بانفصالها النهائي عنه وشفاء الثانية بالابتعاد عن مناطق الدخان.

٣ ــ التأثير النفسي البدني Psychosomanic التغيرات في وظائف النفس بدنية أيضاً نالت قسطا من الدراسة سواء الوظائف التأملية أو التي تستدعي الانتباه والتركيز. فالتدخين بما فيه من زيادة في أول أكسيد الكربون تقلل من القدرة على التركيز في قيادة السيارات بالاضافة إلى ضعف رد الفعل السريع، والتأثير على البصر من حيث القدرة على تمييز الألوان والتفرقة بين الأشياء وتقدير قوة اللمعان. كما أنه يؤثر على حقل الابصار واستعادة القدرة على البعد الجيد بعد التعرض للضوء الشديد. كما أن له أثراً على ترابط الكلام وانسيابه.

٤ ــ التأثيرات الحادة:

كثير من الدراسات بينت أن الكثيرين يشكون من تعب واحمرار في العيون مع افراز الدموع، وهي شكوى عامة في الأماكن المليئة بالدخان. ويأتي الصداع كشكوى بعد ذلك وتليه الاثارة للغشاء الأنفي، والبلعوم والكحة التي تصل إلى حد المضايقة. هذه التأثيرات تظهر بشكل أسرع وأكثر مضايقة في الأشخاص الحساسين والمصابين بأمراض مختلفة كالربو مثلاً، حيث تظهر أعراضه بسرعة عند تعرضهم للدخان.

٥ ــ لا يفوتنا أن نذكر الاشمئزاز من الرائحة الكريهة التي تنبعث من أماكن التدخين، وبالذات إذا كان الأشخاص في أماكن مغلقة. ويكفي لمعرفة ذلك أن يشم غير المدخن ملابسه في اليوم الثاني بعد خروجه من مكان فيه مجموعة من المدخنين.

نصائح محددة

ــ مساعدة الجمعيات والمؤسسات الصحية في مكافحتها للتدخين، ومطالبتها بوضع خطط جديدة لتنقية هوائنا من الدخان، على أن تركز هذه الخطط على غير المدخنين ليعرفوا حقوقهم وحريتهم في رفض التدخين السلبي وأضراره، وأن يدافعوا عنها بكل قوة تفوق قوة وصلف المدخنين واصرارهم.

ــ منع التدخين كلية في المكاتب والمصالح والمؤسسات وأماكن التجمع العامة احتراماً لحقوق غير المدخنين وحفاظاً على صحتهم.

ــ حيث أن دخان التبغ هو أحد الملوثات الخطيرة الشائعة في البيوت وهي من الأماكن التي نقضي فيها أكثر أوقاتنا، فإن أسلم الأمور أن نمنع هذا التلوث بعدم السماح بالتدخين داخل المنزل أو داخل الحجرات الصغيرة، حتى بالنسبة لضيوفنا دون مجاملة أو تنازل، لأن في ذلك مصلحة للجميع، حتى المدخنين أنفسهم، حيث يقل استهلاكهم، وربما يؤدي إلى اقتناعهم بالتوقف النهائي.

ــ حفاظاً على صحة الأسرة ابتداء من أجنتها في بطون الأمهات حتى أكبر انسان فيها، لابد من منع التدخين في المنازل واستعمال مختلف الأساليب والنصائح المتوفرة للجميع لدى الجمعيات والمؤسسات الصحية التي تكافح التدخين.

ــ توجه نظر العائلات إلى حالات الكحة المتكررة في أطفالها وحالات التهاب الممرات الهوائية، أن يخبروا طبيبهم، حتى إذا كان مدخناً.. مع الأسف!!، بصراحة عن تاريخ التدخين وطبيعته في المنزل، إذ أنه في الغالب له علاقة بالمرض.

ــ على المرضى المصابين بأمراض القلب إلى جانب ضرورة امتناعهم عن التدخين، أن يتجنبوا أماكن وجود وتجمع المدخنين، وأن ينبهوا المدخنين إلى وجودهم، ولا داعي للمجاملة أبداً في ذلك، وعليهم أيضاً حمل لواء مكافحة التدخين والتدخين السلبي إذ أن مجموعة كبيرة منهم كانوا من ضحاياه. كذلك الحال بالنسبة لمرض الربو والحساسية بمختلف أشكالها.

وبعد، إذا كان توجه الناس منذ سنين ومطالبتهم بمنع التدخين في الأماكن العامة هو شكل من أشكال التعبير عن استيائهم بسبب المضايقة والإثارة ورائحة الدخان الكريهة فإن مطالبتهم اليوم يجب أن تكون تعبيراً عن معرفتهم بخطورة التدخين السلبي عليهم، وعلى الأجيال القادمة من بعدهم ولا داعي للمزيد من الضحايا لإثبات خطورة سموم الدخان.

عبدالله الباكر

الشاعر العربي
بلند الحيدري

الشاعر المُزيَّف أوجد الناقد المُزيَّف

حوار: مفيد فوزي

الحوار مع شاعر كبير ، يتطلب الكثير !

ــ من الضرورى ، بداية ، التعرف على قصائده والسكنى فيها .. إن أمكن !

ــ من المهم ، التحرى عنه انساناً ، والا كان اللقاء به .. كالابحار بلا شراع !

ــ من المفيد الاهتداء ، برأى النقاد فيه ، فالنقد الجاد ، اعادة اكتشاف للمبدع .

ــ من الواجب الائتناس بنظرة رفقاء جيله له ، إن كان هذا متيسراً .

ــ من الانصاف ، الخضوع لنزواته المشروعة ومزاجه المتقلب ، فهو شاعر وليس موظفاً فى مرفق حكومى . وهذا المزاج ــ مهما كانت درجته ــ جزء من نسيجه الإنسانى ، وربما كان المحرض على الشعر !

....

بأمانة شديدة حاولت أن أطبق النقاط الخمس على الشاعر العراقى الكبير « بلند الحيدرى » الذى كان فى العاصمة الأردنية عمان ضمن وفد شعراء العراق لمهرجان جرش . حين سألت عنه تليفونيا فى الفندق الذى يقيم فيه .. لأحدد موعداً ، جاءنى صوته المهذب والآسر فى نفس الوقت . قال لى انه يحب أن يرانى قبل أن يحدد الموعد لأنه لا يرحب بلقاء انسان ملثم . وصحح لى طريقة نطق اسمه . قال إن الباء بالضمة وليس بالفتحة !

وقبل أن أذهب للتعرف عليه ، ذهبت أبحث عن مجموعته الشعرية الكاملة . وقضيت معها ثلاث ليال متواصلة ، وأعترف أننى فى البداية لم استوعب أبيات الحيدرى لأنها ــ على حد قول الروائى الناقد جبرا ابراهيم جبرا ــ « ليست سخافات مقفاة » . ثم « عاشرت » القصائد بتركيز شديد ، فدلفت إلى رأسه وأظن أننى وضعت قدمى على عتبة عالمه الشعرى الفسيح .

« على عـــالـــم نصفه ميت
فتحت عـــيـــونـــى واغمضتـهـــا »

هكذا يقول بلند الحيدرى (بضم الباء) !

وقابلت الشاعر عبد الوهاب البياتى فى جرش فى مدرج ارتيميتس حيث يلقى الشعراء قصائدهم .. وسألته عن رفيق جيله بلند ، فقال إنه « شاعر مبدع فى أساليبه الجديدة التى حققها وفى طريقته التى لا يقف فيها معه الا شعراء قلائل من العراق » .

وصارحت البياتى باحساسى الأول عن قصائده . فقال إن فن بلند برقى ، مكثف الاحساس . إنه فن صعب ، والفن الصعب فن جيد تشم فيه رائحة الابداع .

وقال لى البياتى ــ الذى تربطنى به صداقة ولدت ذات ليلة فلامنكو أسبانية ــ إن بلند يعيش الآن فى لندن .

وعثرت على رأى للشاعر الراحل بدر شاكر السياب فى كتاب (أصوات من العراق) يقول عن بلند الحيدرى إن « قصائده الرائعة أكثر واقعية من مئات القصائد التى يريد منا المفهوم السطحى أن نعتبرها واقعية .. » .

وكنت أتناول الغداء مع الأستاذ الدكتور محمود الشلبى أستاذ اللغة العربية فى جامعة اليرموك ورئيس لجنة الشعر فى مهرجان جرش ، حين جاءت سيرة بلند الحيدرى فقال « لعل ماكتبه الصحفى الانجليزى الباحث دزموند



● لا أحب صوت ناظم الغزالي ولا طريقة أدائه !

● السياسة حوّلت الشاعر إلى أسد سيرك !

● إذا كان الرجل هو التاريخ فالمرأة هي الجغرافيا

ستيوارت بعد أن قرأ أشعاره مترجمة يجيب على تساؤلك : « ما يميز بلند الحيدرى عن شعر معاصريه أن قصائده تنفذ إلى صميم فكر قارئها حيث تبث جذورها لتثمر بعد حين . انها قصائد صادقة بعيدة عن المبالغة وعن الشعور المصطنع . إنه يعبر عن الشعور بالخيبة الذى يمتاز به العصر الحديث ، وهذا التعبير هو أصدق من قصائد الحماسة المتعمدة التى ينظمها الشعراء السياسيون » .

وعكفت على دراسة للناقد جبرا ابراهيم جبرا وكان يقول عن بلند الحيدرى « ان قصيدته لن تستطيع أن ترفع منها بيتاً واحداً من مكانه دون أن تترك فجوة ظاهرة فى المعنى والتركيب » .

وذهبت أراه فى مدرج أرتيميتس بجرش قبل موعدنا الذى حدده . شعرت أنه « سفر تجارب » . رأسه الكبير ، رأس طبيب جراح ولا أدرى لماذا أعطانى هذا الانطباع . هل يشبه جراحاً كبيراً .. أعرفه ؟ ربما !

وأنا أستمع لقصيدة من قصائده ، خيل إلى أنه يقدم سيناريو لحادثة موزونة .. الكلمات مداليل للأشياء فى ذهنه .

صحيح فاتنى فهم بعض ما يقصده ولكنى تذكرت قول الأب بريمون (لا حاجة لفهم الشعر فالسحر المنبعث من موسيقاه يغنى عن هذا الشعر ..) .

القصيدة عند بلند الحيدرى لا يقوم جمالها على الانسجام الصوتى المجرد والحذر الناجم من تناسق الألفاظ أو جرسها كما هو الحال عند نزار قبانى أو سعيد عقل . القصيدة عند الحيدرى مشبعة بصدق الانفعال وممتلئة بحقائق الوجود . واكتشفت شيئاً غريباً انه من المهم أن أتعرف على الشاعر وهو فى حالة « نزيفه المستحب » أى قراءته لقصائده كما يسميها نزار قبانى . اننى لا أستطيع أن أفصل بين الشاعر المسكون والشاعر الحركة !

صباح اليوم الذى سألتقى بالشاعر بلند الحيدرى فيه ، كان صديقى شاعر الأردن حيدر محمود يقول لى ــ هاتفياً ــ انه قرأ عبارة جميلة للناقد جبرا ابراهيم جبرا يقول فيها عن الحيدرى « فى صباه ترك المدرسة ليتمرد عن طريق الشعر وبينما راح أقرانه يدرسون الشعر فى الجامعة كان هو من الشارع والمقهى يلقنهم طرائق فى التجديد لا تعرف عنها الجامعة شيئاً .. » ..

....

ها أنذا أجلس مع الشاعر بلند الحيدرى وكعادتى أتسلل إلى حلبة الحوار بنعومة شديدة تجعل الحوار قصة حب .. على حد قول غادة السمان !

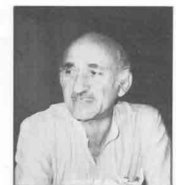
وكلما قابلت عراقياً تغنيت بحبي لناظم الغزالى ، مغنى العراق الراحل ، غير أن بلند الحيدرى ــ فى أول لحظة ــ صفعنى برأيه فى ناظم !

قال وهو يشعل غليونه .. لا أحب صوت ناظم الغزالى ولا أداءه . ربما كان له فضل ايصال الغناء العراقي إلى خارج العراق فقط . ولكن فى العراق مغنون أفضل منه حنجرة وأداء ! !

ولذت بالصمت !

قطعت الصمت بسؤال عن معنى كلمة « بلند » : فقال : معناها فى اللغة التركية والكردية : عال . وهذا اسم شائع فى تركيا .

الشاعر العربي بلند الحيدري



بلند الحيدري

قلت مداعباً « أنت عالى المقام .. كشاعر »
ابتسم .
وقال « الشاعر بقصائده ، بعطائه ، بخصوصيته » .

قلت لبلند الحيدرى : من قراءتى لبعض قصائدك شعرت بالمعمار الهندسى فى التركيب ، كأنك تلعب الشطرنج بمهارة !

فاجأنى بقوله « ربما لا تعرف أن الشطرنج من هواياتى .. » .

قلت له .. حاورت مرة الروائى فتحى غانم وهو لاعب شطرنج ماهر .. ووجدت نفسى أطرح السؤال بصور متعددة فاذا أفلت من سؤال وهرب من الثاني ، وقع فى فخ الثالث » !

قال بلند الحيدرى : الشطرنج رياضة ذهنية ، ولكنها ليست أسلوب حياة . السياسة أيضاً من بعض هواياتى ولكنى أعترف بأنها هواية خطرة ! » .

لا أدرى لماذا ربطت بين الشاعر العراقى بلند الحيدرى والشاعر التركى ناظم حكمت فى هذه اللحظة ! هل هو تداعى معان ؟ ربما ! لكنى وجدت نفسى أدخل حلبة الحوار !

....

قلت للشاعر بلند الحيدرى : حين كنت أقرأ ديوانك ، خيل إلى أنى أقضى وقتاً بين أسوار سيرتك الذاتية !

قال : نعم ، من الممكن القول إن شعرى « تاريخ خاص » لى ، فالعديد من قصائدى تحمل اشارات إلى ظروف معينة مررت بها ومرت بى !

قلت : أريد شهادتك على شاعر اليوم في الوطن العربي .قال بلند الحيدري : جيل الريادة الذي بدأ ببدر السياب وزملائه في تجربة الحداثة مازالت تتواصل معه الأجيال التي تلته وطورت فيه وأضافت إليه ، ومن شتت به التجارب بعيداً عن ذلك ضاع في متاهة وفقد خصوصيته وتميزه وصار شعره هذياناً وصوراً متدحرجة على غير طائل !

قلت : هل إستطاع الشعر أن يقف على قدميه في زمن التكنولوجيا؟

قال : ذات مرة قال إليوت ان الشاعر سيوضع يوماً في حدائق الحيوانات وقال غيره بل في المتاحف القديمة والحقيقة أن الشاعر مازال حياً وإن خفت صوته فكل عصر له مايميزه في الملحمة أو الرواية أو القصة القصيرة أو المعلقة ولما كان الشعر هو الأساس في أي جهة ، في القصة أو الرسم أو النحت أو الموسيقى والعمارة فهو بلا شك باق فيها وباق ضمن سمات متنوعة أو متوحدة في العمل الشعري فلا خلاص من الشعر وعلى الأخص عند الإنسان العربي الذي نما عليه وشبت عليه حضارته !

قلت : هناك شعراء حولك أريد أن أعرف كيف تراهم : البياتي ، نزار قباني ، عبد المعطي حجازي ، صلاح عبدالصبور ، وأرجو ألا تهرب من الإجابة !

قال : بل سأهرب مع سبق الاصرار ، فكل منهم شاعر كبير وله مايميزه في خاصية تعاطف معها مريدوه فأقاموا منها منحنى وأعني تجربة الحداثة الشعرية في الوطن العربي وإذا كانت محاولاتي في الشعر تقترب من محاولات أحدهم أو تبتعد فذلك لا يخولني أن أكون في موقف الناقد منها .. بل في موقف من يحترم اختلافه عنهم .. لإغناء وحدة التنوع التي تلتقي بالتالي في مرمى حضاري يوسمها بخصوصيتها .

قلت : تجربتك الشعرية . من أي الجداول شربت ؟

قال : لقد مد بي العمر إلى الستين ونيفت تجربتي الشعرية على الأربعين عاماً . المهم فيها هو أنني كنت فيها نفسي عبر خصوصيتي في الطابع البرقي للقصيدة وعبر بنائي لقصيدتي على أساس (من أول ووسط ونهاية) كما يقول ارسطو تنمو في أحداثها وموسيقاها . أعمل في القصيدة بوعي ، فإن كان ٣٠٪ منها الهاماً .. فإن ٧٠٪ منها جهد واع في الصنعة ولكن الصنعة في اخفاء الصنعة لتظل للقصيدة رهافتها وعفويتها .

اعترضت قائلاً : في ديوانك (خفقة الطين) بدا في شعرك بعض التأثر بشعراء مثل عمر أبوريشة .

قال الحيدري : نعم ، هذا صحيح . لقد تأثرت ربما بعمر أبوريشة والياس أبي شبكة . وكان هذا عام ١٩٤٦ ، وهو تأثر سرعان ما اختفى نهائياً في ديواني الثاني (أغاني المدينة الميتة ..)

قلت : ملاحظة صغيرة تقفز في ذهني . أنت تعيش في لندن والبياتي في مدريد ... السؤال هو أنت والعراق ، أخذ وعطاء .

قال الحيدري : ومازال الأمر كذلك . وكلما ابتعدت عنه ازددت قرباً إليه . اشتدت معاناتي معه .. ومنه أيضاً .

وكان لابد للحيدري أن يتوقف قليلاً ويشعل غليونه ، ويطلب لي وله فناجين من القهوة ويجتر في صمت بعض أحزانه !

* * *

قلت لبلند الحيدري وهو يصغي باهتمام : النقد للشعر : هل هو حقيقة أم وهم يسري فوق الصحف ، وماذا أعطى أو أفاد ... ؟

أجاب بهدوء : النقد ــ بالأمس ــ حقيقة . واليوم : وهم . لأننا لا نجده إلا على صفحات الجرائد اليومية حيث تتوزع الألقاب بلا وازع ولا دراسة وفي أيدي صحفيين صغار . طه حسين أفاد . مارون عبود أفاد . مندور أفاد ، ولكن عندما ثار شاعر السبعينيات والثمانينيات على اللغة والموسيقى والمضمون ، لم يدع أمام الناقد من أدوات النقد أي شئ غير القاسات النقدية الصغيرة لهذه الصحيفة أو تلك ، فالشاعر المزيف أوجد ناقداً مزيفاً والخوف كل الخوف أن يتلو ذلك جمهور مزيف ! !

قلت : الشاعر في الوطن العربي ، مكانه .. نظرة السلطة له ..

قال بلند الحيدري : « أسد سيرك » .. هكذا حولته السياسة . فمن الشعراء من تعود أن يقوم بأداء ألعابه البهلوانية لقاء قطعة الحلوى الصغيرة ومنهم من لايزال يقاوم هذا الإغراء ويوسع جسده لمزيد من ضربات السياط وربما في النهاية سيؤدي مايريدونه منه . فليس الشاعر بالضرورة بطلاً أو ضحية أو شهيداً .

قلت : الحيدري والمرأة ، تجربة في عمق إحساسك . ماذا أعطتك أو ألهمتك وماذا سلبت منك ؟

قال الشاعر : إذا كان الرجل في نظري هو التاريخ .. فالمرأة هي الجغرافيا التي تحتضنه . وإذا كان الرجل يحيا في الحدث الذي سرعان مايغيب وينتهي ، فالمرأة هي الولادة الدائمة ومن هنا فإن من يكره الحياة .. يكره المرأة . شوبنهور ، المعري وغيرهما . هي في الرمز كذلك في غير قصيدة من قصائدي .. بل ربما لم أعرفها لحماً ودماً في شعري إلا في قصائدي الساذجة الأولى التي أملتها سنوات المراهقة . ومن التفاهة أن يقتصر الكثير من شعرنا العربي على تلك العلاقة القائمة مابين امرأة ورجل ! مجرد رجل وامرأة فقط !

قلت : أعرف جيداً أن الناقد فيك له وجود . ولا أدري كيف يرى ريادية بلند الحيدري .. الشعرية ؟

ضحك الشاعر بطفولة وقال : أحياناً صيغة السؤال تثير محاورك للاجابة مع أن السؤال بسيط !

قلت : حين أحاور شاعراً ، أجعل من نثري



عبدالوهاب البياتي




جبرا ابراهيم جبرا




ت. س. إليوت



بدر شاكر السياب

المتواضع سراب شعر إن استطعت !

رد الحيدري وقال : لبدر السياب مايميزه في رهافة ذاكرته العينية وللبياتي هرماه في القصيدة القائمة على حدة الصورة ولبلند أسلوبه البرقي الذي يحاول من خلاله أن يؤكد على تكثيف المعاني بأقل مايمكن من المفردات . العديد من قصائدي ، يوحي بالبعد الزمني عبر رسم الحدث في زمنين متباينين . كما سعيت إلى الإفادة من الفنون التشكيلية والموسيقى والتقطيع السينمائي لاعطاء قصيدتي خصوصيتها سواء بطبيعة موضوعاتي أوبأسلوب أدائها . .

قلت : ترجمت لك أعمال شعرية ، هل أعطت المعنى كاملا ؟

قال بلند الحيدري : لقد ترجمت بعض قصائدي إلى غير لغة من اللغات العالمية . ولكل لغة من تلك اللغات خصوصية ايقاعاتها وتراكيب جملها . كما أن لكل شعب مميزاته . فاذا كان الشعب الفرنسي يعجب بالإيقاعات ، فإن الإنجليزي يكتفي من القصيدة بشدة قدرة صورها على إثارة إحساسه بها . وعلى المترجم أن يدرك ذلك بكثير من الدقة ، فهو لا يترجم معنى فقط ولا ينقل صورة لوحدها فإن للإيقاع دوره الهام في تكثيف أثر القصيدة . ولذلك فلا عجب من أن تفشل قصيدة ما جيدة عند الترجمة . بصورة عامة ، فإن القصيدة العربية تخسر الكثير من مقوماتها الأصيلة التي يتعذر على المترجم نقلها . إن نخبة من المترجمين الكبار قد ترجم بعض دواويني والكثير من قصائدي إلى الإنجليزية .. مثل دزموند ستيوارت وعبدالله العذري والدكتور عبدالواحد لؤلؤه والدكتور حسين هداوي والدكتورة سلمى الخضراء والدكتور تيسير كاملة وغيرهم ولكل منهم جهده في التفاضل على غيره ومع ذلك فإن أياً منهم لم يستطع أن يتجاوز قصور موسيقى اللغة الإنجليزية بالنسبة إلى اللغة العربية وخاصة عندما يتعلق الأمر بشاعر يركز الكثير من همه على البناء الايقاعي لشعره كما هو الحال معي .

* * *

● القصيدة العربية تخسر الكثير بالترجمة

● لن يذهب الشاعر إلى المتحف في زمن التكنولوجيا

● السياسة من بعض هواياتي ولكنها هواية خطرة

● أتعوّد على صداقة الموت قبل أن ألقاه غداً

قلت للشاعر بلند الحيدري . أنت والكون ، كيف تحس به ؟

قال : أتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر .

قلت : أنت والموسيقى ، كيف يستقبلها وجدانك ؟

قال : أعيش معها طول نهاري وأعيش مع موسيقاناوغنائنا العربي في الكثير من أماسينا التي ألتقي فيها وأصدقائي العراقيين والعرب في لندن .. حيث أعيش الآن .

قلت : ماضرورة الشعر في الحياة ؟

قال : ضرورة الخبز !

قلت : تنحاز لمن ، للشعر أم للشاعر ؟

قال : للشعر ، للمضمون ، للخصوصية ، وحين أتغنى بالشعر ، أتساءل : لمن هذه الأبيات ؟ !

قلت : سمات شاعر جيد ؟

قال . « وعي نقدي جيد » بشعره !

قلت : لماذا تكتب شعراً ؟

قال : سؤال سهل وشديد الوعورة . لا أعرف لماذا أكتب شعراً . الشعر وثيقة . الشعر تطوير لتجربة حياتية . من خلاله أعمق الإحساس الإنساني وأحول الأحداث إلى رموز !

قلت : هل تعتز بنقدك النثري ؟

قال : إنه « قصيدة » أخرى !

قلت : هل تقوم بزيارة قصائدك القديمة ؟

قال مبتسماً : كأنك تسألني هل تزور حبك القديم .. والإجابة ، نعم ، وأحياناً أشذب في بعض قصائدي القديمة وأهذب !

* * *

سألت الشاعر العربي بلند الحيدري : كيف ترى الموت ؟

فقال : في مثل سني – يا سيدي – لابد من أن أتعود على صداقته ، بحيث لا يرعبني عندما سألقاه .. غداً !

(مفيد فوزي – من عمان)

• تذكار من فلسطين

بحيرة طبريّة

بقلم : يوسف الخطيب



يمثل المشهد المقابل بداية انعطاف نهر الأردن غرباً (في أقصى يسار الصورة إلى أسفل) قبيل تخلصه من الزاوية الجنوبية الحادة لبحيرة طبرية ، آخذاً طريقه من ثم عبر انهدام الغور الشديد الانحدار باتجاه مصبه الأخير في البحر الميت ..

وأما الحائط الجبلي الهين (في أعلى الصورة) فيمثل الجزء الأخير ، الجنوبي ، من هضبة الجولان السورية ، عند تلاشيها الحاد بمحاذاة الشاطئ الشرقي للبحيرة ، قبيل أن يعترضها ــ أي الهضبة ــ مجرى نهر اليرموك الذي يرفد وادي الأردن من جهة الشرق ..

تنخفض هذه البحيرة مايقرب من ٢١٠ أمتار عن سطح البحر ، وهي في رسمها الجغرافي تشبه حبة أجاص منتصبة على عنقها ، وتكتنفها المرتفعات الجبلية الحادة من على شاطئها الشرقي والغربي ، وتنحدر إليها من هذه المرتفعات عدة أودية وسيول رافدة ، من أبرزها وادي المسلخة ، ووادي عبدان ، ووادي الجاموسة ، ووادي العمود ، ووادي الربضة ، ووادي الحمام ..

وبرغم أن بحيرة طبرية ــ بالقياس إلى غيرها من بحيرات العالم الأخرى ــ لاتزيد عن كونها مجرد بركة ماء كبيرة ، لاتزيد مساحتها عن ١٦٨ كيلومتراً مربعاً ، فان ماتختص به من سيرة تاريخية حافلة ، وثروة اقتصادية وفيرة ، وشهرة سياحية فائقة ، قل أن نجد له نظيراً في كثير من البحيرات الكبيرة ، لدرجة أن بعض الأدبيات الجغرافية والدينية لاتسميها « بحيرة طبرية » .. بل « بحر الجليل » ..

فعدا عن سيرة البحيرة التاريخية التي لا مجال هنا حتى لمجرد الإشارة إلى أبرز مفاصلها الرئيسية في مثل هذا الحيز المحدود ، فإنها ، اقتصادياً ، بمثابة خزان الماء الطافح الذي يكفي لسقاية بستان الغور الأردني الفلسطيني بأكمله .. هذا الذي يمثل بدوره شريحة شبه مقتطعة من نماء إفريقيا الخضراء ، أراد الله لها أن تنزرع هنا بين الأردن وفلسطين .. على حين تعد أسماك البحيرة اثنين وعشرين نوعاً من أطيب ما أحل الله لعباده من صيد البحر .. كما تغتني شطآن البحيرة أيضاً بمحصولاتها الزراعية العديدة والوفيرة ، لدرجة أنه قد احتشد على شاطئها الغربي ، الفلسطيني ، الذي قد لا يزيد عن ٣٥ كيلو متراً ، ما يقرب من عشرة توضعات بلدانية ، من أهمها مدينة طبرية ذاتها ، والطابغة والمجدل ، وسمخ ، إضافة إلى المستعمرات الصهيونية الكثيرة التي أقيمت أساساً على مواقع كنعانية قديمة ، أو عربية إسلامية في عصور لاحقة ..

كذلك تمتاز بحيرة طبرية بموقعها السياحي الفريد .. فهي المشتى الفلسطيني الثاني بعد أريحا ومنطقة البحر الميت ، ولكنها مع ذلك تفوقهما بمياهها العذبة وبحماماتها المعدنية ذات الشهرة العالمية الواسعة ، حيث يؤمها السواح من شتى أصقاع الأرض بغية الاستشفاء والاستجمام ..

* * *

يبدو سطح البحيرة ، في الصورة ، هادئاً صقيلاً كأنه سطح المرآة .. ولذلك فإن قارئ أبي الطيب المتنبي (وقد أقام في كنف والي طبرية ، بدر بن عمار الطبرستاني ، قرابة ثلاث سنوات) ، لابد أن يدهش ، للوهلة الأولى ، من وصفه لتلاطم أمواج هذه البحيرة كأنها البحر الهائج الزاخر في حكايات سندباد ، وذلك في مثل مديحه لعلي بن ابراهيم التنوخي :

لـولاك لـم أترك الـبحيـرة والـ
ـغور دفـيٌ ، ومـاؤهـا شـبـم
والموج مثل الفحـول مزبـدة
تـهـدر فيـهـا ، وما بـهـا قـطـم
والـطـير فوق الحـبـاب تحسبها
فـرسـان بلق تخـونـهـا اللجم
كـأنـهـا ، والـريـاح تضربـهـا
جـيشـا وغـىً ، هـازم ، ومنـهـزم

على أن شاعرنا الخالد ، للأمانة ، لم يذهب به خياله الجامح بعيداً عن الحقيقة .. ذلك بأن سطح البحيرة الذي غالباً ما يبدو ساجياً ورائقاً هكذا في النصف الأول من النهار ، حتى الظهيرة تقريباً ، سرعان ماينقلب إلى أمواج هائجة متلاطمة في كثير من الأماسي والآصال حتى منتصف الليل .. ومرد ذلك ، علمياً ، إلى هبات نسائم البحر الأبيض



المتوسط التي تفد عليه باردة أول الأمر، ثم ما إن تهبط من حفافي الجبال العالية نسبياً إلى منخفض البحيرة الدافئ، حتى تتحول إلى شبه زوابع عمودية تهيج سطح البحيرة بالأمواج العاتية، شالة بذلك حركة الصيد وقوارب السياحة حتى الهزيع الأخير من الليل..

ومن معجزات سيدنا المسيح عليه السلام أنه مشى بقدميه فوق هذه الأمواج المتلاطمة.... «ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه، وإذا اضطراب عظيم قد حدث في البحر حتى غطت الأمواج السفينة.... ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم»..

وفي محكم التنزيل القرآني عن مثل معجزات السيد المسيح هذه: «أني آخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى باذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين».. (آل عمران ـ الآية ٤٩)..

●●●

الخطابة والخطباء خلال قرن



الجيل الجديد

بعد جيل الزعماء

بقلم : فتحي رضوان

في العدد الماضي من مجلة « الدوحة » تحدثت عن الرعيل الأول من الخطباء الذين كان لهم دور هام في الحياة السياسية .. وفي هذا العدد انتقل إلى الحديث عن الجيل الجديد من الخطباء الذين كان لهم طابع خاص في الشكل والأداء ، ومن بينهم : حافظ رمضان ، وتوفيق دياب ، وابراهيم عبدالهادي ، ومحمد شكري ، وأحمد حسين ، وحافظ محمود ، وفكري أباظة ، وحسين صبري ، وعبده أبو شقة .

■ كان الكُتّاب الكبار أتباعًا للخُطباء يتأثرون بهم ويروّجون لأفكارهم



ابراهيم عبدالهادي



فكري أباظه

حافظ رمضان

تحدثت عن الخطباء الزعماء في مصر خلال القرن الذي لازلنا نعيش فيه ، أي عن سعد زغلول ومصطفى كامل ومن عاصرهما أو لحق بهما مباشرة أمثال أحمد عرابي وعبدالله النديم ومحمد فريد وعبدالعزيز جاويش ، ولكن الجيل الذي تلا هؤلاء ، وإن جاء في المرتبة الثانية من حيث استفاضة الشهرة ، وذيوع الاسم وسطوع النجم إلا أنهم كانوا أوسع ثقافة ، وربما أعظم مقدرة على الارتجال ، من جهة ، والتعمق في الموضوعات التي يتناولها بخطبه ، ومرد ذلك أمور عديدة ، أولا : كثرت المدارس العليا في مصر ، وابتدأ خريجوها يشغلون المناصب الكبيرة من جهة ، ويقدمون للمكتبة العربية سيلاً متدفقاً من المؤلفات والمترجمات التي ارتفعت بالمستوى الفكري وعددت وجوه البحث ، وأرست قواعد التعبير وقطعت صلتها باللغة العربية العثمانية التي سادت في عهد المماليك وأوائل عهد محمد علي قبل أن تؤول الزعامة الفكرية إلى رفاعة رافع الطهطاوي وعلي مبارك وعبدالله فكري وكتاب الصحافة الجدد أمثال أديب اسحق وعبدالله أبو السعود وابراهيم اللقاني .

ثانياً : كثرت البعوث إلى أوربا ، فاتصل جيل جديد بأساليب السياسة الحديثة في انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وطالعوا كتب لوك وهوبز وهربرت سبنسر وجون ستيوارت مل وفولتير من جهة ومونتسكيو وروسو وفولتير وديدرو من جهة أخرى .

ثالثا : كبرت الأحداث التي تواجه مصر ، واحتاجت إلى زعامات أكبر تجربة ، وأوسع اطلاعا ، وأقدر على الكلام في المسائل الدستورية ، وقواعد الانتخابات ، وأصول الحكم في الماضي والحاضر .

رابعاً : دخل إلى ميدان الكتابة سواء في مجال التأليف أو مجال الصحافة عدد من الأزهريين الذين تمرسوا بالكتابة العربية الصحيحة ، ثم اتصلوا بالعلم الأوربي ، وبالمؤلفات الغربية في مجال القصة والترجمة الذاتية والقصيدة والمقالة فجمعوا بين الحسنيين : وهي حلاوة الأسلوب العربي وصحة العبارة نحوياً ، ووفرة العلم الحديث ، فعرفت مصر والوطن العربي كله أمثال علي يوسف ومصطفى المنفلوطي ومحمد عبده وعبدالرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي كما عرفت سوريا ولبنان أحمد الشدياق والبستاني والكواكبي ، وشكيب أرسلان ، وفي المغرب عبد العزيز الثعالبي وبشير الابراهيمي وغيرهم وغيرهم .

القيادة للخطباء

وقد استمرت القيادة معقودة للخطباء في هذه الفترة ، وكان الكتاب مهما كبر مقامهم ، أو علا كعبهم ، أتباعاً للخطباء ، يسيرون في ركبهم ويروجون لهم ، ويتأثرون بهم ، فقد كان العقاد

من أتباع سعد زغلول ومثله مصطفى لطفي المنفلوطي ، وعبدالقادر حمزة ، وبقي أحمد حلمي ومحمد فريد وجدي وأمين الرافعي من أتباع مصطفى كامل ، وبقي محمد حسين هيكل ومحمود عزمي ومصطفى عبدالرازق أتباعاً لزعماء حزب الأحرار الدستوريين ، وإن لم يكن نصيب هؤلاء الزعماء من المقدرة الخطابية محدوداً ، وتأثيرهم قليلاً ، إلا أنهم كانوا هم الخطباء إذا انعقدت الندوة وأقيم المنبر .

وكان خطباء المرتبة الثانية ، إذا خطبوا أبدعوا ، واستبدوا بالأسماع ، وأثاروا الخواطر ، ولم يكن ينقصهم شئ في مجال الخطابة ، إنما كان ينقصهم ثقتهم بأنفسهم ، وحرصهم على أن يبزوا الأقران في مجال الخطابة ، ويتحدثوا تحدث من انعقدت له الزعامة وواتت لهم الجماهير .

وفي مقدمة هؤلاء جميعاً حافظ رمضان باشا الذي خلف كلاً من الزعيمين الخالدين مصطفى كامل ومحمد فريد ، وكان مصطفى كامل كما سبق القول خطيباً ساحراً يأسر قلوب سامعيه ، لا بتدفق عباراته ، وسهولة أسلوبه ، انما كان له من شبابه الغض ، وحلاوة قسماته ، ولطف إشاراته ، وشدة إخلاصه ، لما يقوله ، وانعدام المنافس له في مجال الخطابة ، ما يحببه إلى القلوب ، ويقربه من النفوس ويفتح له الأسماع . أما محمد فريد فقد سبق القول إلى أنه كان من طراز يشبه غاندي وهو الطراز الذي لاتواتيه العبارة الحارة ، ولا التشبيهات الأخاذة ، ولا الصورة البراقة ، إنما يأخذ بألباب الجماهير بوضوح فكرته الشديد ، وتسلسل معانيه واتصال بعضها ببعض ، وبصلابة موقفه من السلطات التي يحاربها ، الأمر الذي يكسبه ثقة الأنصار والأتباع ، وتصديقهم لما يقوله .

جيل الشباب

على كل حال انتهى هذا الجيل ، جيل الخطباء الزعماء ، وحل محله جيل الذين يعتبرون أقرب إلى الشباب ، وحداثة السن ، وجدة الأسم ، وكان حافظ رمضان هو أجدر هؤلاء جميعاً بأن يكون خطيب مصر الأول ، ولا سيما بعد أن تولى سعد الوزارة في مارس ١٩٢٤ ، فمنعه المنصب ومسئوليات الحكم من مخالطة الجماهير ، ومحاولة استثارة مشاعرها ، وقد تلت فترة الحكم ، فترة منع فيها سعد من عقد الاجتماعات الحاشدة ، فقد حالت السلطة بينه وبين النشاط السياسي ، وذلك بعد اغتيال مفتش الجيش المصري القائد الانجليزي السير لي ستاك (باشا) في نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، ثم جاء مجال الأحزاب المصرية في سنة ١٩٢٥ ، فهدأت له الحياة السياسية ، وقلت بفضله الاجتماعات الحزبية ، والخطب النارية .

وقد كان حافظ رمضان خطيباً مفوهاً لطيف العبارة ، جميل السمت ، يعتني بملبسه ومظهره ، ويعينه طول قامته على أن يملأ العين ، ويلفت النظر ، وكان إطلاعه الواسع على دقائق السياسة الخارجية في أيامه ولا سيما مايتصل فيها بالقضية المصرية ، وماسمي في ذلك العهد بالمسألة الشرقية ، وكانت المسألة الشرقية تعني المشكلات الناشئة عن تفكك دولة الخلافة الاسلامية وتنافس الدول الكبرى الاستعمارية في تلك الأيام ، بريطانيا وفرنسا وروسيا وبروسيا على الممتلكات العثمانية في شرق البحر الأبيض وهي العراق وسوريا وفلسطين ولبنان ، وفي شرق أوربا وهي رومانيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود .

وكانت قوة حافظة حافظ رمضان تعينه على أن يكتب الخطبة وكأنها مقال ، منمق ، ثم يقرؤها مرتين أو ثلاثاً . فاذا هي انطبعت في ذهنه . فإذا وقف يخطب ، بدا وكأنه يرتجل.

ولكنه إذا أراد أن يخطب فور البديهة ، لم تعوزه العبارة ويتدفق تدفق السيل العرم ، ويحسن صناعة الخطابة ، وهي مجموعة من الأصول المرعية ، فهو يعرف كيف يدق الطاولة التي أمامه بقبضة يده تفزع بعض الجالسين أمامه ، وهو إذا تحدث عن شئ يؤلم أو عن فاجعة وطنية ، اختنق صوته بالدموع ويتوقف لحظات من فرط الألم وهو يحسن السخرية بخصومه وخصوم حزبه ، وهو في خطبه بين بين . فلا يطيل حتى يسبب سأم الحاضرين وهو لايوجز حتى يقوم الحاضرون ، وهم يحسون أنهم لم يشبعوا من قول الخطيب ، ولم يقفوا على كل ما كانوا يحتاجون إلى بيانه .

ولكن عيب حافظ رمضان القاتل ، هو كسله الشديد ، فهو لايلبي دعوة أنصاره لحضور الاجتماعات التي يعقدونها إلا قليلاً ، وهذا حال كان ييئس محبيه ومريديه ، فلا يحاولون طلب حضوره ، ولولا هذا النقص فيه ، لبز كل معاصريه ، فلم يكن فيهم أحد يناظره في جمال الطلعة ، ولا مهابة القامة ، ولا في جمال الصوت ، ولا في حسن الأداء ، ولا في التحكم في ناحية اللغة ، ولا في الاحاطة بالموضوعات التي يطرقها ، ولم يجن هذا الداء المميت على مكانة حافظ رمضان الخطابية فحسب ، بل على زعامته فضوّل شأن حزبه ، وتحول إلى جماعة من أهل الفكر ، أشبه برهبان القضية السياسية وهم أصلاً مجاهدون دخلوا السجون ونفوا إلى المنافي خارج بلادهم ، واتهموا بأخطر التهم السياسية .

والذي يقرأ خطب حافظ رمضان تشوقه فحافظ رمضان من القلائل الذين يكتبون إذا خطبوا ويخطبون إذا كتبوا ، يعني أن كل مايصدر عنه ، سهل التناول ، لا يبعث على السأم .

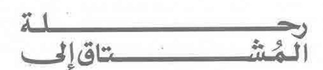
القدرة على التأثير

من خطباء ذلك العهد محمد توفيق دياب ، وهو ابن عائلة من عائلات الريف ، التي لا تعتبر من عائلات الثراء الكبير ، ولكن ميسورة الرزق ، تعلم في مصر وبعثه أبوه إلى انجلترا ، ولكنه لم يتم تعليمه هناك ، ولكنه أفاد كثيراً جداً من إقامته في لندن يغشى ندوات الصوفية ، والاشتراكيين والأحرار وكل هؤلاء عدتهم الأولى القدرة الخطابية والتأثير على الناس بالحجة والبرهان ، ولذلك فقد تدرب على الخطابة والمناظرة ، وأعانه على ذلك لسان ذرب ، يتدفق منه الكلام تدفقاً يهز وجدان السامع ، ويستثير دهشته واعجابه . وقد أطال توفيق دياب تردده على آني بزانت زعيمة المتصوفين في تلك الفترة ، وكانت خطيبة ممتازة استهوت الكثيرين من أبناء عشيرتها إلى أفكارها ، واتسعت شعبيتها ، وعظمت شهرتها ، فلما عاد توفيق دياب إلى بلاده كان قد تم له ثلاثة أمور : الأمر الأول امتلاء نفسه بأخطاء آني بزانت ، والأمر الثاني تمكنه من الحديث والخطابة والمحاضرة ، والأمر الثالث ، حسن ظنه بنفسه ، واستعداده لدعوة مواطنيه لأفكار بعثتها فيه اقامته في بريطانيا والمقارنة المستمرة بين ماكان يراه في بلاد البريطانيين ، ومايراه عند عودته إلى بلاده .

وعاد دياب إلى مصر ، وفتحت له إحدى الجمعيات العلمية الأجنبية قاعتها القريبة من دار الآثار المصرية (المتحف) بالقاهرة فذهب إلى جمهور لاهو كبير ، ولاهو ضئيل ، وراح يبشر بأفكار غير مقبولة ، وهي أفكار أقرب إلى مخالفة الإسلام والخروج عليه ، وقد جرؤ يوماً على مناقشة عقيدة الحساب والعقاب بعد الموت ، مما أثار غضب الحاضرين ، فحاول بعضهم البطش به ، ولكنه نجا ثم عدل عن هذا المسلك الغريب ، وأخذ يلقي محاضرات قرر لها رسماً قدره (خمسة قروش) فكان أول محاضر في الوطن العربي يفرض رسماً على محاضراته ، ولكن الناس لا تزال تذكرها ، وقد حدثني عنها منذ سنين مضت ، أول محافظ للبنك المركزي المرحوم محمد أمين فكري عن مدى اعجابه بأسلوب توفيق دياب الخطيب . وإن كان الآخرون يعيبون على هذا الأسلوب الجهد العضلي الذي كان يقوم به توفيق دياب وهو يخطب ، وكان آخرون يسمون خطابته بالأسلوب العضلي . وكان صديق توفيق وأحد مشاهير عصره المرحوم الدكتور محجوب ثابت يتندر به فيقول خطيب بخمسة قروش .

ولكن توفيق دياب كان خطيباً مؤثراً ، وقد ترك كثيرين من ورائه يتأثرون خطاه ويتشبهون به .
وللحديث بقية بإذن الله .

«الدوحة» في الأراضي المقدسة ضمن بعثة الحج القطرية



رحلة المُشتاق إلى المدينة المنوّرة

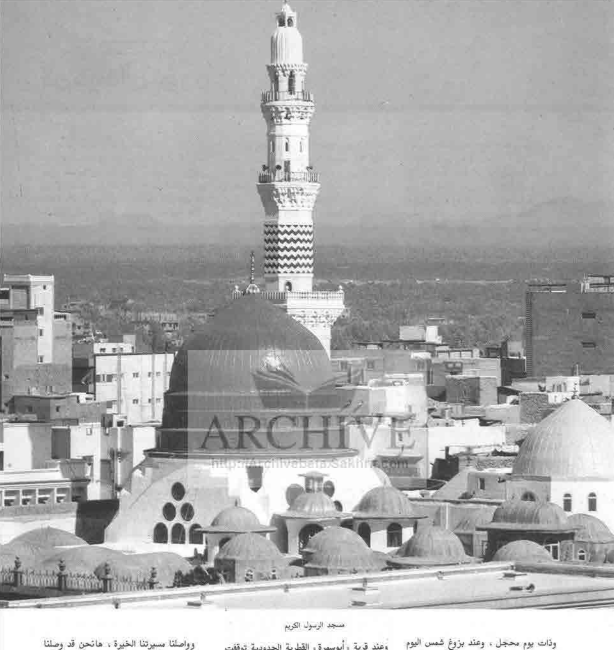
بقلم: نبيل خالد الأغا



لقطة جانبية لمسجد الرسول الكريم ... ثم لقطة لمجموعة من الحجاج أمام المسجد

منذ فترة بعيدة وأنا أمني النفس بزيارة أرض الطهارة والقداسة لأداء فريضة الحج ، بعد أن أنعم الله ــ عز وجل ــ على عبده الفقير إلى رحمته بالقدرة والاستطاعة على تأدية الركن الخامس من أركان ديننا الاسلامي الأعظم .

ولقد شاءت إرادة الله ــ مؤخراً ــ لأمنية الأمنيات أن تتحقق بعد أن تهيأت الأسباب ، فأدرج اسمي ضمن الوفد الاعلامي المرافق لبعثة الحج القطرية .



مسجد الرسول الكريم

وذات يوم محجل، وعند بزوغ شمس اليوم الرابع عشر من ذي القعدة لعام ١٤٠٥ هـ الموافق للواحد والثلاثين من شهر يوليو «تموز» لعام ١٩٨٥ م، تسلمت بطاقة العضوية التي أصدرتها رئاسة بعثة الحج، وركبت سيارة الوفد الاعلامي المندرجة ضمن قافلة البعثة المكونة من ثمان وعشرين سيارة مختلفة الأنواع والاحجام والمهمات، تتقدمها عدة سيارات اسعاف مجهزة تجهيزاً طبياً كاملاً.

وانطلقت القافلة صوب الديار المقدسة في واحدة من أعظم المهمات الرسمية مكانة وأجلها منزلة.

وعند قرية «أبوسمرة» القطرية الحدودية توقفت القافلة لانجاز تأشيرات الخروج، فالتقيت بالمشرف المالي والاداري الاستاذ فتحي الأمين وسألته عن السيد رئيس البعثة فأخبرني بأن الاستاذ محمد عبدالله الانصاري ــ وكيل وزارة التربية والتعليم بالوكالة ــ رئيس البعثة، قد توجه قبل عدة أيام إلى الديار المقدسة ليشرف بنفسه على الترتيبات الضرورية لاستقبال البعثة في مقراتها الدائمة بمكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومنى وكذلك الاطمئنان على مقار إقامة الحجاج القطريين.

وواصلنا مسيرتنا الخيرة، هانحن قد وصلنا إلى «سلوى» أول قرية حدودية سعودية شرقاً، فتستضيفنا لأكثر من ثلاث ساعات نخضع خلالها لاجراءات تفتيش وتدقيق، وبعد الظهيرة تحتضننا مدينة «الاحساء» وهي واحدة من سبع وعشرين امارة يطلق عليها جميعاً «المنطقة الشرقية». امارتها «الظهران» ومركزها «الدمام».

ننزل في أحد مطاعمها المفندقة لتناول طعام الغداء، قلبي مشفق على العم «أحمد» الرجل اليمني الطيب القلب الذي فوجئ بهذه «الغارة» المباغتة من الجائعين الظمآنين المتعبين تغزوه في

عقر عمله دونما موعد أو انذار !

وكما يحدث في كثير من الغارات لم يكن العم أحمد مستعداً لمواجهة مائة وسبعين عنصراً في لحظة واحدة ، لكن الغارة في مجملها أسعدته برغم أنها أربكته ، وسرعان ما استجمع قواه ومقدراته فاستنفر كافة أبنائه وجيرانه لاحتواء الآثار الايجابية لهذه « الغزوة » السلمية !

بعد مسيرة عدة مئات من الكيلو مترات وصلنا مشارف العاصمة السعودية فتوقفنا قبل منتصف الليل بقليل ، وخلدنا إلى النوم تحت المظلة السماوية ، وفي الهزيع الأخير من الليل تقرر فرزنا إلى قسمين : قسم يتوجه إلى مكة المكرمة والآخر يتوجه إلى المدينة المنورة .

ولما سألت الأخ الاستاذ عبدالرحمن الحمادي ـ مدير منطقة دخان التعليمية ـ سكرتير بعثة الحج عن سبب هذا التقسيم أجابني بقوله : من المعلوم أن البعثة مكونة من سبعة أقسام هي : قسم الوعظ والارشاد ، القسم المالي والاداري ، القسم الطبي ، القسم الوقائي ، القسم الاعلامي ، القسم الكشفي ، وقسم الخدمات العامة .

والمهمة الاساسية لكافة هذه الاقسام العمل على خدمة وراحة الحجاج القطريين وكافة حجاج بيت الله الحرام .

يفضل بعض الحجاج زيارة المدينة المنورة قبل أدائهم لمناسك الحج ، وبعضهم يفضلها بعد اتمام الفريضة ، لذلك فنحن نعد أنفسنا لخدمة الطرفين في كلا الفترتين وكلا المدينتين المقدستين .

ويعتبر القسم الطبي والقسم الوقائي من أبرز الأقسام وأهمها بالنسبة لكافة ضيوف الرحمن ، فهنالك ثلاثة وأربعون عضواً بين طبيب وصيدلي وممرض يقومون بالخدمة على مدار الساعة .

... إلى مدينة الرسول

في الساعة الثالثة من فجر يوم الخميس تحرك ركبنا المتجه إلى مدينة رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم ، كم أنا في شوق إليك يا حبيبي يا رسول الله ، فلقد مضت أقل من ثلاثة أعوام على أول زيارة زرتها لك حين ذهبت معتمراً في العشر الأواخر من رمضان المبارك عام ١٤٠٣ هـ وعندما وقفت على أعتاب قبرك الطاهر دعوت الله يومها أن ييسر لي حجة أعاود خلالها شرف زيارتك . فاستجاب رب الخلائق لدعوتي ، وهأنذا في طريقي اليك يا سيد الخلائق كلها ، أنا عائد إلى مدينتك المنورة التي أنارها الله بطلعتك النورانية التي عكست وهجها على كل ذرة تراب بها وستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفيما أنا غارق في لجة نجواي وإذا بقافلتنا تحوم وتدور تبطئ وتتردد ، فعرفت أننا ضللنا الطريق إلى المدينة المنورة وسط غابة من الكباري والجسور والطرق الملتوية والمتداخلة حول مدينة الرياض .. لؤلؤة الصحراء العربية .

ولم ينقذنا من وهدتنا إلا سائق شاحنة ضخمة أوقفه بعض الزملاء عنوة حينما اعترضوا طريقه ، وبرغم أنه بدا متذمراً إلا أنه أرشدنا للطريق الصحيح بعد أن ثبت فشل وتقاعس غيره من سائقي الشاحنات الذين كانوا سادة الموقف في تلك الساعة المبكرة من الفجر !

وحينما وضعنا اطارات سياراتنا على أول الطريق ابتدأت المرحلة الثانية من رحلة عمرنا الميمونة . قطعنا خلالها مئات أخرى من الكيلو مترات ، ومررنا بعشرات القرى والمدن السعودية المتناثرة في انحاء شبه الجزيرة العربية (وأضيف على مسئوليتي الشخصية بأنها شبه القارة العربية أيضاً بالنظر إلى اتساع مساحتها وترامي أطرافها) !

وعندما وصلنا إلى مدينة « الزلفي » كان الأعياء مع الجوع والنعاس قد بلغوا منا مبلغهم ، فعرجنا عند القيلولة على أحد المطاعم الفندقة فتغدينا وصلينا الظهر والعصر جمع تأخير وقيلنا ، والواضح أن صاحب المطعم لم يفاجأ بمقدمنا كمفاجأة رصيفه اليمني في الاحساء ! و « الزلفي » مدينة جميلة مورقة ، وبها نهضة زراعية جيدة ، لكن الانطباع الايجابي الممتاز الذي تركته في نفسي بعد ذلك مدينة « بريده » سيبقى منتصبا بشموخ في ذاكرتي كلما تذكرت أبعاد هذه الرحلة المباركة .

وكان اسم « بريدة » محفوراً في خيالي منذ نيف وعشرين عاما حيث كان إبن العم « فتحي » يعمل مدرساً في إحدى مدارسها ، وكنا يومئذ في مدينة خان يونس ــ رد الله بردتها العربية الاسلامية ــ تراسله بعنوان : بريدة ــ منطقة القصيم .

لقد تضافرت إرادة الله وإرادة الانسان فكانت هذه المدينة الفاتنة التي منحها الخالق طبيعة خلابة ، ومنحها الانسان الجهد والمال ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

... ...

القافلة تسير برتابة مملة ، وبقية الزملاء في السيارة أخذتهم سنة من النوم ، تترنح أعناقهم ورؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال ، ما خلا قائد مركبتنا الصحراوية الأخ محمد جابر المري ابن البادية القطرية الذي استعار من الجمل صبره ودهاءه ، ومن الصقر حدة نظره وذكاءه ، ومن الرمل صفاءه ونقاءه ، لذلك كان النعاس لا يداعب أجفان « أبي جابر » فقد تمرس على مقاوته بانشاد الأغاني والأهازيج البدوية الموحية .

زميلنا الأخ طلعت موسى المذيع التلفزيوني المرح يتصفح كالعادة خريطة الشرق الأوسط التي أصدرها النادي القطري للسيارات والسياحة . ويطمئننا دوما عن المسافة التي اجتزناها ، والمسافة المتبقية أمامنا . إنه يوقظنا من شرودنا ونومنا صائحاً : اذكروا الله يا حجاج ، نحن الآن في قلب قرية « الحناكية » ، بيننا وبين المدينة المنورة مائة كيلومتر فقط ، وبذلك نكون قد قطعنا منذ غادرنا الدوحة المعززة حوالي ألف وخمسمائة كيلومتر .

الرسول يدعو للمحبوبة

وشيئاً فشيئاً نطوي المسافة ببطء شديد ، ونشترك معاً في ايقاظ معلوماتنا المترسبة في الذاكرة عن المدينة الحبيبة التي يحتفظ لها التاريخ بأكثر من عشرين اسماً من أشهرها : يثرب ، طابه ، جابرة ، المجبورة ، المحبوبة والطاهرة ، وهذه الكثرة في الأسماء دليل اضافي على عظمتها وفضلها ، فمنذ أن شرفها الله بهجرة نبيه ورسوله إليها دخلت ميدان الحياة الرحيب ، وأضحت العاصمة الأولى للدولة الاسلامية الوليدة .

لقد عرفت المدينة بأنها مدينة الجهاد ، هكذا كانت قبل فتح مكة ، وهكذا بقيت بعد فتحها ، فمنها وجه النبي القائد قواده في غزوة تبوك ، ومنها جهز قواته في غزوات بدر وأحد وقريظة وخيبر حتى جمع العرب كلهم تحت لواء الاسلام .

والمدينة هي التي عناها الرسول عند خروجه

مسجد القبلتين

● وسط مشاعر الشوق الملتهب بدأنا نردد النداء الخالد

● المنطقة المحيطة بمسجد الرسول أمسى ليلها كنهارها من شدة سطوع الأنوار

من مكة مهاجرا حينما قال : اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع الي ، فأسكني في أحب البقاع اليك » .

ولأنها أضحت غداة الهجرة موئلاً للرسول وللرسالة فقد أحبها وأحبته ودعا لها ولأهلها بالخير والبركة . فهاهو يدعو لها قائلاً : اللهم إن ابراهيم كان عبدك وخليلك ، دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين .

أبيع العمر بساعة

انظروا ... انظروا .. تلكم أضواء المدينة تلوح على بعد ، وها نحن نشم أريجها العبق .. هكذا صاح فينا الزميل المصور السينمائي مصطفى حسين الذي بدأ يتحسس آلته التصويرية متحفزاً لاعداد فيلم حي عن الرحلة لصالح تلفزيون قطر .

ووسط مشاعر الشوق الملتهب بدأنا نردد النداء الخالد للحجاج والعمار . لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وعلى هدى من مشيئة الله وتوفيقه ، وعلى بصيرة من محبة المختار ونوره وصلنا في الحادية عشرة ليلاً إلى مقر بعثة الحج القطرية قبالة مسجد الاجابة بشارع الستين .

وبرغم أن الاعياء سكن في كل جزيئات جسومنا ، إلا أنني والزميل مصطفى قررنا التوجه إلى المسجد النبوي الشريف ، غير أن حارس العمارة اليمني العم محمد أخبرنا بأن القائمين على المسجد يغلقون أبوابه بعد العاشرة ليلاً وحتى الثالثة فجراً ، أحد الزملاء الظرفاء علق قائلاً : جاءت منك يا جامع !

خلدنا إلى النوم ، واستيقظنا على الصوت الندي الخالد أبداً : الله أكبر الله أكبر .. حي على الصلاة ..

فلبينا الدعوة ، واتجهنا إلى المسجد النبوي الذي يبعد عنا حوالي ألف متر ، كافة الطرق والازقة والشوارع الفرعية والرئيسية المؤدية إلى المسجد تزدحم بالذاهبين للصلاة ازدحاماً شديداً ، أناس مختلفة أعمارهم وأنواعهم وأجسامهم ، متباينة أشكالهم وهوياتهم وألوانهم جمعتهم كلهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

المنطقة المحيطة بالمسجد أمسى ليلها كنهارها من شدة سطوع الأنوار بها ، وحارة « الأغوات » القديمة التي جاورت المسجد مئات السنين أزالتها هندسة الأعمار السعودية منذ أقل من عام وحولتها إلى ساحة مستوية ساعدت على تخفيف الزحام ..

وكشفت واجهة المسجد الغربية والقبة الخضراء ، وسور البقيع في الناحية الأخرى .

ووسط غابة من الأيدي والاقدام والجسوم والرؤوس دلفت أحد أبواب المسجد النبوي .. مهبط الوحي ومبعث النور ، ومعهد الايمان ، نبضات القلب المسكين تتالى ، وأنفاس العبد الضعيف تتلاحق . وجذوة الشوق تزداد تأججاً .

فرجت لي فرجة بين الكتل البشرية ، وما كدت أفرغ من أداء ركعتي السنة حتى أقيمت الصلاة . صوت الامام الشيخ علي الحذيفي يذوب مشاعرنا بصوته المخملي الفائض رقة وعذوبة ، تنتهي الصلاة .وأسعى إلى الروضة الشريفة ، والقلب يسبح ويحمدل ويستغفر ، ووجدتني أسترجع حديث المصطفى : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » . ويتحول الجسد المثقل بالهموم والآثام ، إلى نيزك نوراني يشتعل في سويداء القلب فينير جوانحي كلها وتتولد في النفس آمال وتنتعش أمنيات . فيا لله ما أجل هذه البرهة ، وما أعظم هذه الوقفة .

وتشدني كل قوانين المغناطيسية والجاذبية الروحية إلى حجرة الحبيب الأعظم فأنتفض انتفاضاً ، وأرتعش ارتعاشاً وروحي تناجيه في مرقده بكل ما مكنها الله من أساليب المناجاة الصامتة والناطقة . وتنطلق الدفعة الأولى من وابل العبرات الساخنة ، تعقبها دفعات ودفعات ، وتالله ما وددت إيقاف هذا الوابل المنهمر ولو وددت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ولماذا أفكر في إيقافه وقد طال احتباسه انتظاراً لهذه الساعة التي أبيع العمر كله بها !

بين يدي المصطفى

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، الصلاة والسلام عليك يا خير خلق الله ، الصلاة والسلام عليك يا خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين ، أشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين .

سيدي يا إمام المتقين :

إن الله عز وجل قد أنزل الكتاب عليك وقال فيه « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما » ، وإني جئتك مستغفراً إلى ربي من ذنوبي مستشفعاً بك :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت النبي الذي ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا ما زلت القدم

سيدي يا أمير الأنبياء :

إن قلوبنا وهنانة ، ونفوسنا ملتاعة ، وأحوالنا متردية ، عشقنا الدنيا على حساب الآخرة ، وقايضنا النعيم المقيم بالزائل ، واستسلمنا لشياطين الانس والجن ، فاستأسد الجبناء علينا ، فمزقوا لحمنا ، ودنسوا قبلتك الأولى ، وصادروا أرض اخوانك الأنبياء ، وشتتوا شمل أمتك في أنحاء متفرقة من عالمنا الاسلامي ، فماذا نفعل ؟!

ماذا نفعل يا سيدي يا أبا القاسم ؟ لقد دعونا الله بأن ينصرنا على أنفسنا وعلى أعدائنا ملايين الدعوات لكنه سبحانه وتعالى لم يستجب لنا ، واكتشفنا مؤخراً بأننا تواكلنا عليه ولم نتكل به . وبأننا لم نغتسل من خطايانا عندما دعوناه ، لا ولم نتطهر من ذنوبنا عندما توسلنا اليه .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أدع الله ربك أن ينعم على أمتك بالهداية والمغفرة والغلبة ، فنحن أولاً وأخيراً عباده الضعفاء ، وأنت أولاً وأخيراً نبينا وشفيعنا يوم المشهد العظيم .

أفقت من عالمي الروحاني على صوت الزميل مصطفى حسين وهو ينبهني إلى أن شمس يوم الجمعة قد بزغت منذ فترة ليست وجيزة ، وعلينا أن نعود إلى مقر البعثة لننال قسطاً من الراحة ، فاستجبت لرغبته خصوصاً وقد كنت فرغت من زيارة قبري الخليفتين الماجدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسلمت عليهما .

في مسجد قباء

وبعد عصر ذلك اليوم أخبرنا المسئولون بأن علينا التوجه للسيارات لنقوم بزيارة بعض الأماكن التاريخية المهمة ، فابتدأنا بمسجد قباء في الجنوب الغربي من المدينة . وكان يرافقنا الشيخ محمد فتح الله عبدالكريم إمام مسجد السويدي بالدوحة والموجه الديني بالبعثة فأورد بعض المعلومات عن هذا المسجد الذي أسسه رسول الله على التقوى حين وصوله مهاجراً من مكة إلى المدينة وصلى فيه ثم خرج إلى المدينة .

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقد رأيتنا ورسول الله وأبا بكر في أصحابه ننقل حجارته على بطوننا ويؤسسه رسول الله وجبريل عليه السلام .

ولمسجد قباء (بضم القاف) قيمة عظيمة فهو أول مسجد يبنى في تاريخ الاسلام وتم تشييده حيث بركت ناقة النبي أول ما بلغ ناحية قباء ولم يزل يزوره مدة حياته ،وبشر المصلين فيه بالثواب

الكبير حيث قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ، وجاء مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له أجر عمره » .

في مسجد القبلتين

لقد صلى النبي في هذا المسجد متجها إلى قبلة المسلمين الأولى ببيت المقدس ، وحدث بعدما صلى ركعتين في الظهر أن جاءه جبريل عليه السلام فأمره أن يتوجه إلى الكعبة فاستدار الرسول وأكمل صلاته ، وبذلك يكون النبي قد صلى ثنتين إلى المقدس ، وثنتين إلى الكعبة ، وقد كان هذا التحول مظهر استقلال عظيم للمسلمين أدى إلى اشعال الحقد الدفين في قلوب اليهود ، فتقاولوا فيما بينهم : « ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » ، فرد عليهم العزيز الحكيم : « قل لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

زيارة لجبل أحد

أخبرنا الأخ علي أحمد الهيل العضو الإداري النشط بالبعثة بأن نستعد لزيارة جبل أحد عصر يوم الأحد ، وفي الموعد المحدد توجهنا نحوه بالسيارات ، ذاك هو الجبل ... هذا هو الجبل .. أجل جبل أحد بعينه الذي قرأنا الكثير عنه ، والذي امتدحه الرسول قائلاً : « هذا جبل يحبنا ونحبه » . انه الجبل الذي شهد واحدة من أعظم المعارك في تاريخ الاسلام ، يوم جاء كفار قريش بخيلهم وخيلائهم لمحاربة رسولنا الأعظم ، وهم يتميزون حنقاً وغيظاً لقاء ما أصابهم من الهزائم الساحقة في غزوة بدر الكبرى ، والتقوا بالمسلمين في يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وكان بينهم من القتال ما أكرم الله به من أكرم من المسلمين بالشهادة بين يدي رسولنا الكريم .

ووقفت تحت سفح الجبل الأشم أصور ميدان المعركة ، واسترجع انتصار المسلمين أول الأمر ، واستخذاءهم عندما خالف رماتهم أمر الرسول القائد بعدم مبارحتهم نتوءاً في الجبل خشية التفاف الكفار عليهم ، واستذكرت اهتبال خالد بن الوليد الفرصة (كان يومئذ واحداً من عتاة المشركين) وشده على مكان الرماة الباحثين عن الغنائم ، فأثخن وقومه الكفرة الفجرة بالمسلمين ضرباً وقتلاً ، ووقع الرسول القائد في أرض المعركة ، فانكسرت رباعيته ، وشج في وجهه ، وكلمت شفته . وانجلت المعركة عن استشهاد سبعين بطلاً من كماة المسلمين وعلى رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب . ويتراءى أمامي مشهد هند بنت عتبة وقد مثلت بجسده الطاهر شر تمثيل تشفياً وسخيمة ، فلما رآه الرسول على هذه الهيئة تأثر كما لم يتأثر من قبل وقال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ لي من هذا . ثم قال : جاءني جبريل وأخبرني أن حمزة مكتوب في السموات السبع .

سلام الله عليك أسد الله وأسد رسول الله .

جنة البقيع

البقيع هي مقبرة المدينة ، وتقع على نحو من خمسمائة متر من المسجد النبوي الشريف . وهي بقعة متسعة مستطيلة المساحة ، يحيط بها سور عال من الأسلاك الحديدية ، ويستطيع الناظر إليها أن يرى أرضاً شبه مستوية فيها بعض الحجارة المتناثرة ، ربما هي علائم لساكنيها من أهل الجنة إن شاء الله .

ويرقد في البقيع عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك جميع أزواج النبي سوى خديجة فانها مدفونة بمكة المكرمة ، وقبر ابنه ابراهيم ، وقبور بناته ، وقبور عثمان بن عفان ، وجعفر الصادق ، ومالك بن أنس ، والعباس بن عبدالمطلب ، والحسن بن علي ، وصفية بنت عبدالمطلب ، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم ، وغيرهم .

فسلام الله عليكم دار القوم المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

وداعاً .. مدينة الرسول

مكالمة هاتفية عاجلة وردتنا من رئاسة البعثة في مكة المكرمة تخطرنا بضرورة التوجه غداً إلى العاصمة المقدسة لنكون في خدمة ضيوف الرحمن .

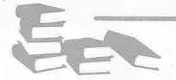
سبعة أيام قضيتها في رحاب المدينة المنورة ، نهلت خلالها كثيراً من الخيرات والبركات ، وأحمد الله أن مكنني من أداء غالبية الصلوات في أبهاء المسجد النبوي ، وفي الروضة الشريفة ، وزرت قبر المصطفى وصاحبيه عدة زيارات . وأكرمني الله فدعوت بالخير والبركة لأهلي وأقربائي وأنسبائي وأصدقائي ، ويشهد الله أنني ما تذكرت صديقاً أو زميلاً أو جاراً إلا ودعوت الله له ولأهله بالخير ، وما تذكرت أحداً من أموات المسلمين إلا ودعوت له بالرحمة والمغفرة ، وهذا خير ما استطعت عمله لأحبابي واخواني . ولولا أن حاصرني ضيق المساحة المخصصة لهذا الاستطلاع لأفضت الحديث عن المدينة ومكارم أهلها ، وضيوفها ، ونهضتها .

ولا يفوتني أن أدعو بالخير لكافة المسئولين في وزارة الاعلام السعودية بالمدينة لما قدموه لوفدنا الاعلامي من خدمات جليلة كان أبرزها السماح لنا بالتصوير فوتغرافياً وسينمائياً للأماكن المقدسة والأثرية ، ومرافقة أحد كرام موظفيها الزميل الشاب صلاح سليمان الردادي لنا في جولاتنا .

ربنا لك الحمد على ما أنعمت وتفضلت ، ربنا ثبت إيماننا ، وأجعل تقواك رداءنا ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا وأكتب لنا ولكافة اخواننا عودة كريمة لزيارة مسجد رسولك ، ومثوى نبيك صلى الله عليه وسلم . ولنا لقاء قادم عن زيارة مكة المكرمة إن شاء الله .

نبيل خالد الأغا

جانب من أعضاء بعثة الحج القطرية أمام جبل أحد



بقلم : الدكتور محمد البهي

المثل في القرآن

المثل في القرآن : هو وصف في مضمونه ، يقصد به التوضيح : «وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم» (الروم : ٣٧) .. أي لله جل شأنه الوصف الكامل في الوجود كله : في السموات والأرض .

• وقد يكون التوضيح عن طريق المثل — كوصف في المعنى — ناشئاً عن «شاهد» مما يجري في الحياة الانسانية على هذه الأرض . نقرأ قول الله تعالى : «مثلهم (أي مثل المنافقين) كمثل الذي استوقد ناراً (أي أوقد وأشعل ناراً) فلما أضاءت ما حوله .. ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون» (البقرة : ١٧) فإذ يجعل القرآن المنافقين : في ايمانهم أولاً ، ثم في عدولهم عن الايمان بعد ذلك ، نظراء من أشعل النار فأضاء ما حوله ، ثم لم يلبث أن أطفأها وعاد بنفسه إلى الظلام لا يبصر شيئاً .. إنما يصفهم في حقيقة الأمر : بالحيرة بعد الهداية ، وبالضلال بعد الرشد .

ونقرأ كذلك قول الله تعالى في وصف من أعرض عن الايمان بعد أن بلغته رسالته واتبع ماديات الحياة وحدها : «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها (أي فلم يتبع هدايتها) فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها (أي ولو أراد الله هدايته عن طريق آياته — وهي قرآنه — ورفعه بهذه الهداية إلى المستوى الخالص في الانسانية .. لوفقه إلى اتباعها) ولكنه أخلد إلى الأرض (أي ولكن بدلاً من أن يتبع هداية الله في كتابه وآياته .. مال وانجذب إلى الأرض والميل إلى الأرض والانجذاب إليها كناية عن الرضاء بماديات الحياة وعن الاستغراق فيها وحدها) واتبع هواه (وبميله إلى الاستغراق في ماديات الحياة وحدها .. اتبع هواه ولم يستطع السيطرة عليه) فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه (أي تضطهده) يلهث (أي يظهر القلق وعدم الرضاء) أو تتركه (أي بدون اضطهاد وتتبع) يلهث (أي يظهر القلق وعدم الرضاء كذلك)» (الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .. فتنظير من اتبع هواه من الناس وانجذب إلى ماديات الحياة وحدها : بالكلب في قلقه وعدم رضاه على أية حال .. هو وصف للمتبع هواه في واقع أمره بالقلق الدائم في حياته : إن في حال حصوله على ماديات الحياة فهو قلق عليها خشية ضياعها ، وإن في حال عدم حصوله عليها فهو قلق بسبب تلهفه ورغبته فيها .

وكذلك إذا وقفنا عند قول القرآن الكريم : «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا : كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض (أي فتشابك بسببها الماء .. النبات واختلط بعضه ببعض لفرط نموه) فأصبح هشيماً تذروه الرياح (أي ثم بعد نموه وازدهاره وكثافته في اتصال عيدانه بعضها ببعض .. أصبح هشاً بعد أن جفت عيدانه وخف وزنها ، تطير به الرياح من مكانه إلى أي مكان آخر)» (الكهف : ٤٥) . إذا وقفنا عند هذا القول نرى أن هذا المثل في الآية يصل في وصف الحياة الدنيا بأن ازدهارها هو ازدهار مؤقت ، يعقبه حتماً : فناء لها .. وإلى أن المتعة بها كذلك هي متعة موقوتة وخادعة ، لا تلبث أن تزول كأن لم تغن بالأمس ..

وقد يكون الوصف الذي يقصد من المثل هو لتوضيح ادعاء ، لا يقوم عليه دليل في نفس الأمر ، كادعاءات المعارضين لرسالة القرآن من المشركين الماديين . فإذ نقرأ قوله تعالى في كشف كذب المعارضين من هؤلاء : «وجعلوا له من عباده جزءا (أي نسبوا إلى الله فريقاً مما خلق — وهم الملائكة — على أنها بنات له ، سبحانه) إن الانسان لكفور (أي إن شأن الطبيعة البشرية هو الكفر ، لو تركت من غير ايمان وتوجيه) أم اتخذ مما يخلق بنات ، وأصفاكم بالبنين ؟ . وإذا بشر أحدهم بما ضرب الرحمن مثلاً ظل وجهه مسودا وهو كظيم (أي أنه سبحانه وتعالى لم يتخذ بنات مما خلقه وخصكم أنتم أيها المشركون الماديون بالذكور من هذا الخلق . وكيف تنسبون إلى الله البنات وأنتم إذا أخبر أحدكم بمولود هو أنثى كره الحياة ونفر منها إلى أن يتخلص نهائياً مما ولد له ؟ إنه تناقض : إن ترضوا لله ما لا ترضونه لأنفسكم ، فكيف يكون رباً وخالقاً لكم ، وهو في اعتباركم عندئذ أقل شأناً منكم ؟)» (الزخرف : ١٥ — ١٧) .. إذ نقرأ هذه الآيات الثلاث نرى : إن الوصف عن طريق المثل الذي يرد على لسان المعارضين للقرآن — وهو تنظير الله جل شأنه بالانسان في نسبة الولد إليه وعلى الخصوص : الأنثى — يستهدف توضيح ادعاء من جانب هؤلاء المعارضين ، لا يثبت صدقه في واقع الأمر . لأن مقتضى كون الله رباً في نظرهم — إذ أنهم لا ينكرون ربوبيته ، وإنما فقط يشركون غيره معه فيها — : أن لا يكون أقل شأناً من أي واحد منهم . فإن هم لم يرضوا أن يبشروا بأنثى لهم ، فكيف ينسبون الملائكة له على أنها بناته ؟

وعلى هذا النحو قوله تعالى في شأن القرآن : «وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أي هلا نزل عليه دفعة واحدة ، ولم ينزل تباعاً ومنجماً) كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . (أي ولكن هكذا : نزلناه منجماً وعلى مهل .. لتطمئن به نفسك) ، ولا يأتونك بمثل (أي لا يأتون بوصف يستهدفون به توضيحاً لادعاء كاذب) إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (أي إلا أوضحنا كذبه ووضعنا ما ينبغي أن يكون ويتحقق موضعه)» (الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) . ومن أجل استهداف المعارضين للقرآن من : «المثل» توضيح : ادعاء كاذب في حقيقته . قطع القرآن عليهم السبيل إلى ذلك ، بأن كشف في جملة واحدة .. غايتهم من هذه الأمثال . ولذلك واجههم بالنهي عنها في صورة عامة ، فقال : «فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون» (النحل : ٧٤) .. وكأنه قيل لهم : كفوا عن ضربكم الأمثال فقد بان كذبكم وتهافتكم فيها .



الجسور العلوية الحديثة في العاصمة



أضواء مدينة مسقط في الليل

العاصمة التي تستقبل اللقاء السادس لقادة مجلس التعاون لدول الخليج العربية

مسقط

مدينة القلاع والحصون التي تطلّ على دنيا القرن العشرين

بقلم: يوسف الشاروني

فى هذا الشهر تستقبل «مسقط» عاصمة عمان اللقاء السادس لقادة دول مجلس التعاون الخليجي .. وهى مدينة تجمع بين التاريخ القديم متمثلا فى القلاع والحصون والصناعات المحلية التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور .. والتطور الحضارى الحديث المتمثل فى بناء المستشفيات والمدارس والمصانع وشق الطرق وإقامة حياة جديدة تجعل المواطن ـ هنا ـ يطل على دنيا القرن العشرين !



ثلاث لقطات : عماني بالزي التقليدي .. وأهم حصنين بناهما البرتغاليون (ميراني والجلالي) .. ثم طالبة عمانية في معمل البحوث العلمية

وقد بدأت الحياة العصرية فى العاصمة منذ عام ١٩٧٠ ، بعد أن زحف العمران والبناء فى كل من مطرح ومسقط اللتين تكونان الآن جزءا من العاصمة الحالية ، وكان حول كل منهما في الماضى سور قديم ، تم هدمه ، لتدخل عمان بأسرها إلى مرحلة جديدة من التطور والنمو.

مسقط القديمة

جاء فى كتاب « الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان » للمؤرخ العمانى حميد بن محمد بن رزيق (١٢٧٥ هـ) أن مسقط مدينة معروفة ، والعامة تسميها مسكد غلطا ... عمرتها بعض عرب عمان ، وهم يمن الأنساب ، فغرسوا فيها نخيلا وأشجارا تسقيها آبار ، وآثار هذه الآبار باقية إلى هذه الغاية ، سنة الخمس والسبعين والمئتين والألف . ثم اشتراها النصارى البرتكيسية (يقصد البرتغاليين) منهم فسوروها من حد جبل الكلا إلى جبل السعالى ، وأحدثوا فيها حصنيين كبيرين : شرقيا وغربيا .

فلما اصطلمها (هنا بمعنى استولى عليها) العرب منهم سموا حصنها الشرقى الجلالى ، وسموا الحصن الغربى الميرانى .

وأحدثت النصارى فيها بروجا على السور وأبنية على رؤوس جبالها وخمس عقبات : الأولى من أول المطرح إلى أول ريام ، والثانية من آخر ريام إلى أول مسقط ، والثالثة من آخر كلبوة إلى أول مسقط ، والرابعة من آخر سداب إلى أول مسقط إلى جانب سهيل ، والخامسة من آخر جبال مسقط إلى

● منذ ٤٠٠ عام كانت مدينة متسعة الأرجاء مليئة بالبساتين والحدائق ومزارع النخيل

● مطارها الدولي يستقبل ويودّع كل عام مليون زائر ومسافر

مسقط

مدينة القلاع والحصون



لقطتان : الأولى لإنتاج أفضل أنواع النحاس .. والأخرى للحرفة التقليدية العريقة : صياغة الذهب

أول الوادى الذى يفضى إلى دار سيت (حميد بن محمد بن رزيق ، الشعاع الشائع باللمعان فى ذكرى أئمة عمان ، وزارة التراث القومى ، سلطنة عمان ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥) .

وكان الفونسو دا البوكيرك قد انطلق فى عام ١٥٠٦م إلى الشرق حاملا رسالة ملكية من الملك مانسيل بتعيينه نائبا للملك على الهند وحاكما لها ، بدلا من فرانسيسكو ديل الميدا . وقد توقف فى طريقه على عدد من موانىء أفريقيا الشرقية ، كما توقف على عدة موانىء عمانية منها مسقط التى ذكر أنها ، المركز التجارى الرئيسى لملكة هرمز . وكتب يقول : إن مسقط مدينة ضخمة كثيرة السكان ... فيها بساتين وحدائق ومزارع للنخيل وبرك من الماء لريها بواسطة محركات خشبية . أما ميناؤها فصغير وله شكل حدوة الحصان ، يوفر الوقاية من كل الرياح ... كانت مسقط فى الآونة الأخيرة سوقا لنقل الخيول والتمور . وهى مدينة على درجة كبيرة من الأناقة والجمال ، ومنازلها بديعة جدا يتم تموينها من المناطق الداخلية بكميات كبيرة من القمح والذرة والشعير والتمور تكفى لتحميل كل السفن التى تأتى لشرائها (دونالد هولى ، عمان ونهضتها الحديثة ، مؤسسة ستايس الدولية ، لندن ، ١٩٧٧ ، ص ٢٩) .

وقد قاومت مسقط البوكيرك وجنوده فكان نصيبها التدمير والحرق . فلما استولى عليها أقاموا الحصنين المعروفين اليوم بالجلالى والميرانى كتحصينات دفاعية . وفى عام ١٦٥٠ أجلى العمانيون البرتغاليين عن مسقط كما سبق أن أجلوهم عن عمان بعد حوالى قرن ونصف قرن من الاحتلال البرتغالى .

إن الثروة التى جلبتها التجارة البحرية جعلت عمان بلداً ذا منازل يبدو عليها الترف والفخامة . كما أنها بلد القلاع والحصون . وما يزال فى مسقط نفسها حوالى اثنى عشر بيتا تم بناؤها ما بين أوائل وأواخر القرن الثامن عشر . وكل هذه البيوت ذات المظهر الخلاب المتناسق لها أفنية فى وسطها تحيط بها المبانى التى تعلوها بروزات تماثل فى شكلها تلك التى نجدها فى العمارة المنغولية . ووضع النوافذ فى غاية التناسق ، كما أنها ــ وكذلك الأبواب ــ ذات نقوش رائعة . ويفضى سلم حجرى بسيط إلى الدور الأول .

وتعتبر الدكتورة سعاد ماهر أن بيوت مسقط الأثرية ضمن العمارة الحربية باعتبار أن تصميمها المعمارى يراعى أن يكون القصر أو الدار قلعة حربية يمكن أن تحمى نفسها وقت الحاجة ، وقد ذكرت



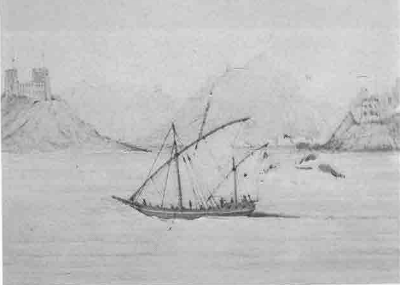
تعليم الفتيات

البيوت التى لا تزال باقية من غرب مسقط إلى شرقها فإذا هى اثنا عشر داراً (الدكتورة سعاد ماهر ، الاستحكامات الحربية فى مسقط ، حصاد ندوة الدراسات العمانية ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨١ ، حـ ٢ ص١٤٤ ــ ١٤٥) .

ومسقط قبل عام ١٩٧٠ ــ عام بدء النهضة التى قام بها جلالة السلطان قابوس ــ لم تكن أكثر من نصف ميل ساحلى يقع بين قلعتى الجلالى والميرانى ، يحيط بها سور تغلق بوابته عند غروب الشمس بعد أن يطلق أحد المدافع طلقاته إيذانا وإنذارا بإغلاق البوابة . فلا يستطيع أحد الخروج أو الدخول .

وواضح من ذلك أن مسقط فى ظل مثل هذه الأوضاع كانت تنتمي إلى القرون الوسطى حتى عام ١٩٧٠ . لكنها فى أقل من خمسة عشر عاما أصبحت فى قلب القرن العشرين بفضل جلالة السلطان قابوس الذى عرف كيف يستغل النفط المكتشف لخدمة البلاد وتطويرها وفى مقدمتها عاصمتها مسقط يعاونه فى ذلك مجموعة من شباب عمان المتحمسين لبلدهم .

وهكذا بسطت العاصمة الحديثة جناحيها لتمتد ثلاثين ميلا عبر الأراضى الساحلية ابتداء من مسقط ومروراً بمطرح وبوشر حتى السيب ، يحدهاشرقا وغربا القصران السلطانيان : قصر العلم شرقا وقصر السيب غربا .



هذه اللوحة يعود تاريخها لعام ١٨٠٥ ، وهي تظهر تحصينات مسقط

سوق السمك

مسقط الحديثة

ولقد كانت سرعة تحول مسقط من عاصمة ضيقة أشبه بمدن القرون الوسطى إلى منطقة إعمار متسعة مترامية سرعة مذهلة . ففى عام ١٩٧٠ كانت أيسر وسائل الانتقال هى المشى ، أما الآن فقد أصبحت السيارة ضرورة لا بد منها لمن يرغب فى التنقل فى منطقة العاصمة .

ولعل المظهر الذى يرمز إلى زوال الحواجز القديمة زوالاً سريعا هو انهيار الباب الكبير ، وهو البوابة المفضية إلى مطرح والتى بنيت فى القرن السابع عشر ، فقد انهار عام ١٩٧٣ ، ومن المعتقد أن انهياره يرجع إلى السيارات التى هزت أساسه . وهو رمز — على أية حال — لقضاء الجديد على القديم .

وكان أول برنامج إنشائى فى عمان هو تعمير الشريط الساحلى من مسقط إلى مطرح . وجعلت الحكومة الاسكان من أولوياتها الرئيسية بعد عام ١٩٧٠ ، وأصبحت هناك سجلات للملكية .

وكانت هناك تلال ومرتفعات تعترض سهولة الإتصال بين مناطق العاصمة بسبب طبيعتها الجبلية ، فلم تتردد الدولة فى استخدام البولدزرات والوسائل الحديثة فى شق الطرق بين الجبال ، بحيث أن ما كان يستغرق عبوره ربما أكثر من نصف يوم صعودا ونزولا على أحد التلال للوصول من منطقة إلى أخرى أصبح الآن لا يستغرق أكثر من خمس دقائق على طريق ممهد .

وربما كان آخر ما شاهدته العاصمة فى العام الماضى جسر دار سيت وبعض الكبارى العلوية فى الشوارع الرئيسية . مما ساعد على انسياب حركة المرور .

ومن أهم وأفضل المشاريع السكنية الجديدة مدينة قابوس التى تبعد عن مسقط القديمة باثنى عشر كيلومترا ، لكنها تقع فى منطقة العاصمة عند القرم بين مسقط القديمة والسيب . وكان مشروع هذه المدينة يهدف إلى أمرين : حل أزمة الاسكان ، ومنع طغيان الجانب الحديث من المبانى الخاصة والتجارية على مدينة مسقط القديمة .

كما بنيت مدينة الإعلام لتوفير مكاتب ومقر لوزارة الإعلام ، ولإنشاء محطة إذاعة واستوديوهات للبث التليفزيونى . كما أنشئت قرية دبلوماسية تضم مبانى السفارات ومساكن موظفيها . وكذلك منطقة صناعية تقع غربى السيب هى منطقة الرسيل .

كما أصبحت روى — التى كانت مركزا صغيرا — ترتبط الآن مع مطرح بأوتوستراد وتفخر بمركزها المدنى التجارى . وقريبا منها تقع مبانى الغرفة التجارية والبنك المركزى وبعض المساجد .

أما الوطية — التى لا تبعد كثيراً عن روى — فقد ضمت المعهد الاسلامى والاستاد الرياضى الذى يقام فيه سنوياً الاحتفال بالعيد الوطنى . وقد أشرفت شرطة عمان على بناء هذا الاستاد الذى يضم ملعباً تعادل مساحته الملاعب الأولمبية ومضماراً للعدو ويبلغ طوله ٤٠٠ متر وأماكن لعشرة آلاف متفرج .

● إنها أكثر عواصم العالم أمناً ، رغم وجود عدد كبير من الوافدين

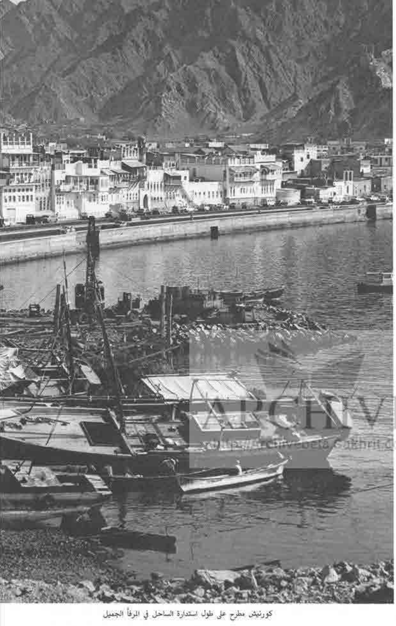
كما بنيت مجموعة من الفنادق الفخمة الحديثة منها فندق الفلج وفندق روى وفندق انتركونتيننتال وفندق الخليج وفندق نوفوتيل بجوار المطار ، كما أوشك العمل أن ينتهى فى فندق البستان المطل على شاطىء البحر والذى يقع فى مكان فى غاية الروعة لينزل فيه ضيوف الدورة السادسة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية .

كما تضم العاصمة خمسة مستشفيات كان آخرها مستشفى ابن سينا للأمراض النفسية ، إلى جانب العيادات الخاصة لعدد من الأطباء المتخصصين . كما انتشرت مدارس الذكور والأناث من ابتدائية واعدادية وثانوية ، إلى جانب حضانات الأطفال التى تشرف عليها وزارة التربية والتعليم . ولم يكن بالسلطنة كلها قبل عام ١٩٧٠ إلا ثلاث مدارس إبتدائية . وكتاتيب منتشرة فى القرى لتحفيظ القرآن الكريم ومبادىء الحساب واللغة العربية .وفى عام ١٩٨٦ سيتم إنشاء جامعة قابوس ليواصل الطلبة العمانيون تعليمهم العالى فى بلادهم .

وقد كان من أكثر ما تحتاج إليه عمان مطار دولى حديث ليحل محل المطار القديم الذى لم يكن يستقبل إلا الطائرات الصغيرة الحجم ، والذى كان يعرض الطائرات للخطر أثناء هبوطها بسبب ما يحيط به من جبال صخرية . لهذا فقد أقيم مطار السيب على بعد عشرين ميلاً من مسقط القديمة على السهل الساحلى . وقد تم إنشاؤه عام ١٩٧٣ بممرات تكفى لهبوط جميع أنواع الطائرات الحديثة بما فيها طائرات الكونكورد الأسرع من الصوت . وبدأت كثير من شركات الطيران فى إنشاء خطوط مباشرة لها ما بين مسقط وعواصم الدول الأخرى مما رفع عدد المسافرين الذين استخدموا مطار السيب الدولى عن مليون شخص سنوياً .

مسقط

مدينة القلاع والحصون


كورنيش مطرح على طول استدارة الساحل في المرفأ الجميل

كذلك من بين الإنجازات الهامة التى أضيفت لمدينة مسقط ميناء قابوس الذى توجد به الآن عشرة مراس عميقة. كما أن هناك ميناء الفحل الذى تقع أمامه جزيرة الفحل وأقيمت قريبا منه مصفاة النفط. وفى هذا الميناء تتم تعبئة ناقلات النفط العملاقة بالبترول.

ومسقط مركز النشاط الصحفى فى عمان، تصدر منها صحيفتان يوميتان باللغة العربية وثالثة باللغة الإنجليزية، كما تصدر ست مجلات ما بين أسبوعية ونصف شهرية اثنتان منها باللغة الانجليزية.

وأقل الشهور حرارة فى مسقط شهر يناير، إذ تتراوح درجة الحرارة ما بين ٢٧ م نهاراً و ١٦ م ليلا، بينما تبلغ الحرارة أقصاها فى شهر يونيو إذ تتراوح ما بين ٤١ م نهارا و ٢٨ م ليلاً. أما شهر نوفمبر الذى تنعقد فيه دورة مجلس التعاون لدول الخليج العربية فإن الحرارة تتراوح بين ٣٠ درجة نهارا و٢٠ درجة ليلاً.

وكما تمثل مسقط فى تطورها التاريخى والحضارى تطور عمان كلها فإنها كذلك من الناحية الجغرافية تتمثل فيها كثير من خصائص عمان لا سيما تعانق صخورها بالبر (ومسقط معناها مكان السقوط). أما كلمة مطرح فمعناها مكان الرسو مما يشير إلى المكان الذى كانت تلقى فيه قوافل الجمال القادمة من الداخل أحمالها بعد رحلة تطول أو تقصر عبر الجبال والوديان.

وأهم معالم مطرح هو سوقها القديم الذى يتميز ــ شأنه شأن جميع الأسواق الشرقية القديمة ــ بطرقه الضيقة المسقوفة الملتوية ودكاكينه المرتفعة عن الأرض قليلا ببضع درجات، تفوح منه رائحة العطارة الشرقية، ويزدحم بالمشغولات العمانية الشعبية كالخناجر والدلات (جمع دله وهى إناء معدنى خليجى لإعداد القهوة العربية) والكمات (جمع كمة وهى غطاء الرأس المطرز للرجل العمانى، وجمعها باللهجة العمانية كميم) والمشغولات الذهبية والفضية العمانية، كل هذا جنبا إلى جنب مع محلات أحدث الأقمشة والملابس المستوردة، وألعاب الأطفال الالكترونية، والأدوات المنزلية الكهربائية... إلى آخره. إن هذا السوق الذى يجمع بين القديم والحديث رمز لعمان المعاصرة التى تحافظ على تراثها وتتفتح على دنيا القرن العشرين.

ولعل مواطنى مسقط ــ وربما مواطنو عمان بوجه عام ــ يمثلون هذين التيارين اللذين يحفظ وجودهما معا لعمان ــ فى مرحلة تطورها الحالية ــ شخصيتها من ناحية وتفتحها على العالم من ناحية أخرى. فهناك العمانيون الذين كانوا قد غادروا عمان قبل عام ١٩٧٠ إلى الدول الخليجية الأخرى وقبل ذلك إلى ساحل أفريقيا الشرقى وجزيرة زنجبار (الآن جزء من دولة تانزانيا، وكانت يوما ما مقراً لسلطان عمان فى القرن التاسع عشر). وهؤلاء عادوا ليشاركوا فى بناء النهضة، وهم أكثر تحرراً، ويتحدثون الانجليزية بطلاقة بحيث تكاد تكون اللغة العربية لغة ثانية بالنسبة لبعضهم. ثم هناك العمانيون الذين آثروا البقاء فى الوطن الأم وهؤلاء أكثر محافظة. ولا شك أن عمان الحديثة ستصهر الأجيال الجديدة فى بوتقة واحدة بظهور جيل جديد يجلس الآن جنبا إلى جنب فى مقاعد فصول دراسية واحدة، ويستمع إلى برامج اذاعية واحدة وبث تليفزيونى واحد.

وإذا كان صحيحاً أن مبانى أية مدينة دلالة على قاطنيها ولغة تعبر عنهم، فإن مقارنة بسيطة بين مبانى مسقط القديمة ومسقط الحديثة توضح لنا مدى التطور بل القفزة التى قفزها الشعب العمانى فى



خنجر الزينة العماني بمقبض وغمد من الذهب



وجه لطفل بالزي العماني



الخمسة عشر عاما الأخيرة، ولعل وجود المستشفيات والمدارس ومبنى المجلس الاستشارى للدولة فى منطقة السيب بالعاصمة دلالة على أن بناء الإنسان العمانى يسير جنبا إلى جنب مع بناء المصانع والفنادق والبنوك والمصالح الحكومية والمحلات التجارية التى هى أولا وأخيرا من ولى الانسان العمانى الذى يصنع حاضره وهو يتطلع إلى مستقبله.

وأخيرا فإن مسقط تعتبر ــ وعمان عموما ــ من أكثر عواصم العالم ودوله أمنا، فوقوع الجريمة أمر نادر الحدوث برغم وجود عدد وفير من الوافدين من مختلف الجنسيات يساهمون فى عملية بناء عمان الحديثة بدءاً من الخبراء حتى العمال. وإذا سرت فى شوارع مسقط الهادئة النظيفة ــ رغم طبيعتها الجبلية ــ فإنك تشعر أنك تسير فى طرقات بلد شعبه عريق، ولا عجب فحضارة عمان تمتد جذورها إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.

كما أن من يتجول اليوم فى طرقات مسقط يلحظ بوضوح أنه فى كل يوم تضاف إليها لمسة هنا وأخرى هناك ما بين تشجير أو إقامة جسر علوى أو مد طريق أو رصفه تطبيقا لقرار تجميل العاصمة الذى صدر منذ حوالى عام، وذلك استعداداً لاستقبال ضيوفها من دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عند إنعقاد الدورة السادسة فى شهر نوفمبر الحالى. إن المدينة تستعد اليوم لاستقبال قادة دول الخليج العربية.

يوسف الشارونى



طفلة عمانية .. أمل المستقبل





فناء مسجد دلهي بعمارته الاسلامية .. ثم لقطة لبوابة أحد خانات القوافل في تركيا .. وعلى اليسار لقطة لجدران أحد المساجد بأفغانستان



كتاب الشهر

العمارة في العالم الاسلامي

عرض وتقديم: حسني شحادة

رغم أهمية فن العمارة في العالم الاسلامي ، فمازال الفراغ يكتنف المكتبة العربية في الدراسات الجادة عن هذا الفن الأصيل .. وحتى الآن لم يعتن علم الآثار الحديث به إلا قليلاً ، فقد ألفت كتب تناولت جانبا من العمارة الاسلامية ، في قصر الحمراء ، ومساجد القاهرة ، والمسجد الاقصى ، والمسجد الأموى ، ومسجد قرطبة ، وغيرها، ولكنها لم تتناول هذا الموضوع بشمولية، حتى طلع علينا كتاب « العمارة في العالم الاسلامي » الذي اشترك في إعداده ، عدد من العلماء المتخصصين وزود بلوحات تمثل فن العمارة الاسلامية في كافة بلدان العالم الاسلامي . فأماط اللثام عن هذا الجانب المشرق الجميل من الحضارة العربية الاسلامية .

فن البناء والتعمير ، قديم قدم البشرية ، وهو في أصله تلبية لحاجة أساسية من حاجاته ، ولكنه نتاج فني ككل ما يصنعه الانسان لأنه يعبر في كل ما يصوغه عن روحه ، وذوقه ، وفكره .

فقديما ، استطاع العرب أن يجسدوا قيمهم الروحية ، وحاجاتهم المادية ، في مرئيات تتصف بالرمزية والجمال ، فممالك الأنباط ، وتدمر ، والحضر ، لعبت دوراً ذا شأن في التجارة الدولية ، ومدن تلك الممالك كالبتراء ، ومدائن صالح ، وتدمر ، والحضر ، تضم الكثير الرائع من الآثار المعمارية . أما في اليمن ، وما تخلف لنا من آثاره القديمة ، من قصور ، ومنشآت تدلل على الولوع بالبناء الضخم ، حيث ظل العرب يتناقلون الاعجاب بها على مر العصور ، فالهمداني — أحد مؤلفي القرن العاشر — يحدثنا في كتابه « الاكليل » عن قصر غمدان ، فيصفه بأنه صرح شاهق على هيئة برج ، أقيمت به تماثيل لأسود تزأر ، وقاعة مقببة مزينة بالزخارف ، كما أن سد مأرب ، كان دون ريب ، منشأة هندسية على مستوى العظمة التي وصفته به الأساطير . وكذلك في أقصى الشمال حيث كانت مملكتا اللخميين في العراق والغساسنة في الشام لا تزالان مزدهرتين قبل ظهور الاسلام بقرن ، وظل الشعراء يتغنون قروناً عديدة بقصر الخورنق ، الذي بناه الملك النعمان .

الفن الاسلامي

ما نكاد ننتقل إلى القرن السابع الميلادى ، إلى المرحلة التي بدأت تتكون للاسلام خلالها ثقافة عالمية الأبعاد ، حتى نرى فن العمارة الاسلامي ، له شخصية مميزة ، وله خلفية جمالية وفلسفة واضحة ، تحقق وحدة فن العمارة الاسلامية التي



اكتسبت أشكالاً جديدة ، فيعم أرجاء العالم الاسلامي تصور جديد لأشكال التعبير المرئية .

ولئن كان لهذا التعبير جذور من الماضى ، وتجلى ذلك بمقارنته مع انتشار اللغة العربية كلغة للقرآن الكريم ، التي حلت ما أمكن محل اللغات المحلية في جميع البلاد التي أشرق عليها نور الاسلام ، فارتباط الفن الاسلامي ، بإيديولوجية واحدة ، ومنهجية واحدة ، هي تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ، حمل شخصية واحدة ، رغم اختلاف البلاد والعباد ، ليكون حضارة جديدة هي الحضارة الاسلامية ، التى وظفت لمنهجها كل ما اقتبست من أشكال الفنون ، وألوان العلوم ، ما كان منها فارسياً أو بيزنطيا أو رومانيا أو اغريقيا أو ما نشأ في آسيا الصغري ، وكان هذا الاقتباس في جميع الأحوال ، مصحوباً بالتغيير ، مصبوباً في أشكال جديدة ، على نحو مدهش ، باتساقه واضطراده ، يكسب التالد المطور ، والطارىء المستحدث حياة خاصة متميزة ، سواء في حال الازدهار أو الركود والذبول ، ثم تجددا عبر العصور ، ليصبحا الحقيقة المجسدة والمتطورة لحضارة الاسلام ، ويحيطان المؤمنين من المغرب إلى اندونسيا ، ببيئة متميزة لا تخطئها ، ولا يخق ما تمثله هذه الخصائص من ظاهرة فريدة مميزة ، وبصفة خاصة في فن العمارة الاسلامية .

اللغة التعبيرية الرائعة

قام الفنانون المسلمون إبان القرنين السابع والثامن للميلاد بالمواءمة بين ما كان لدى المسلمين من جديد الحاجات والمتطلبات ، وبين ما خلفته لهم الحضارات السابقة في لغة تعبيرية رائعة الثراء ، فظهر في العالم فن معماري جديد ، هو الفن المعماري الاسلامي ، أطول الفنون المعمارية عمرا على مدى الزمان ، فساد خلال ثلاثة عشر قرناً بين القرنين السابع والتاسع عشر للميلاد ، بلاد ما بين الصين وشمال اسبانيا ، ومازال شامخاً حتى يومنا هذا وعلى امتداد الزمان الآتى إن شاء الله .

لقد تجلت قدرة الفنانين المعماريين المسلمين الأول ، في تطوير هذا الفن ، فشهد القرن الأول بعد الفتح نتاجاً معمارياً جديداً ، تجلى فيه الابداع الفني . من حيث الإنشاء والتكوين ، ومن حيث استخدام العناصر القديمة والمقتبسة ، التى طورها الفنانون المعماريون المسلمون ، واستخدموها بأسلوب مختلف ، يتفق مع الذوق الاسلامي ، والثقافة الاسلامية .

ذلك هو دور التأسيس خلال القرن الأول الهجري ، وكلما تقدم الزمن استمر التعديل والتجديد ، وبدأت واضحة الخصوصية الاسلامية في الفن المعماري ، في القباب ، والسقوف ، والأبواب ، وتيجان الأعمدة ، وفي العقود ، وفي النقوش الزخرفية وفي الهندسة والتخطيط .

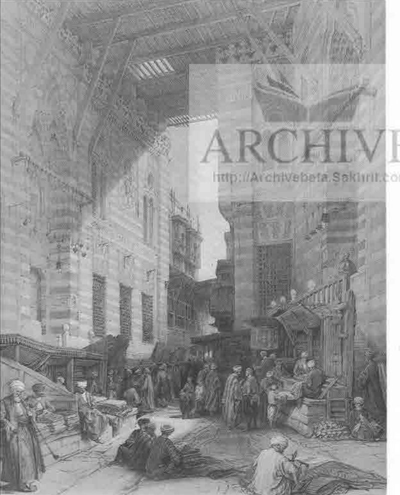
فلسفة الجماليات

جاءت المنشآت المعمارية الاسلامية ، تلبية لحاجات وشرائط العقيدة الاسلامية ، والثقافة العربية الاسلامية ، وكان ذلك من أهم أسباب ظهور الفن المعماري الاسلامي ، في خصوصيته المتميزة .

فلسفة العمارة الاسلامية جعلت للعمارة في كل أقطار العالم الاسلامي خصائص عامة يتصف بها هذا الفن ، كالزخرفة والتنويع ومراعاة التناظر ، والشمولية ، وتجنب تصوير كل ذي روح ، كالانسان والحيوان ، والتعويض عن ذلك بالمواضيع الزخرفية ، والاشكال الهندسية ، ومناظر الطبيعة .

لقد أعطت هذه الخصوصية للفن المعماري الاسلامي ، شخصية متميزة ، جعلت لنتاجه طابعاً عاماً ، ووحدة . ومما يؤكد هذه الوحدة ، أن

سوق الأقمشة الحريرية في القاهرة ، كما صوره الفنان دافيد روبرت في عام ١٨٤٩



أي إنسان يستطيع التعرف على العمارة الاسلامية ، أينما كانت في ديار الاسلام .

أما سبب هذه الفلسفة المعمارية الاسلامية الواحدة المتميزة فهو ، وحدة العقيدة والحضارة والثقافة للأمة الاسلامية في شتى أقطارها . حيث ينهلون جميعا من معين الاسلام ، فالاسلام عقيدة وشريعة ، وهذا ما جعل العمارة في العالم الاسلامي متشابهة في ديار الاسلام ، حيث تفرض العقيدة شروطا على الشكل والتخطيط ، وعلى نوعية الزخارف ، كما كانت الصلات الدائمة بين أقطار العالم تتوثق باستمرار عن طريق الخلافة وعن طريق الأسفار وتبادل السلع ، وارتحال الفنانين ، وتنافس الحكام على اجتذابهم من جهة ثانية .

عناصر فن العمارة

إذا أعرنا التفاتة الى شتى أقطار العالم الاسلامي ، نجد كثيرا من آثار فن العمارة الاسلامية ما تزال قائمة ، تحكي عظمة هذا الفن وروعته ، مع مرور أكثر من ألف عام على انشائها ، بزخارفها ، وأعمدتها وأقواسها ، وما تزال تقاوم تقلبات الفصول والأجواء ، سواء في بلاد الشرق الاسلامي أو بلاد الغرب الاسلامي ، وغالبا ما تتألف من العناصر المميزة التالية :

أولا : الأعمدة وتيجانها

عندما انتشر الاسلام ، وجد المسلمون كثيرا من المباني المتداعية من آثار الحضارات البائدة كالاغريقية والرومانية والبيزنطية ، فانتفعوا بأعمدتها ، وتيجانها ، كما تشهد بذلك مبانيهم الأولى التي تضم عددا من الأعمدة الغريبة المصدر ، ولما استنفد المسلمون ما وجدوا ، اضطروا بحكم الطبيعة الى انشاء ما يحتاجون ، وطبعوا عليه طابعهم الخاص الذي كانوا يتميزون به في جميع آثارهم والتي ترى بوضوح في قاعة الأسود بقصر الحمراء .

ثانيا : الأقواس

امتاز فن العمارة العربي القديم بالأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس ثم طورت العمارة الاسلامية الأقواس في مصر والأندلس والمغرب حيث اكتسبت شكل نعل الفرس أو القوس ، وأصبحت هذه الاقواس صفة لفن العمارة الاسلامية في شتى أقطارها .

ثالثا : المآذن

أوجبت ضرورة دعوة المسلمين الى الصلاة في أوقاتها ، إقامة المآذن في جميع المساجد في شتى أقطار العالم الاسلامي ، وتختلف أشكالها باختلاف البلدان ، فهي مخروطية الشكل في بلاد فارس ، مربعة في بلاد الاندلس وافريقيا ، اسطوانية في تركيا .



قصر العظم في دمشق



مطرقة لأحد الأبواب على هيئة أسد تعود للقرن التاسع عشر

استخدام الطوب في زخرفة الجدران لاحداث مستويات مختلفة من التأثير الفني بتباين الضوء والظلال

● أشهر المساجد في العالم الاسلامي التي تتجلى فيها روعة الفن المعماري

● كيف واجه المعماري المسلم في البلاد الحارة مشاكل التهوية والإضاءة ؟

وقد تجلت روعة فن العمارة الاسلامية في إقامة هذه المآذن كمثل مئذنة مسجد قايتباي في القاهرة التي تعد من العجائب المعمارية .

رابعا : القباب

ليست القباب مما اخترعه المسلمون ، وإن كان أصل الكلمة عربيا فقد كانت معروفة عند البيزنطيين . وكان للأكاسرة من بني ساسان قباب في قصورهم . وإنما ابتكر المسلمون القباب ذات الحفر .

ويختلف شكل القباب الاسلامية باختلاف البلدان ، فهي منخفضة في افريقية كما في جامع القيروان . أما في مصر ، فتقام القباب على المزارات أو على الحجرات المجاورة للمساجد ، والمشتملة على أضرحة الصحابة والصالحين . ومن أشكالها القباب نصف الدائرية ، والقباب البيضاوية الأسطوانية ، والمخروطة ، والمجاوزة والمقرنة .

خامسا : المتدليات

انفرد فن العمارة الاسلامية بالمتدليات . إذ لم توجد عند أمة حتى الآن ، فقد كره المسلمون أوجه المباني الملس ، الموحدة الزوايا ، والاشكال القائمة ، فكانوا ينشئون الكوى الصغيرة النائئة المثلثة والكرية تتدلى بعضها فوق بعض في الفضاء تدلياً هندسيا تدريجيا ، وما كاد القرن الثاني عشر للميلاد يحل ، حتى كان أمرها شاملا لجميع البلاد الاسلامية . وقد استخدمها المسلمون في ربط أطناف أورقة المآذن بأوجهها القائمة وفي ملء قباب المساجد ، وفي وصلها بالجدر القائمة عليها . وفي وصل القباب الكرية بالأوجه المربعة . وهكذا .

وقد تفنن المسلمون في الأندلس في بنائها ، فحولوا تجويفاتها الكرية الى مناشير من بلور بقاعدة مثلثة الاضلاع ، ذات وجوه مقعرة .

النقوش العربية

فن الزخرفة والنقش في العمارة الاسلامية ، ذو طابع خاص متميز بزخارف من رسوم هندسية ممزوجة بالكتابات .

وللخط العربي شأن كبير في الزخرفة ، فهو ذو انسجام عجيب مع النقوش العربية . وتؤخذ هذه الكتابات من القرآن الكريم . وأكثر الكتابات استعمالا البسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، أو القول الجامع الذي يلخص به الاسلام وهو التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

أشكال العمارة الاسلامية

تعد العمارة الاسلامية في جوهرها عمارة تستهدف الجماعة ومصلحتها نرى ذلك في المنشآت العديدة التي أقيمت لخدمة المسلمين ، استملى الفنان المسلم فيها مدلولات عقيدته ، فجسمها وصورها وأبدعها على تلك الصور التي تتحلى بها العمارة الاسلامية . والتي تميزت عن سائر العمارات ، لأنها من فيض الاسلام ووحيه . ومن أبرز نماذج العمارة الاسلامية . المساجد والمدارس والاضرحة ، القصور والقلاع والحصون ، الأسواق والخانات والبيوت والمساكن .

المساجد : ينبع الفن الاسلامي في جوهره من العقيدة الاسلامية السمحاء ، التي لا تكتمل إلا بالاخلاص . ولا تأخذ طريقها الى ضمير المؤمن ووعيه إلا بالتطهر والتجرد ، وطبيعي أن يكون مهد هذا الفن المعماري الاسلامي هو المسجد .

ومن أشهر المساجد في العالم الاسلامي والتي تتجلى فيها روعة الفن المعماري الاسلامي : بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، ومسجد قبة الصخرة بالقدس الشريف ، وجامع القيروان ، وجامع قرطبة ، ومسجد عمرو بن العاص بالقاهرة ، ومسجد المتوكل بسامرا ، وجامع السليمانية في استانبول وغيرها كثير .

المدارس : يشكل تعليم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والعلوم العملية والنظرية ، جزءا هاما من حياة المسلم . وقد كان التعليم يجرى في المسجد حتى إنشاء الجامع الأزهر سنة ٩٧٠ ميلادية .

وأقدم ما نعرفه من مدارس الاسلام ، بناء يتألف من فناء وإيوان واحد فسيح وعدد من الغرف ، ومنها ما أنشأه السلطان الأيوبي نور الدين سنة ١١٦٠ في حلب ودمشق ، وماشيد منها خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر في عدد من مدن الاناضول ، مثل « قيصري » و« قونيه » ، التي تزهو بمدارس ظفرت بأكبر قدر من الترف والاسراف والزخارف . مثل مدرسة « انجي منارة » التي أنشئت سنة ١٢٦٠ م و« مدرسة الامير قاراتاي » سنة ١٢٥٢ م والتي تتميز بمداخل فخمة من الحجر المحفور ، كما تزينها من الداخل بلاطات فسيفسائية بديعة .

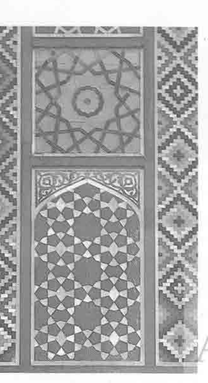
الأضرحة : إن كراهية الاسلام لإنشاء الأضرحة كان له أثر في امتناع المسلمين السنيين عن بناء الأضرحة الفخمة . والبناء الوحيد الذي ينتمي إلى عمارة الأضرحة والذي يعد أقدم ما حفظه لنا الزمن كاملاً ، هو ضريح اسماعيل الساماني في بخارى ويرجع تاريخه إلى سنة ٩٢٧ هـ . ولهذا الضريح قيمة معمارية كبيرة ، إذ يسمح لنا بتصوير نوعين مختلفين من التطور المعماري : الأول هو طراز المقابر الملكية لفيرغ « سنجر » في مرو سنة (١١٥٧) ؛ وضريح « أولجيانو » بالسلطانية في ايران سنة (١٣١٦) ، والمقابر التيمورية مثل مقبرة جوهر شاد ، وضريح تاج محل المشهور في اجرا والذي شيد سنة ١٠٠٦ قرب مدينة جرجان على ساحل قزوين . ويتألف الطراز الثاني من المقابر وهو ما لم تتعد وظيفته احتواء رفات الميت .

القصور : شيد الخلفاء الامويون قصورا عديدة خارج العاصمة دمشق حوت كثيرا من آثار الترف والبهجة المتجلية في فن العمارة ، وما فيها من زخارف وفسيفساء ونقوش . وأقدم القصور التي سلمت لنا من عوادي الزمان ، قصر المشتى الذي بناه الوليد بن يزيد حوالي عام ٧٤٠ .

تتميز القصور الاسلامية المبكرة في العهد الأموي بإقامة قاعة العرش في مركز القصر .

وعندما قامت الدولة العباسية حلت التقاليد الفارسية المتبعة في عمارة قصور خراسان ، محل التقاليد الأموية ، مثل قصر الأخيضر في العراق والذي يرجع إلى القرن الثامن الميلادي .

وغالبا ما تكون القصور شبيهة بالقلاع



استخدام الزخرفة الاسلامية في العمارة



بوابة النصر (١٥٦٩) وتوحي بالشموخ والقوة، وهما من صفات العمارة الاسلامية

منارة الجامع الكبير في مدينة دمغان بإيران

والحصون التى كانت تبنى على الثغور وغالبا ما تكون القلاع ذات أبراج مبنية بناء متينا رائعاً.

وهناك جزء رئيسى في المدينة الاسلامية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم العمارة التجارية ويلاحظ الدارس والباحث أن تنظيم الأسواق في الاسلام كان أوثق صلة بالروح الاسلامية منه بالنظم البلدية. وعرفت القيصرية في العهد المملوكى. أما البازارستان «سوق القماش» فهو ظاهرة منقولة عن العثمانيين.

ثم شاع نوع آخر من المبانى منذ عهد السلاجقة، وهو خانات القوافل التى كان المقصد منها إيواء التجار المسافرين وحراستهم. وكانت بعض هذه الخانات مثلا رائعاً لفن العمارة الاسلامية مثل خان شاه الذي أنشأ (رباط سفرق) وخان شاه حسين باصفهان.

أما الأسواق فى العمارة الاسلامية فنلاحظ أن تنظيمها كان أوثق صلة بالروح الاسلامية فهى تختلف عن السوق في الحضارات الأخرى، فنجد القاهرة تتميز عن سائر المدن ببعض الخصائص، فهناك شارع رئيسى طويل وهو المعروف بالقصبة. يخترقها من الشمال الى الجنوب، من باب الفتوح إلى باب زويله وتتخلله دخلات تشغلها الأسواق التى تعقد في الشوارع والساحات. وتحف العقبة أبنية فخمة من قصور الخلفاء وتليها المساجد والمدارس ومدافن السلاطين من المماليك وكانت تشمل أقساماً. خصص كل منها لنوع من أنواع التجارة كالخيامية، والنحاسين، والعطارين، والمغربلين الى غير ذلك.

لم ينل هذا الجانب من العمارة الاسلامية حظاً كافيا من الدراسة. ولكن يلاحظ أن معظم مدن العالم الاسلامى كانت تتبع فى بناء منازلها تصميماً مشتركا في هيكله العام، يراعي فيه ظروف المناخ، حتى توفر الرطوبة. وتقى أهلها لفحات الحر، فالمنزل غالبا ما يتكون من «الصحن» الذي استخدم فى تكييف حرارة الجو. ويحيط به ايوان للاستقبال عن شماله، وآخر عن يمينه؛ ولا يكاد يخلو صحن البيت من نافورة أو حوض ماء تنعكس على مياهه صفحة السماء التي يعشقها العربى المسلم ويتجه إليها.

وقد واجه المعماري المسلم في البلاد الحارة مشكلات التهوية، والاضاءة، واستقبال أشعة الشمس. فصمم «ملقف الهواء». وهو طاقة مفتوحة في السقف بأعلى الركن الشمالي للقاعة، تحتضنها جدران أربعة مرتفعة قليلاً، تمثل بئر هواء علوي، وأحياناً يصمم المشربية، كحل مؤقت للتغلب على مشكلات التهوية والإطلال على الخارج.

* * *

والخلاصة، أن كتاب العمارة في العالم الاسلامي لمؤلفه «جورج ميشيل» يتسم بشمول النظرة إلى العمارة الاسلامية في عهودها المختلفة وأنماطها البديعة، حيث جمع بين دفتيه عدداً من الآثار التي لم تتح لكتاب قبله، إذ لم تكد عيناي تصافحان لوحات هذا الكتاب. حتى وجدتني أنفذ إلى عالم من سحر العمارة الاسلامية، يمتد من مشارف آسيا حتى اسبانيا. فأنتقل بين آثار يستأثر جمالها بالوجدان. ويسكب في النفس دقات من الورع والامتاع.

حسني شحاده

نافذة خليجية في بلاد الشمس المشرقة

فنوننا الشعبية وتراث الأجداد في طوكيو

بقلم : حسن الملا

شهدت طوكيو عاصمة اليابان أخيرا وبالتحديد فى الفترة من التاسع عشر الى السادس والعشرين من سبتمبر الماضى المهرجان الثقافى الأول لشباب مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، والذى كان بحق نافذة واسعة تطل منها بلاد الشمس المشرقة على فنوننا الخليجية التى استحوذت على اعجاب اليابانيين ، ولاقت الاقبال الشديد منهم ، وقوبلت كل فقرة من الفقرات التى قدمت بالاستحسان الواضح ، الأمر الذى يشجع على تكرار التجربة وتقديمها فى اليابان وغيرها من بلاد العالم المختلفة . .



ولقد رأس وفد قطر فى هذا المهرجان الثقافى لشباب مجلس التعاون لدول الخليج العربية الشيخ محمد بن عيد آل ثانى ، وضم الوفد خمسة وستين عضوا من الفنانين التشكيليين والفنانين الشعبيين ، بالاضافة إلى عدد من الاداريين . وقد استطاع وفدنا فى المهرجان بما قدمه من فنون قطرية وخليجية متنوعة أن يضيف الكثير الى اللوحة الجميلة للفن الخليجى التى قدمتها كل الفرق وكافة الفنانين بأبعاد جديدة استحوذت على اهتمام المتفرجين فى عاصمة اليابان .

في مدينة طوكيو تم افتتاح المهرجان الأول لشباب دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية وتضمنت مراسم الافتتاح كلمة لرئيس المهرجان الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز آل سعود ممثلاً لدول الخليج ، وكلمة للسيد وزير التنمية والاشغال اليابانى الذى حضر الافتتاح وقدم التحية لأبناء مجلس التعاون وأشاد فى كلمته بالتعاون والعلاقات القائمة بين اليابان ودول الخليج العربية . وقال إن بلاد العالم الصناعية يجب عليها أن لاتنظر الى البلاد العربية نظرة اقتصادية ضيقة كسوق مصدرة للنفط فقط ، بل إن على الدول الكبرى أن تعترف بما للبلاد العربية من تاريخ حضارى مشرق وتقاليد خالدة وتراث عظيم . وأضاف اننا لنعتز كثيراً بالحضارة العربية الاسلامية ، تلك الحضارة التى أسهمت فى تطور العالم وقيادته الى طريق المدنية وهي حضارة يدين لها العالم بما حققه اليوم من تطور وتقدم .

المعارض الفنية

بعد ذلك قدمت الفرق المشاركة فى المهرجان عروضها من الفنون الشعبية التقليدية : بدأتها بلوحة مشتركة تضمنت أغنية أنا الخليجى التى تعبر عن وحدة دول المنطقة العربية فى الخليج وآمال شعوبه وتطلعاتها .

وبعد انتهاء العروض الشعبية المتمثلة فى الايقاعات الخليجية تم افتتاح المعارض المشتركة التى أقيمت بهذه المناسبة والتى تضمنت العديد من اللوحات الفنية التى تمثل مختلف جوانب الحياة فى دول الخليج العربية . كما اشتملت هذه المعارض على الأزياء الشعبية والأدوات التقليدية المختلفةاضافة الى رسوم الأطفال .

وفى هذه الاثناء تم توزيع المطبوعات والنشرات الاعلامية لدول المجلس . وفى احدى صالات المعرض نصبت خيمة كبيرة محلاة بزخارف جميلة عرفتها حياة الصحراء . وقد استخدمت هذه الخيمة لاستضافة الزوار وتقديم القهوة العربية لهم مع تقديم بعض الفقرات الموسيقية المختلفة والتى حازت اعجاب اليابانيين .

العروض الشعبية

ولقد قدمت الفرقة القومية القطرية للفنون الشعبية مجموعة من الفقرات خلال المهرجان أهمها لوحة « العرضة » وهى احدى الرقصات الشعبية التقليدية المنتشرة فى منطقة الخليج العربى . وقديماً كانت تؤدى فى حالة الاستعداد للقتال وبعد الحرب والانتصار فيها ، وفى المناسبات القومية والأفراح . وهى تعنى القوة والصبر والفروسية والشجاعة ويؤديها الكبار والصغار على ايقاعات الطبول و« الطارات » و« الشيلات » المنظمة .



ثلاث لقطات من المهرجان للفرقة القومية القطرية للفنون الشعبية ، والفرقة العمانية ، وفرقة الفنون الشعبية في دولة الامارات العربية المتحدة



كما قدمت الفرقة القطرية فاصلا سامريا وهو لون من ألوان الفنون الشعبية القطرية ويؤديها الرجال أثناء سمرهم بمصاحبة الطارات والطبل .

وقدمت كذلك « الليوا » وهى من الفنون الشعبية النازحة والتى تفاعلت مع البيئة الخليجية وأصبح لها شكلها المميز . وقد لاقت قبولاً كبيراً من الشباب كما أن لها أشكالاً متعددة فى منطقة الخليج وتؤدى بمصاحبة الصرناى والطبول المتنوعة . كما قدمت الفرقة القطرية الفجرى (إفجرى) وهو لون من ألوان الفنون التى تمت بصلة كبيرة إلى حياة الناس فى الخليج العربى ، لارتباط هذا الفن بحياتهم اليومية سواء فى البحر أو البر فى العمل والسمر ، ويعبر هذا الفن عن معاناة أهل الخليج فى البحث عن الرزق . ومن الألوان التى قدمتها الفرقة أيضا الطنبورة ، وهى من الفنون الشعبية النازحة وتؤدى على أنغام آلة الطنبورة ، وايقاعات الطبول والمنجور ويؤديها معا الرجال والنساء .

وفرق الخليج الأخرى

كما اشتركت من الكويت فرقة التلفزيون المعروفة برقصاتها المصاحبة للغناء الخليجى المنوع ، واشتركت سلطنة عمان بفرقة شعبية مختلطة من البنين والبنات وأهم الرقصات التى قدمتها وأبهرت الجمهور هى زفة الحسنة والتى تمثل مراسم الزواج فى عمان والمصاحبة بأغان وإيقاعات خاصة بالعرس .

أما فرقة الامارات الشعبية فشاركت بعدة فقرات أهمها رقصة الليوه وقد لاقت قبولا كبيراً من الجمهور اليابانى ، مما جعلهم يصعدون على خشبة المسرح ويشاركون فى الرقص .

ومن الفرقة الشعبية السعودية استمتع الجمهور برقصة السمسمة ، ومن الفرقة البحرينية استمتع الجمهور برقصة دق الحب .

ولاشك أن هذا المهرجان يمثل انطلاقة من انطلاقات مجلس التعاون لدول الخليج العربية للعمل على وحدة متكاملة عن طريق العمل الثقافى . فالهدف الأساسى هو التضامن واللقاء بين شباب دول مجلس التعاون ، واختيار اليابان لاقامة هذا المهرجان خطوة لتعميق الروابط بيننا وبين الشعب اليابانى ولنتعرف عليه ويتعرف علينا ولنعرض ثقافتنا وفنوننا وتاريخنا ، وحتى يتم تنشيط العلاقات فى جميع المجالات وليس فى المجال الاقتصادى فقط بين دول مجلس التعاون وبين اليابان .

ومن خلال متابعتنا لأنشطة المهرجان فى الأيام الأولى منه ومدى اقبال رواد المسرح والمعارض كان شعورنا هو التخوف من عدم نجاح المهرجان ذلك لما رأيناه فى البداية من قلة عدد الجمهور والرواد للفعاليات . وكان ذلك يرجع لضعف الاعلان عنه وحاجته إلى كثافة أكثر ، الا أنه بعد مضى يوم أو يومين من الافتتاح بدأ الجمهور يتوافد عليه مما أثلج صدورنا .

وقد لوحظ أن أكثر المترددين على المهرجان الثقافى الأول كانوا يبدون إعجابهم الملحوظ بتلك الفنون التى تعرفوا عليها لأول مرة فى حياتهم ، وتمنوا أن تنتقل تلك العروض إلى بقية المدن اليابانية ، كما استقبلت وسائل الاعلام بما فيها التليفزيون والصحف هذا المهرجان الخليجى بكثير من الترحيب .

ولعل هذه التجربة المفيدة تضيف الى خبراتنا فى هذا المجال الشئ الكثير ، حتى يأتى أى عمل فى صورة متكاملة ، تقدم وجه الخليج وحضارته العريقة .

وطن العشق

شعر: مازن شديد

وسأرفع أشرعتي للريح
كي أبدأ مع شمس الصبح الأولى نحو سواحِلك الابحارْ
حتى لو كان الدرب إليك مسيرة عُمر
أو كان على صخر من جَمْر
أو بين الرّعد وحدّ السيف ووهج النارْ
لابدّ من البدء وحسم الأمر
حتى لو هاجت في وجهي غيلان الأرض وأمواج البحر
وسأسمع قول العرّافة
ساعة فتحت دفتر كفّي كي تقرأ
سمّت باسم الله وقالت :

حوّطتكَ باسم الله
ياولدي واسمع :
« لابدّ لكي تحيا أن تعشق
في هذا الزمن المفروش ببارود العصر وأزهار المعدن
أو أن تُصلب أو تُشنق
بخيوط من حبل حرير مجدول متقن
فالعشق هو الصّك الأول
لبراءتك الأولى
ولخطوتك الأولى
وهو بكل لُغات الأرض وطن

العشق وطن
العشق وطن
فارفض ياولدي أن تتنازل عن وطنك
وارفض أن لا تعشق
كي تصل إلى خيمتك الصعبة
حتى لو كانت أيامك ولياليك
سفراً مراً في يمّ الغُربة
وارفض أن تدخل هذا اليمّ وبين يديك حجاب
فالعشق حجـاب
والرّغبـة والعزم حجـاب

فتوكل
وابدأ في السّفر ولاتتمهّلْ
ياولدي واسمع :
إنك حتى تصل إلى خيمة من أحببت
في هذا الزمن المفروش ببارود العصر وأزهار المعدن
ستُعدّي سبعة أبحار
وستقطع سبعة أنهار
وتنزل سبعة وديانْ
وتهاجمك أُسود سود
قطعانا قطعان
واسمع ياولدي :
إنك حتى تصل إلى خيمتها
ستواجه أمطار رصاص وجنود
وستسمع صلصلة قيود
لكنك ستواصل سفرك
لأنك ستواصل عشقَكْ
لضفائر شعر مسيٍّ مُسدلْ
لينابيع من ماء مُخملْ
حتى لو كانت ترصد دربكَ حيتان البّر وغربان البين
أو طارت نحو ضلوعك في الليل
سهام قبائل همجية
لم ترها من قبل العين
حتى لو ألقوك بقاع البئرْ
فالعشق له سرّ
وسرّ العشق مواصلة الدرب
ياولدي واسمع :
إنك في يوم ما
إن كان قريبا أو كان بعيداً
ستحوّطها بين يديك وتسكن فيها
وتعانقها
سوسنة تزرعها في القلبْ

العقبة ـ الأردن

سلوك الحيوان في قصص عجائب الهند

بقلم: الدكتور أنور عبد العليم

لم يكن غريباً على الملاحين العرب إذا ما نزلوا سواحل حديثة أو حطت مراكبهم على جزر نائية أن يهتموا بملاحظة كل شئ.. ولهذا رأينا في قصص عجائب الهند منذ ألف سنة معلومات طريفة عن الحياة البرية والحيوانات البحـرية كالسلاحف والسـرطانات.. ولم يقتصر الأمر على الاحياء بل تعـداه إلى وصف سلوكها.. وهكذا سجل هؤلاء الملاحون قصب السبق في تعريفنا بكل التفاصيل الدقيقة التي كنا نعـرفها عن السلـوك الحقيقي للحيوان، لتصبح تلك الحقائق ذات أهمية كبـرى ــ اليوم ــ في تاريخ العلوم.

اتصف العرب سكان البادية بصفتين جديرتين بالاعتبار وهما حب الاستطلاع وقوة الملاحظة، وهما الصفتان اللتان تميزان حياة البادية إلى جانب الكرم والشجاعة والحمية وما إليها من صفات البادية الأصيلة.

وتشترك الصحراء مع البحر في سعة الأفق والامتداد اللانهائي وعدم وجود معالم واضحة يستدل المسافر بها على طريقه، ومن ثم فقد كان الاهتداء بالنجوم هو السمة المميزة لمسافر الصحراء أو لراكب البحر مصداقاً لقوله تعالى: «وعلامات بالنجم هم يهتدون» (سورة النحل الآية ١٦) وقوله عز وجل «وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» (سورة الأنعام آية ٩٧).

هذا وقد ساعد صفاء السماء ووضوح الرؤية وحدة البصر العربي على مراقبة حركات النجوم في أبراج السماء والتعرف على الجهات الأربع الأصلية وتحديد الوقت في ساعات الليل المختلفة.

ولهذا السبب لم يكن غريباً على الملاحين العرب إذا ما نزلوا بسواحل حديثة أو حطت مراكبهم على جزر نائية أن يهتموا بملاحظة كل ما يقع تحت بصرهم من كائنات وظواهر طبيعية، وتنطبع في أذهانهم صور عن الناس وعاداتهم وطبائعهم.

وإذا كان الرحالة الأندلسي أبو الحسن محمد أحمد البلنسي الشهير بابن جبير (٥٤٠ــ ٦١٤هـ) قد اهتم بتدوين يومياته في رحلته المشهورة، فإن زميله الطنجي ابن بطوطة (٧٠٣ــ ٧٧٩هـ) لم يكن يدون مذكرات في رحلاته الطويلة التي استغرقت الجانب الأكبر من حياته، بل أملاها في نهاية حياته على الكاتب محمد بن جزي الكلبي الذي كلفه السلطان بتدوينها.

وإن المرء ليعجب كيف استوعبت ذاكرة هذا الرحالة كل تلك التفاصيل الدقيقة عن الأماكن التي زارها والناس الذين قابلهم والحوادث التي اعترضت طريقه.

وفي قصص عجائب الهند نجد إلى جانب المغامرات البحرية معلومات طريفة عن الحياة البرية يرد فيها ذكر النمور والقردة والفيلة والحيات والثعابين والطيور البحرية والطيور الجارحة إلى جانب ذكر الأنواع المختلفة من الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى كالسلاحف والسرطانات، ولا يقتصر الأمر على مجرد ذكر هذه الأحياء بل يتعداه إلى وصف سلوك بعض هذه الحيوانات على ما هي عليه في الواقع.

ولئن خامر هذا الوصف التهويل والتضخيم في بعض الأحيان، ففي أحوال أخرى تعبر المشاهدة تعبيراً صادقاً عن السلوك الحقيقي للحيوان والذي يتفق إلى حد كبير مع ما هو معروف اليوم من الدراسات.

ويجب ألا ننسى أن ما ورد في «عجائب الهند» متعلقاً بسلوك الحيوان قد مر على تدوينه أكثر من ألف سنة.

وسنحاول في هذا المقال استعراض بعض هذه الملاحظات القديمة كما وردت في الكتاب.

سلوك القردة

يرد الحديث عن سلوك القردة في أكثر من قصة من قصص العجائب وكلها قصص طريفة مشوقة تنم عن قدر من الذكاء والتصرف يتسم به سلوك هذه الحيوانات.

وقبل أن نأتي على ذكر نماذج من هذا السلوك يهمنا أن نعرف أن كثيراً من الحيوانات الراقية تعيش حياة اجتماعية في قطعان أو جماعات يرأسها ذكر يحكم الجماعة ويأتمر الباقون بأمره، وغالباً ما يكون هذا الذكر أقوى أفراد الجماعة وكثيراً ما يحتل الذكر مركزه بعد صراع مرير بين اثنين أو أكثر من المرشحين لرئاسة الجماعة.

كما أن لكل جماعة من جماعات القرود أرضاً تحتلها لتعيش فيها وتمارس فيها حياتها الجماعية وتعتبر بمثابة الحمى لأفرادها تشترك جميعاً في الدفاع عنها ولا تسمح لقردة غريبة بالاقتراب منها.

سلوك الحيوان
في قصص عجائب الهند

لقد لاحظ الأقدمون من الملاحين والتجار على سواحل المحيط الهندي وجزره أنماط السلوك المذكورة وأتوا على ذكرها في قصصهم كما يتضح من النماذج الآتية :

● الأجهزة الحساسة التي تجعل الحيوان الأعجمي يكتشف الشر قبل وقوعه

● قصة القردة التي تعاطفت مع الملاحين ودلتهم على كنوز الذهب

كبير القرود

يقول الربان في معرض حادثة حصلت لهم في غابات جاوة وسومطرة احتكوا فيها مع قافلة من القردة ربما كانت من فصيلة إنسان الغاب المعروف باسم « أورانج أوتان » لكبر أحجامها – ما نصه :

« وذاكرت الربان محمد بن بابشاد في حديث القردة وما يحكى عنها فحدثني بصفات كثيرة وأن لكل فرقة منها كبير خلقته أعظم من خلق باقيها ، وأنهم ربما خرجوا من الفيافي إلى الطرق والمسالك فتضرب (القردة) السفارة فتمنعهم السبيل دون أن يعطوهم شيئاً من الحيوان مثل الغنم والبقر وغير ذلك من المأكولات . وذكر محمد بن بابشاد أنه حدثه غير واحد أنه اجتاز على قطعة منهم مع جماعة معه فمنعوهم (أي القردة) من المشي فحاربوهم فمزقوا ثيابهم وتواثبوا عليهم من كل مكان وقطعوا قربهم وهم في مفازات بعيدة عن الماء فأعطوهم شيئاً فتركوهم ولا ماء لهم فمات أكثر القوم عطشاً ولم يصل إلى الماء الثاني إلا قليل » .

وفي هذه الحكاية ما يدل على شراسة هذا القطيع من القردة وقطعهم الطريق على المسافرين ما لم يعطوهم نصيباً مما يحملونه معهم من زاد ليدعوهم وشأنهم .

وعلى النقيض من ذلك نجد في الحكاية التالية كيف ساعدت القردة الملاحين الذين عطبت مركبهم ودلتهم على منجم للذهب . تقول الحكاية :

القردة تتعاطف مع الملاحين

« وحدثني بعض البحريين أن مركباً كان يمضي إلى صنف (الصين) من عمان فأصيب وسلم من أهله نحو عشرة في قارب فحملتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدة ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدائد فمكثوا هناك بقية يومهم ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جروه إلى الساحل وباتوا ليلتهم معه . فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة فوجدوا فيها ماء عذباً كثيراً وغوطة حسنة وأشجاراً متكاثفة فيها ثمار شتى وموز كثير وقصب سكر ولم يروا فيها إنسياً . فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء وانصرفوا إلى قاربهم فجروه إلى البر وسندوه بالخشب وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه وأحكموا أمره وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعاً يسترهم .



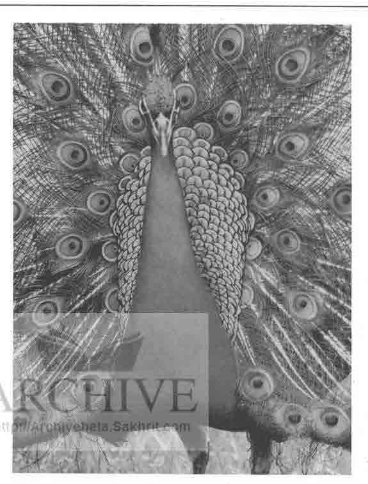
ما أشبه الليلة بالبارحة : قلنا إن القرد في قصص عجائب الهند يتدرب على القيام بأعمال المنزل.. وها هو نفس القرد في الأزمنة الحديثة يساعد ربة البيت على كنس الحجرات . ولكن بمكنسة كهربائية هذه المرة !

فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة فإذا هم بقطعة قرود قد أقبلوا يتقدمهم قرد كبير جسيم فوقفوا (القرود) على القارب وفزع القوم منهم فصعدوا إلى القارب فلم يعرضوا لهم وأقاموا رئيسهم بمكانه فجعل يفرقهم يميناً وشمالاً كما يُنَفِذ العامل رجاله ثم عادوا إليه وجعل بعضهم يومئ إلى بعض كأنهم يتحدثون بشيء ، فلما أمسوا انصرفوا . فورد على القوم من هذا أمر عظيم وخافوا على نفوسهم أن تقتلهم القردة ، وجعلوا يفكرون في الخلاص ليلهم وهم بسوء حال ولا زاد معهم ولا يعرفون الطريق ولا يهتدون لحيلة .

فلما أصبحوا جاءتهم قردة فطافت بهم ثم مضت وعادت ومعها قردة أخرى فأومأت إليها بشيء ، قال رجل فتبعت القرود إلى أن دخلوا الغوطة ثم خفت على نفسي فرجعت بعد مدة مضت من النهار إلى أصحابي فسألوني فأخبرتهم فلما كان من غد عاودت القرود على تلك الصورة الأولى وجلس رئيسهم على القارب ونفذهم في حوائجه على الرسم . فلما مضت ساعة من النهار جاء قردان مع كل واحد منهما قطع ذهب في نهاية الجودة فطرحوها بين يديه ثم عادوا بأجمعهم فأومأ بعضهم إلى بعض وانصرفوا ونزلنا إلى الأرض فأخذنا الذهب فإذا هو مثل العروق الغلاظ في نهاية الجودة ، فورد علينا السرور بذلك مانسينا معه بعض ماتحن فيه » .

مع الحيوانات المفترسة

وفي هذه الحكاية نجد أن كل فريق منهما :



ليس الجمال وقفاً على الإناث في عالم الطيور.. فها هو الطاووس يختال بألوان ريشه وجمال منظره

فريق الملاحين وفريق القرود كان متوجسا خفية من الآخر ودارت مناورات واستطلاعات قبل أن يطمئن كل واحد بأن الفريق الآخر لن يضمر له سوءا . فلما اطمأن فريق القردة لذلك وتفاهم رئيسهم معهم بلغتهم أرادوا أن يكافئوا الملاحين البؤساء بالذهب ، ولم يؤذوهم بل دلوهم على طريق البحر حينما ضل البعض منهم أثناء تجوالهم في الغابة .

ويقال في علم سلوك الحيوان : إن الحيوان الأعجمي كالقرود والقروش والنمور وحتى الهوام كالثعبان والعقرب لديها أجهزة حساسة تستطيع أن تحس بها إذا ما كان غريمها الذى أمامها يضمر لها شرا من عدمه ، فتستعد للهجوم والقتال إذا أحست الشر أو تمر لحالها وتدع غريمها طالما لم يكن في نيته ايذاؤها .

وهناك تفسيران لمثل هذه الحالة : الأول منهما أن الإنسان إذا صادف ثعبانا أمامه فجأة ينتابه الخوف لساعته ويفرز جسمه هورمون الادرينالين بكمية كبيرة وتنقبض الأوعية الدموية ويفرز العرق وتتصاعد منه روائح تنبئ عن هذه الحالة فتستعد الأفعى للهجوم أو الكلب الذى أمامه للقتال ومثله الحيوان المفترس في الفلاة إذا تصادف وجوده .

أما إذا لم يضمر الإنسان للحيوان شرا فلا تحدث هذه الاضطرابات الفسيولوجية في جسمه ويطمئن الحيوان ، وأما الرأى الآخر — ويحتاج إلى مزيد من الدراسات التدعيمية في المعامل — فيقول بأن الموجات التى تنبعث من مخ الانسان يستقبلها الحيوان ويكيف استجابته للموقف بناء على هذه الاشارات .

ومنذ مدة طويلة قرأت كتابا طريفا لأحد طلاب علم سلوك الحيوان الأمريكيين يدعى « ألن بون » **Allen Boon** قام بتجارب عديدة على الحيوانات المفترسة والحيوانات السامة ومنها الكوبرا . وخلاصة تجاربه هي ما وضحناه في الرأى الثانى . . أعنى الموجات التى تنبعث من الانسان والتى تنبىء عن انفعالاته إزاء الحيوان الغريم .

وقد سمى هذا المؤلف كتابه « كيف نتعايش مع الحيوان » ، وجدير بالذكر أن هذا المؤلف كان قد قام بتدريب الكلب البوليسى الشهير « رن تن تن » في الأفلام السينمائية وصار هذا الكلب مرموقا في الخمسينيات من هذا القرن .

ومما يؤيد هذه النظرية التى خلاصتها : أنك إذا لم تضمر للحيوان شرا فلن يؤذيك ، اننا كثيرا مانسمع في قرى مصر والهند وربما في بلاد أخرى أن بعض الثعابين السامة تأوى للنوم في فراش الانسان طلبا للدفء وإذا أحس بها القروى أبعدها بيده وبسكون عن فراشه دون أن يكون في نيته ايذاؤها فلا تصيبه بسوء وتنصرف لحال سبيلها .

ولكن الأمر في الواقع يتطلب قدرا كبيرا من التماسك وضبط النفس والتحكم في الأعصاب وقد يكتسب الانسان هذا السلوك بالتعود والمران لأن الخوف غريزة طبيعية في الإنسان تستثار بمجرد رؤيته للحيوان المفترس أو السام فجأة أمامه .

وأكبر دليل على أن الحيوان الأعجم والمفترس منه بنوع خاص يتفهم بسهولة الحالة النفسية للانسان الذى أمامه ما نراه من سلوك حيوانات السيرك مع مدربيها ، فالمدرب في الواقع يحب حيواناته ويعطف عليها ويطعمها ويدللها وهي تحس بكل ذلك وتطيع أوامره ولا تصيبه بسوء إلا فيما ندر ، وقد يكون ذلك أيضاً بسبب سوء الفهم من أحد الطرفين .

الأعمال العجيبة

وإذا كنا نشاهداليوم في عروض التلفزيون بعض الأعمال العجيبة التى تدربت القردة على أدائها كركوب الدراجات والأكل بالشوكة والسكين والعزف على الآلات الموسيقية ومساعدة المعوقين وما إليها . فإن الملاحين القدماء منذ ألف سنة وأكثر شاهدوا من سلوك القردة أمورا عجيبة منها تدريبهم على القيام بأعمال المنزل وعلى مساعدة أرباب الصنائع وعلى أعمال الحراسة .

ويتضح ذلك من الحكايات الآتية التى وردت في عجائب الهند :

« وحدثنى من رأى قردا بقرية من قرى ... في منزل بعض التجار يخدمه ويكنس المنزل ويفتح الباب لمن دخل ويغلقه خلفه ويقدّ النار تحت القدر وينفخ فيه حتى يقدّ ويطاعمه الحطب وينش الذباب على المائدة ويروّح على مولاه بالمروحة » . ونحن لانجد أى تهويل في مثل هذه الحكاية ولانشك في صحتها .



وفى الحكاية التالية نجد القرد يساعد الحداد على النفخ فى الكور :

« وحدثت أنه كان بظفار من مدائن اليمن حداد عنده قرد ينفخ على الكور طول نهاره أقام عنده كذلك نحو خمس سنين وترددت إلى البلد سفرات فانا أبصره عنده » .

عن ذكاء القرود

أما عن ذكاء القرود وحسن تصرفها فقد قرأنا فى تجارب علم النفس السلوكى كيف أن القرد المحبوس فى القفص اذا ما وضعنا معه عصاتين قصيرتين يمكن أن تدخل إحداهما فى الأخرى لتصير عصا واحدة طويلة ووضعنا خارج القفص بعضا من أصابع الموز على مسافة لاتستطيع عصا واحدة منهما أن تجذبه نحو القرد سنجد أن القرد بعد محاولات قليلة سيتمكن من ايلاج إحدى العصاتين فى الأخرى ليجر الموز إليه .

وبالمثل لو علقنا الموز فى أعلى القفص وتركنا مع القرد فيه ثلاثة صناديق من الورق المقوى بحيث لو صعد القرد على واحد منها فلا يصل إلى الموز ، فسوف نجد بعد بعض المحاولات أن القرد سيضع الصناديق بعضها فوق بعض ثم يمتطيها ليتمكن من الامساك بالموز المعلق فى أعلى القفص .

وتسمى مثل هذه التجارب بالتعلم بالمحاولة والخطأ ويستطيع الانسان تدريب حتى الحيوانات الدنيا على التعلم بها . وقد أجريت بعض هذه التجارب على الأسماك فى أحواض مستطيلة تنتهى بنفقين متماثلين ، يوضع على أحدهما من الخارج ضوء أحمر وعلى الثانى ضوء أخضر .

فلو دخلت السمكة النفق الأول المعلم بالضوء الأحمر أصابتها صدمة كهربائية خفيفة واذا دخلت النفق الأخضر لاتصدم ووجدت طعاما تأكله وبتكرار التجربة تعرفت الأسماك على النفق الآمن وتجنبت النفق الخطر .

وتجارب تعليم الحيوانات عن طريق التجربة والخطأ أو بالاستعانة بقانون الفعل المنعكس الشرطى الذى يرتبط فيه السلوك بمؤثر معين هى تجارب شيقة أستعين بها على تعليم الحيوانات وتدريبها على القيام بحركات معقدة ، فنرى فى إحدى هذه التجارب أن الديك إذا نقر الجرس بمنقاره وسمع صوته يسقط له فى إناء حبا يأكله ، والماعز إذا نطحت طلمبة الماءبقرنها وانساب الماء انفتحت لها طاقة وجدت فيها عشبا شهيا تطعمه وهكذا .

وفى هذه التجارب ارتبط السلوك بالحصول على الطعام .

وتنم الحكاية الآتية التى وردت فى عجائب الهند عن ذكاء القردة وحسن تصرفها .

« ذلك أن رجلا من أهل اليمن اشترى لحما وجاء به إلى منزله وأومأ إلى القرد الذى يربيه أن يحافظ عليه فتغافل القرد عن الحراسة فجاءت حدأة وخطفت اللحم فبقى القرد متحيرا . وكان فى الدار شجرة فصعد إلى رأسها ورفع مؤخرته نحو السماء وطوى يديه على جانبيها وضع الاستعداد وأدلى رأسه إلى أسفل فحسبته الحدأة بقية من اللحم وانقضت عليه فقبض عليها القرد بيديه ووضعها تحت جفنة (حلة الطعام) وغطاها بشيء ثقيل . وحين جاء صاحبه ولم يجد اللحم قام إلى القرد ليضربه فأسرع الأخير إلى الجفنة واستخرج الحدأة من تحتها ففطن صاحب الدار لحيلة القرد وكافأه وعاقب الحدأة .

الفيلة تتدرب على البيع

ومن غريب ما ورد فى عجائب الهند عن الفيلة أن أربابها يدربونها على قضاء حوائجهم من الأسواق كما يتضح من الحكاية الآتية :

« وأخبرنى بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف فى حوائج أربابها وأن الفيل يدفع إليه الوعاء الذى تشترى فيه الحوائج وفيه الودع وهو نقد القوم ، وأنموذج الحاجة كائنا ما كانت ، فيكون معه فى الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد (أى لو أراد شراء خبز مثلا وضع كسرة من الخبز مع مقدار مناسب من الودع) ويمضى إلى البقال ، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشترى منه كائنا من كان وأخذ الوعاء من الفيل وعد الودع الذى فيه ونظر ما يريد بأنموذج متاعه ودفع إليه أجود ماعنده من ذلك النوع بأرخص سعر ، ويستزيده (الفيل) فيزيده وربما عد البائع الودع فغلط فيه فيشوشه الفيل بخرطومه فيعد البقال عدة ثانية ويمضى الفيل بما اشتراه ، فربما استقله صاحبه فيضربه فيعود إلى البقال فيشوش متاعه ويخلط بعضه ببعض ، فإما أن يزيده أو يرد عليه الودع .

وأن الفيل الذى على هذه الصورة يكنس ويرش ويدق الأرز ويستقى الماء وذلك أنه يأخذ الوعاء الذى يستقى فيه الماء وفى الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله ، ويقضى جميع الحوائج ويركبه صاحبه فى حوائجه البعيدة ويركبه الصبى ويمضى عليه إلى الصحراء فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ويدفعه إلى الصبى فيجمعه فى وعاء معه ويحمله فيكون ذلك طعامه وأنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيما وقيل عشرة آلاف درهم . » .

حديث الأسماك والحيتان

الأسماك الطائرة : كان القدماء يعتقدون من كثرة ماراوا فى البحر من عجائب أن كل حيوان من حيوانات البر له شبيه يعيش فى البحر وفى ذلك يقول مؤلف العجائب :

« ويقال إن كل طائر فى الهواء وعلى وجه الأرض فى البحر من السمك مثله أوما يشبهه ولقد رأيت فى جون أيلة من البلاد الشامية سمكا صغيرا لونه يشبه لون الشقراق يطير من الماء ويغوص فيه . » .

وهذه ملاحظة صحيحة للغاية فهناك أسماك طائرة فى البحار تندفع بقوة هائلة بحركة عضلات ذيلها فتترك سطح الماء وتفرد زعانفها المحورة إلى ما يشبه الأجنحة وتحوم في الهواء كالطائرة الشراعية لمسافة قد تصل إلى خمسين مترا . وقد رأينا هذه الأسماك فى المحيط الهندى تطير لمسافات كبيرة فإذا نفذ جهدها حطت فوق السفينة غير أن القول بأن كل حيوان على البر له شبيه فى البحر غير صحيح .

ثعابين البحر وثعابين البر

وعن أنواع الحيات والثعابين يقول مؤلف العجائب :

« وفى البحر ألوان الحيات إلا أن فعلها فى الماء ضعيف فأشد الحيات ماكان فى الجبال والفياف والأرض المتعطشة والبعيدة عن المياه ، وفى جبال عمان حيات تقتل لوقتها ، وفيما بين صحار وهى قصبة عمان وبين جبال اليَحمَد (فى اليمن) موضع لا يسلكه أحد ، فيه واد يسمى وادي الحيات قيل إن فيه حيات مقدارها شبر ودون ذلك تجمع الواحدة منها رأسها مع ذنبها وترتفع إلى الفارس فإن نهشت قتلت للوقت وإن نفخت أعمت وقتلت فإذا سلك المسافر تلك الطريق تقافزت عليه من كل جهة فلا تخطئه وذلك طول الطريق فترك سلوكها والسلام » .

وفى الحقيقة توجد فى البحار الحارة أنواع من الثعابين يفوق سمها فى شدته سم الكوبرا

عن الحيتان

« وحدثني اسماعيلوية الناخذا أن هذا السمك (يقصد الحوت) كثير ببحر الزنج وبلجة سمرقند ويقال له « الوال » وهو يكسر المراكب مولع ، فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وضربوا الطبول وإنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ويبين من بعد مثل شرع المراكب وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد أيضا مثل شرع القوارب »

وهذه ملاحظات صادقة تماما أبدتها الدراسات



هـذا الفيل الـذي يمرح في الماء ، جـاء ذكـره في قصص عجـائب الهنـد ، حيث كـان النـاس يـدربـون الفيلة على شـراء احتيـاجـاتهـم مـن الأسـواق !

الحديثة . غير أن الحوت ينفث هواء الزفير الحار فيتجمع حوله بخار الماء في الهواء فيبدو كالنافورة ولكنه لاينفث نافورة من الماء كما يعتقد البعض .

وعن ضخامة بعض الحيتان والمعنى هنا هو الحوت المنوى ذو الرأس الضخم الذى يحوى قدرا كبيرا من الزيت يقول الراوى :

« وحدثت عن بعض العراقيين ممن يضبط أنه رأى في اليمن عند بعض إخوانه سمكة قد ذهب لحمها وبقى عظمها (هيكلها) صحيحا ، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحنى . وكان حمل في سنة عشر وثلاثمائة من عمان إلى (الخليفة) المقتدر من ذلك السمك وأن فك سمكة رفع من الروشن ولم يدخل من الأبواب . وحدثنى أن هذه السمكة التى حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمسمائة جرة أو زيادة عليها دهنا . » .

وتعليقنا على هذه الرواية أنها صحيحة أيضا .

سمكة السيف تخترق جدار المركب

وفي الرواية الآتية تنطح سمكة السيف وهي سمكة ضخمة لها قرن مدبب صلب طويل قاربا فيخترق قرنها جدار القارب ولايغرق لأن الجزء النافذ من القرن يعمل كالسدادة يمنع الماء من الاندفاع للقارب ويبقى رأس السمكة معلقا بالقارب . يقول الراوى :

« وحدثنى أبو محمد الحسن بن عمرو أنه سمع بعض البحريين يحكى أنه خرج في مركب من عدن إلى جدة وأن سمكة نطحت (مركبه) بحذاء زيلع نطحة منكرة لم يشك أهل المركب أنها قد كسرته وانحدر الباتانية إلى الجمة فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه فعجبوا من ذلك إذ كانت هذه النطحة العظيمة لم تؤثر .

فلما وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر ووجدوا رأس السمكة في جوف المركب قد سجن وسد الموضع حتى ليس فيه خلل ، وإذا هي نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص فانقطعت من حلقها وبقى رأسها في موضعه » .

ملازمة دواب البحر للمراكب

من المعلوم عند ركاب البحر في المحيطات اليوم أن بعض جحافل الأسماك والثدييات كأسماك التونة والدلافين والحيتان تتبع المراكب لمسافات طويلة أثناء سيرها في عرض المحيطات وهي قد تفعل ذلك بقصد اللهو والتسلية أو لالتقاط ماترميه السفن من فضلات فتقتات عليها .

وقد قيل قديما إن القروش المفترسة كانت تتبع مراكب القراصنة الأوربيين التى تحمل الرقيق للتجارة بين افريقيا وأوربا حيث كان يلقى بالمرضى أو بالأموات أو بالمتمردين منهم في البحر فتنهش القروش أجسامهم ويكونون عبرة للآخرين .

إلا أن ربابنة العرب لم يلجأوا مطلقا لهذا السلوك الوحشى . وقد شاهدوا ظاهرة ملازمة الأسماك والحيتان للمراكب وفي ذلك يقول الراوى مستفسرا من الربان عن السبب :

« فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر مع المراكب ومحاذاتها فقال ذلك يختلف فمنها مايحاذى المركب ليسقط منها شىء فتلتقمه أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه فصارت إذا رأت مركبا حاذته طمعا أن يحدث منه ماحدث من غيره وظنا منها أن المراكب كلها تكون كما وجدت في الأول ، فصارت كأنها ضارية على ذلك .

ومنها مايرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيوانا بعضه في الماء وبعضه في الهواء فيمرح معه ويجاريه عشقاً له وتأنساً به مدة إلى أن يعي فيفارق .

ومنها مايجارى المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة ، فإذا أعيى وقصر ورأى المركب تتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة فإن سلم والا فنسأل الله العفو .

ومنها ما إذا رأى المركب فر منه وهرب وذعر خوفا على نفسه واستيحاشا منه .

وأخلاقها (يعنى دواب البحر المذكورة) تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة والبعد عن السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر (أى البعد عنه) والجزائر والسواحل وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين » .

وليس لنا من تعليق على هذا الكلام سوى أن كاتبه ربان خبير قوى الملاحظة .

سلوك الطيور البحرية

أتعرف أيها القارىء العزيز كيف تتغذى بعض الطيور البحرية على الحيوانات التى لها درقة سميكة تختبىء فيها أو صدفة لايمكن فتحها بسهولة ؟

إنها تلتقط مثل هذا الحيوان وتحلق به في السماء ثم تلقى به من حالق فوق صخور الشاطىء فتتحطم الدرقة أو الصدفة ويلتهم الطير اللحم الطرى الشهى .

يقول علماء الحيوان إن مثل هذا السلوك لم يعرف إلا منذ مائة سنة أو نحو ذلك . ونحن نقول إن الملاحين العرب قد دونوا هذه الملاحظة في قصص عجائب الهند منذ أكثر من ألف سنة تأمل الحكاية الآتية :

« وحدثنى غير واحد من الربابنة أنه سمع أن بسقالة الزنج من الطيور ماتأخذ الوحش بمنقاره او بمخالبيه وتحمله في الهواء ثم ترمى به ليموت وينكسر ثم ينزل عليه فيأكله . وقد سمعت أن في بلاد الزنج طائرا ينقض على السلحفاة الكبيرة فيخطفها ويرفعها إلى الجو ويرمى بها إلى الأرض على جبل أو صخرة فتتكسر فيسقط عليها ويأكلها » .

وبعد : فمثل هذه الملاحظات السابقة الذكر عن سلوك الحيوانات في كتاب عجائب الهند الذى مضى على تدوينها ألف سنة هجرية إلى اليوم تعتبر ذات أهمية كبرى في تاريخ العلوم وتسجل للملاحين العرب قصب السبق في تعريفنا بها .

أنور عبد العليم

لم تعد الصحراء ذات المساحات الشاسعة والرمال الصفراء أرضاً بلا فائدة ..

لقد تحولت إلى مكان تهفو اليه النفس وتتطلع إلى الاقامة فيه بعد أن كسته الخضرة ، وأحاطت به الأزهار ..

وقد تحققت هذه « النقلة » الكبيرة في حياة الصحراء بعد توظيف كل وسائل العلم الحديثة والتكنولوجيا المتطورة ، وبفعل الارادة الصلبة التي لا تعرف اليأس ..

وهكذا تحولت مساحات واسعة من الصحراء في قطر إلى مزارع للخضراوات ، بحيث يمكن أن تساهم في تزويد السوق المحلية بما تحتاج اليه يومياً ..

تجربة علمية جريئة في قطر

الزراعة المحمّية لتحقيق الأمن الغذائي الشامل

أسلوب زراعي جديد تنفرد به قطر : الزراعة بالرمل في الأكياس البلاستيكية

تحقيق : السيد حجازي ● تصوير : أمين بدوى

لم يكن ذلك سهلاً أو بسيطاً ، ولم يكن ليحدث بين يوم وليلة ..

فقد تطلب جهوداً مضنية وطويلة خرجت بالمشروع أخيراً إلى حيز التنفيذ ، وإلى أن تبرز نتائجه الهامة المتوقعة ..

ووصلت الجهود العلمية إلى طريقة للزراعة اسمها الزراعة المحمية .

ونجحت تجاربها نجاحاً فاق كل التصورات والتوقعات ..

ولذلك فانها تستحق أن نسجلها على الطبيعة ، وأن نرصد الجهود التي وقفت وراءها ..

وها هي نتائج الزيارة التي قمنا بها إلى أحدث مشروع في صحراء قطر ، بدأ يؤتي ثماره ، ويحقق ما كان مستحيلاً خلال مدة وجيزة هي ثلاثة شهور فقط ! ..

ولقد كانت بداية التفكير في المشروع سنوات طويلة من الدراسات والبحوث ..

وكان يقف وراء هذه الدراسات والبحوث المركز الفني للتنمية الصناعية ..

وفي البداية ظهرت معوقات وصعوبات ..

كانت هذه المعوقات والصعوبات تتمثل في ارتفاع الحرارة والرطوبة والرياح المحملة بالغبار والأتربة والآفات وعدم توفر المياه ..

وهي كلها تعيق عملية التوسع في الزراعة وتنظيم الانتاج الزراعي ..

وهكذا كان لابد من اللجوء بالتدريج إلى الزراعة في بيوت محمية ..

فعن طريقها يمكن التحكم في تنظيم عوامل البيئة ، لتكون في صالح النبات ، وحتى يستمر الانتاج بصورة مستمرة وعلى مدار السنة ..

وللعلم فان هذه الطريقة في الزراعة تمتاز عن الطرق التقليدية ..

كيف ؟

بدأت الثمار تؤتي أكلها وتسر الناظرين

انتاج مرتفع

انها ذات معدلات انتاج مرتفعة تصل إلى أضعاف أضعاف الطرق العادية .

إن انتاج الهكتار مثلاً من ثمار الطماطم في الطرق العادية يصل إلى ثمانية عشر طناً ..

لكنه يصل في البيوت المحمية إلى حوالي مائتي طن ، فضلاً عن تحسن نوعية الثمار وجودتها ..

في الوقت نفسه فإن أسلوب الزراعة الذي يستخدم في البيوت المحمية يتمثل في الزراعة بالرمل في الأكياس البلاستيكية ..

وهذه الطريقة في الواقع تنفرد بها دولة قطر .

وقد جاءت نتيجة تجارب مكثفة قام بها المركز الفني للتنمية الصناعية خلال الأعوام السابقة .



هذه هي أحدث طريقة لزراعة الخضراوات تطبق في قطر

بعض ثمار الطماطم قبل أن تصل إلى درجة النضج الكامل

● سنوات طويلة وشاقة من التجارب والبحوث قبل بداية التجربة العلمية الجديدة

● إنتاج الخضراوات على مدار السنة، ومعدّل الإنتاج يفوق بكثير معدّل الطرق التقليدية

وهي تعتبر من أحدث طرق الزراعة في العالم..
وأسأل المهندس محمد تيسير صوان رئيس قسم الزراعة بالمركز الفني للتنمية الصناعية والذي وقف وراء المشروع منذ اللحظة الأولى، عن المزيد من التفصيل حول هذه الخطوة الرائدة..
ويوضح لي العديد من الحقائق العلمية والفنية..

النطاق الصحراوي

يقول المهندس تيسير إن دولة قطر من الدول الواقعة ضمن النطاق الصحراوي..
وهذا النطاق يتميز بالجو الحار معظم أيام السنة، وبارتفاع الرطوبة النسبية في الصيف، وقلة الأمطار، وبوجود الرياح الموسمية المحملة بالأتربة والغبار وندرة المياه العذبة الصالحة للزراعة، وقلة نسبة الأراضي الصالحة للزراعة..

وكل هذه العوامل مجتمعة أدت في رأيه إلى اقتصار الزراعة في الماضي على أشجار النخيل..
والسبب أنها هي فقط التي كانت تقاوم هذه الظروف المناخية الصعبة..

ولما كانت محاصيل الخضراوات من النباتات الحساسة أثناء نموها لعوامل المناخ والتربة، حيث أنها تتطلب ظروفاً مناخية وبيئية خاصة لكل نوع منها. فقد اتجه المركز الفني اتجاهاً معيناً..
أخذ يدرس أنجع الوسائل للتحكم في ضبط العوامل المناخية والبيئية المحيطة بالنبات، باستخدام الزراعة المحمية، واستخدم بدائل للتربة، كالزراعة في الرمل وهي المادة المتوفرة في البلاد ورخيصة الثمن..

وكان الهدف من ذلك هو اعداد الوسط الزراعي المناسب لكل مشاكل التربة الحالية المتميزة بالملوحة والأمراض القطرية..

وكان الهدف أيضاً البحث عن أسلوب حديث في الزراعة لانتاج الخضراوات على مدار السنة دون التقيد بالمواسم، لتوفير هذه السلع للناس في كل وقت، وتمشياً مع سياسة الأمن الغذائي..

وفي الوقت نفسه كان العمل يدور حول ترشيد استخدام مياه الري بمقننات ثابتة، دون تبذير في هذا المورد الثمين، وزيادة الانتاج في وحدة المساحة، وانتاج الشتلات للزراعة الخارجية في الوقت الذي يصعب انتاجها في الخارج لظروف الطقس غير المناسبة..

اضافة إلى ذلك روعي التعرف على الجدوى الاقتصادية لانتاج الخضراوات بهذا الاسلوب من الزراعة، ودراسة وتطوير البيت الزراعي المناسب

تجربة علميّة جريئة في قطر

مع البيئة المحلية في دولة قطر ، بغرض استخدامه على مدار السنة ، ولانتاج الخضراوات المطلوبة للناس بدلاً من استيرادها من الخارج ..

هذه التجارب

وهكذا خرج إلى حيز الوجود ـ كما يقول المهندس تيسير صوان ـ نظام الزراعة المحمية في مزارع المركز عام ١٩٨٠ ..

في ذلك الوقت تم تركيب أربعة بيوت زراعية محمية مبردة ومغطاة بالبلاستيك في مزرعة المركز رقم ٢ ، والتي تمثل وسط البلاد ..

وفي عام ١٩٨٢ تم تركيب أربعة بيوت زراعية محمية مبردة ومغطاة بالبلاستيك بالمزرعة رقم ١ في شمال البلاد ، وهي من نفس النوع السابق ..

ولقد لوحظ أن جهاز التبريد الصحراوي المستخدم للتبريد في هذه البيوت المحمية لا يكون تبريده كافياً ، خلال أشهر الصيف ، لدرجة تضمن الانتاج الجيد ..

لهذا فان موسم الزراعة باستخدام هذه البيوت كان يبدأ في الخامس عشر من سبتمبر وينتهي في أوائل يونيه الذي يليه ، حيث أن الانتاج خلال هذه الفترة يكون غير مناسب في الكمية والنوعية ..

وفي عام ١٩٨٣ تم تركيب عشرة بيوت زراعية محمية بدون تبريد ، وتبلغ مساحة الواحد منها ٣٠٠ متر مربع ..

وكان الغرض منها زراعة محاصيل صيفية مثل الملوخية والخيار في موسم الشتاء ، حيث لا يمكن انتاج هذه المحاصيل في الخارج ..

وعلى هذا فان هذا النوع كان ولا يزال يصلح في فصل الشتاء ، ولأنواع محددة من المحاصيل ..

أمام هذه التجارب وفي مواجهة نتائجها وبعد البحوث والدراسات المتواصلة أمكن التوصل إلى الطريقة الحديثة الأخيرة ، والتي بدأ تطبيقها بالاتفاق مع إحدى الشركات الهولندية المتخصصة وهي شركة **H.B.A.**

في الشحانية

وفي داخل المشروع في قرية الشحانية ، حيث أطلق على المزرعة اسم مزرعة الشحانية نسبة إلى القرية ، نرى الخضرة تكسو الصحراء ، والانتاج المحلي من الخضراوات ينقل إلى الأسواق ..

وخلال الجولة الميدانية على الطبيعة يأتي الحديث على لسان فان اكتوفن مدير المشروع المعين من قبل الشركة ، مليئاً بالاعجاب ، والتقدير ، والزهو ..

لقد أمكن زراعة الخيار و، الكوسة ، والفاصوليا والفلفل . وأمكن انتاج فراولة انتهى محصولها ، ومن الأزهار أنتج القرنفل والجلاديوس ..

وها هو الانتاج يصل الآن إلى الأسواق ، لمحاولة تغطية نسبة كبيرة من الطلبات على الخضراوات ..

ولقد بدأ المشروع فقط منذ عدة شهور ..

وكان العمر الحقيقي للتشغيل في ١٨ فبراير عام ١٩٨٥ ..

وبدأ أول انتاج في ٢٣ أبريل الماضي ..

وكان هذا الانتاج قليلاً إلى حد ما ..

لكن دائما ـ هكذا يضيف .فان أكتوفن ـ فان البداية صعبة ..

ثم أخذ الانتاج في الزيادة التدريجية ..

انتاج يوم واحد

لقد بلغ مثلاً (أمس) قبل زيارتنا للمزرعة بيوم :

٨٠٠ كيلو جرام من الخيار و، الكوسة ، والفاصوليا ، من وحدتين ونصف وحدة فقط ..

ويزداد الانتاج مع تقدم المشروع ..

ويأتي المحصول الحالي المزروع من وحدتين ونصف وحدة مزروعة بالطماطم من الأصناف غير المحدودة النمو ..

كما يأتي من نصف وحدة مزروعة بالفاصوليا ..

وتبلغ الوحدة مساحة ١٢١ مترا في ٢١ مترا أي ما يساوي ٢٥٠٠ متر مربع ..

وبها ستة آلاف ومائة نبتة تقريباً ..

وتوضع كل نبتة في كيس من البلاستيك سعته ١٠ لترات ، ومملوء بالرمل ..

ويتم الري ، كما رأينا ـ بطريقة التنقيط ..

أما طريقة الزراعة بصفة عامة فهي الزراعة بالمحاليل المائية المغذية أي الاسمدة ..

ويتكون البيت الواحد من بيوت الزراعة المحمية كما يقول مدير المشروع من غطاء من الفيبرجلاس المنفذ لأشعة الشمس ..

تبريد صحراوي

أما التبريد فيتم بواسطة التبريد الصحراوي خلال ساعات النهار ..

وأسأل عن تفسير التبريد الصحراوي ، وتجيئني الاجابة العلمية المحددة ..

إن التبريد الصحراوي عبارة عن جدار مرطب ، حيث يتكون من مواد سيلوزية ويرش عليها الماء ..

وبالجهة المقابلة من الجدار توجد مراوح تعمل على سحب الهواء من داخل البيت الزراعي المحمي ، ليدخل هواء بارد بواسطة مروره بهذا الجدار الرطب ..

وبذلك تنخفض درجة الحرارة داخل البيت



وفرت الزراعة المحمية كثيراً من احتياجات السوق المحلية

الزراعي المحمي ..

وتتم عمليـة التبريد الصحراوي خلال النهـــار عندما تكون الرطوبة النســـبية في الجو أقل من خمسين في المائة ..

ويستخدم التبريد بالماكينات أثناء الليل خصوصاً في ليالي الصيف الحارة الرطبة .. اذ تعمل أجهزة التكييف على تكثيف الرطوبة الجوية وتبريد الهواء أيضاً ..

وفي ليالي الشتاء الباردة توجد أجهزة تدفئة خاصة لبعض النباتات التي لا تتحمل البرودة مثل الخيار ..

وتوجد ستارة للتظليل أثناء ارتفاع شدة الحرارة أو الاضاءة في النهار ، وتقلل حجم الهواء اللازم للتبريد عند تشغيل المكينات ..

وتعمل هــذه الســتارة أوتوماتيكيـــاً بواسطة أجهزة التوقيت ..

١٢ بيتـــاً

وبصفة عامة ـ والحديث مازال يأتي على لسان فان أكتوفن ـ فان المشروع يتكون من ٢١ بيتاً ، تبلغ مساحتها الاجمالية ٣٢ ألف متر مربع ..

ومن مزايا هذه البيوت التي يضمها المشروع العمل على انتاج الخضراوات على مدار السنة صيفاً وشتاء ، وفق برنامج معد لذلك ، بحيث لا يكون



سوف يحقق المشروع مستقبلاً أكبر معدلات في الانتاج المنز

هناك تعارض في انتاج المشروع مع انتاج المزارع الأخرى الخاصة ..

ويشمل المشروع أيضاً وحدة تحلية المياه بواسطة الضغط الاسموزي العكسي ، نظراً لأن المياه الجوفية بالمزرعة عالية الملوحة ، ولا تناسب نظام خلط الاسمدة بها ، لأنها ترفع من ملوحتها ، وبالتالي فانه يجب اجراء عملية التحلية لهذه المياه ، لتصل إلى ملوحة معقولة . بعدها يمكن خلط الاسمدة بها ..

والهدف من ذلك محدد : أن يعطي النبات أقصى معدلات الانتاج ، وفي الوقت نفسه يحافظ على جدار التبريد الذي يتأثر بتراكم الأملاح ..

وللعلم فان طاقة الوحدة تصل إلى انتاج ما قدره ٦٠٠ متر مكعب يومياً ..وهي كمية تكفي حاجة المشروع من تبريد دوري

وتخزن هذه المياه في خزانات خاصة ، لامداد المشروع بالمياه لمدة أربعة أيام دون توقف ..

وتمضي جولتنا داخل المزرعة لنشاهد جانباً آخر من الاستعدادات ..

في مبنى الادارة والخدمات توجد مكاتب الادارة والمختبر والمخازن ومحطة ضخ المياه ومحطة تحلية المياه ، ومحطة توصيل ومراقبة التيار الكهربائي ، وكذلك المخازن المبردة لحفظ المنتجات لحين تسويقها ، ومخازن البذور والكيماويات وقطع الغيار وغيرها ..

وهناك أيضاً المعدات والآليات ..

وهي تشمل وسائل نقل المنتجات من البيوت الزراعية المحمية إلى مجمع التعبئة في مبنى الادارة والخدمات ، وهنا يلاحظ وجود آلة خاصة لتعبئة الأكياس البلاستيكية بالرمل ، وكذلك آلة خاصة لتدريج ثمار الطماطم وتعبئتها حسب أحجامها ، بالاضافة إلى لوازم الزراعة ..

في نفس الموقع

كما تفقدنا مساكن الموظفين والعمال ، وهي في نفس الموقع ..

فنظراً لاستمرارالعمل في مثل هذه المشاريع ، فان اقامة العاملين على ادارة وتشغيل المشروع لابد أن تكون في الموقع نفسه ..

ومن هنا فانه يوجد سكن لموظفي الادارة وعائلاتهم . كما يوجد سكن للعمال بحيث يسهل استدعاؤهم في أي لحظة يحتاج فيها اليهم خارج ساعات الدوام ..

وسوف يقوم فنيون من الشركة المنفذة للمشروع ــ كما عرفت ــ بادارة العمل لمدة سنتين ، حيث يتم خلالها تدريب الكوادر المحلية على استلام المشروع وتشغيله ..

وفي تقدير المهندس محمد تيسير صوان رئيس قسم الزراعة بالمركز الفني للتنمية الصناعية أن هذه الكوادر قادرة خلال هذه المدة على استيعاب كل العمليات الفنية ، ومباشرة دورها بكل كفاءة واقتدار ..

وقد بدأت العمل فعلاً وهي ماضية على أحسن وجه ..

وأسأله عن التكاليف التي تكلفها المشروع وهل هي ستغطى من خلال الانتاج ولو على سنوات طويلة ..

تكاليف المشروع

وتجيئني الاجابة التي تضع النقاط على الحروف ..

إن المشروع تكلف حوالي ٢٨ مليون ريال قطري شملت كل التجهيزات والمعدات والآلات ، وغيرها ، وهي تكلفة أساسية ضرورية في البداية ..

بعدها وقف المشروع ثابتاً ، وبدأ الانتاج في مدة وجيزة كما ترى ..

وليس الهدف من هذا المشروع الزراعي الكبير ــ هكذا يضيف المهندس تيسير ــ هو العائد الاقتصادي ..

إن الهدف بالدرجة الأولى هو نجاح التجربة وتطويع الظروف المناخية والبيئية لعملية الزراعة والاعتماد على الانتاج المحلي شيئاً فشيئاً ..

وهي عملية ذات عائد كبير على المدى الطويل ..

فالمهم هو تغيير الفهم والنظرة ، والعمل على تثبيت أسلوب زراعي متطور وتعميمه بالتدريج ، والاستفادة من كل نتائجه ، والتوسع فيه ، حتى تصل فوائده إلى كل الناس ، ويصبح الانتاج المحلي هو السائد ، والذي يحقق ماننشده من سياسة الأمن الغذائي ..

وهذه هي الفائدة الحقيقية ..

إن المشروع يمثل في الحقيقة قمة ما توصلت إليه التكنولوجيا الزراعية الحديثة في المناطق ذات الأجواء الصحراوية القاحلة ..

وسوف يحقق انتاجاً عالياً من مساحة الهكتار الواحد على أرض غير زراعية ، وسوف يتم انتاج الخضراوات على مدار السنة بغض النظر عن العوامل الجوية ، وسوف ترتفع جودة ونوعية الثمار ، وتسد ثغرات موجودة في الانتاج المحلي ، وسوف يكون المشروع قاعدة أساسية للتوسع المستقبلي واكتساب الخبرات ..

المكاسب الحقيقية

ومن هنا فان المكاسب التي يمكن الحصول عليها من هذا المشروع الجديد هي مكاسب لا حصر لها ، وهي تستحق أن تكون في المقياس الموضوعي الحقيقي هي العائد الشامل من المشروع ..

والحقيقة أن ما قاله المهندس تيسير بحماس غير عادي ، هو ما يمكن فعلاً أن يعطي للمشروع القيمة الحقيقية

وهي قيمة كبيرة وعميقة وثرية على المدى الطويل ..

لقد عرفت مثلاً أن العائدات من المشروع في السنة الثانية من التشغيل سوف تغطي وتزيد عن نفقات التشغيل السنوية المقدرة ..

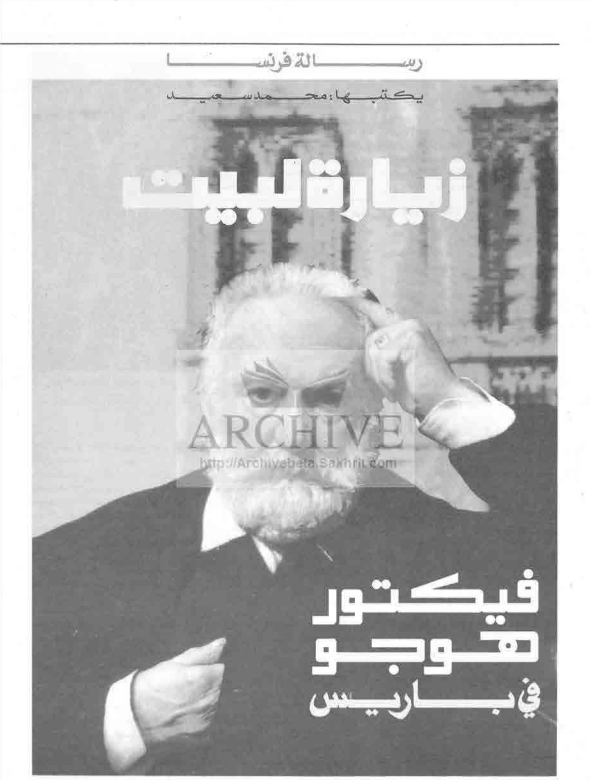
كما عرفت أيضاً أنه يمكن التوسع مستقبلاً بالمشروع على مساحة أكبر وبنفس الامكانيات الحالية بأقل قدر من التكاليف الاضافية ..

وكانت الزيارة إلى هذا المشروع المستقبلي قبل افتتاحه رسمياً ، تعطي الانطباع الحقيقي بأنه لا مستحيل في مواجهة أية معوقات وصعوبات مناخية وبيئية وأن الممكنات كثيرة بالعلم والاصرار والايمان بالهدف ..

وهذا المشروع هو محصلة لكل ذلك وأكثر منه ..

وسوف ينظر إليه بعد سنوات طويلة على أنه كان بداية للمرحلة الخضراء في صحراء قطر ، لتنتج لأبنائها ولكل من على أرضها الخير .. كل الخير ..

السيد حجازي



يكتبها: محمد سعيد

زيارة لبيت فيكتور هوجو في باريس





زيارة لبيت فيكتور هوجو في باريس



هوجو في شبابه (١٨٢٧)

في سنوات النضج (١٨٤٨)

صعوبة في ظل هذا التنوع والاحتفاء في التكريم والتقدير.

وفي المكتبة القومية في باريس بحثت عن بيت فيكتور هوجو في خريطة تجيب على السؤال عن مكان اقامة فيكتور هوجو في باريس عبر رصد الأماكن التي استقر فيها في العاصمة التي لم يبرحها منذ مولده وحتى وفاته سوى لرحلات قصيرة أو عندما قرر الامبراطور نابليون الثالث نفيه إلى جزيرة «جرينزيه»..

إن متابعة الأماكن التي استقر فيها فيكتور هوجو في باريس تبرهن على أنه كان كثير التنقل من مكان إلى آخر، فلم يكن يطيل الاستقرار في مكان منها، وكانت أطول فترة أمضاها في مكان هي الفترة التي قضاها في الموقع الذي أختير ليكون متحفه، وهو بيت فيكتور هوجو الواقع فيما يسمى بالميدان الملكي (ميدان رويال) أو ميدان «فوسيجا» حسب تسمية هذه الأيام. وقد عاش فيه فيكتور هوجو مدة ١٦ عاماً من عام ١٨٣٢ وحتى عام ١٨٤٨

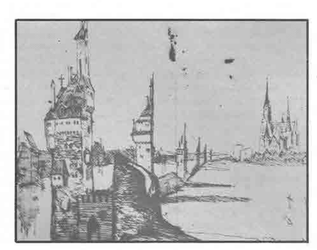
أما خريطة اقامة فيكتور هوجو في باريس فتضم عنوان (١ شارع الطريق الجديد في عام ١٨٠٤) و (٢٤ شارع شليش من عام ١٨٠٤ وحتى ١٨٠٩) ثم (شارع سان جاك رقم ٢٥٠ في عام ١٨٠٩) حيث أقام أيضاً في (١٢ شارع فولانتين) وفي عام ١٨١٣ أقام في (٢ شارع فيل) وفي عام ١٨١٥ في (٤١ شارع سانت مرجريت) وفي عام ١٨١٨ في (١٨ شارع أوجستين) وفي عام ١٨٢٠ في (١٠ شارع فريير) وفي عام ١٨٢٢ في (٣٠ شارع دراجون) وفي عام ١٨٢٣ في (شارع ميدي) وفي عام ١٨٢٧ في (١١ شارع نوتردام) وفي عام ١٨٣٠ في (١٣ شارع جان جويجون) وفي الفترة من عام ١٨٣٢ وحتى عام ١٨٤٨ في (المنزل الكائن بالميدان الملكي (سابقا) أو ميدان فوسيجا (حاليا) وفي عام ١٩٤٨ في (٣٧ شارع افريجين) وفي الفترة من عام ١٨٥٦ وحتى ١٨٧٠ في (جزيرة «جرينزيه») وفي عام ١٨٧١ في (١٦ شارع روشفوكيلد) وفي عام ١٨٧٤ في ٢١ شارع شليش وحيث سبق له الاقامة بجوار هذا المنزل قبل ٦٥ سنة ثم في عام ١٨٧٨ في (٣٠ شارع إيلو بجوار ميدان فيكتور هوجو «الآن»).

وعندما ذهبت إلى بيت فيكتور هوجو أو أحد أهم البيوت التي عاش فيها الأديب الكبير، وجدت أنه أصبح اليوم مزاراً يحمل اسم متحف فيكتور هوجو على اعتبار أنه المكان الذي قضى فيه هوجو أطول سنوات اقامته في باريس، فقدعاش فيكتور هوجو ١٦ عاماً في هذا المكان الواقع في ساحة «فوج» أكبر فترة اقامة في مكان ما خلال حياته، بينما كانت أطول فترة اقامة في مكان آخر في جزيرة «جرينزيه» التي عاش فيها حوالي ١٥ عاماً!

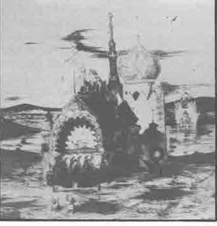
وبيت فيكتور هوجو الذي زرته أقيم في القرن السابع عشر، في الساحة الملكية (ميدان رويال) والتي تسمى الآن ميدان فوج، وقد عاش في هذا المكان في الفترة من عام ١٨٣٢ وحتى عام ١٨٤٨، وشاركه الاقامة فيه زوجته وأبناؤه الأربعة، وكان المسكن في الطابق الثاني من هذا العقار الذي شهد أخصب سنوات الأديب الشهير وأعوام معاناته الاجتماعية والسياسية والثقافية وأيام تألقه وابداعه وظهور انتاجه الخصب الغزير.

والشقة التي عاش فيها فيكتور هوجو مع أسرته كانت تطل على اتجاهين.. غرف المعيشة كانت تطل على الممر الخلفي ومن بينها غرفة نومه: بينما القاعة (صالون الاستقبال) كانت تطل على الساحة الملكية (رويال بالاس).

وفي هذا البيت كتب فيكتور هوجو مسرحياته الكبيرة (ماري تيودور) أو «الملكة» ـ (روي بالا) ـ (كريس برجوا) وهي تسميات لشخصيات شهيرة، وكتب أيضاً دواوينه الشعرية مثل (أناشيد الغروب)، (أصوات داخلية).



من رسومات «هوجو» في متحف بيته بباريس، حيث تحولت القاعة الكبرى إلى متحف يضم أهم لوحاته



الشرق في خيال هوجو: من وحي زيارة الأديب الكبير إلى مدينة الاسكندرية وإلى فلسطين وسورية في سبعينيات القرن الماضي


في شيخوخته (١٨٨٤)

● مازال المكان يحتفظ ببعض أوراق الأديب ومخطوطاته وذكريات أيام زمان!
● هنا كتب الروائي الكبير "أغنيات الشوارع والغابات" وأعماله المسرحية الكبيرة
● باريس عند "هوجو" هي الشمس التي تشرق على نهر السين!

(أشعة وظلال) .. كما كتب كذلك أغلبية صفحات روايته الشهيرة (البؤساء) ، وبدأ كتابة (أسطورة القرون) ، و (التأملات) !

ولا يزال المكان يحتفظ في لوحات زجاجية ببعض أوراق الأديب الكبير ومخطوطاته التي توضح خطه اليدوي وطريقة تدوينه لكتاباته والهوامش التي كان يغرم بتوضيحها مع كل مضمون يتناوله بالتسجيل على الورق .

وفي القاعة الكبرى من الشقة التي أقام فيها فيكتور هوجو في البيت الذي تحول إلى متحف ومزار ، نعرف من بيانات الجدران ومن معلومات الدليل المقيم في المكان أن الأديب الفرنسي الكبير استقبل في هذه القاعة أبرز عمالقة عصره من المفكرين والأدباء والعلماء والباحثين أمثال بلزاك وتيوفيل جوتيه وأندريه دي مان والدوق دي رليان والفنان التشكيلي بول موريس الذي برع في تصوير البورتريه ورسم أحد أهم صور فيكتور هوجو !

وفي بيت هوجو المطل على الميدان الملكي ، عرف هذا المكان وقائع تركت بصمات عديدة على حياة فيكتور هوجو مثل زواج ابنته « ليوبولدين » على « شارل فيكوريه » ثم تعرف فيكتور هوجو على ملهمته جولييت ، ووقعت حادثة غرق ابنته وزوجها بعد عدة شهور من زواجهما ..

شهد بيت هوجو الذي تحول إلى متحف ومزار انتخابه للمرة الأولى عام ١٨٤١ في الأكاديمية الفرنسية ، وبعد فشل ٤ مرات في انتخابات سابقة ، ثم وصوله إلى الانتخابات الجمهورية ليصبح عضواً في الجمعية الوطنية في يونية ١٨٤٨ ، وفي هذا البيت ـ أيضاً ـ اقتحم الثوار مسكنه واضطرت عائلته إلى الفرار والرحيل !

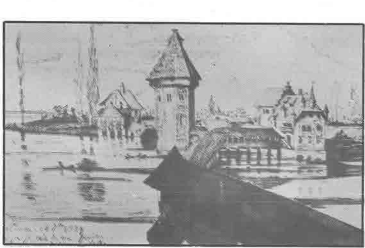
وبالسؤال عن تاريخ تحويل البيت الذي عاش فيه فيكتور هوجو إلى متحف يحمل اسمه ، عرفت من مدير البيت أن عمر هذا المتحف يعود إلى ٨٣ عاماً مضت ، أما عمر العقار فيقترب من القرون الثلاثة ، وقد أقيم هذا المتحف في مناسبة مرور مائة عام على مولد فيكتور هوجو ، وكان ذلك في عام ١٩٠٢ عندما احتفلت بلدية باريس صاحبة العقار بمناسبة تخصيص البيت ليكون متحفاً لحياة وأعمال فيكتور هوجو ، وقد أفتتح المتحف في عام ١٩٠٣ ويضم المتحف بجانب متعلقات فيكتور هوجو كل مقتنيات صديقه الفنان الكبير « بول موريس » الذي ترك له مقتنياته في وصية خاصة ، ومقتنيات بول موريس تضم مجموعة كبيرة من التحف والقطع النادرة ، وهناك عدد آخر من المقتنيات تركها آخرون وأوصوا بها لبيت فيكتور هوجو أسوة بالفنان بول موريس على أن يتم ذلك بعد وفاتهم !

وإذا كان الطابق الأول المخصص للمقتنيات لم يصبه أي تغيير يذكر ، فإن الطابق الثاني قد خضع لبعض التغيير ، ولم يعد أحد يتخيل كيف كان شكل شقة الدور الثاني على أيام هوجو ، فالمعروف أن معظم أثاث المسكن كانت قد باعته زوجة هوجو في عام ١٨٥٣

ويضم الطابق الثاني من البيت معظم ذكريات آل هوجو: بورتريهات العائلة .. التماثيل النصفية .. الهدايا التذكارية .. الرسومات التي رسمها هوجو ووقع عليها .. متعلقاته الخاصة .

ومن أبرز مكونات الطابق الثاني في بيت هوجو القاعة الصينية التي صنع فيكتور هوجو بنفسه كل مكوناتها وزخارفها وأركانها وديكوراتها ومفروشاتها .. وعلى مقربة من القاعة الصينية وبعد عبور ممر صغير (كوريدور) نجد غرفة النوم التي أمضى فيها فيكتور هوجو بداية سنوات العمر الأخيرة ، وأبرز ما في هذه الغرفة ـ غير السرير ـ منضدة عالية تؤكد ما ذهب الرواة إلى سرده من أن فيكتور هوجو كان يميل إلى الكتابة وهو واقف ، فلم يكن يحب الكتابة جالساً !

وإذا تفقدنا مقتنيات الطابق الأول من متحف


الحياة على النهر : إحدى لوحاته الجميلة التي استوحى فكرتها من الحياة على نهر السين في باريس

الحصان : إحدى لوحات الأديب الكبير

زيارة لبيت فيكتور هوجو في باريس

فيكتور هوجو فسوف نعرف أنه يضم ٤٠٠ قطعة من الرسوم ، من بينها ٣٠٠ قطعة رسمها فيكتور هوجو بنفسه ، وهذا اضافة إلى مكتبة مفتوحة للباحثين بها مخطوطات عديدة بخط يده ، وبها أيضاً مراسلاته إلى أصدقائه وأقاربه ومعارفه في جميع أنحاء العالم .

ويضم متحف فيكتور هوجو في باريس بعض متعلقات هوجو في بيته الذي نفي إليه في جزيرة « جرينزيه » ، وقد أهديت مقتنيات هذا البيت إلى بلدية باريس ، ويوضح ما تركه هوجو في هذا البيت قيمة مواهب فنان متعدد المواهب ، فهو شاعر في تعامله مع الأخشاب عندما يصمم الأشكال ويصنع ما بداخلها من بلاط وجدران وكذلك الأثاث وقطع النحت والحفر على الخشب والنقش على الجدران ، وكان يتفوق في أغلب المهارات الفنية باحساس الشاعر الموهوب وتذوق ومهارة الصانع المبتكر ، وقد تفوق في هذه المهارات اليدوية بداية من صناعات الأخشاب ونهاية بصناعات القيشاني الملون وحتى التطريز بالفصوص وصياغة الأعمدة المزخرفة وصنع التماثيل وقطع النحت وما إلى ذلك من مظاهر الزخرفة المختلفة .

ويضم بيت هوجو في باريس بعض المعلومات عن اقامته في بيت المنفى في جزيرة « جرينزيه » وفيه كان يميل إلى الكتابة من خلال تأمل البحر في غرفة مطلة على المحيط كتب فيها « أسطورة القرون » ـ وأنهى : « البؤساء » ـ « وليم شكسبير » ـ « أغنيات الشوارع والغابات » ـ « عمال البحار » وغيرها التي نشرت أيضاً بعد وفاته .

العشق يبدأ من هنا

كان فيكتور هوجو من اكثر عشاق مدينة باريس ، فقد كانت بالنسبة له أسطورة وليست مجرد مكان يتعلق به ، ولهذا فهي تكرمه كما لم تكرم أحداً غيره ـ على حد تعبير السيدة « فرانسواز دي نيفييوه » مسئولة الثقافة في بلدية باريس ، فقد كانت باريس تسيطر على خاطر فيكتور هوجو ، وكثيراً ما دون عنها الخواطر في مخطوطاته الباقية في بيته الذي يبرهن على أن علاقته بباريس كانت علاقة عضوية من خلال شعوره بالانتماء إليها وفي شعوره بأنه جزء منها ، كان يتأمل المدينة ويدون الملاحظات عنها ، ومن هنا كان عشقه لباريس موضوع كتاب ضخم له يحمل اسم (باريس : أشياء رأيتها) .

ومن كلماته المأثورة عن باريس ما يقوله في هذا الكتاب :

ادخلي في عينيه
حتى أتذكرك

وباريس عند هوجو هي جماهير كل مكان ، وهي الشمس التي تشرق على نهر السين ، وهي متاحف الفن ، وهي المكتبات ، وهي التي جعلت عاشقها فيكتور هوجو هذا المفكر الهادىء في ثورة والصاخب في نظام وترتيب .

وحتى عندما ترك هوجو باريس في سنوات المنفى ظلت باريس في ذاكرته ، لم يهجرها فكره ، ولهذا كتب عن تلك الفترة كتابه (دليل باريس) الذي صدر في عام ١٨٦٧ .

وغير هذه الكتب الصريحة « دليل باريس » .. « أشياء رأيتها » جعل فيكتور هوجو باريس تعيش في « البؤساء » حتى لقد قال عنها :

« ليس من الضروري أن أقول إنني أحبها فهي مدينة المولد وهي مدينة الذهن والذاكرة .. الأماكن التي عشت فيها والأخرى التي لم أشاهدها والتي قد لا أراها مرة أخرى ، بقيت في الذهن وتعود إلى الذاكرة والذكريات وتأتي في الأحلام لتجعل للمكان قدسيته .. إن باريس هي الجزء الذي يبقى في الذكريات » .

هوجو ومعنى التكريم

بدأ عام تكريم هوجو في شهر مايو ١٩٨٥ بافتتاح معرض أفيشات هوجو ، ثم ليالي مسرحيات هوجو ، بعدها أمسيات أشعار هوجو التي انتقلت من باريس إلى المدن الفرنسية والعواصم الأوربية وكبرى المدن العالمية .

ويشمل عام التكريم ـ أيضاً ـ افتتاح معرض رسومات هوجو في الخامس من أكتوبر ١٩٨٥ ، وسوف ينتهي في ٣١ ديسمبر ١٩٨٥ ، ويقام في بيت فيكتور هوجو في فندق المدينة .

وقد أقيم معرض حول فيكتور هوجو ومدينة باريس بدأ في ٢٨ يوليو ١٩٨٥ ، وانتهى في ١٥ أكتوبر من نفس العام ، وهو غير معرض رسوم ومخطوطات فيكتور هوجو الذي بدأ في ٤ أكتوبر ١٩٨٥ وينتهي في ٥ يناير ١٩٨٦ ويقام في متحف القصر الصغير .

إن اقبال سكان باريس والشعب الفرنسي وزوار باريس من الأجانب على متابعة مظاهر تكريم فيكتور هوجو بعد قرن من رحيله عن الحياة له أكثر من معنى فهذا الاقبال يبرهن على أن شعبية فيكتور هوجو ما زالت قوية من بعد قرن من الزمان ، وهي تعبر عن شيء غامض يستعصي على التفسير على حد اجماع نقاد فرنسا من معاصري هوجو ممن تناولوا أعماله وكتبوا عن شخصيته ووصفوا ابداعاته تحت مجهر التحليل فقالوا إن هوجو شاعر كبير الحجم .. كثيف العطاء .. تنطلق الأحاسيس من كتاباته .. المثقف ينطلق بها إلى آفاق رحبة ، وبسيط الثقافة ينفعل بها فتدفعه إلى الأفضل .

اعترف فاليري وبول كلوديل وهما من نقاد وشعراء عصره أن تكريمه هو في الاعتراف بأنه أحلى من عبر بشعره عن اللغة الفرنسية ، والحلاوة هنا مرادف آخر يلتصق بالأحاسيس والمشاعر ، وهي غير تألقه في استخدام الصور الشعرية ومقدرته في تطويع الألفاظ وتمكنه من التراكيب والصياغات الفنية .

يقول فيكتور هوجو في واحدة من قصائده التي عادت تتردد في العاصمة الفرنسية في العام المئوي على رحيله :



الميدان الملكي ، حيث يوجد بيت الأديب الكبير ولم يطرأ على المكان أي تغيير ، واللوحة تعود إلى عام ١٨٣٦ وهي ضمن مقتنيات المكتبة الوطنية بباريس

فلننس .. هذا هو القانون الأبدي .
لا أحد يستطيع الهروب منه
الكل ينحني ..
وهذه الأشعة يخترقها كيان ضخم
ونحن كالشهباء نهرب
ماهذا الضجيج الذي يذوب مع المغيب ،
وأشجار الأرو تتحطم تريد التضحية .

وتتردد ـ أيضاً ـ عبر الاذاعتين المرئية والمسموعة وفي الأمسيات الشعرية التي تقدم روائع أعماله مثل هذه القصيدة التي تخاطب باريس :

يا مدينة هل تجعلين التاريخ يركع أمامك
هل تحبسين كل هذا الحزن الكبير .
ليعيش في دموعك
دعيني أتكأ على الصخر البارد لأقول لطفلي
ياطفلي : هل تشعر بوجودي ؟

إن شعبية فيكتور هوجو التي تزداد اليوم وبعد قرن من رحيله عن الدنيا ليس مرجعها فقط اعتباره من العظماء ووضع جثمانه في مقبرة « البانثيون » التي تضم رفات عظماء التاريخ الفرنسي ، ولكنها تعود أيضاً إلى تجسيد فيكتور هوجو في أعماله ومن خلال شخصيته لقسمات ومعالم الشخصية الفرنسية وقد تدعم هذا الرأي حال مفارقة فيكتور هوجو للحياة في يوم الجمعة ٢٢ مايو ١٨٨٥ عندما أعلنوا خبر وفاته وليصاب الناس وقتها بحالة من الذهول وليعم الحزن كل فرنسا بداية من رئيس الوزراء « هنري بريسون » وحتى بسطاء الريف والحضر ممن ترقبوا ما أعلنه هنري بريسون في الجمعية الوطنية من أن الحكومة الفرنسية ستتقدم بمشروع لكي تصبح جنازة فيكتور هوجو مسيرة قومية : في حين تقدمت بلدية باريس باقتراح وضع رفاته في مقبرة البانثيون مع عظماء التاريخ الفرنسي . لم يكن يكفي هذا التكريم الرسمي ، وهنا تقدمت الملايين من خلال الجماهير التي ازدحم بها طريق الشانزليزيه ممن طافوا حول الجثمان وهم يرددون في صوت يحرك الصخر : « يحيا هوجو » ..

إن مثل هذه العواطف الشعبية الجماعية نادرة التكرار في العالم كله ، وهي لم تحدث في فرنسا إلا في حالة وداع فيكتور هوجو . كما تكررت عند وفاة السياسي الفرنسي الجنرال شارل ديجول ، وهي في رأي أساتذة علم النفس السياسي تعبير عن الوحدة « الغموضية » التي تربط بين الشعب ورجل أحسن التعبير عنه ولذلك منح الشعب هذا الملهم في غيابه صفة الخلود .

إن مرور مائة سنة على المشهد المؤثر لوداع فيكتور هوجو لم يذهب معها حجم هذا الرجل في الوجدان الانساني ، وهاهي نظرة على مقتنيات بيته في ساحة « فوجه » تبرهن على ذلك .. بعد قرن من الزمان لا زال فيكتور هوجو مؤثراً .. هاهو تمثال « جوزيت » مع الجردل في اليد يصور حال نماذج روايته « البؤساء » وكأن جوزيت تسير في الغابة المظلمة في اللاشعور المتخفي لدى كل من قرأ روايته ، وهو شعور يلازم كل تابع لأسلوبه المبدع

جوليت دورو : ملهمة هوجو .. واللوحة ضمن مقتنيات بيت الأديب الكبير في باريس



هوجو على فراش الموت

زيارة لبيت فيكتور هوجو في باريس

وتعبيراته الرصينة وهو يصف « جان » وهي تتناول الخبز الجاف في غرفة معتمة !

ولم يكن كل الناس والنقاد مع فيكتور هوجو ــ وهذه هي طبيعة الأمور ــ ولكن قلة من أصحاب الرأي عارضوه بقسوة ومنهم أندريه جيد الذي قال فيه كلمات عنيفة حتى بعد وفاته ويذكر عنه قوله : الحمد لله لقد مات فيكتور هوجو » .. أما المفكر « جول لومتر » فقد رأى أن أعمال هوجو غير مترابطة وأنه ظهر في زمن غير زمنه ! وهناك « روجيه فيمينيه » الذي وصل الأمر به إلى أن قال عن هوجو إنه رجل ليس له قيمة في أيامه على الرغم من أن له مكانة شعبية لا تنكر !

تملق الجماهير

لقد كانت الذكرى المئوية للاحتفال برحيل فيكتور هوجو عن الحياة فرصة لكي يعيد النقاد والكتاب والمشتغلين بالفكر والفن والأدب وعشاق تراث هذا الموهوب العظيم لكي يعيدوا ترتيب أوراق أهميته التاريخية بين تفخيم من يعرفون قدره وتصغير من يهونون من أمره ، وأتذكر في حوار لي مع الكاتب الفرنسي « كلود نيكولوزييه » اجابته رداً على سؤال حول : لماذا هذا التضارب في تقدير فيكتور هوجو بين تخليد الكثرة وهدم القلة لمكانته الهامة ؟

أجابني الكاتب الفرنسي بسؤال آخر : إن الاجابة في تساؤل آخر حول هوجو : ولماذا كل هذه المكانة التي يحتلها فيكتور هوجو ؟ وهل تعود هذه المكانة إلى عظمة الفكر الذي عبر عنه في البؤساء ؟ هل تعود إلى فكره الذي ساهم في التمهيد للجمهورية الفرنسية ؟ أم هل ترجع إلى التسامح الذي كان يظهره هذا المتواضع العظيم حيال من يختلفون معه ويخالفونه الرأي ؟..

إن أكثر المتشددين في فهم فيكتور هوجو ممن يتهمونه بتملق الجماهير يعرفون أنه لم يكسب رصيداً مضافاً إلى صفة السياسي أو البرلماني لمواهبه وصفاته المتعددة بعد أن أنتخب في عام ١٨٤٨ لعضوية البرلمان ثم في عام ١٨٧١ لعضوية الجمعية الوطنية ثم في عام ١٨٧٦ لعضوية مجلس الشيوخ ، ولكن عبقرية هوجو الأصلية كانت في قدراته الشعرية وفي خياله الخصب وقدرته الفائقة على استخدام الألفاظ واختيار المفردات والحرص على العبارة التي تضم المعنى ، والحذر من عدم تكرار



من رسومات فيكتور هوجو وعليها توقيعه

● العواطف الشعبية الجماعية التي أحاطت وداع "هوجو" لم تتكرر إلا عند وداع ديجول

التعبير الواحد ، ولهذا فإننا يجب أن نبحث عن الأسلوب المتميز عند هوجو قبل أن نبحث عن دلائل عظمته وعبقريته في مواهب ومجالات أخرى كان له فيها الكثير من العطاء غير المحدود .

لقد بدأ التوهج الفكري عن هوجو مع المعاناة في سن مبكرة . عندما انفصلت أمه عن أبيه . وأثر ذلك عليه فآثر الوحدة ، وبدأ يترجم مشاعره إلى قصائد وأعمال ابداعية متأثراً في البداية بأعمال لامارتين وشاتوبريان . ثم بدأت الحياة تشرق له عندما التقى برفيقة حياته « أديل موفوشيه » التي تزوجها وهو في العشرين من عمره لتنتعش معنوياته وليقبل على الحياة ، حتى كانت صدمته في غرق ابنته الكبرى ووفاة ابنته الثانية ، ومن ثم اتجاهه للتعرف على الحياة العامة في فرنسا هرباً من قسوة حياته الخاصة . ثم كانت مشاركته فيها ولقاءاته مع رجال السياسة ، وقد انعكس هذا الحال في أعماله خاصة عندما نتأمل تحول بطل روايته « جان فالجان » في البؤساء من حياة الشر إلى حياة الخير ومن احتراف الحرام إلى حياة الشرف فاصبح محباً للخير مشاركاً للضعفاء والبؤساء في سخطهم .

وينعكس الموقف الفكري لفيكتور هوجو على سلوكه العام ، خاصة عندما يصطدم بالامبراطور نابليون الثالث الذي ينفيه خارج باريس مع زوجته وصديقته أو ملهمته « جوليت » التي ظلت تخفف عنه قسوة الأيام بعد موت زوجته حتى ماتت هي أيضاً نتيجة مرض خبيث قبل أن يلحق بها هوجو في عام ١٨٨٥ .

لقد انعكس الموقف العام من الحياة على موقف فيكتور هوجو من الفن والأدب ، ومن هنا فقد كان همه من حرصه على ابداع ثقافته الذي جمعه من فروع المعرفة المختلفة أن يصر على رسالة الفن ، فهو يرى أن للموهوب رسالة تجعله يحترم المشاعر الانسانية ويتعاطف معها . وهو يلتزم في عطائه بهذا المعنى الذي يرى فيه الشاعر صاحب رسالة ، ويتضح هذا في انتاجه الشعري الذي يضم ١٥٣ ألف بيت شعر ، صاغها خلال ٧٠ عاما هي عمر ابداعاته التي كان فيها متعدد المواهب فهو الشاعر ــ الروائي ــ المسرحي ــ المؤرخ ــ الناقد ــ المترجم ــ الرسام ــ السياسي ــ الفنان التشكيلي !

إنه الفنان الذي سبق معاصريه من المتخصصين . فهو متعدد المواهب الذي صور في لوحاته أول دعوة لالغاء عقوبة الاعدام ، وهو المسرحي الذي تناول قضايا العدالة والحق والاختيار في أعمال عديدة أشهرها ما يعاد تقديمه الآن مثل مسرحيته (ايرناني) اخراج انطوان فيتز .

وهو أيضاً الروائي الذي نجح في السينما وكانت هناك الأفلام الشهيرة المأخوذة عن رواياته ، حتى أن « البؤساء » قدمت في أفلام عديدة في أكثر من جنسية سينمائية وتليفزيونية . وعبر ٣٥ فيلماً في فرنسا والولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفيتي والمجر ومصر وايطاليا . وكان أشهرها ذلك الفيلم الايطالي الفرنسي المشترك الذي مثله « ميشيل بيكولي » مع « روبرت حسين » و « لينو فينتورا » ، وأيضا فيلم أحدب نوتردام الذي جسد شخصياته أنطوني كوين مع جينا لولو بريجيدا .

إن أبرز ما قيل في التعرض لظاهرة فيكتور هوجو في الحياة والفكر والسياسة ما أوضحه الناقد الشاعر « شارل بودلير » وكان من معاصري هوجو فهو يرى فيه فناناً يتملق الجماهير حتى ولو صدر ذلك منه عن نية خالصة صافية ، فقد كان يعيب عليه تلك النبرة المباشرة في كتاباته السياسية التي تجعل لمفهوم « البروباجندا » وضوحاً في توجهاته وكتاباته حتى أن بعض أشعاره كانت تتميز بايقاع الدعاية الانتخابية الساخنة .

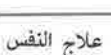
غير أن ما يراه « بودلير » مباشراً في كتابات هوجو يراه غيره الآن وبعد تأمل في تراثه بعد قرن من رحيله مختلفاً على نحو يظهر في مضمون كتاب السيرة الذاتية لفيكتور هوجو الذي وصفه المؤرخ الأدبي الفرنسي « آلان ديكو » الذي يرى أن هوجو يبدو مقبولاً ، مريحاً في أشعاره الرومانتيكية . وفي كتاباته المأساوية ، وحيث تصل غالبية كتاباته إلى مستوى النموذج والقدوة في الأدب الفرنسي ، وحيث يبدو فيكتور هوجو بعد مائة عام من رحيله في وضع لا يمكن مقارنته مع مجد أي كاتب آخر لأن المقارنة تظلم غير فيكتور هوجو .

محمد سعيد

أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد جمالاً مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة





علاج النفس

كتب إلينا حضرة (...) الموظف بوزارة المالية خطاباً يذكر فيه أنه يعانى أزمات نفسية تتمثل فى تجسيم الخلاف الذى يثور بينه وبين أهله وأصدقائه من حين إلى حين ، وهو يستحلفنا بالله أن ندله على طريق الخلاص من هذه الأزمات السود .

ونحن من جانبنا نستحلفه بالله أن ينظر فى الصور الآتية :

١ ــ رجل صائم يشعر بأن الصيام قد يحمله على سرعة الانفعال ، فهو يتجنب الاصطدام بالناس ، لئلا يؤذيهم بغير حق .

٢ ــ رجل ترك التدخين بعد طول العهد بالتدخين ، فهو يعرف أنه فى الأيام الأولى محتاج إلى التصبر ، ومضطر إلى البعد قليلاً عن المجتمع ، لئلا يحمله ضيق النفس على الوقوع فى محرجات لاتليق .

٣ ــ رجل مأزوم يخفى كربه عن زوجته وأبنائه ، فهو يبتعد عامداً عن الحديث فى المطالب المعاشية ، لئلا تلوح فرصة يثور فيها كربه فتنفرج شفتاه عن بعض الألفاظ الغلاظ فى إيذاء الزوجة والأبناء .

٤ ــ قاض ينسحب من الجلسة وقد أحس بنوبة مَرضية خوفاً من الاضرار بالمتقاضين ، لأنه يعرف أن العلة ولو كانت خفيفة تعرض أحكامه للاعتلال .

٥ ــ مدرس غاضب على أحد التلاميذ ، وهو لحرصه على النزاهة يرفض امتحان ذلك التلميذ ، لئلا يؤثر غضبه فى تقدير الدرجات ، وهو نوع من القضاء .

٦ ــ غريب يشعر بالضجر من أحد البلاد ، فيمنعه العقل من اغتياب ذلك البلد ، إيماناً بأن الغربة قد تلون أحاسيس المغتربين بالحزن والانقباض ، فهم يرون الدمامة ويعمون عن الجمال .

٧ ــ خصم شريف يعرف أن الخصومة قد تفسد أحكام الرجال على الرجال ، فهو يحاسب نفسه قبل أن ينطق بكلمة تسىء خصمه اللدود .

فمارأيك فى هذه الصور السبع ، ولها أمثال تفوق الإحصاء؟ .

من خواطر الدكتور زكي مبارك

إن كان حكمك على هذه الصور يوافق أحكام أولئك الرجال فادرس نفسك وزمانك لتعرف أنك معرض لآفات نفسية تفرضها عليك الظروف فى هذه الأيام « البيض » .

احترس كل الاحتراس من نفسك فى هذه الأوقات ، واعلم أن سلامة الأعصاب تعرضك لمصاعب لا تطاق ، ومن النادر أن تجد رجلاً يساير الحياة بقلب سليم ، وقد قضت متاعب الحرب بأن يصير الناس جميعاً مجندين ، ولو كانوا من سكان المغاور والكهوف .

يومك الحاضر متعب ، ولاتمر فيه لحظة بلا منغصات ، ولذلك أرجوك أن تسارع فتتهم نفسك قبل أن تتهم الأهل والأصدقاء عند اشتجار الخلاف .

ومن المؤكد أن « مرض العصر » لايسك وحدك ، لأنه وباء ، والوباء لايقتصر شرُّه على الأفراد ، فهو يمس الجميع بلا استثناء .

فهل تكون عند حسن الظن بك فتقف موقف الطبيب من مرضاه ؟ .

ومع من تجسم الخلاف ؟ .

إنك تعامل أقواماً ضعفت أعصابهم أقبح الضعف ، بسبب المضجرات التى ساقتها أعوام الحرب ، فهم فى حقيقة الأمر مرضى لأصحاء ، والعاقل لايطالب المريض بما يطالب به الصحيح .

وأنا مع هذا أنصحك بما لاأنصح به نفسى ، فأنا أكتب هذه الكلمات فى أعقاب ثورة نفسية قضت بالقطيعة بينى وبين صديق لاذنب له غير العيش فى أيام تجسم فيها أشباح الهفوات .

وماجاز عندى أن أنصحك بما لا أنصح به نفسى ، إلا لأنى أرجو أن تكون قدرتك على نفسك أكبر من قدرتى على نفسى ... وليتك تتأدب بأدبى ، فأنا لا أنفض يدى من صديق إلا بعد الصبر عليه عدداً من السنين الطوال ، ثم لا يكون عقابه غير الهجر الجميل .

لطف الله بى وبك ، وهدانى وهداك !! .

صورة إسلامية

فى أحد أيام سنة ١٩٣٨ وكنت ضيف العراق أطلعنى السيد صادق الوكيل رحمه الله على قصة صدرت فى بيروت تسمى « خطيئة الشيخ » أو « توبة الشيخ » فما أذكر اسمها بالضبط ، ولعل إحدى المكاتب ترسلها إلى بالثمن محولاً على البريد فأعرف ما فيها من مقاصد وأغراض .

أخذ السيد صادق الوكيل يقرأ من تلك القصة صفحات معينة ، وهى الصفحات التى يشرح فيها المؤلف كيفية الوضوء وكيفية الصلاة ، بصورة مزج فيها القصص بالتعليم ، ثم عقب فقال : ترضينى هذه الطريقة ، فأنا أخشى أن يجيء يوم ننسى فيه كيفية الوضوء وكيفية الصلاة ! .

وفى صيف سنة ١٩٣٩ قضيت أياماً فى الاسكندرية لأستكمل الصور المنشودة لكتاب « أدب الشواطئ » وهو كتاب صرفتنى عنه صروف الحرب ، أو صرفنى عنه إقفار الشواطئ من احتراب العيون والقلوب ، وسأرجع إلى إتمامه ونشره يوم يرجع الأمان إلى صدر الزمان .

وأواجه الغرض من هذه الكلمة فأقول :

فى ساحة الفتون بالشاطئ الإسكندرى لقينى الشيخ محمد أبو العيون ، وهو أزهرى طيب القلب جدا ، وقد تهم حين تراه بأن تسأله الدعاء ، على قلة هذا النوع فى هذا الجيل ، وإنى لأرجو أن يتفضل فيذكرنى بالدعوات الصالحات حين أخطر فى البال .

كنت أمتع عينى بأحد ملاعب « التنس » فى الشاطئ حين لقينى الشيخ أبو العيون ، ولملاعب التنس فوق الشاطئ الإسكندرى جاذبية تفوق الوصف ، ولكن قدوم هذا الشيخ الصالح صدنى عن ذلك النعيم ، وأشعرنى أن للتقوى جاذبية رائعة ، وأن النظر فى وجه الرجل العابد يوحى من الشعر مالا يوحيه النظر فى طلعة البدر الوهاج .

ولم يكن بد من صحبة هذا الشيخ فى ذلك الوقت ، وكانت الشمس تتأهب للاستحمام ، وهى تستحم فى البحر كل يوم قبيل الغروب ، ولعل هذا هو السبب فى أن جسمها خالد الإشراق ! .

ــ هل يضايقك أن نتعشى معا ، ياحضرة الدكتور ؟ .

ــ أنا لا أتناول طعاماً بالليل ، ويكفى أن أكون فى ضيافتك الروحية .

ــ تعالى معى إلى الفندق ، فهنالك مشكلة ينفع فى حلها تعاون الرفاق .

ــ وما تلك المشكلة ؟ .

ــ خادم بالفندق يرفض أن يتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة ، مع أنى عرضت عليه خمسة قروش . ولو أنه استزادنى لزدته ، ولكنه يرفض .

مضينا معاً إلى الفندق لحل تلك المشكلة ، وأنا أبتسم إبتسامة تخفى على الشيخ ، فمن « المضحك » أن يفكر رواد الشواطئ فى تعليم خدَمَة الفنادق كيفية الوضوء وكيفية الصلاة .

ونظرت إلى الخادم فرأيته فتى تشهد ملامحه بأنه مسلم لفظاً لا معنى ، وأن طول عهده بخدمة الفنادق والقهوات راضه على اليقين بأن المصطافين ليس فيهم من يذكر الله بصدق وإخلاص ... وهل تزار الأسكندرية فى الصيف لأداء الصلوات ؟

عرَض الشيخ من جديد خمسة قروش ، وعرضت عشرة قروش فقبل الخادم (وهو يضحك ضحكة السخرية) أن يطيعنا فيتعلم كيفية الوضوء وكيفية الصلاة .

أخذ الشيخ يعلم الفتى كيفية الوضوء بإيجاز ،

وكان الموقف في جملته من غرائب المضحكات ، لأن قروش الشيخ وقروشي جعلت الفتى من المأجورين المأزورين ، ولا قيمة لعبادة يكون جزاؤها بأيدي الناس !.

كان الفتى يضحك ويلعب ، ثم تغير وجهه فجأة فصار في خشوع النساك ، واحتجزنا ساعتين لنعلمه سائر الفروض الإسلامية ، ولم يَفُته أن يرد القروش التى أخذها من الشيخ والقروش التى أخذها منى ، برغم الإلحاح في قبول الهدية ، وكانت حجته أنه قضى في صحبتنا لحظات هي أثمن وأنفس من أطايب الأموال.

وفي الأسبوع الماضي زرت الأسكندرية لبعض الشئون ، فراعني أن أجد فتى يهجم على يدى يقبلها بحرارة وشوق ، ثم يسألني الدعاء ، وهو الفتى نفسه ، الفتى الذى علمناه كيف يصلى وكيف يصوم.

خذ علمي واعطني إيمانك ، أيها الجاهل السعيد ، فلا حياة للعلم بدون إيمان.

المنافق الجميل

هو شجرة الخلاف أو الصفصاف ، وهي شجرة غرستها بيدى عشرات المرات ، قبل أن أهاجر من سنتريس إلى باريس.

لايدوم جمال هذه الشجرة غير سنتين أو ثلاث ، ثم تخوخ ، والتخويخ في عرف أهل مصر هو أن تعتل الشجرة بعلة الجوف ، فيكون لها ظاهر صحيح ، وباطن عليل ، على نحو ما تكون شجرة الصفصاف بعد أعوام قصار ، وعلى نحو ماتكون ضمائر الأصدقاء المزيفين بعد أيام طوال !.

رجال القلم هم أطباء النفوس والقلوب والعقول ، والطبيب بلا مَرضَى كالمحامى بلا قضايا والمدرس بلا تلاميذ.

ومن أجل هذا أحبك ، أيها المنافق الجميل ، لأن وجودك فرصة لدرس الغرائز والسرائر والأهواء.

أدام الله عليك نعمة الغدر ، وأدام على نعمة الوفاء.

زكي مبارك — ١٩٤٢

في مستشفى الكلب

بقلم : نقـــولا الحـــداد

قصدت بعد أن عضني الكلب إلى مستشفى الكلب المجاور للقصر العيني. وكان أول ماأنعش نفسي أن رأيت على باب المكتب الداخلي لوحة كتب عليها مامفاده : ـ أنشأ هذا المستشفى الدكتور محمد باشا شاهين لعهد وزارة دولة صدقي باشا ، وقد افتتحه رسمياً المغفور له الملك فؤاد الأول في إبرايل سنة ١٩٣٢. فقلت في نفسي : كم كانت لشاهين باشا غفر الله له من مآثر جسام في مصلحة الصحة قبل أن صارت وزارة! وكان أول وزير لها ، ثم توفاه الله إلى جواره بعد بضعة أسابيع مأسوفاً عليه. (أقول هذا لأني كنت على صلة صداقة خالصة به كل حياته. وكنت أذيع مآثره في الجرائد والمجلات كما يعلم كثيرون من أصدقائه وأصدقائي)

قدمت نفسي إلى مدير المستشفى ، وكم كانت دهشتي عظيمة حين علمت أن هذا المدير هو الدكتور ابراهيم بك شاهين نجل المغفور له مؤسس هذا المستشفى. وعجبت أن ملامحه الرضية وسماحة محياه ووداعته استظهرت في مخيلتي صورة أبيه محمد باشا ـ سبحان من خلق وسوى.

وكان الدكتور إبراهيم يتوقع قدومي لأني رأيت أن نبأ عقر الكلب لي قد سبقني إلى المستشفى وسجل في سجله الخاص. ورأيت فيه اسمي وعنواني وحادث الكلب نفسه الذي عقرني. فعجبت من هذه العناية والتدقيق في تناول المعلومات عن حوادث الكلب من مستشفى الكلاب في العباسية تلفونياً كل يوم. فقلت له : « هب أني لم آت إليكم للعلاج » قال « نطلبك أولاً وثانياً فإن لم تأت كان ذنبك على جنبك ».

قلت : وهب أني لم آت لظني أن الكلب سليم ثم ظهرت علي الأعراض ، أفلا يخشى أن أعدي أحداً؟ قال : نعم يحتمل أن يتلوث شخص آخر بلعابك فيصاب. فقلت : وهل يجدي العلاج حينئذ؟ قال كلا. لايجدي علاج بعد ظهور الأعراض. وما جنت إلا على نفسها براقش. ولكن مامن أحد اشتبه بعقر الكلب إياه إلا أسرع إلى المستشفى إذا لم يكن غبياً. وستنزعج قليلاً من الحقن بالمصل كل يوم مدة ١٥ يوما. قلت أليس العذاب في سبيل الحياة خيراً من العذاب في سبيل الهلاك ، العذاب الذي لا يطاق والذي لا يريحني منه إلا الموت.

وجعلت أتردد كل يوم في الميعاد المعين ١٥ يوماً إلى أن أمنت الداء وحصلت على المناعة سنة كاملة. وعلمت أن ذلك الكلب التعس نفق في اليوم الثاني في المستشفى.

قلت يوماً لمدير المكتب ، إن هذا المستشفى نعمة عظيمة للناس لا تقدر بمقدار. قال : ليت الناس كلهم يعرفون هذا. نأتي بكثير منهم بالوعد أو بالوعيد لكي نعالجهم مجاناً لوجه الله فلا يلبثون أن يهربوا. والذين يجاء بهم من الأرياف ينزلون في المستشفى فيعالجون من جراحهم ويحقنون بالمصل ويأكلون ويشربون وينامون مجاناً ومع ذلك لا يرضون !

قال لي أحد أطباء المستشفى وهو الدكتور عزمي توفيق إن في المستشفى نحو ١٧٠ سريراً في طابقين من البناء ، وإذا زاد عدد المصابين على عدد الأسرة دبرناهم بالتي هي أحسن. فنضع الطفل منهم مع شخص آخر في سرير كبير مثلاً ، وقد يكون عندنا في وقت واحد نحو ٢٢٠ مصاباً أو أكثر. ومن كان له أقارب في القاهرة ينزل عندهم ويتردد على المستشفى فيبقى محله لغيره.

قد يدهش القارئ إذا علم أن هذا المستشفى يعالج أكثر من عشرة آلاف مصاب في السنة يعطيهم فيها نحو ١٥٠ ألف حقنة من اللقاح الذي يحضر في المستشفى عدا معالجة الجراح.

لا تكون الاصابات من عضة كلب فقط ، بل تكون من الحيوانات الأخرى كالحمار أو الحصان أو الدجاج ، لأن هذه تسعر كالكلاب ويعدي بعضها بعضا وتعدي الإنسان ، فإذا عقر الحيوان الكبير

في مستشفى الكلب

إنساناً فقد يكسر ساقه أو يسحق ذراعه أو كتفه. وهذه الجروح تستغرق وقتاً طويلاً وعلاجاً متواصلاً فضلاً عن الحقن بالمصل.

والمصل يحضر في معمل المستشفى فيستعمل طازجاً في اليوم الثالث من تحضيره النهائي. ويحضر اللقاح من مخ الأرنب أودماغه. ويمكن أن يحضر من مخ أي حيوان مصاب. ولكن الأرنب أرخص الحيوانات ثمناً وأسهلها مراساً. ويستعمل لهذا الغرض كل يوم نحو ٥٠ أرنبا يقدمها متعهدون للمستشفى.

وأما كيفية تحضير المصل فدراسة فكهة، وهي أن تجرح جلد قمة رأس الأرنب جرحاً بقدر سنتيمترين وتقلب إلى الجانبين ليظهر من الجمجمة قدر القرش الصغير. ثم تثقب الجمجمة ثقباً صغيراً، ثم يحقن النخاع بنقطة من سائل فيه ميكروب الكلب، ثم يضمد الجرح ويعاد الأرنب إلى مأواه. وفي اليوم الرابع أوالخامس تظهر عليه أعراض الداء. يبدأ بشلل في قوادمه، ثم تتزايد الأعراض بضعة أيام إلى أن يدنو الموت فيذبح الأرنب ويؤخذ نخاع رأسه لتحضير المصل منه.

وبينما كانت هذه العملية تعمل أمامي قلت: مسكين هذا الأرنب! ماذنبه حتى تثقب جمجمته لكي تزرع في دماغه جرثومة الكلب ثم يقاسي آلام الداء وأخيراً يقتل.

فقال الدكتور عزمي توفيق الذي كان يريني سلسلة عمليات المصل: حقاً إنه لظلم. ولكن إذا علمت أن هذا الأرنب يفدي ثلاثة أو أربعة من المصابين بهذا الداء العقام لا يعود يصعب عليك أن يؤلم أرنب لكي يوقى أربعة أشخاص من آلام لا تطاق. ويظن أن الأرنب أقل احساساً من الإنسان بالآلام.

يوضع خمسون جراماً من نخاع الأرنب في هاون وتدهس دهساً شديداً حتى تصبح كالعجينة الرخوة. ثم تمرث بواسطة شاشة سميكة في محلول من الملح النقي ٧ بالألف، وعشرة بالألف من المغنبول. تمرث مرثاً دقيقاً حتى تخرج من الشاشة مستحلباً دقيقاً جداً ليس فيه كتل البتة، ثم يصب في زجاجة خاصة بسعة لتر وتكمل الزجاجة من المحلول الملحي نفسه. بعد ذلك تودع الزجاجات في ثلاجة مدة ٢٤ ساعة. وفي أثناء ذلك تفحص «عينة» منها فحصاً بكتيريولوجيا لئلايكون قد تطرق إليها مكروب آخر أجنبي. ومتى ثبت أن ليس فيها مكروب ولا جراثيم حية يصبح المصل صالحاً للاستعمال.

قال الدكتور عزمي: ولكن في جميع عملياتنا لم نجد المصل ولا مرة ملوثاً بأي مكروب. على أن عملية الفحص البكتريولوجي لابد منها للاطمئنان على سلامة من نعالجهم.

في هذا المصل مادة مولدة من نمو المكروب في مخ الأرنب تسمي أنتيجن Antigen. هذه المادة تولد في جسم الشخص المحقون مادة أخرى تسمى «ضد الجسيمات» Antibodies. ولها وظيفتان: الأولى أنها تتلف المادة السامة التي تولدت من مكروب الكلب بأنها تتحد معها فتتكتلان أوترسبان، وفي كلتا الحالتين تبطل قوتهما السامة. والثانية أنها تحرض كريات الدم البيض علي إلتهام المكروب، أوبالأحرى أنها تهيئ المكروب أوتطبخه ليكون غذاء لهذه الكريات التي تعتبر جنود الجسم المدافعة عنه في مدة العلاج التي تتراوح بين عشرة وعشرين يوماً حسبما يتراءى للطبيب من ظروف الإصابة: يهلك المكروب وينعدم سمه وينجو المصاب من العذاب والموت، وقاك الله.

مكروب الكلب لا يرى تحت المكروسكوب ولا تمنعه مصفاة باستور Bastour Filter ويقدر حجمه بنحو $\frac{١}{٥٠٠٠}$ من المليمتر فتأمل: ذرة لا ترى بمجهر (ميكروسكوب) ولا تفرز بمصفاة تفعل هذا الفعل الفظيع بهذا الإنسان الجبار! تالله ما أضعف هذا الإنسان تجاه أحقر المخلوقات. فحتى متى هذه النفخة يا إنسان! إن جرثومة صغيرة جداً كجرثومة الكلب أو الكولرا أو الملاريا تبيد من البشر إذا لم تتق أكثر مما تبيد القنبلة الذرية.

ليس في القطر المصري غير هذا المستشفى للكلب. وإنما توجد وحدة صغيرة في الاسكندرية بإدارة الهلال الأحمر. وقد تقرر أن تتخذها وزارة الصحة وتجعلها مستشفى تاماً تحت إدارة مستشفى القاهرة. وسينشأ أيضاً مستشفى آخر في أسيوط أو في الأقصر، وآخر في بورسعيد أو السويس ويكونان بإدارة مستشفى القاهرة ـ فألف شكر للحكومة الجليلة!

وكنت أود أن أعيذ القارئ من تصديع خاطره بوصف أعراض هذا الداء الخبيث لولا أن البحث يبقى ناقصاً. فأوجز الوصف ماأمكن لكي يعرف الجمهور خطر هذا الداء العقام ويتخذ الحذر الشديد من التعرض له وتعريض الآخرين. وعند أقل شبهة في كلب أو حيوان يجب أن يعرض الحيوان على الطبيب البيطري. والطبيب يضعه تحت المراقبة حتى إذا اشتدت الشبهة أعدمه.

ومن نكد الدنيا أن هذا المكروب اللئيم لا يتبوأ عرشه إلا في دماغ فريسته، فيجعل جميع الجهاز العصبي تحت سلطانه. وهذا هو سر ماينجم عنه من الآلام، لأن الجهاز العصبي مصدر اللذة والألم. وتكون العدوى بعقر المخلوق المعدي إنساناً أو حيواناً أوتلويث أي غشاء مخاطي فيه كالفم أو أي جرح أو خمش أو سجح بلعاب الحيوان المسعر (المسعور) وفي بحر أسبوع إلى أسبوعين تظهر الأعراض وأحياناً نادرة تتأخر شهراً أو أشهراً.

في الإنسان تبتدئ الأعراض بهبوط عقلي وخوف شديد وهلع وترديد الكلام اللغو. ثم الهياج العصبي والاضطراب الجسدي. ثم تفقد الشهية للطعام ويستمر الأرق والصداع والشعور بما لا يطاق من الاضطراب الفظيع.

ثم يتعذر الازدراد بسبب شلل الحلقوم والبلعوم إلى أن يستحيل البلع، فيكره المصاب السوائل ويخاف منها وينزعج من رؤية الماء ومن سماع خريره من الصنبور. ويصبح حساساً جداً لكل باعث خارجي أو حركة أو صوت أو منظر.

ثم يتشنج ويتلوى ويمتد الشلل إلى أطرافه وأحياناً يشخر وينخر فيحسبه المشاهدون نابحاً أو عاوياً. وأحياناً يعض أي شيء. ولكن لا يلبث أن يرتخي فكه الأسفل ويتدلى، ويمتلئ فمه لعاباً كثيفاً لزجاً لا يستطيع أن ينفثه أو يبتلعه، وبالطبع يشتد عطشه. ولكنه لا يستطيع الشرب ولا المضغ. وتطرأ عليه حمى عالية. ومتى بلغت هذه الأعراض أشدها تضعضع العقل وذهب الوجدان وأشرف المصاب على الموت الساعة بعد الساعة.

ولو كان فقد الوجدان يبتدئ مع الأعراض لكان المصاب قليل الشعور بالألم ثم عديمه. ولكن وأسفاه يبقى واعياً شاعراً متعذباً إلى أن يقترب ملاك الموت. وقد تدوم هذه الأعراض يومين أوثلاثة أو أكثر قبل أن يرحمه الله ويريحه من هذا الجحيم بسل روحه من جسده ـ اللهم رفقاً بعبادك ـ ترى لوأعطي المصاب جرعات من المورفين في العضل أما تخفف عنه هذه الآلام؟

أما وقد عرف القراء عذاب هذا الداء وعجز أي دواء عن تخفيف آلامه أوعن شفائه، أفلا يجدر بهم أن يأخذوا حذرهم من كلابهم المحبوبة ومن اختلاطها بكلاب أخرى، أومايجب عليهم أن يقضوا عليها في الحال بلا شفقة ولا أسف إذا ظهرت بعض الأعراض للطبيب البيطري سواء كانت الأعراض مشككة أوموكدة لئلا يقع البلاء في الأهل؟ أو ما عليهم إذا لامسهم لعاب الكلب المصاب أن يسرعوا إلى هذا المستشفى الكريم لاتقاء المرض؟

نقولا الحداد ـ ١٩٤٨

مأساة شهيدة عربية

"حياة بلابسي"

عثر رجال الهلال الأحمر ، بعد مجزرة دير ياسين على جثة فتاة في قميص النوم ، ملقاة بالقرب من طريق فرعية مؤدية إلى القرية ، فتعرف عليها بعضهم فإذا هي المعلمة حياة بلابسي .

عرفتها في أواخر سنة ١٩٤٧ وقت أن قدمت للاذاعة موضوعاً أدبيا أرفقته بكتاب تقول فيه : « أرجو أن أتمكن من إذاعة حديثي هذا في أقرب فرصة ممكنة » .

وبعد أيام من ورود هذا الحديث قابلت أحد قضاة القدس فذكرني (بحياة) وأوصاني بها خيراً .. ثم قابلت أحد مفتشي معارف فلسطين فنبهني إلى حديث (حياة) وضرورة الاعتناء به .. ثم قابلت أحد أدباء القدس فقال لي : ألا تهتم بحياة وأحاديثها فهي فتاة تحتاج إلى مساعدة وتشجيع .. ثم قابلت مديرة مدرسة في يافا فسألتني إذا كنت قد تلقيت حديثاً من (حياة) واستفسرت عن مدى استعدادي لمساعدتها .

فساءلت نفسي : من تكون حياة بلابسي هذه ؟.. وما الداعي إلى كل هذا الاهتمام بها ؟!.. وأخذت أترقب الفرصة لمقابلتها والتعرف اليها عن كثب .

وفي عصر أحد أيام يناير من هذه السنة ، وكان الثلج يتساقط بكثرة في القدس ، والرياح الباردة العاتية تعصف بشدة ، دخلت على حياة وقد تدثرت بمعطف بسيط ، ولفت رأسها بمنديل من الصوف وقد رصع بقطع صغيرة من الثلج ، فظهرت وكأنها إكليل من زهر الليمون ، رمز العفة والطهارة ، يطوق رأسها الجميل .

وفي هذه المقابلة عرفت منها مأساتها :

لقد فقدت أباها منذ أمد غير بعيد ووالدتها كسيحة طريحة الفراش ، وأختها صغيرة غير قادرة على العمل ، فوقع على عاتقها عبء الاعتناء بوالدتها وأختها ، والقيام بجميع شؤون البيت ، والعمل في الوقت ذاته على كسب المعاش إذ لا مورد لأسرتها تعتاش منه ، كما أن والدها لم يترك أي مبلغ من المال ، أو أي نوع من العقار .

وهكذا رأت نفسها مضطرة إلى ترك المدرسة قبل أن تحصل على شهادة (المتريك) ، وأن تسعى إلى العمل كمعلمة إضافية في مدرسة ابتدائية ، فقيل لها في دائرة المعارف : ليس بوسعنا أن نجد لك مكاناً شاغراً في القدس لكننا نحتاج إلى معلمة إضافية لقرية دير ياسين ، فقبلت حياة العمل لقاء راتب شهري قدرة ثمانية جنيهات .

وقرية دير ياسين تقع إلى الغرب من القدس وعلى بعد عشرة كيلومترات منها ، وطرق المواصلات إليها غير متوفرة فكانت حياة تضطر للذهاب إليها والعودة منها سيراً على قدميها ، فتترك القدس في الساعة السادسة صباحاً مجتازة في طريقها بعض أحياء القدس اليهودية وهي ميا شعاريم ، وبيت اسرائيل ، ومحنا يهوداً ، وروميما .. ثم تمر بواد وعر إلى أن تصل مستعمرة بيت هاكيرم ، ومن ثم تتجه رأساً إلى دير ياسين .

هذا هو طريق الآلام الذي كانت تعبره حياة مرتين في اليوم صيفاً وشتاء .

وهي مع أنها صبية جريئة كانت تشعر أحيانا برهبة عند مرورها في الوادي ، فتخشى أمراً لاتعرف كنهه ... فتنتظر بعض الوقت إلى أن تمر بها القرويات الذاهبات إلى القرية أو العائدات منها فترافقهن ... إلا أن هذه الخشية أخذت تتلاشى قليلاً ، وصارت حياة تعبر الوادي بمفردها محيية الحراثين والرعاة ، فيجيبونها محيين مرحبين ، مستفسرين منها عن أولادهم ومقدار تقدمهم ونجاحهم في دروسهم ، سائلين الله أن يكلأها بعين عنايته ورعايته .

ولم تحصر حياة عملها في القرية على التعليم وانما كانت تعمل في فترات من النهار ممرضة أيضاً ، فتمد من هو بحاجة إلى الإسعاف الأولي بمختلف الأدوية ، وتمر على المرضى في أكواخهم ، وإذا رأت أن فيهم من تتطلب حالته دخوله المستشفى اتصلت على الفور بدائرة الصحة في القدس تلفونيا أو ذهبت بنفسها إلى تلك الدائرة عند عودتها إلى بيتها .

وما إن أتمت حياة السنة الأولى من عملها في دير ياسين حتى غدت معبودة سكانها يترادف اسمها مع التربية والطهارة والوطنية الصحيحة .

وفي ذات يوم عادت الفتاة إلى القدس فوجدت أمها قد فارقت الحياة ، فتحملت الصدمة بقلب قوي ، ولم تنهزم أمام صروف الدهر القاسية وثابرت على عملها في دير ياسين بما طبعت عليه من عزيمة وثبات ، فحمل ذلك دائرة المعارف على أن تزيد راتبها الشهري جنيهين آخرين .

وأعلنت هيئة الأمم المتحدة تحقيق ما حلم به هرتزل سنة ١٨٩٥ في كتاب (الدولة اليهودية) ، فهب العرب يدافعون عن أراضيهم ومواطن معيشتهم . وانتصب ملاك الموت والمحصد في يده يجني الرؤس آحاداً ، ثم عشرات ، ثم مئات ...

وكان على حياة أن تختار أحد أمرين : إما أن تقبع في بيتها تنتظر حظها من الزواج ، وإما أن تسكن دير ياسين لتتابع كفاحها في سبيل العلم والصحة .

ولم تتردد الفتاة كثيراً فحملت بعض أمتعتها ورحلت إلى القرية ، وسكنت في غرفة من غرف مدرستها .

وفي هذه الغرفة عانت المعلمة أنواعاً شتى من الحرمان وشظف العيش .. أما الضوء فكان مصباح الزيت .. وأما التدفئة فكان الحرام تلفه على نفسها وهي تراجع الدفاتر ، وتعد الدروس .

وانتشرت الحوادث بسرعة إلى أن شملت دير ياسين أيضاً ... ولما كانت هذه القرية محاطة بأربع مستعمرات يهودية ، خشيت خيانة جيرانها فألفت من فتياتها وفتيانها حامية وكانت حياة من أركانها .

قالت لي ذات يوم : حدث بينما كنت أتدرب على إطلاق النار من البندقية أن أخطأت الهدف وراحت الرصاصة تزغرد في مستعمرة مجاورة ! .

ومضت أيام وأسابيع تأزمت في أثنائها العلائق بين دير ياسين والمستعمرات التي حولها ، ولم يدر القرويون أن القيادة اليهودية قد اختارت قريتهم كبدء مرحلة جديدة في خططها « العسكرية » .

وعند الساعة الثالثة من صباح يوم قاتم أطبق ألفان من اليهود المسلحين بالبنادق السريعة الطلقات والخناجر ، على سكان القرية النيام ، ونشبت بينهم وبين الحامية معركة لم تدم طويلا ، فتغلب المعتدون على المناضلين القرويين ، وبدأت المجزرة ! .

أما حياة فما إن سمعت أزيز الرصاص وانفجار القنابل حتى هبت من فراشها وهي في قميص النوم ، وهامت على وجهها في الحقول وبين التلال ... وبعد لحظات وجدت نفسها في مكان أمين خارج القرية ، وبوسعها الالتجاء إلى قرية عربية أخرى .. إلا أنها سمعت في هذه الآونة أنيناً بالقرب منها ، فاتجهت إلى مصدره وإذا هي أمام جريحين من حامية دير ياسين ، فتقدمت منهما ومزقت جزءاً من قميصها ضمدت به جراحهما ، ثم قر رأيها على أن تضعهما في مغارة في تلك الناحية إلى أن تتمكن من إخبار رجال الهلال الأحمر عنهما ، فحملت أحدهما على كتفها وصارت به نحو المغارة ... وبعد مسير عشرة أمتار مزق الجو صوت طلقات سريعة فسقط الجريح قتيلا ، وسقطت حياة فوقه مضرجة بدمائها .

أما الجريح الثاني فقد قدر له أن يعيش ويروي خاتمة حياة فتاة تذوقت الجهاد في سبيل العلم ، والأسى في سبيل العائلة ، والبطولة في سبيل الوطن ! ..

نجاتي صدقي — ١٩٤٨



يقال إن المعاصرة حجاب. لكن العباقرة كثيراً مايخرقون هذا الحجاب ويفرضون أنفسهم على جيلهم فيبصرهم حتى العميان ولاسيما في الأمم الراقية. وقد رأينا في جيلنا أسماءً لمعت وسطعت في مجتمعاتها وفي العالم ولوبعد كفاح وصراع مع آفتي الجهل والحسد. وكذلك كان شأن شكسبير.

أما الحسد فيظهر أوضح مايكون في موقف (روبرت جرين) R. Grone وفي بعض المواقف حتى من صديقه (بن جونسن) كالذي بقي مسجلاً في مدونات لابد أن ماضاع منها كثير، وأكثر منه مالم يدون. وماكان بن جونسن وجرين الوحيدين في ذلك سوى أن سوء حظهما أبقى لنا بعض التسجيلات عنهما وعن قليلين غيرهما تشي بهم، وأكثرهـــا بأقلامهم. على أية حال ثمة من معاصري شـكسبير من أطروه مثل (كامـدن) Camden، و (ديـقز) Digges، و (ميرس) Merse. ومن ذموه مثل جرين وطلاب كمبردج، وهناك بن جونسن الذي ثلبه وأثنى عليه.

كان المؤلفون المسرحيون يكرهون شكسبير بوجه عام حسداً وجهلاً، أما الجهل الذي ساعد على حجب شكسبير عن جيله إلى حد ما فنقصد به الجهل الضمني، لا الظاهري، لأن عصر شكسبير لم يكن فقيراً بالعلماء والأدباء والمؤلفين المسرحيين، لكن هؤلاء لم يفهموا شكسبير الجديد المتحرر، وانما كان الذين يفهمونه ويتجاوبون معه ويعجبون به ويصفقون له هم على الأغلب الجهلاء من الناس، الذين لم (يتعلموا) أسرار المسرح التقليدي وقواعده ولم يفتقدوا في مسرحياته الأساليب التلادية (الـكلاسيكية) البلاغية والتفاصحية. وهؤلاء هم الذين كان فن شكسبير يخاطب فيهم وجداناً فطرياً لم يتقولب ويجمد على الأساليب المدرسية، فكان فنه المتحرر من كل ذلك يتمتع باعجاب العامة بالدرجة الأولى، يفهمونه بمعاييرهم الإنسانية الطبيعية، بمقدار ماكان يتمتع بنقمة العلماء المسرحيين الذين يعتبرون مجرد نجاح المسرحية لدى الجمهور دليلاً على رداءتها وسفول فنها. وهي قاعدة في الواقع صائبة ـ لا تزال ـ إلى حد بعيد. لكن مسرحيات شكسبير كانت ظاهرة غريبة تجتذب العامة بالرغم من سمو فنها. حصيلة القول إن جهابذة التأليف المسرحي كانوا يجهلون فن شكسبير، والعامة تجهل فنهم، فنفعها جهلها فنهم في فهم فن شكسبير!

بالرغم من هذا، وبالرغم من كون شكسبير في معاييرنا أعظم منه في معايير معاصريه، وربما في معاييره أيضاً، وبالرغم من أن تحليقاته تجعل الكثير من كلامه يتطلب قدرة خاصة على الفهم والتقبل، لم يخل جيله من أذهان متوقدة متفتحة تهش للجديد وتشرئب إلى المبتكر لنفاسته، وأحياناً لمجرد خروجه على القديم.

ذهبوا وبقي وحده!

ممن قدره وأشاد به من علماء جيله (وليم كامدن) W. Camden وهو علامة له شأنه في دنيا الثقافة الانكليزية. «وكان كتابه (بريطانيا) Britaine قد جعله أوفر الكتاب نصيباً من الاعجاب». وقد قال في كتابه هذا: «إذا أنا أتيت إلى زماننا فأية دنيا يمكنني أن أقدم غير (سير وليم سيدني) Sir W. Sidney و...و... ويذكر اثنى عشر اسماً ختامها اسم شكسبير ... وقرائح أخرى فائقة الخصب من زماننا هذا الذي يمكن أن يحظى عن جدارة باعجاب العصور اللاحقة» (٢٧٢/١).



وليم شكسبير





بن جونسون

لكن إدراج اسم شكسبير في آخر قائمة الاثني عشر لا يجعله متميزاً عليهم ، كما هو متميز في الحقيقة عليهم وعلى « القرائح الأخرى الفائقة الخصب » التي لم يذكر (كامدن) أسماء أصحابها ، وظنها ستنال إعجاباً باقياً على الأجيال ، فعفى الزمن على معظمها وطمس ذكرها وبقي شكسبير وحده الذي صان الدهر آثاره و« أعجب بها عن جدارة » ومازالت تقرأ وتستعاد ، وكلما تقادم عهدها زادت جدة .

ملك الشعراء

أما (هوف هولاند) Hugh Holland فقد ذكر شكسبير في قصيدة له في مقدمة الفوليو الأول — أي مجموعة المسرحيات — باعتباره « ملك الشعراء » (٢٧٧/١) . وقد كان شعر شكسبير (السونيتات المئة والأربع والخمسون) أقرب من مسرحياته إلى أذواق مثقفي جيله على كل حال ، ولا سيما التلاديين « الكلاسيكيين » منهم .

مع زميليه

وممن عرفوا تفرده وتحليقه فوق زمانه ، زميلاه الممثلان اللذان اضطلعا بجمع مسرحياته في ١٦٢٣ بعد سبعة أعوام من وفاته ، وهما (جون هيمنغز) و (هنري كوندل (٢) اللذان قالا في إهداء المجموعة إنهما جمعا شتات المسرحيات « لحفظ ذكرى صديق كان من رفعة القدر بحيث كان



جان دارك : احدى مسرحيات شكسبير

شكسبيرنا » (٣٣٦/٣) . وقالا في مقدمة المجموعة : « كان وهو المقلد اللبق للطبيعة بالغ الرقة في التعبير عنها ... لكن ليس في اختصاصنا — الذي يقتصر على جمع أعماله وإعطائك إياها — أن نمتدحه ، وإنما لك أنت أن تقرأه . اقرأه اذن مرة ، وثانية وثالثة . واذا لم يعجبك عندئذ فلاشك أنك في خطر جلي من عدم فهمك إياه »

إطراء عام يفصح عن اعجاب قائليه الممثلين اللذين عرفاه وعملا معه سنين طوالاً وأحباه صديقاً مهذباً أميناً ، وتلقيا الكثير من التصفيق عند تمثيلهما مسرحياته : لكن ثناءهما هذا الصادق لا يفصح عن مستوى شكسبير إلا عن القليل العام .

الحب المتعصب

ليونارد ديقز Leonard Digges : عالم كاتب وشاعر ، أسهم في طبعة ١٦٤٠ للقصائد ، بقصيدة مما جاء فيها :

... سترى انه لا يستعير

عبارة واحدة من الاغريقية ، ولا يقلد اللاتينية ، لا يترجم عن اللغات الأجنبية ،

ولا يلتقط سواقط الحاصدين (أي المؤلفين الآخرين) ،

ولا هو يستجدي مشهداً من صديق ذي قريحة ، ليرقع به فصلاً . كل مايكتبه خالص من عنده ، بلغة رائعة (١٥٦/٤)

يعقب المؤلفان (أوكبرن) (٤) على هذا بقولهما « إن ديقز يجعل من الواضح كل الوضوح أن شكسبير كان كل شيء عدا المقتبس من الكتاب المسرحيين الآخرين . (انه استمد طبعاً بحرية من التلاديات (الكلاسيكيات) لكنه لم يخطف منها فقرات بجملتها كما كان يفعل جونسن وآخرون ، وانما كان يعيد صياغة المادة في شيء جديد و— انكليزي) .وإن كان لم يسط على عبارات من التلاديات فلا لأنه لم يكن قادراً على ذلك » (١٥٦/٤ و ١٥٧) .

وتقول (شوت) إن ديقز قال « بنتيجة معلومات خاطئة أنه — شكسبير — ابتدع جميع حبكات مسرحياته » (٣٣٤/٣) .

أما الجمل والفقرات فالحق أن شكسبير كان يقتبسها فعلاً في بعض الحالات ، بالنص أحياناً ، فان فنه كان يفتش دائماً عن الأصلح في المكان الأنسب ولا يتردد في اقتباسه حيث يجده ، بنصه أو بتحويره أو قلبه عقباً على رأس .

وفي (انطونيو وكليوباطرة) مثلاً عينات من المواقف والعبارات المستعارة من بلو تارخ . وفي مسرحية (يوليوس قيصر) عبارات وأحداث صحيحة أو محرفة أو معكوسة .

أما (الحبكات) فكلها في رأي الباحثين مقتبسة من التاريخ أو حكايات سابقة ، لا يستثنون إلا مسرحية أو اثنتين ، وبعضهم لا يستثني .

إن كلام (ديقز) غريب على كل حال والتعقيب عليه أغرب . والرأي فيما نرجح أن الأمر لا يعدو أن يكون اندفاعاً من ديقز في المديح بحافز من حبه المتعصب لشكسبير أو بغضه الشديد لجونسن الذي نال حصة كبيرة من تهجم ديقز وكأنما لم يكن اطراء شكسبير في هذه القصيدة إلا تمهيداً لثلب جونس .. أو كليهما ، أي حب ذلك وبغض هذا .

إن عظمة شكسبير لا تتجلى في خلق الحكاية بل في تشييد المسرحية الباهرة من خامة الحكاية المقتبسة حيث ينحت لك « فينوس » من الصخرة الجامدة .

ويظهر أن (ديقز) نظم قصيدته بعد اطلاعه على قصيدة جونسن في الفوليو الأول حيث استفزه قول بن جونسن في المقدمة « إن الشاعر الحق يصنع مثلما أنه يولد » فظن فيما يبدو أن هذا استهانة بموهبة شكسبير وبنبوغه الفطري ، فنظم قصيدته هاته التي ظهرت بعد (١٧) سنة (في ١٦٤٠) في مجموعة القصائد والتي افتتحها قبل كل شيء بالرد على عبارة جونسن هذه بقوله « ان الشعراء يولدون ، ولا يصنعون » .. ثم انساق إلى مدح شكسبير وذم جونسن تلميحاً وتصريحاً . ومما قال : ان أية من شخصيات شكسبير : فولستاف Fallstaff أو ياجو Iago . أو ملفوليو Malvolio . أو بياتريس — جلبت من النقود لشركة (خدام الملك) Kinges men أكثر من أية واحدة من المسرحيات التي كتبها جونسن لهم . (٣٣٤/٣) .

شكسبير مع معاصريه

ولعل أهم تقييم لشكسبير وأعماله ، وأنفعه للباحثين ، هو ذلك الذي أتى به (فرانسز ميرس) Francis Meres وهاهو :

خزانة الذكاء

في ظلام تاريخ الحقبة الأدبي يشع أمام الباحثين كتاب أشبه بالمشكاة يضيء ناحية كبيرة الأهمية من الأدب الشكسبيري . ذلك هو (بللادس تاميا) ، أو (خزانة الذكاء) (٥) الذي ألفه (فرانسز ميرس) خريج كلية (بمبروك) في كمبرج . وكان الكتاب نوعاً من المسح للحالة الأدبية والفنية في انكلترة (٤١/٦) .. استعرض فيه عدداً كبيراً من المؤلفين المسرحيين الاليزابثيين (١٨٠/٣) .

ولئن كان اسم شكسبير جاء سادساً بين أولئك الأدباء فلقد كان هو أهمهم وأوفاهم حظاً من مديح وتفصيل خصه المؤلف منهما بما ضن به على الآخرين أجمعين .

هذا و « كان شكسبير شاباً عامئذ (١٥٩٨) في الرابعة والثلاثين من عمره — لم تكن أحسن مسرحياته قد كتبت » (٤٢/٦) .

وطريقة (ميرس) في تقريظ الأدباء الانكليز هي مقارنتهم بالشعراء الإغريق واللاتينيين والايطاليين من العهود الغابرة ممن كتبوا في أبواب مماثلة في الأدب :

« إن روح (أوفيد) (٧) الحلوة الذكية تعيش في شكسبير العذب ، المعسول اللسان ، تأمل له قصيدتي (فينوس وأدونيس) و (لوكريس) (٨) وقصائده السكرية بين خاصة أصدقائه ، إلخ . وإذا عد (بلاوتوس) و (سنيكا) أحسن كتاب الملاة والمأساة بين اللاتين فان شكسبير بين الانكليز هو الطراز الأعلى في كلا النوعين للمسرح » .

(٤٢/٦) . ويدرج هنا ميرس ست مسال وست مآس لشكسبير كانت قد صدرت إلى ذلك الحين .

إن وضع شكسبير في منزلة أوفيد ، وسنيكا ، وبلاوتوس ، لهو غاية ما يرقى إليه التقدير والاطراء أيامذاك وخاصة عند التلاديين من الأدباء وهم الأكثرون .

كان وليم شكسبير الوحيد الذي خصه ميرس بالشرح المستفيض ، والسبب الجلي هو اعجابه به : « أقول إن (الميوزات) (٩) كن يتكلمن ببيان شكسبير المصقى لو تكلمن الانكليزية » (١٨٠/٣)

وإذا كانت مسرحية (أفلح سعي العاشق) (١٠) التي أوردها (ميرس) بين المسرحيات الاثنتي عشرة — اسما بديلاً للمسرحية المعروفة باسم (ترويض الشرسة) (١١) كانت لدينا عملياً قائمة تامة (بالمسرحيات التي أنتجها شكسبير إلى ذلك الحين) . النقص الوحيد هو ثلاثية (هنري السادس) التي يمكن تحقق عائديتها لشكسبير من مصادر معاصرة أخرى (١٧٩/٣) . وقد كان من العسير تأريخ بعض مسرحيات شكسبير بأي يقين من دون هذا الدليل . (١٦٩/١) .

« لو لم يكن ميرس على معرفة بأحد من شلة شكسبير نفسه لما كان في استطاعته أن يعرف أنه كان يوزع في « خاصة أصدقائه سونيتات (قصائد) مسكرة » ولكان ميرس جديراً بأن يكون أقل معرفة بمسرحيات شكسبير ما دام القليل منها كان قد طبع وأكثره غفل من الاسم . ومع ذلك استطاع ميرس أن يهيىء قائمة طويلة من المسرحيات كان شكسبير قد كتبها » (١٧٩/٣) .

● المعجبون بشكسبير كانوا من العلماء والأدباء ، لا من المؤلفين المسرحيين سجناء القواعد !

أما أنا فأذهب إلى أبعد من ذلك . فمن المحتمل عندي أن ميرس لم يكن يعرف أحد أفراد زمرة شكسبير فقط بل ربما كانت له معرفة بشخص شكسبير فعاونه في احصاء مسرحياته التي صادف أن كان عددها متساوياً من المآسي والمسالي — ستاً بست . أما مسرحية (هنري السادس) فربما أنف شكسبير أن يعزوها إلى نفسه لأنه لم يكتب كل أجزائها مستقلاً بنفسه بل كان مشاركاً كما هو معلوم ، أومظنون ، ولا سيما في الجزئين الثاني والثالث منها .

« هذه هي القائمة الوحيدة من نوعها التي أعطيت قط عن مؤلف مسرحي اليزابثي ، كما أنها بالمصادفة الحالة الوحيدة التي بقيت فيها كل النصوص لأحد من الكتاب المسرحيين . وأنه لمنتهى حسن الحظ أن يكون أعظم المؤلفين المسرحيين الاليزابثيين قد كان كذلك أحسنهم تضبيراً (١٢) . لقد أسدى (ميرس) إلى شكسبير خدمة جلى أنكرها على جميع الآخرين » (١٧٩/٣ و ١٨٠) .

ويلاحظ أن هؤلاء المعجبين بشكسبير : كامدن وهولاند وديقز وميرس ، كانوا من العلماء والأدباء ، لا من المؤلفين المسرحيين سجناء القواعد التلادية .

أما المسرحيون من معاصري شكسبير فنبدأ بأشدهم عداوة : روبرت جرين :

الإطراء الحقود

إن أقدم إطراء حقود مسجل وصلنا عن شكسبير كان من المؤلف المسرحي (روبرت جرين) Robert Greene الذي قصد الثلب والمناوأة ، لكنه اعترف بصيغة معكوسة غير مقصودة أن شكسبير أحسن من كتب شعراً مرسلاً (أي مسرحيات ، لأنها كانت تنظم بشعر مرسل ، أي غير مقفى) .

من هو جرين ؟

« كان يكسب بقلمه رزقاً مرضياً ، فقد كان كبير الرواج لدى الناشرين الذين يزودهم بسلسلة من قصص الغرام وتلفيق الفضائح من عالم لندن السفلي ، وحتى التشهير بالبابا » (٨١/٣) وكان ينقم على « الممثلين أنهم لم يدركوا فضله حق الادراك . فبالرغم من كونه واحداً من أكثر جميع المؤلفين المسرحيين شعبية في لندن لم يعاملوه بالاحترام اللازم ، ولا هم أدوا له الكافي من المال » (٨١/٣) .

وفي رواية نثرية له نشرت في ١٥٩٠ شرد فجأة عن الموضوع ليعلن شكواه من كون الممثلين مغرورين وجشعين ووقحين ، وأنهم لم يقدموا شيئاً سوى « نوع من الجهد الآلي » (٨١/٣) .

واذا كان يعزو كل بؤسه إلى الممثلين فالواقع أنه هو الذي أسرف على نفسه وعلى جيبه في حياة من التهتك والعربدة انغمس واستهلك نفسه وماله فيها . ولكي يشفي غليله حين كان على فراش الموت عهد إلى صديقه (هنري جتل) H. Chettle أن ينشر بعد وفاته كراسه الأخير « شروى شعير من الذكاء » (١٣) .

والكراس موجز سيرة ذاتية يصف فيه انحداره من (شعر مسرحي قمة) إلى (كراريسي مدقع) « امتصه حتى أنضبه الممثلون الذين كانوا متشردين حتى عهد قريب فصاروا يتبخترون الآن أسياداً في بحبوحة من العيش » (١٠٦/١) .

في هذا الكراس يتوجه جرين بالخطاب إلى ثلاثة من أصدقائه الكتاب المسرحيين نوه بهم تلميحاً دون أن يذكر أسماءهم ... « متاشداً لهم أن يكفوا عن كتابة المسرحيات والكدح لأجل الممثلين « فانه لمن المؤسف أن رجالاً لهم مثل هذه القرائح النادرة عليهم أن يخضعوا لمرضاة مثل هؤلاء السواس السمجين » . وقد أفصح جرين قبل عامين عن مبلغ كرهه لأولئك الممثلين الذين اشتروا منه بعض المسرحيات ، لكن فكرة رفاههم المفرط بينما يرقد هو مفلساً محتضراً زادت هياجه اشتعالاً . انهم « قرود ، وفلاحون » ، وهم « مزدانون بألواننا » (٨٢/٣) .

فمن هنا يجيء حقده على شكسبير الممثل ، والمنافس في التأليف المسرحي أيضا .

مما قال في كراسه المذكور يخاطب زملاءه المؤلفين المسرحيين : « نعم ، لاتثقوا بهم ، فان ثمة غراباً محدث نعمة ، مزداناً بريشنا ، يخيل اليه وهو ذو قلب النمر المتلفع بجلد ممثل ، أنه قادر كذلك على تنميق شعر مرسل كأحسن واحد فيكم ، ويظن وهو « أبو سبع الصنايع » (١٤) المستبد أنه في خيلائه (الشيك — سين) الوحيد في البلد ، آه ، فلهذا أناشد قرائحكم النادرة أن تستخدموها في سبيل أجدى » .

وقد أجمع الشراح — عدا اللاشكسبيريين — على أن هدف هجوم جرين هذا هو شكسبير ، بدليلين صريحين . أحدهما ايراد اسمه في تحوير المقطع الثاني منه في صيغة « شيك — سين » Shake - Scene بدل « شيك — سبير » Shake - Speare كما كان يكتب أحياناً) . وثانيهما تعبير « قلب النمر المتلفع بجلد ممثل » الذي يومئ إلى عبارة لشكسبير في الجزء الثالث من مسرحية (هنري السادس) نصها : « آه ، يا قلب النمر المتلفع بجلد امرأة » (المسرحية ٤/١ : ١٢٧) .

وواضح من كلام جرين أنه يهاجم ممثلاً ومؤلفاً مسرحياً في شخص واحد .

« وقد تبين بدلالة وثيقة بلاطية بعد عامين أن وليم شكسبير كان في هذا الوقت ممثلاً بارزاً في لندن » (٨٣/٣) .

واذا تذكرنا وصف جرين للممثلين عامة بالغرور والجشع ونعتهم بالقرود والدمى — نجد أنه كان كريماً متهاوداً مع غريمه شكسبير إذ اكتفى بنعته بالغراب محدث النعمة المزدان بريش المؤلفين المسرحيين .. دون شتائم .

ويرى هارت (H. E. Hart) أن جرين وبيل ومارلو (١٥) كانوا قد قرروا — أو اقترح عليهم — أن يجعلوا من عصر هنري السادس موضوعاً لمسرحية ، فقسموا العصر ثلاثة أقسام ... وقد عاون شكسبير كلاً من بيل ومارلو في الجزئين الثاني والثالث بموافقتهما وارشادهما بحيث يعزى اليه أن نصيبه بلغ النصف من الجزء الثاني ونحو الثلثين من الجزء الثالث . أما جرين — المكلف بالجزء الأول — فلم يحالفه التوفيق ، فاضطر أصحاب المسرح أن يسلموا مسودة مسرحيته إلى شكسبير ليقيم اعوجاجها ويكمل نقصها ، فنهض بهذا العمل بسرعة وعلى أكمل وجه ممكن (١٦)

من هنا فيما يلوح — إن صح الخبر — كانت حفيظة جرين على شكسبير خاصة ، بالاضافة إلى اضطغانه على الممثلين عامة .

بعد وفاة جرين ببضعة أسابيع نشر له صديقه (هنري جتل) كراسه الأخير ذلك (شروى شعير من الذكاء) — بناءً على (وصية الاحتضار) (١٠٦١) .

وأخذ هذا الناشر على عاتقه مسؤولية إخماد شيء من عنف جرين ومن ذلك تخفيف هجومه على مارلو كملحد (٨٣/٣) .

وقد استنكر مارلو اشارات جرين إلى الحاده واتهم جتل بأنه تجني بعدم حذف العبارات المسيئة مع أنه مخول ،كمحرر نشر ، أن يفعل . وفي مطبوع لجتل نشره بعد ثلاثة أشهر من وفاة جرين ، دافع عن نفسه بقوة لكنه أضاف أنه آسف لنشر العبارة عن الغراب المحدث النعمة ، وهو رجل لم يكن يعرفه أوانذاك لكنه اهتم منذئذ بالتعرف عليه (١٠٨/١) .

إن واحداً أو اثنين من « مختلف كتاب

● كان "جرين" متهاودًا مع غريمه شكسبير ، إذ اكتفى بوصفه بالغراب محدث النعمة !

المسرحيات » الذين خاطبهم جرين استاؤوا حسب رواية (هنري جيتل) الذي يقول : « لم أكن متعارفاً مع أي واحد من ذينك اللذين استاءا . وأحدهما لا أبالي بأن أعرفه قط ، والآخر لم أكن في ذلك الوقت قد استثنيته كما أتمنى لوأنني فعلت ... إني آسف كما لوكانت الغلطة الأصلية غلطتي ، لأني أنا نفسي رأيت سلوكه لا يقل دماثة عن امتيازه في التمثيل (١٧) الذي يحترفه . عدا ذلك ذكر كثيرون من ذوي المقام الرفيع استقامته في المعاملة التي تفصح عن امانته ، وظروف لباقته في الكتابة ، مما يعزز فنه » (٨٤/٣) .

وكما تبرع جرين بمدح شكسبير سلبياً بطريقته الهجومية معترفاً عن غير إرادة بأنه أحسن من كتب المسرحية — نشكر نحن له ذلك الهجو البناء الذي أنتج لنا كذلك تصريح (جتل)هذا الكبير الأهمية في البرهنة على احتراف شكسبير التمثيل مع التأليف وعلى امتيازه فيه وعلى بعض سجاياه مما نفتقده فيما بقي من التسجيلات .

إن الحقد على شكسبير من معاصريه بسبب تفوقه حز في نفوس آخرين — لابد أنهم كثيرون — عدا جرين — منهم ثلاثة من طلاب كمبرج مدحوه في ذمهم له على طريقة جرين المعكوسة ، في مسلسلة مسرحية من ثلاثة أجزاء بعنوان « العودة من برناسوس » (١٨) . في الجزء الأول منها يقول معتوه المسرحية إنه يمجد (السيد شكسبير الحلو) تهكماً على هذا اللقب الذي كان شائعاً له . وجاء في الجزء الثاني أن أحد زملاء شكسبير يقول عنه إن « صاحبنا شكسبير » أقدر على انتاج المسرحية من أي رجل متعلم في جامعة (٢٢٤/٣ و ٢٢٥) . إن كلمة (أقدر) أو (أحسن) نفسها التي استعملها جرين ، هي السكين الذي يحز في قلوب الحاسدين . والحسود يكفيه .. ماهو فيه .

لكن هذا ليس نقداً بل مجرد هجوم حاقد . أما النقد مع الهجوم فيزودنا به بن جونسن (وقد سبق الحديث عنه في عدد تموز « يوليو » من هذه « الدوحة » الغراء .

عبدالحق فاضل

هوامش :

1. F.E. Halliday, the Life of Shakespeare.
2. John Heminges & Henry Condell.
3. Marchette Chute, Shakespeare of London.
4. Dorothy Ogburn & Charlton Ogburn Jr., "Shakespeare" (The Man Behind the Name).
5. Palladis Tamia, or : Wits Treasury.
6. T.J.B. Spencer, Shakespeare : A Celebration.

٧ — : شاعر روماني (٤٣ ق م — ١٧ ب م) .

8. (Venus and Adonis) & (Lucrece).

٩ — الميوزات: ربات الشعر والموسيقا والفنون والالهام .

10. Lover's Labour Won.
11. The Taming of the Shrew.

١٢ — التضبير : نقصد به حفظ الوثائق في أضابير ، والمضبرة : مكان حفظها أي مايسمى (الأرشيف) .

١٣ — Groatsworth of Wit. : شروى شعير من الذكاء . وشروى الشيء : ما يعادل ثمن شرائه .

١٤ — أورد هذا التعبير باللاتينية : Johannes de fac totum يقابله بالانكليزية Johnny-do-everything (٨٤/٣) أو : Jack-of-all trades (١٠٧/١) .
ويقابله في عربيتنا الدارجة (أبو سبع الصنايع) .
والمقصود أن شكسبير يجمع بين التمثيل والتأليف المسرحي .

15. George Peele & Christopher Marlowe.

١٦ — محمد عوض محمد ، في مقدمته لترجمة (هنري السادس) .

١٧ — Quality كانت المصطلح الاليزابثي لحرفة التمثيل (١٨٤/٣) .

18. The Return from Parnassus.

كل خلق متناسق ، ومن أجل هذا تعودنا على حب التناسق ، واتخذناه فى حياتنا سبيلا .. لكن أى حيود عن قواعد ذلك التناسق ، نعتبره شاذا وغير مرغوب فيه ، وقد يغتفر هذا الحيود فى بعض أنماط حياتنا التى نسيطر عليها بأفكارنا ، كأن يكون ذلك مثلا فى تكوين لوحة ، أو تنسيق باقة ، أو ترتيب حجرة ، أو تخطيط مدينة ، أو تأليف أشعار وألحان .. الى آخر هذه الأمور التى لو شذت عن القواعد المألوفة ، لكانت نشازا يؤرق السمع والبصر والفؤاد ، لكن كل ذلك قد يهون أمره إذا ما قورن بالشذوذ الذى قد يحل بتكوين الكائنات الحية ، فيعبر عن نفسه بأنماط غريبة . هى لب هذه الدراسة المختصرة .



بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

من قديم الزمان ، شاهد الناس أصنافا من المخلوقات تحمل تشوهات غير مألوفة فى الحيوان والانسان ، لكن اهتمامهم الأعظم ، وحيرتهم الكبرى قد تركزت على الشذوذ الذى يظهر فى البشر ، كأن يولد الطفل مشوه الوجه ، أو ضامر الرأس ، أو أفطس الجبهة ، أو عديم الرقبة ، أو شاذ الأطراف ، أو يحمل على جسمه أعضاء ضامرة لجنين آخر ملتصق على جلده .. الى آخر هذه التشوهات التى أفزعته ، فراح يفسرها بقدر ما أسعفه خياله ، أوبما يتناسب مع الأفكار التى كانت سائدة فى زمانه .

فلقد كان الانسان البدائى أو القديم يعتقد فى وجود مخلوقات غير مرئية ، أو أشباح ومردة وأرواح شريرة ، وظن أن لهذه الكائنات الاسطورية القدرة على التزاوج مع نساء البشر ، ومن أجل هذا كن يحملن ويضعن مواليد مشوهة أو « ممسوخة » ، ولقد أدى هذا الاعتقاد الخاطىء الى قتل النساء اللاتى عاشرن الشيطان ، لأن القتل هو السبيل الوحيد لتخليص القبيلة من ذلك الدنس الذى حل بأحدى نسائها ، أما المولود ، فكان فى أغلب الأحيان يولد ميتا ، واذا عاش ، كان مصيره كمصير أمه .

وتعتقد بعض القبائل البدائية أن المواليد المشوهة هى نتيجة حتمية لمعاشرة شاذة بين الانسان والحيوان ، أو أن بعض الأرواح الشريرة تتجسد فى صورة انسان أو حيوان ، ثم تعاشر النساء فى غفلة منهن ، ونفس هذه الفكرة البدائية لازالت تجد هوى عند بعض الناس ، فيعتقدون فى المعاشرة بين الانسان والحيوان ، وأنه بالإمكان حدوث الإخصاب ، وتكوين الأجنة لكنها لا تأتى على هيئة متناسقة أو سوية ، وهو اعتقاد لاشك خاطىء ومجاف لكل فكر سليم ، كذلك يقال إن هذا راجع إلى حضور الشيطان أثناء المعاشرة الزوجية ، ولهذا يأتى الوليد « ممسوخاً » ، كما تعتقد بعض الجاهلات أن التشوه قد يكون بسبب النظر إلى قرد أو أى حيوان آخر ، وهذا ــ بطبيعة الحال ــ جهل فادح .

وفى كتابهما عن « النمو » يذكر كل من دكتور جيمس تانر وجوردون تايلور أن هذه التشوهات قد

جذبت أنظار البشر منذ العصر الحجرى ، ولهذا سجلها الفنان القديم على جدران الكهوف ، كما وصفها حكماء بلاد ما بين النهرين (العراق الآن) على ألواح الفخار ، وأوضحوا باسهاب ظهورها فى الرأس والفم والأذنين والأنف والأطراف ، ويعتقد المؤرخون أن البابليين قد اعتبروا ظهور العاهات الخلقية فى المواليد نذير نحس أو كارثة ، ولهذا احتفظوا بأنماطها ، حتى اذا تكرر ظهور هذا النمط أو ذاك من الشواذ استطاعوا أن يتنبأوا بالكارثة قبل وقوعها .

كذلك يذكر دكتور ا . م . ونشستر أستاذ البيولوجيا بجامعة كولورادو فى كتابه « الوراثة فى حياتك » بعض التشوهات التى ربطها الناس باعتقادات خاطئة وخرافية ، من ذلك مثلا أن هناك تشريعاً نرويجياً قديماً يحرم عرض الأرانب المذبوحة فى محلات الجزارين حتى لا تراها النساء الحوامل ، فربما ينطبع فى ذاكرتهن شكل الشفة العليا المشقوقة للأرنب ، مما قد يؤثر على تكوين الجنين ، فيأتى بشفة عليا مشقوقة كذلك (وهو ما يعرف باسم الأشرم) ، لكن الشق تشوه خلقى يظهر نادراً فى البشر ، ولا علاقة له بالنظر إلى أرنب حى أو مذبوح !

أو قد يأتى المولود ببشرة خشنة ذات قشور قريبة الشبه من حراشيف الأسماك ، وعندئذ تعتقد الأم أن سبب ذلك يرجع إلى أنها قد أزالت حراشيف بعض الأسماك أثناء حملها للجنين ، فخرج وليدها بهذا التشوه الجلدى نتيجة لذلك ، ويذكر ونشستر أيضاً أنه قد ناقش أمّاً فى أحد مراكز رعاية الأطفال بولاية فلوريدا وكانت تصحب ابنها الذى ولدته بدون ذراع يسرى وراحت تعلل له ذلك بأنها رأت ــ وهى حامل فى الشهر الخامس ــ حادثة مروعة ، سالت فيها الدماء ، وبترت الأطراف ، فأصابها رعب قاتل ، وظلت صورة هذه الحادثة الأليمة فى ذاكرتها طوال أشهر الحمل ، ولهذا تأثر بها الجنين ــ على حد اعتقادها ، وخرج إلى الحياة مبتور الذراع ، وراحت تؤكد إمكان حدوث ذلك من القصص التى سمعتها من أترابها عن إمكان تأثر الجنين بما يحدث حوله من أحداث .. وطبيعى أن اعتقاداتها خاطئة ، لأن التشوه قد حدث بالتأكيد قبل أن تشهد الحادثة ، ففى الشهر الخامس تكون كل أطراف الجنين قد تكونت وتحددت معالمها ، ولا يمكن ــ والحال كذلك ــ أن تكون الرؤية قد بترت ذراع جنينها !

ولاشك أن الناس يحاولون تعليل كل ما هو غير مألوف بتفسيرات غير مألوفة ، وهم هنا كمثل من يحاول أن يربط بين حظوظ الناس فى الحياة وبين

● لماذا اعتبر البابليون القدامى ظهور العاهات الخلقية فى المواليد نذير نحس أو كارثة ؟!

● ظهرت المواليد المشوهة عام ١٩٥٩ بعد استعمال الحوامل الألمانيات لحبوب الثاليدوميد

أحد ضحايا أقراص الثاليدوميد المهدئة التي تناولتها الأمهات الحوامل ، فولدن الآف الأطفال المشوهين في الأطراف .. وهذا الطفل المشوه الطرف يتلقى تدريبات في أحد مراكز المعوقين على استخدام ذراعه المشوه .



تشوه واضح في عظام الرأس ، وضمور في المخ ، وشذوذ في الوجه ، وغياب الرقبة ، وقد أرجع الأطباء ذلك الى طعام ملوث بالمبيدات دأبت الأم على تناوله أثناء فترة الحمل الأولى ، فظهر أثره على وليدها الذي جاء ميتا ، وهي حالة واحدة من حالات كثيرة .



القاعدة هي التناسق.. لكن لكل قاعدة شواذ!

البروج الفلكية التي ولدوا فيها ، وهو خطأ شائع ونابع من أساطير قديمة ظلت تعشش في العقول حتى يومنا هذا ، لكن العلم يرى فيها رأياً آخر ، ورأيه يقوم على أساس من الملاحظة والبحث والتجربة ، وبهذا يستطيع أن يتوصل إلى الحقيقة ، ويعيد الأمور إلى أسبابها .

العلم يدحض الخزعبلات

وطبيعي أن العلماء في عصرنا الحاضر يرون في ظهور هذه التشوهات رأياً آخر يخالف ما استقرت عليه ظنون الناس ، فلقد جمعوا من أصناف هذه العيوب ما يزيد على الألف ، ومع ذلك فلا أحد يستطيع أن يزعم أن العلم قد وصل فيها إلى نهاية المطاف ، اذ كلما مر الزمن ، وتشعب البحث ، وتطورت المعرفة ، اكتشف العلماء أنماطاً جديدة من هذه العيوب أو العاهات التي لم تكن معروفة من قبل ، بداية من الأمراض الوراثية ونهاية بالتشوهات الخلقية التي تأتي أحياناً بمخلوقات شاذة ومخيفة .

فالأصل في الخلق التناسق ، وما يطرأ عليه من شذوذ عن المألوف هو في الحقيقة شيء عابر ، أي نتيجة لعوامل طارئة تتسلط على بعض الأجنة في بدايات تكوينها ، فتحيد بها عن بعض مساراتها الصحيحة ، وتوجهها وجهة خاطئة ، فيعبر الخطأ (أو الأخطاء) عن نفسه بظهور عاهات قد تكون ظاهرة أو خافية ، وبقدر قوة العامل المؤثر ، تتحدد درجة التشوه أو الشذوذ في تكوين الجنين .

وبعض هذه التشوهات قد يكون من صنع البشر.. كأن تتناول الحامل بعض الأقراص المهدئة ، كما حدث مثلا مع حبوب الثاليدوميد Thalidomide التي تسببت في ولادة الاف الأطفال المشوهين ، ولقد انصبت التشوهات على الأطراف .. ومن حسن الحظ أن أثرها لم يصل إلى الأمخاخ ، بدليل أن الأطفال لم يصابوا بتخلفات عقلية ، وقصة الثاليدوميد الذي أنتج في عام ١٩٥٨ بألمانيا الغربية معروفة ، وكان في الأصل بمثابة علاج مهدىء للتوتر العصبي والأرق ، كما أنه كان دواء مثالياً ، فليست له أعراض جانبية تذكر ، كما أن مداومة استعماله لا تسبب الادمان ، بجوار أن الجرعات الكبيرة منه لا تقتل ، إذ أن أكثر من مائة شخص قد تناولوه بغرض الانتحار ، ولم يمت منهم أحد ، ولهذا لم يجد الأطباء غضاضة في وصفه للحوامل الألمانيات ، وبعدها بدأت المواليد المشوهة في الظهور عام ١٩٥٩ ، ثم أخذت تتزايد حتى وصلت أعدادها إلى أكثر من ٥٠٠٠ حالة بعد ثلاث سنوات ، بالاضافة إلى أكثر من ألف حالة أخرى ظهرت في كندا وأمريكا الجنوبية واليابان وبعض الدول الأوربية التي استوردت هذا الدواء

واستخدمته على نطاق محدود .. ولقد استطاع طبيب ألماني يدعى دكتور فيدوكند لينز أن يتوصل الى وجود علاقة مؤكدة بين تشوهات المواليد وتعاطي أقراص الثاليدوميد في بداية أشهر الحمل الأولى ، وعندئذ منع انتاج هذا الدواء ، (رغم أنه لا يسبب عاهات في الكبار) لكن بعد أن ترك مآسيه على آلاف الأطفال .

أو قد تظهر التشوهات في الأجنة نتيجة لتعرض الحوامل للاشعاعات الذرية ، خاصة في بداية الحمل ، ولقد تجلت هذه الحقيقة بوضوح عندما ضرب الحلفاء مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بقنبلتين ذريتين في نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولقد انتشر الاشعاع الذرى على المناطق المجاورة للمدينتين ، وكان تأثيره واضحا على بعض المواليد التي ظهرت مشوهة بعاهات مختلفة ، ولهذا يحظر استخدام الأشعة السينية في الكشف على بطون الحوامل في بداية أشهر الحمل .

وقد تنتج التشوهات الخلقية في المواليد نتيجة لتناول الحوامل طعاما ملوثا بالمبيدات ، اذ أن هذه المركبات الغريبة تمتص وتدور في الدم ، وتنتقل إلى الجنين أثناء التكوين ، ثم تتداخل في مكوناته الوراثية المبرمجة في الخلايا ، فتغير بعض برامجها الكيميائية ، وتحيد بها عن طرقها المرسومة ، مما يؤدي الى تغيير في التفاعلات البيوكيميائية ، والعمليات الوظيفية أو الفسيولوجية التي تنعكس بدورها على تشوهات وعاهات تختلف باختلاف الجينات أو المورثات التي أخل هذا الدنس بنظامها المتقن .

أو تأتي بعض التشوهات من اصابة الحامل بالحمى أو بمرض فيروسي عندما يكون الجنين في الشهور الثلاثة الأولى من الحمل ، من ذلك أن تصاب الحامل بالانفلونزا أو بالحصبة الألمانية ، مما قد يؤثر على بدايات تكوين القلب أو العينين وما شابه ذلك ، فيولد الطفل بعاهات مختلفة .. ربما في أذنيه أو في عينيه ، أو قد يولد أعمى ، أو به صمم ، كذلك قد يصاب قلبه ببعض التشوهات الخلقية . الخ

عوامل وراثية تسبب العاهات

كذلك قد يزيد معدل أنماط خاصة من التشوهات في سلالات بشرية عن سلالات أخرى مما قد يشير الى أن أسبابها كامنة في التكوين الوراثي لهذه السلالات ، ومن هذه التشوهات زيادة اصابع اليدين والقدمين عن معدلاتها المعروفة ، اذ قد تكون ستة أو سبعة أصابع بدلا من خمسة .. لكن هذه الظاهرة أكثر احتمالا بحوالي عشر مرات في السلالة الزنجية عنها في السلالة البيضاء ، وعلى العكس من ذلك تكون معدلات التشوهات في الجهاز العصبي ، كأن يأتي المولود برأس ومخ غير كاملين ، إذ تظهر مثل هذه الحالات في البيض أكثر من السود .. الخ .

وقد تتدخل العناصر الوراثية نفسها في احداث التشوهات ، ذلك أن كل عضو أو نسيج أو تكوين صغر شأنه أو كبر محكوم بعدد من المورثات أو الجينات ، وقد يحدث فيها خطأ لأسباب بعضها معروف ، والبعض الآخر مجهول ، وقد تنتقل

الجينات الخاطئة من السلف الى الخلف ، فتظهر على عظام غير سوية ، أو عضلات شاذة ضامرة ، أو في عين أو أذن أو اصبع أو ظفر أو ثقب في قلب .. الى آخر هذه العاهات التي تعبر عن نفسها بعلامات ظاهرة وخافية .

خذ على سبيل المثال تشوهات الأيدي والأرجل وما يتصل بها من أصابع وأظافر ، فأحيانا ما يأتي الأصبعان ملتحمين أو تظهر الأصابع بعددها المعروف ، لكن الضمور يصيب بعض سلامياتها (عقدها العظمية) ، فيؤدي ذلك إلى أصابع قزمية

أو قصيرة ، أو قد لا تنمو بعض الأصابع ، فيأتي المولود بثلاثة أصابع أو أربعة أو قد تستطيل الأصابع الى أطوال غير عادية ، فيطلق عليها الأصابع العنكبوتية (نسبة الى أرجل العناكب الطويلة الرفيعة) ، وأحيانا يظهر التشوه في اليد أو القدم ذاتها (الأحنف) فتبدو معوجة) .

والواقع أن ذلك قليل من كثير ، ولايتسع المجال لذكر المزيد ، لكن الثابت أن هذه التشوهات نتيجة طفرات تحدث في البروجرام الوراثي للخلايا أثناء تكوين الجنين والطفرات دائمة الحدوث في الجينات ، فتغير ما بها ، لكن ليست كل الطفرات سيئة بل هناك طفرات حسنة ، وبها

● مولود بأصابع عنكبوتية وآخر يشبه في تكوينه حوريات الماء الأسطورية !

● أعلى نسبة تشوهات الدماغ والمخ في إيرلندا وغرب بريطانيا ، وكثرة تعدد الأصابع الزائدة في إفريقيا !

يتخطى الكائن الظروف الصعبة التى تجابهه فى الحياة ، لكن موضوع الطفرة طويل ومتشعب ، ولن نتعرض له هنا الا بالقدر الذى يوضح لنا أن السبب فى التشوهات يرجع الى طفرات سيئة تحل بالجينات المسئولة عن تحديد صفات المخلوقات .. ثم هى قد تنتقل من جيل الى جيل ، خاصة اذا حدث التزاوج بين أفراد العائلة أو القبيلة الواحدة ، فظهور بعض أفراد احدى قبائل جنوب افريقيا بأقدام مشوهة ، ثم تنتهى كل قدم باصبعين يشبهان الكلابات أو المخالب ، يشير الى أن هذا الخطأ متوارث فى أفراد هذه القبيلة دون غيرها ، إذ أنه ينتقل من الآباء الى الأبناء ، ورغم أن هذا التشوه منفر ، الا أنه محتمل ، بدليل أن المواليد تواصل الحياة ، لكن قد يصل التشوه فى الأطراف أحيانا الى أقصى درجاته ، كأن يلتحم الفخذان والساقان والقدمان التحاما تاما وبحيث يبدو الجنين أو المولود وكأنما هو يشبه فى تكوينه حوريات الماء الأسطورية (كائنات خرافية لها جسم امرأة وذيل سمكة) وطبيعى أن تكون مثل هذه التشوهات الكبيرة غير محتملة ، ولابد والحال كذلك أن تأتى المواليد ميتة ، أو نادرا ما تعيش لبضع ساعات أو أيام قليلة .

تصفيات لابد منها

وطبيعى أن يهتم العلماء بدراسة هذه التشوهات ، لمعرفة الأسباب التى تؤدى الى حدوثها ، وبهذا يمكن ترشيد الناس عامة ، والحوامل خاصة بتجنب بعض العوامل المسببة لها ، أو علاج ما يمكن علاجه قبل فوات الأوان ، خاصة وأن درهم وقاية خير من قنطار علاج ، اذ لو ثبت مثلا أن هذه العاهات أو التشوهات تحدث بسبب دواء ، أو أى مركب آخر ضار ، أو من ميكروب أو فيروس ، أو تلوث الماء والغذاء بالمبيدات ، أو أية عوامل أخرى موجودة فى البيئة ، أو من نقص هرمونات ، أو زيادة أخرى ، أو من البيئة المحيطة بالأجنة فى الأرحام ، أو من طفرات وراثية سيئة يحملها الآباء أو الأمهات ، أو الاثنان معا ، فيورثونها الى ذرياتهم .. كل هذا وغيره يستحق البحث والدراسة والتمحيص ، اذ لا تطبيق ولاعلاج يفيد بدون معرفة سابقة بأسباب هذه التشوهات .

لكن الحياة ذاتها تختصر الأمر ، فتتدخل من البداية لتضع حدا لانتشار مثل هذه التشوهات بين المخلوقات ، ولهذا تحكم عليها بالاعدام ، وهو أمر فى ظاهره قسوة ، لكن فى باطنة رحمة ، لأن انتشار هذه الاخطاء عبئ على الحياة ذاتها ، ولهذا تضع فى اعتبارها تصفية حساباتها مع المنحرفين والخارجين على سننها وشرائعها وقوانينها ، وكلما كان الانحراف كبيراً ، كان الحكم بالاعدام أكيداً ، ولهذا تطرد أرحام الحوامل مثل هذه الأجنة قبل اكتمال نموها ، أو قد يكتمل نموها ، لكنها تولد ميتة ، واذا ولدت حية ، فلا تعمر الا ساعات أو أيام معدودات ، واذا عمرت وكانت التشوهات أو العاهات محتملة ، عاش بها المخلوق ، لكنه لا محالة سيجابه عملية التصفية أو الاختيار الطبيعى الكائنة حوله فى الحياة ، وهى عملية لا تحيز فيها ولا محاباة ، ففى عالم الانسان تكون فرص الزواج من ذوى التشوهات والعاهات أقل بكثير من فرص الاصحاء والأقوياء ، أو قد تكون المجتمعات البشرية رحيمة ومتعاطفة مع مثل هذه الحالات ، لكن ذلك لا يسرى على المخلوقات الأخرى التى تعيش فى البحار والغابات ، فقانونها هو قانون الغاب ، فالقوى يقضى على الضعيف ، لكن أول المقضى عليهم يكونون عادة من ذوى العاهات ، لأن عاهاتهم لا تساعدهم على الصراع أو الهرب ، ثم أن مبدأ الحياة المطبق بين كائناتها يمكن ترجمته فى كلمتين اثنتين : « اضرب » أو « اهرب » ... وكلاهما يحتاج لمخلوق يجيد هذا الفعل أو ذاك ، أو ربما الاثنين معاً .. وبمثل هذا التشريع الحكيم تسعى الحياة إلى تنقية نفسها من هذه الأدران ، فيبقى الصالح ، ويزول الطالح .

مزيد من التحريات العلمية

والواقع أن سر اهتمام العلماء بهذا الموضوع الحيوى والهام ، وجمع أكبر قدر ممكن من أنماط هذه التشوهات ، ومعرفة الأسباب التى تؤدى إلى حدوثها ، ثم القيام بتجارب علمية على حيوانات التجارب ، للكشف عن العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والوراثية التى يمكن أن تؤدى إلى التشوهات .. كل هذا وغيره قد تمخض عن علم يعرف باسم علم شواذ أو غرائب المخلوقات Teratology . والغرض منه انقاذ ما يمكن انقاذه من المواليد البشرية ، خاصة وأن أعدادها التى تفد حية على هذا الكوكب لا يستهان بها ، اذ تتراوح ما بين مليونين وثلاثة ملايين مشوه كل عام !

فمن الاحصائيات المتاحة فى بعض الدول المتقدمة يتبين أن معدل المواليد ذوى العاهات الوراثية والتشوهات الخلقية يقع فى حدود ٤٪ من كل المواليد .. فهناك دراسة قام بها مركز كولومبيا الطبى بأمريكا على حوالى ست آلاف سيدة حامل ، وبداية من الشهر الرابع للحمل ، ونهاية بالسنة الأولى بعد الولادة (حيث تتضح بعض العاهات التى كانت خافية) ولقد ثبت من هذه الدراسة أن حوالى ١٦٠ ألف طفل يولدون سنوياً فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بعاهات تعبر عن نفسها بتخلفات عقلية ، أو تشوهات خلقية ، وهى نسبة عالية تستحق أن تؤخذ فى الاعتبار ، وفى دراسة أخرى تبين أن ٣٪ من المواليد يصابون بعاهات وتشوهات من الدرجة الخطرة ، هذا زيادة على نسبة أخرى تتراوح ما بين ١٠ ـ ١٥٪ من المواليد المصابين بعاهات بسيطة ، ويمكن علاجها بالجراحة أو الأدوية .

ويذكر تقرير آخر حديث أن حوالى ٢٠٪ من المواليد المشوهة تشوها واضحاً تولد ميتة ، أو تعيش لبضعة أيام على أكثر تقدير ، أو قد يولد بعض الأطفال دون أن تظهر عليهم عاهات تذكر ، لكن هذه العاهات تبدأ فى الظهور بعد أسبوعين أو أكثر قليلا ، ويصل معدلها إلى حوالى ٢٠ حالة بين كل ألف ولادة ، وعندما يبلغ الأطفال من العمر خمس سنوات تظهر حالات أخرى بمعدل ٦ فى الألف ، ومعظمها يعبر عن نفسه بتخلفات عقلية متفاوتة الشدة ، وبعد هذه السن قلما تظهر عيوب خلقية ، واذا ظهرت ، فهى شيء عارض فى الحياة ، أى لا دخل لها بتشوهات حدثت أثناء تكوين الأجنة .

هذا وتختلف أنواع التشوهات باختلاف المواقع الجغرافية للدول ، وباختلاف السلالات البشرية ، من ذلك مثلا أن ايرلندا وغرب بريطانيا لديهما أعلى نسبة فى تشوهات الدماغ والمخ ، اذ قد تأتى المواليد بدون أمخاخ أو بأمخاخ ضامرة ، ويقال إن هذا المعدل فيهما أعلى بحوالى ٢٠ مرة من أية دولة أخرى .. كذلك يظهر تعدد الأصابع الزائدة بين سكان القارة الافريقية بمعدلات أكبر من أية قارة من القارات الأربع ، لكن الأسباب الكامنة وراء هذه الاختلافات غير معروفة على وجه الدقة ، والزمن والبحوث العلمية والطبية كفيلة بالكشف عن سر هذا الغموض .

ثم أن أخطر هذه العاهات تتمثل فى الأمراض الوراثية ، وعلى رأسها التخلفات العقلية ، لأن كثيرين يعيشون بها ، فيشكلون مآس حقيقية لأسرهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه ، بالاضافة إلى أنهم عبء ثقيل عليه .. لكن ذلك موضوع آخر هام سوف نفرد له دراسة مستقلة .. أما الذين يختصرون الطريق إلى الدار الآخرة بتشوهاتهم وعاهاتهم غير المحتملة ، والتى لا يمكن أن تستقيم معها حياة ، فقد استراحوا وأراحوا . صحيح أن أحداً لا يحب الموت أو يحبذه . لكن « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيركم » .. وفى هذا فصل الخطاب .

عبد المحسن صالح

آخــــر صعاليك الشــــعر العـــربي

صعلوك الشعر العباسي

بين خراســـان وأســـوان!

صعاليك الشعراء في الجاهلية كانوا كثيرين ، ولم يعرف صدر الإسلام صعلوكاً شاعراً على مثالهم ، ثم ختم التاريخ صفحة الشعراء الصعاليك ، بهذا المغامر العجيب الذي كان صعلوك الشعراء في العصر العباسي الأول..

نحاول هنا أن نقرأ تاريخه من جديد ، ونتأمل ملامحه الحقيقية وسط ركام الأخبار التاريخية المتناقضة..

بقلم : كمال النجمي

من خلال كتب الأدب والتاريخ ، يطل علينا الشاعر دعبل بن علي الخزاعي ، في صورة « شاطر » جرىء القلب ، عربي الأرومة ، لا أعجمي الدم كغالبية الشطار وقطاع الطرق في عصره.. واسع العلم بلغات العرب وأساليبهم في الشعر.. يشبه أن يكون فوضوياً سابقاً لعصره ، لا يستقر له قرار في الفكر والسياسة ، غير أنه يرى نفسه صاحب رأي من الآراء التي اشتجرت في زمانه ، لا تحيد سريرته عن رأيه ، ولا يخالفه قولاً وعملاً !..

وفي سبيل رأيه ـ كزعمه ـ خاصم دعبل مؤسسات عصره السياسية والفكرية والعلمية والأدبية ، ومن يمثلون هذه المؤسسات من حكام وعلماء ووجهاء وشعراء وأدباء ، حتى ظن أنهم خافوا جميعاً من لسانه ، وتوهم أنهم أهدروا دمه فطاردته مخاوفه من مكان إلى مكان ، واعتاد أن يعيش هارباً متوارياً ، إلا في الفترات التي يجنح فيها إلى مسالمة خصومه ، فعندئذ يقف على أبوابهم يلتمس جدواهم من مال أو طعام.. ناسياً خشبته التي خَيَّلَ إليه الوهم أنه يحملها على كتفيه أنى سار ، من ليل أو نهار.. قال بعض الرواة ـ كما ورد في كتاب الأغاني ـ : « رأيت دعبل بن علي وسمعته يقول : أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ، لست أجد أحدا يصلبني عليها.. » !..

فلماذا لم يصلبوه على خشبته المزعومة هذه ؟!..

لأن العباسيين الذين كان دعبل يهجوهم ، استهانوا به وعرفوا أنه إنما خرج عليهم بلسانه فقط ، أما جنانه فهو لصيق بدنياهم الزاهرة ، يريد أن يصيب منها كما أصاب غيره من الشعراء والأدباء ، فلم يصادروا حريته ، ولم يطاردوه في الفلوات مطاردتهم لعدو يحرصون على اقتناصه ، حتى إن الخليفة المأمون حين قيل له : لقد هجاك ! .. قال : أنا أحلم عنه وأصفح ! .. ثم تلطف به فاستقدمه إلى مجلسه فلم يعنف به ، ولا عاتبه بكلمة ، بل طلب إليه أن ينشده قصيدته الجنائزية المؤثرة التي ليس له مثلها في شعره كله :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

فأنشده إياها والخليفة يبكي حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم أجلسه وأنس به وأحسن إليه !..

وقبل إحسان « المأمون » إليه كان إحسان « الرشيد ».. فإنه لما شاعت أبيات دعبل الغزلية الرقيقة التي منها :

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

.. غنى ابن جامع « كبير المطربين » بهذا الشعر بين يدي الرشيد فسأله عن صاحبه ، فأخبره أنه « غلام » من قبيلة خزاعة اسمه دعبل..

فاستقدمه الرشيد واستنشده وخلع عليه من ثيابه ، ودفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأجرى عليه رزقاً وشجعه على الاستمرار في قول الشعر وكان حينئذ ناشئاً فيه يتتلمذ على الشاعر الكبير مسلم بن الوليد.. قال أحد الرواة : « فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السني ، والغنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول ، بأقبح مكافأة ، وهجاه حتى وهو ميت »..

ولم يبغضه ويغضب عليه من الخلفاء إلا المعتصم ، ويمكن أن نذكر أيضاً ابراهيم بن المهدي ـ عم المعتصم ـ وكان حاقداً على دعبل الذي هجاه لزعمه أنه « الخليفة » في بغداد بعد مقتل « الأمين ».. ولكن زعمه الخلافة سرعان ما سقط حين شغب عليه الجند وطالبوه برواتبهم ولم يكن في بيت ماله شيء ، فقال دعبل أبياته



المشهورة التي يذكر فيها اشتغال ابراهيم بن المهدي بالغناء وضرب العود، ويسخر من البيعة له بالخلافة قائلاً :

بيعة ابـــراهيـــم مشئـــومـــة
يقتل فيهـــــا الخلق أو يقحط
وهكـــذا يـــــرزق أجنـــاده
خليفة مصحفه البـــــــربط

والبربط هو العود الذي كان ابراهيم بن المهدي يضرب عليه في غنائه .. وكانت هذه الأبيات من أسباب انصراف الناس عن ابن المهدي ، لأن الخليفة صاحب مصحف ، لا صاحب بربط..

وكان دعبل يبغض الوزير الخطير محمد بن عبدالملك الزيات .. أنشده غير مرة مديحاً فيه فلم يأبه له ، بينما كان ابن الزيات يطرب لمديح أبي تمام ، ويقف على قدميه تعظيماً له ، ويعطيه ألوف الدراهم ويعتذر إليه من قلة العطية قائلاً : « يا أبا تمام .. إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك ودرر معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر ! .. وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة » ! .. وكان أبو تمام أبغض الناس إلى دعبل ! ..

كذلك كان دعبل يبغض قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد ، لشدة إعجابه بأبي تمام ، وقد أعطاه في إحدى قصائده ألف دينار ، غير ملتفت إلى دعبل ولو بدينار واحد ! .. فهجاه دعبل فلم يلتفت إلى هجائه ! ..

وقد كان ابن الزيات وابن أبي دؤاد من جبابرة عصرهم ، لكنهما لم يعاقبا دعبلاً بشيء ، مع أن ابن الزيات هو صاحب « التنور » المشهور في تاريخ الأدب وتاريخ السياسة ، وقد عذب فيه الكثيرين ، وكان أهون شيء لديه أن يمسك بدعبل ويزج به في التنور ، ثم لا يخرجه منه حيا ! ..

ولم يكن ابن أبي دؤاد أقل في جبروته من ابن الزيات ، ولكنهما ــ حيال دعبل ــ كانا يتأسيان بالمأمون حين حرضه بعض خصوم دعبل على قتله فقال لهم : « أما القتل فإني لست أستعمله فيمن عظم ذنبه ، أفأستعمله في شاعر؟! .. » .

لقد كان دعبل لا يزيد في الحقيقة على شاعر تدعوه بواعثه النفسية إلى الهجاء ، وليس له وراء الهجاء عمل ضد السلطان ، بل ولا ضد أحد من عامة الشرطة في أقصى مدن الدولة ، ومع ذلك أوشك التاريخ أن يرسم له صورة شاطر مغامر من شطار الكوفة ، يرمي نفسه في المهالك ، ويحمل من فرط شجاعته واستخفافه بالموت ، خشبته على عنقه ليوفر على من يريد صلبه عناء البحث عن الأخشاب ! .. ولم يكن ذلك صحيحاً ، فهذا هو المأمون لا يراه إلا شاعراً ثرثاراً لا خطر له .. أما عبدالله بن طاهر ــ وهو من أكبر رجال العسكرية العباسية ــ فيقول : « قصاراي إن ظفرت به أن أضربه مائة سوط ، وأثقله حديداً ، وأصيره في المطبق » ...

وقد استمرأ دعبل استهانة الكبراء به وإحجامهم عن قتله ، فاقتحم بهجائه على الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، والقائد طاهر بن الحسين وابنه عبدالله بن طاهر ، ولم يحجم عن هجاء أحد مخافة بطشه أو طمعاً في عطائه ، أو شكراً لصنيعه ، ولم يسلم من هجائه حتى أستاذه مسلم بن الوليد الذي تخرج على يديه في الشعر ، فهجره وقطعه مستهيناً به :

فهبك يميني استأكلت فقطعتها
وجشمت قلبـــي صبـــره متشجعا

كان دعبل صعلوكاً غير فاتك ، تستهويه حياة الصعلكة بعيداً عن المدن العباسية الكبيرة .. وكانت الصعلكة من ثمرات حياته وتربيته وتكوينه النفسي منذ صباه ، فلم تطرأ عليه في كبرته حين استهوته بعض المذاهب أية رغبة في تحويل الصعلكة إلى نضال من أجل مذهبه ، فظل مذهبه هذا حبيس أبيات قليلة من شعره الكثير .. وانسلخ عنه في واقع حياته ، وإن لبث في خصومة شخصية مع أكبر عدد من أصحاب الكلمة النافذة ، فعاش يهجوهم بسبب هذه الخصومة الشخصية البعيدة في الحقيقة عن الخصومة المذهبية ، وهو في هذا يشبه ــ ولو من بعيد ــ كُثَيِّر عزة الذي كان يمدح بني مروان ويقبض جوائزهم ، ولا يجمعه وإياهم مذهب في السياسة ..

كان دعبل وهو غلام ، يتشطر في أرباض الكوفة فيقطع الطريق ويسرق المارة حتى أوشك صاحب الشرطة أن يقطع يده ، ثم اكتفى بضربه ثلاثمائة سوط ، فخرج من الكوفة مثخناً بالجراح ، ولم يعد إليها إلا وقد اكتهل وصار شاعراً مشهوراً وأقلع عن قطع الطريق بالسلاح ، واستعاض من ذلك قطع الطريق بالأوزان والقوافي ! ..

ثم تقلب دعبل في الدنيا فكان كما يقول كتاب الأغاني : « يغيب سنين ، يدور الدنيا كلها ، ويرجع وقد أفاد وأثرى .. وكانت الشراة ــ الخوارج ــ والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه ، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه ، ودعا بغلاميه وكانا مغنيين فأقعدهما يغنيان ، وسقاهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألفوه لكثرة أسفاره ، وكانوا يواصلونه ويصلونه » .

ولعل دعبلاً كان الصعلوك الوحيد الذي يصحب المغنين وآلات الطرب في أسفاره ! ..

قال دعبل يصف أسفاره هذه وطولها ومشقتها ، ولم يذكر شيئاً عن المغنين وآلات الطرب :

آخر صعاليك الشعر العربي

حللت محلاً يقصر البرق دونه
ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

وقال :

مـــا أطــول الـــدنيــا وأعــرضهـــا
وأدلنـــــي بمســــالك الـطـــرق

كان دعبل يحن إلى العيش المستقر ، ويرتاح إلى النعمة إذا وجدها ، وقد اتفق له غير مرة أن استقر فترة بعد فترة في بعض المدن ، وبخاصة في بغداد التي اشترى فيها داراً ، وليس السواد كالعباسيين وأشياعهم وحمل على عاتقه سيفاً كالجند وخاصة الناس ..

وكانت له في تلك الأيام نعمة ظاهرة ، ومكانة عند عارفيه الكثيرين ، وله إماء وعبيد ، وخيل وبراذين ، وماشية ودجاج ذكرها في شعره وهو يهجو أناساً سرقوا شيئاً منها ..

وأنجب دعبل بنين وبنات ، واستقر حيناً وجلس مع أصحابه في مجالس الغناء ، وغدا وراح هنا وهناك .. حتى طمع بعض أقاربه من الخزاعيين في توبته عن هجاء الناس واستقراره في بغداد ، فنصح له قائلاً :

ـ ويحك يا دعبل .. قد هجوت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك !..

جاءت هذه النصيحة ودعبل « تائب » فعلاً .. مستقر في حياته ، متطلع إلى مستقبله ، فحملته نصيحة قريبه الخزاعي على التفكير في مرحلة أخرى من الاستقرار ، يدخل بها في زمرة ذوي السلطان والمال ، فلم يلبث أن قرر السفر إلى مصر عسى أن يجد فيها مايرجوه ، معترفاً لبعض أصدقائه أنه إنما يتعاطى الهجاء لتخويف من يريد عطاءهم ، لأن الهجاء يبتز من أموالهم ما يقصر دونه المديح !..

كان المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي والياً على مصر سنة ١٩٨هـ .. ولاه عليها الخليفة المأمون ، فذهب المطلب إلى مصر وهي كثيرة الاضطراب والفتن .. قال صاحب النجوم الزاهرة : « إن أهل مصر كانوا يومذاك فرقتين ، فرقة من حزب الخليفة محمد الأمين ، وفرقة من حزب أخيه المأمون ، فقاسى المطلب بمصر شدائد » .. ثم عزل وقبض عليه وسجن بأمر المأمون حتى ثار الناس على الوالي الجديد لظلمه فأعيد المطلب إلى الولاية ، وصفا له الجو هذه المرة .. « ورفق بالرعية وأجزل لهم أعطياتهم وأحسن إليهم » .. وطارت شهرته إلى الآفاق فقصده الشعراء ، وكان أحقهم بقصده شاعر قبيلته دعبل الخزاعي ، فوفد إليه سنة ١٩٩ هـ وليس في الدنيا يومئذ شاعر أشهر منه ، وهو فخر « خزاعة » كلها ..

وفي مصر مدح دعبل الخزاعي ابن عمومته المطلب الخزاعي فقال :

أبــعد مصـــر وبــــعد مــــطلب
تــرجــو الغنــى .. إن ذا مـن العجب
إن كـــاثـــرونـــا جئنــــا بـــأسـرتــه
أو واحـــــدونـــــا جئنـــــا بمطلب

فطرب المطلب وأرسله والياً على مدينة أسوان التي تقع في جنوبي مصر « على بعد تسعمائة وخمسين كيلومتراً من الفسطاط » .. وكانت حينذاك مازالت عند أكثر المصريين تحمل اسمها المصري القديم « سوانو » .. ومعناه « السوق » لوقوعها في ملتقى التجارات بين مصر والأقطار الافريقية .. وكانت ثغراً للمسلمين يرابط بها الجند لصد غارات الأعداء ..

عاش دعبل بضعة أشهر والياً على أسوان .. يجلس للحكم والقضاء ويصلي بالناس ويلقي خطبة الجمعة ويدعو للخليفة العباسي ، ولكنه تبرم من قلة عطائه ، ولم تعجبه المدينة القاحلة المحصورة بين الجبل والصحراء ، فعاودته حماقته وهجا قريبه الخزاعي والي مصر ، فعزله وأهانه وأخرجه من مصر على شر حال ، فانقلب إلى العراق وهو يردد هجاءه في قريبه والي مصر :

تنوط مصر بك المخزيات
وتبصق في وجهك الموصل

عاد دعبل بعد خروجه من مصر ينتقل على غير هدى بين العراق والشام والحجاز وخراسان ، طوال خلافة المأمون وقد أمن على حياته ، حتى تولى المعتصم الخلافة ، فهجاه دعبل ، فطلبه المعتصم فهرب منه إلى الجبل وثابر على هجوه حتى بعد موته ، إلا أنه أنكر كل الإنكار أنه هو القائل في هجائه :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

وقال دعبل : أراد ابراهيم بن المهدي أن يغري المعتصم بقتلي فنحلني هذا الشعر !..

وفي عهد الواثق ثم في عهد المتوكل ، كان دعبل قد أوغل في السن ، وبلغ من العمر أرذله حتى شارف المائة ، ولم يبق مكان في الدولة لم يلجأ إليه ، ولا ذو مال أو سلطان لم ينله بالذم بعد المدح .. وأناخ عليه ضعف الشيخوخة والاملاق والعجز عن الكسب ، فوقف يقول لأحد ممدوحيه وقد أثقلته الحاجة القاصمة :

جئت بلا حرمة ولا سبب
إليك إلا بحـــــرمـــــة الأدب
فـــاقض ذمــــامـــي فإننـــي رجل
غــــيــــر ملح عليك في الطلب

عاش دعبل ثمانية وتسعين عاماً .. ولد سنة ١٤٨ هـ في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، ومات سنة ٢٤٦ هـ في عهد الخليفة المتوكل .. ولم يتعرض طوال هذا العمر الشاسع للقتل ، إلا تهديداً ووعيداً ..

ثم جاءت نهايته أخيراً ! هجا والي البصرة فقبض عليه ودعا بالسيف والنطع ليضرب عنقه ، فلم تسعف دعبلاً في هذا الموقف الضنك قوة أو حيلة أو لجاجة ، وهو شيخ كبير .. فجحد الشعر الذي هجا به الوالي وحلف على جحده بكل يمين .. « وجعل يتضرع إليه ويقبل الأرض ويبكي بين يديه » .. فأعفاه الوالي من القتل ولكنه انهال عليه ضرباً بالعصا حتى انهار ووقع مغشياً عليه ، مهاناً أشد إهانة .. ثم خلى سبيله !..

ضاقت الدنيا بدعبل .. لم يكن يستطيع وهو في ضعف شيخوخته الفانية أن يسكت عن الهجاء ، ولا أن يخرج من أرض الدولة العباسية الممتدة بين الهند والمحيط الأطلسي ، وبين بلاد الروم والمحيط الهندي ..

كان خروجه منها مستحيلاً ، فليس وراءها إلا أرض الروم وهي « دار كفر » .. أو أرض الأندلس وهي أرض بني أمية في ذلك الزمن .. ولا طاقة له بالسعي إلى هذه الأرض أو تلك ـ لو أراد أن يخرج من الأرض العباسية ـ وقد أثقلته الحياة بثمانية وتسعين من أعوامها الثقال كالجبال !

وهكذا برك دعبل في مكانه كالبعير غير قادر على شيء غير التسليم للمقادير !..

إن كلمة « دعبل » في اللغة معناها البعير المسن العظيم البدن .. وقد كان دعبل رجلاً ضخماً طوالاً كأنه الدعبل حقاً وصدقاً .. عاش كما شاء ورأى الدنيا تتقلب تحت عينيه من حال إلى حال في عهود تسعة خلفاء حتى أنكرها وأنكرته ، وأبغضها وأبغضته ، ولكن لم يقتله السأم من طول الحياة كما فعل بالشاعر « لبيد » من قبل ، وإنما استطال أعداؤه عمره ، فدسوا له السم ليريح ويستريح !..

مات بالسم غيلة هذا الشاعر المغامر المتصعلك الذي ضرب الأعناق والرءوس بلسانه وبيانه ، دون سيفه وسنانه ، وثار طول حياته بالكلام لا بالصدام ، ونشر ظله في أعرض رقعة من الزمان والمكان ، وعاش خائفاً آمناً ، مستقراً شريداً ، شقياً سعيداً !.. يقفز من بغداد إلى أسوان ، ومن أسوان إلى خراسان !..

لقد خر البعير المسن العظيم على كلكله الغليظ ، بضربة عصا مسمومة سددها أعداؤه إلى ظهره ، بعد أن ظل ثمانين عاماً يرميهم بهجائه المسموم في وجوههم .. فاستوت في النهاية جريمة القتل ورذيلة الهجاء ، واستندت الجريمة على ذراع الرذيلة ، وحفرتا للدعبل الصعلوك الذي أتعبته الأيام والليالي ، حفرة الراحة الأبدية !..

كمال النجمي

ماوقف الغريب عن المسير..

شعر: سميح الشريف

فوق الرحاب وهبت وجه جزيرتي للبحر
بيني وبين البحر سرُّ القطرة الأولى
وسرُّ الرحلة الأولى ،
ولدنا في رحاب الدهر
والدهر السرير

* * *

سجادة للبحر وجه جزيرتي ،
رست الدهور على حواشيها كأعشاش
وفــرخت الدهــور

* * *

قدمايَ فوقَ الموج مبحرتان
تدنيني المسافة من ينابيعي
وثوبي من نسيج الريح
ها أنذا سكنت مدينة الأصداف
واختفت التخوم
ملكاً أجيءُ إلى ينابيعي وحاشيتي الرذاذ
صادفت عند مساقط الشلال روحي البكر
فاختلج الجماد

* * *

اقبل حبيبي أيها الملك المتوج بالغيوم
حقلاً من النوار مجدولا
وموجاً من عبير

* * *

ما كنت أدري كيف صرنا اثنين
لكنا أتينا خلسة في الليل
نحمل طفلة الأرض البهية
واختبأنا ألفَ دهر
في الصخور

* * *

كنا صغيرين ابتدانا من أصابعنا
ركبنا الزورق الفضي
أقلعنا وراء الضوء أشتاتاً
وعدنا نحمل القمر الصغير

* * *

هاتيك ألف جزيرة أخرى
تناسلُ في السكون وراء إغفاء الطبيعة
كان الصحاب بها كدفق الصبح ينتشرون
مذ أبصرتني فيهم ،
عرفت بأنني الفرد الكثير

من أين أشبههم ثبات البحر
كانوا إخوة يتطافرون على السفوح ،
وتحيل الغابات والقمم البعيدة
من فؤوسهمو
ووجه الأرض مائدة الصباح البكر ،
مائدة الظهيرة والمساء
اقبل حبيبي من وراء الأفق ،
مازلنا على مرمى من الضوء المعلق
بالفضاء .
مازالت الأسحار تعبرني ،
وتحمل كل أطواري

فأخرج كل طور في إهاب
تمتص من نسغي الجذور أنا الجذور
وجدول الأنساغ يجرى من عبابي
وأجيء عشباً يرتقي جبلا إليك ،
ويأكل العصفور في طبقي
ويلبس من ثيــابي
وأجيء من طوري القصي ، هناك

أهتف ياحبيبي الآن اقبل
فــأنا انتظـارك
شرفتي الجبل البهيُّ ،
وقامتي الصخر العتيُّ
تطل عليك من كيس الضباب

* * *

قد كنت طينتك الرخية ذات يوم ،
ثم بعد تمخضت جبلاً
وصار بداخلي كهف لسرك
ها أنت تبعثني على ورق الصخور الجرد
أشجاراً تناوح عند باب الكهف
أقـواساً لنصـرك .

* * *

وأظل كالأشجار تدفعني الجذور
إلى العــلاء
وأظل أرفع هامتــي وأمــدها
نحــو السمــاء
أعلو وأعلو ثم أهوى تارة أخرى
فينميني على الجذر البقاء
يأيها الحب الذي حط الصباح على جدائله
وودعهــا المســاء
ما راعت الأنواء من قممي
إني أنا الجبل الذي حفرت منازلها
عليه الكبرياء ..

* * *

للنهر أغنية يرنمــها ويمضــي كالغريب .
فــآه من قلبــي الذي أصغــى
وآه منـك يا قدمي التي وقفتْ
وما وقف الغريب عن المسير ..



جوان ميرو : في هذه اللوحة تأثر بفن الأطفال ليثبت اللمسة الابداعية الكامنة في رسوماتهم !

هنري ماتيس : في هذه اللوحة فعل ما يفعله الطفل عادة فرسم سطح المنضدة دائرياً !

الابداع في رسوم الأطفال .. لماذا نفسده؟!

بصمات الطفولة في لوحات الفنانين العالميين

بقلم : الدكتور محمود البسيوني

ينظر البعض إلى رسوم الأطفال على أنها نشاط عقيم لا إبداع فيه . وهذه النظرة الخاطئة ترجع إلى تعصبهم اللاشعورى المسبق لمبادىء الفن الأكاديمية ، التي يتخذون منها اطاراً جائراً للحكم على هذه الرسوم ، وينتهى بهم الأمر إلى عدم تذوقها ، واستنكار قيمتها الابداعية ، والضغط عليها من قريب أو بعيد لتحريفها عن مسارها التلقائي حتى تتسم ، إن آجلاً أو عاجلاً ، بالصيغة الأكاديمية ، وحينئذ يستريحون .

وقد كشفت المبادىء الأكاديمية فى الفن التشكيلى إبان عصر النهضة الايطالى ، ومن خلال محاولة الفنانين محاكاة الطبيعة ، والعودة بالفن إلى مظاهره البصرية الممثلة فى الفنين الاغريقى والروماني ، ولم تكن الكاميرا قد كشفت بعد . ثم أخذت هذه المبادىء ردحا من الزمان لتحفظ ، وتعلم ، وتنتشر ، وتتداولها الأجيال فى كليات الفن ، ومعاهده ، وأكاديمياته ، فى أوروبا ، وأمريكا ، والشرق الأوسط . ومن البديهي أن ذوى العقلية الأكاديمية فى مجال الفنون التشكيلية الذين تدربوا على حفظ قواعد : المنظور والظل والنور .



● سؤال يحير رجال التربية :

كيف نتعرف على رسوم الطفل المبدع ؟

بول كلي : تأثر في هذه اللوحة بالروح السائدة في رسوم الأطفال

مارك شاجال : في لوحته ، بلور أحلام الطفولة في خيال طليق يعيشه الأطفال

والنسب ، والتشريح ، يكونون عادة فتوغرافية فى الرؤية ، وأى مظهر تشكيلى يتنافى معها يصدرون عليه حكمهم المتعصب بخلوه من الإبداع ، وكان هذا شأنهم عند النظر إلى رسوم الأطفال . ويخضع لهذه الرؤية الجمهور غير المثقف فنياً ، الذى منه الآباء والأمهات ، والمدرسون والكتاب ، ونفر من المشتغلين بالتربية الفنية الذين دفعت بهم الأقدار إلى هذه الوظيفة دون إعداد مهنى مسبق .

والحقيقة أن بعض رسوم الأطفال يحمل إبداعاً ، بل وإبداعاً أصيلا ، وبعضها الآخر تنخفض فيه هذه الصفة ، وكثيرا ما يكون آلياً ، مليئاً بالعادات المحفوظة نتيجة عدم توافر التوجيه الملائم .

والتساؤل الذى يحير المشتغلين بالتربية الفنية ، والفنانين التشكيليين ونقاد الفن بوجه عام : كيف يتعرفون على رسوم الأطفال التى تحمل إبداعاً ؟ وكيف يميزونها من سيل الرسوم التى تؤدى كروتين تقليدى يحاكى فيه الأطفال بعضهم البعض ، ويكررون محفوظاتهم تكراراً آلياً يخلو من الحس والتفكير ؟

الطفل المبدع له تكامله الذاتى ، وحينما يرسم فإن عاداته ، واتجاهاته ، ومفاهيمه ، لا ينفصل بعضها عن بعض ، بل ولا تنفصل عن حركاته الجسمية .. إن أداءه يتمشى مع طبيعته الكلية، ولذلك حينما يبدأ أول خط فوق فراغ الورقة ، يحدث تقسيماً فى الفراغ ، وإذا أضاف خطاً ثانياً انقسم الفراغ إلى مساحات أضيق ، فإذا أضاف ثالثاً ، ورابعاً ، وخامساً ، حدثت عدة تقسيمات للفراغ تنم عن إيقاع وتوافق يعبر عنهما الطفل بطريقة لا شعورية ، فتظهر وحدة العمل وتناغمه ، بتآلف إيقاعى هو انعكاس لكيان الطفل ككل : عقل وجسم ، روح وجسد ، شعور ولا شعور ، ذات وموضوع ، فرد وبيئة ، حاضر وماض مجتمعان فى قالب جديد فريد يمثل لحظة الإبداع التى يمر بها الطفل .

والشكل المنشور ضمن رسومات الأطفال على الصفحات التالية لطفل قطرى عبر فيه عن « أسرتى » . لقد رسم الخط الخارجى لفراغ المسكن ، وقسمه عدة حجرات تقسيما رمزياً ، ثم وضع فى كل غرفة بعض أفراد الأسرة بدون أيدي .

والأبناء فى قطر كثيرو العدد ، وقد لاحت هذه الكثرة فى التعبير ، وظاهرة الإبداع تنحصر فى التنظيم الايقاعى لأفراد الأسرة ، فكل فرد وهو يمثل الموجز الشكلى الذى حققه الطفل ، وأخذ يكرره ، لكن التكرار فيه تنوع واضح ، فهو ليس على وتيرة واحدة ، والتنوع يحدث فى أوضاع الأشخاص وفى استقامتها أو ميلها ، وفى كبر حجمها أو صغره ، وتظهر الأشخاص بقدمين أو بقدم أو بدون ، كما أن تقاطيع الوجه تحمل أحياناً عينين وأنفاً على شكل مثلث من ثلاث نقاط ، وأحياناً أخرى من نقطتين فقط ، والجسم فى الغالب مستطيل ، لكن بعض الأجسام أرفع من البعض الآخر ، ويقترب بعضها من مخروط ناقص ، أما الرءوس فهى أشكال أقرب إلى الدوائر ، وتتكيف مع كل وضع تكيفاً إيقاعياً واضحاً . والشكل الكلى فى مجموعه يحمل الإبداع لأن الطفل وهو يرسمه لم يتردد فيه ، ورسمه بجرأة ، وسيطر على الفراغ بطريقته الخاصة ، ونقل إلينا معرفته عن كثرة أعضاء الأسرة فى تآلف موسيقى ، يحمل فى طياته حساً أيقاعياً أشبه بالحس الذى يتولد في الرقص الجماعي .

بصمات الطفولة

في لوحات الفنانين العالميين

وهناك رسم لطفلة قطرية في سن السابعة تعبر فيه عن موضوع « أسرتي » ، فكان لها خيال آخر ، والأسرة كبيرة لاشك ، ومكونة من عشرة أشخاص متفاوتي الأحجام ، ويلتفون حول المائدة التي تبدو مسطحة ولها كيان بيضاوي واسع من اليمين ، وضيق من اليسار ، وأمام كل عضو طبق ، وفي وسط المنضدة طبق كبير به نقط لعلها ترمز للأرز ، وجميع الأشخاص المرسومين محملقون للمتفرج كأنهم ينتظرون أن تلتقط لهم صورة ، كما أن لهم أذرعاً ، وهذا اعتراف من الطفلة بأنهم يأكلون . ولو قارنا بين اللوحتين للمحنا نوعاً من الابداع في كل رسم . ورغم أن الموضوع واحد ، لكن ادراكه في الحالتين يوضح أن لكل طفلة شخصية مميزة ، وتفرد منذ البداية في التصور ، وفي الأداء . وفي المعلومات التي سجلتها عن الموضوع ، المرتبط بالاطار الاجتماعي القطري .

وفي شكل آخر رسمت طفلة حديقة الحيوان ، والابداع قاصر في الصورة على استخدام الدائرة والمستطيل ، وهما الشكلان اللذان يمثلان القاموس التشكيلي للطفلة ، ويتكرران في الصورة ليكونا عناصرها المختلفة ، فالدائرة هي رأس الإنسان ، ورأس الحيوان ، والشمس ، والزهرة ، وثقب الشجرة . أما المستطيل فهو القفص ، والشجرة ، وجسم الإنسان ، والإشعاعات الخطية واردة في الشمس ، وفي القضبان ، وفي العشب الأمامي ، وفي فروع الشجرة . إن الأشخاص من طابع مميز ، والواحد منهم يتمايل في اتزان مع الآخر ، وهو يواجه المتفرج . أما الحيوانات فرءوسها الدائرية تواجه الرائي ، ويمكن النظر إلى اللوحة كشرطان ابداعية مصممة طولياً من اليسار إلى اليمين ، فالصف الأول يحوي أشخاصاً ، والثاني أقفاصاً ، والثالث شجرة ، والرابع أشخاصاً ، والخامس أقفاصاً ، وتتناغم حركة الصورة فتنقل معاني متزنة ، ومعلومات إيقاعية عن مفهوم حديقة الحيوان ، لدى طفل قطري في سن السابعة .

وهناك رسوم لعشرين طفلاً قطرياً في سن التاسعة عن رسم « الأسد » ، ويلاحظ للوهلة الأولى أن العشرين بدون استثناء رسموا الوجه من الأمام والجسم من الجانب ، وحاولوا ابراز الصوف المحيط برأس الأسد بأساليب متنوعة . أما الأرجل فهي اثنان أو ثلاثة أو أربعة . ورسوم الأسد هذه تثبت بوضوح أن الرسم بالنسبة للطفل لغة لها معالم ، ومفردات ، وتراكيب يخضع لها سائر الأطفال وإن اختلفوا في التناول الفردي حسب طراز كل منهم ورؤيته الابداعية المثيرة (١) .

إن أمثلة الابداع في رسوم الأطفال كثيرة لو احترسنا نحن الكبار من التدخل المفسد لهذه الرسوم ، والتدخل يتم عادة بفرض أساليب الكبار الفجة ، ومنطقهم غير الفني على الصغار ، وكأن الحقيقة الفنية الوحيدة هي الفتوغرافية التي يعرفها الكبار بدنياهم المتعصبة المحدودة ولا شيء غير ذلك ، ولو راجع الكبار أنفسهم لوجدوا أن تعصباتهم تفسد بطريق غير مباشر رسوم أبنائهم ، وتحرمها الانطلاق ، والتعبير عن مكنوناتهم ، ووجدانهم ، الذي يحمل الشعر ، والخيال ، والآفاق غير المحدودة .

لقد تصفح العلماء آلافاً من رسوم الأطفال : شرقية ، وغربية ، وكتبوا عنها المراجع ، وسلموا بأنها تمثل لغة مشتركة بينهم ، رغم اختلاف جنسياتهم ، ودياناتهم ، ولغاتهم ، وألوانهم ، وبيئاتهم ، وكل تعصباتهم ، لكن مع ذلك قد ظهر أن لكل جنسية لهجتها الخاصة وسط هذا الإطار العام ، وكثيراً ما تضغط البيئة في كل قطر بمفاهيمها الغثة لتقتل فن الأطفال . وهو في مهده . نتيجة سيل الرسوم الغريبة التي تعرض على الأطفال في كتب المطالعة ، والمجلات ، والاعلانات ، والميكي ماوس ، والكاريكاتير ، والشرطان الكوميدية . وبعد حين يختفي هذا الفن التلقائي ، ويستبدل بالمزيف ، الذي لا يمثل أصالة ، ويشين المظاهر التشكيلية لمدنيتنا المعاصرة .

وقد يتساءل المرء : أي نفع يمكن أن تجنيه المدنية من رسوم الأطفال هذه ؟ والواقع أن مقومات الابداع ، ومراحله الأولى ، تظهر في تلك التخطيطات الأولية التي ينتجها الأطفال تلقائياً ، وترى آثارها على الورق ، وفوق الجدران ، وفي ساحات الشوارع والأرصفة ، ولكل طفل الحق في أن يعبر بالرسم عن انفعالاته ، وأفكاره ، وينقل للمتفرج شيئاً من خبراته المستحدثة في الحياة من خلال هذا الرسم ، فهو حق من حقوقه كانسان ، هذا الحق يكمن فيه احترام فرديته ، وحريته ، وبخاصة قبل أن يتعلم النطق ، أو الكتابة والقراءة ، فيصبح الرسم أداة اتصال ، والتي من خلالها ينقل الطفل مشاعره لغيره ، ويتعلم أن يكون انساناً حراً ، يبدي رأيه مرسوماً بطلاقة ، وبلا خوف أو تحفظ .



مجموعة من الأسود مختارة من رسوم أطفال قطريين تتراوح أعمارهم ما بين التاسعة والعاشرة

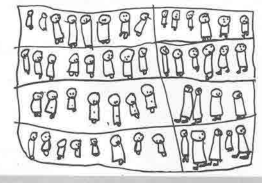
أما إذا وجد الطفل وجوهاً مكفهرة ، وعيوناً متهكمة ساخرة ، وهي تطل على رسومه ، فإنه لابد أن ينكمش ، ويكبت انفعالاته ، ويتوارى ، وينطوي على نفسه ، ويجبن ، ويخشى ابداء رأيه ، ويؤثر كل هذا في صحته النفسية ، ويزداد الطين بلة حينما يتدخل الكبير بجهالة ليصحح له مفاهيمه التي يترجمها بالرسم ، فيعلمه حرفنة الكبار ، والنظرة الفوتوغرافية الأكاديمية ، فيقتل فيه الابداع منذ وقت مبكر ، وتضيع على المدنية كثير من المواهب التي وضعها الخالق الأعظم في الأطفال وهم في مهد حياتهم ، نتيجة الضغط الاجتماعي الأعمى الذي لا يرحم وتسرب الذوق الفاسد إلى الروح اليانعة فيحرمها حقها في الوجود .

إن الطفل يمارس ذوقه وتجربته الخاصة من خلال الرسم ، والتوجه المهني المثمر يصقل هذا الذوق ، وينمي الابداع ، وبالتالي يحفظ لشخصية الطفل معالمها ، وقوتها ، وفرديتها الذاتية ، وكلما كان هذا النمو صحياً مهد لمدنية ذواقة ، مبتكرة ، انسانية ، سمحاء ، وخالية من العقد .

إن الكثيرين من الكبار يعترفون صراحة بفقدانهم براءة الطفولة ، وصفاء سريرتها ، وحسها النقي الصادق المباشر . وودوا لو أنهم ظلوا محتفظين بتلك الصفات التي فقدوها خلال معركة البقاء الطاحنة ، في رحلة الحياة .

أليس بابلو بيكاسو (١٨٨١ ــ ١٩٧٣) هو القائل : حينما كنت في سن الثالثة عشرة كنت أرسم مثل رافاييل ، وقد أخذت وقتاً طويلاً ، وجهداً ، لأعود وأرسم كالأطفال (٢) . إنها شهادة من هذا العملاق تبين النفحة الابداعية الكامنة في رسوم الأطفال والتي أثبتت الدراسات المقارنة مدى الصلة بين خصائص هذه الرسوم ، والأسس التعبيرية التي قام عليها الفن المصري القديم ، والآشوري ، والمكسيكي القديم ، والفنون الشعبية والبدائية ، وتأثر عدد من قادة الفن الحديث في العالم ، بالروح السائدة في رسوم الأطفال ، فكانت منبعاً للتحرر بالنسبة إليهم .

ومن بين هؤلاء الفنانين الذين تأثروا برسوم الأطفال بطريق مباشر أو غير مباشر روفينو تمايو المكسيكي (١٨٩٩) وبول كلي السويسري (١٨٧٩ ــ ١٩٤٠) وهنري ماتيس الفرنسي (١٨٦٩ ــ ١٩٥٤) وجوان ميرو الأسباني (١٨٩٣ ــ ١٩٨٣) وجين دي بوفيه الفرنسي (١٩٠١) وبن شان الأمريكي (١٨٩٨ ــ ١٩٦٩) ومارك شاجال الروسي (١٨٨٩ ــ ١٩٨٥) وكثيرون غيرهم . وهذا يبين مدى حيوية هذه الرسوم وفاعليتها ، وحاجة الكبار لاحاطتها بجو من







ثلاث لوحات لأطفال قطريين ـ ٦ ، ٧ سنوات ـ الأولى والثانية
بعنوان أسرتى ، والثالثة بعنوان : حديقة الحيوان

الرعاية لتؤتى أكلها وتثمر ، وتضفى طابعها الإبداعى الإنسانى على المدنية المعاصرة . وها هى أمثلة واضحة لنخبة من قادة الفن المعاصر تبين إلى أى حد احتضن كل فنان بطريقته الخاصة احدى نزعات الأطفال فى التعبير وبلورها ، وأعطاها حنكة الكبار ، ومهاراتهم دون أن تفقد القوة التعبيرية المتدفقة ، وتلقائية الحس الذى يتميز به الأطفال .

فهناك لوحة للفنان بول كلى ، تعبر عن الشخص الموصوم ، وببساطة صنع الرأس أقرب للشكل الدائرى . ويمكن مقارنته بالرءوس الواردة فى رسوم الأطفال المنشورة فى المقال لإدراك العلاقة المشتركة . وقد أكمل كلى الوجه بخطوط هندسية ليعبر عن تلك العلاقات المميزة للوجه الذى صوره بألوان محدودة ، الأحمر ، والأسود ، والأصفر ، وباستخدامه الدائرة والخط قال الكثير .

كما أن هنرى ماتيس لم يقتنع بأن يرسم سطح المنضدة بالطريقة الأكاديمية بيضاوياً ، وإنما فضل أن يكون دائرياً ، فكأنه نظر الى سطح المنضدة من أعلى ، بينما غير موضعه ونظر إلى عمود المنضدة من الأمام . وهذا ما يفعله الطفل عادة ليعبر بطلاقة عما يريد رسمه ، فيغير موقفه تجاهه ليصفه من كل جانب ، بل وأحياناً من أعلى وأسفل بالإضافة . فكأن ماتيس أخذ سمة من تعبيرات الأطفال التى تظهر فى رسومهم وبلورها بحس الفنان الناضج المتمكن ، فجاء تعبيره فيه حنكة الكبار ، وبراعة الأطفال .

والفنان جوان ميرو أحد قادة الحركة السيريالية فى العالم المعاصر يعبر عن العصفور المحبوس تعبيراً رمزياً : فالوجه أقرب إلى المربع ، والعينان دائرتان ، البقع هنا وهناك تمثل « شخبطة » أقرب إلى ما يفعله الصغار ، بألوان استخدم فيها الدق أحياناً ، والخربشة أحيانا أخرى ، وتلقائية انسكاب اللون فى الأرضية المحيطة تشير إلى هذا العالم المحرر فى الرؤية من كل قيد أكاديمى ، وكل ما فيه يشير بوضوح إلى نظرة ممتدة ، متعمقة ، مثيرة لفن الطفولة .

أما الفنان مارك شاجال الروسى المولد والذى استوطن فرنسا ورحل حديثاً عن عمر فوق التسعين . فقد بلور أحلام الطفولة فى خيال طليق أشبه بما نقرأه فى « ألف ليلة وليلة » . فقد صور الديك فى أكبر حجم ممكن يطير فى السماء فوق قريته التى تبدو متناثرة البيوت من أسفل ، بينما تنطلق فتاة أحلامه مجاورة الديك بطول فارع غير عادى ، وتظهر يد الفنان ووجهه وفرشته وهو يقترب من فتاة أحلامه . إن صدق التعبير وطلاقته هى التى يعرضها الأطفال فى رسومهم ، ويحتاجون إلى عقليات مستنيرة لتوجيههم الوجهة السليمة . لقد اعطى شاجال المثل لانطلاق الخيال فحقق حلماً يعيشه الأطفال ، وعبر فى فنه عن احساس الشاعر بالأشكال والألوان .

لقد احتضن كثير من الفنانين نزعات رسوم الأطفال الابداعية ، وانطلقوا بها إلى آفاق بعيدة ، أكسبتهم شهرتهم ، ومذاقهم ، وحررت رؤية جمهور عشق فنهم ، وعلينا كآباء وأمهات ومعلمين أن نبعد عنها المؤثرات الخارجية المفسدة ، ونيسر فى طريق الصغار : الأوراق ، والأقلام ، والألوان ، ونشجعهم على الإسترسال فى ابداعاتهم ، وحينئذ سينشدون بالرسم أشعارهم بلا خوف أو وجل .

محمود البسيونى

هوامش

(١) الأسود من استخراج الدارسة : فوزية جاسم فخرو فى مقرر (٤١٠) المشروع الفنى تحت اشراف الكاتب ـ جامعة قطر . انظر أيضاً للكاتب : سيكلوجية رسوم الأطفال ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤ط ٢ .

2. H. El Bassiouny, Art Education West to Middle East. Cairo: Dar El-Maarif, 1984, 17.

كتابات شرقية وغربية

قنبلة روائية يفجرها كاتب ياباني



الكاتب الياباني..موريو كيتا

« منزل نير House of Nire » واحدة من أهم الروايات التي صدرت في الأدب الياباني المعاصر . وهي تعكس إلى حد كبير مدى تأثركاتبها بأسلوب وأفكار « توماس مان » الذي يكن له إعجاباً شديداً ، ويتمنى أن ينال ما ناله من شهرة وانتشار .

الرواية صدرت للمرة الأولى في عام ١٩٦٤ ، وطبعت حتى الآن ٨٧ مرة ، وبيع منها أكثر من مليون ونصف نسخة ، وترجمت إلى الانجليزية في الربيع الماضي فقط ، أي بعد ٢١ سنة من صدورها الأول . وهي تعتبر تأريخاً اجتماعياً لليابان في الفترة ما بين ١٩١٨ ، ١٩٤٦ أي من نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى الغزو الجماعي للدولة المهزومة بعد الحرب العالمية الثانية .

هذه الرواية التي تعكس بأسلوب كوميدي ساخر التغيرات التي طرأت على المجتمع الياباني من خلال مجموعة من الشخصيات المتباينة يقول عنها « يوكيو ميشيما » إنها من أهم الروايات التي صدرت في اليابان في سنوات ما بعد الحرب .

وقبل أن نتكلم عن الرواية نفسها ، دعنا نتعرف على بعض ملامح شخصية مؤلفها .. ولد موريو كيتا في سنة ١٩٢٧ لوالد كان شاعرا مشهوراً بالاضافة إلى عمله الأصلي كطبيب نفساني . ودون أي حماس أو حرص على أن يكون طبيباً أيضاً ، التحق بكلية الطب في ١٩٤٨ وتخرج منها في ١٩٥٣ (نفس العام الذي توفى فيه والده) ، وحصل على الماجستير عن دراسة عن انفصام الشخصية في ١٩٦٠ . وطوال عمله كطبيب نفساني في المستشفى الذي كان يديره شقيقه الأكبر كانت الكتابه هي شاغله الرئيسي ، إلى أن تفرغ لها تماماً وهو في الثلاثين من عمره .

وقد أفادته كثيراً ممارسته للطب النفسي أثناء فترة الحرب ، فكانت استكشافاته الحساسة لعقول ونفسيات المرضى ذات قيمة كبيرة له ، حيث ساعدته على رسم شخصياته وابراز جوانبها الذهنية والنفسية . ولذلك يقول عنها إنها لم تكن استكشافات طبيب بقدر ماكانت استكشافات كاتب يسبر غور شخصياته ، ليعيد صياغتها من جديد وبدرجة لا تخلو من المبالغة في معظم الأحيان .

والمؤلف نفسه شخصية غير عادية .. فهو يقول مثلاً إن ٩٠٪ من أعماله (٦٠ كتابا) عديم القيمة ، ذلك لأن « اليابانيين عموماً يكتبون أكثر مما يجب » ورغم أنه كان يتمنى أن يكون في مثل شهرة « توماس مان » ، إلا أنه يرى كتاباته الساخرة أقرب إلى كتابات « تشارلز ديكنز » و « مارك توين » . وإذا كان توماس مان « يكتب من العقل » فإنه « يكتب من الجنون » كما يقول .

المؤلف أيضاً شخصية غاية في الغرابة ويكفي أن تعرف أنه اشتهر في اليابان باسم « المكتئب المجنون » وهي تسمية لا تزعجه مطلقاً .. !

« لا أحد يراني في اليابان انساناً سوياً ... أنا أعترف بأنني مجنون ولأنني نشأت في مستشفى للأمراض العقلية ، فأنا أعرف جيداً هذا النوع من المرضى .. ونحن لا يجب أن نخجل منهم أو نخشاهم .. أنا مريض ولست طبيباً .. » هكذا يقول عن نفسه ..

ورغم أن سلوكه الشخصي يوحي بأنه انسان عادي ، إلا أن اليابانيين يرونه غير ذلك .. فالحكايات التي يرويها عن نفسه وعن حياته وإن كانت تبدو عادية بالنسبة لأي مستمع أمريكي

إعادة الفلسفة الحديثة إلى القيم الأخلاقية

في تقويمه لتلك الآلة البشرية التي لا تتوقف عن التفكير والمعرفة باسم « موريتمر آدلر Mortimer Adler يقول « ديفيد ريسمان » أستاذ الاجتماع بهارفارد ان أبرز ما يميزه هو تلك المثابرة التي لا تكل . وهذا بالفعل ما يعكسه مؤلفه الذي ظهر مؤخراً بعنوان « عشرة أخطاء فلسفية » والذي يفند فيه أعمال مشاهير الفلاسفة منذ توما الاكويني .(١) وآدلر الفيلسوف صاحب الاهتمامات الفكرية الواسعة استطاع بثقة واقتدار أن ينتهي من هذا المؤلف في خمس عشرة جلسة صباحية من الكتابة العاصفة . « الكتابة هي الجزء السهل ، إن التفكير الذي يسبق الكتابة هو الذي يستغرق الوقت الطويل » هكذا يقول .

ورغم كونه في الثانية والثمانين من عمره فالكتابة ليست فقط هي كل ما يقوم به ، فهو كأستاذ سابق في فلسفة القانون في جامعة « شيكاغو » انتهى حديثاً من رحلة حول العالم للدعاية للموسوعة البريطانية التي يرأس هيئة تحريرها كما كان أحد مؤسسي سلسلة « أمهات الكتب في العالم الغربي » التي تصدرها نفس الموسوعة وجاءت في ٥٤ مجلداً كتب بنفسه تقديماً لها جميعاً . إضافة إلى ذلك فهو الذي أنشأ ولا يزال يدير حتى الآن معهد البحوث الفلسفية .

وكتابه حصيلة خمسين عاماً من التأمل لأفكار الفلسفة الحديثة لينتفض انتفاضة الأسد على الفريسة لدحض بعض آراء « لوك » و « هيوم » و « روسو » و « هوبز » و « ماركس » ومجموعة كبيرة من مفكري ما بعد القرن السادس عشر والذين كان خطأهم « الكارثة » كما يقول « هو محاولة تأسيس أنواع جديدة من المعرفة دون محاولة البناء على الحقائق القديمة كما لوكانوا بدون أسلاف . »

أما فيلسوفه الأثير فهو أرسطو الذي قرأ أعماله أكثر من ٢٥ مرة .

وبينما يسلم بأنه قد حدث تقدم في المنطق والنظرية السياسية وفلسفة العلم يزعم أنه باستثناء « توما الاكويني » وأبحاثه الشاملة في اللاهوت فإن الفلسفة لم تخط خطوة واحدة إلى الأمام منذ أرسطو .

وهو قاس بنوع خاص على التجريبيين (٢) وعلى « لوك » بالتحديد ، فهو يرى أن خطأه الكبير يكمن في افتراضه أن الأفكار هي ما يمارسه الفرد عن وعي ، فطالما أن خبرات وتجارب الأفراد المختلفة هي أيضاً مختلفة بالضرورة فلابد وأن تجيء أفكارهم أيضاً مختلفة . يرى آدلر أن هذه المفاهيم لا تتفق مع العقل ويعيد إلى الذهن النظرة التومانية (٣) المأخوذة عن أرسطو وهي أن الأفكار هي المفاهيم الأساسية والحقائق النهائية التي نفهم

مثلاً ، إلا أنها تبدو غاية في الغرابة بالنسبة لأي ياباني .

وهو أحياناً ما يقوم بأعمال « مجنونة » .. إذ أعلن مرة أن بيته والمساحة المحيطة به منطقة مستقلة عن اليابان ، وبناء عليه فليس مطلوباً منه أن يقوم بدفع الضرائب ! مرة أخرى رسم عملة مزيفة وضع على وجه منها صورته ، وعلى الوجه الآخر صورة لص في ثياب مضحكة .!

ومنذ صدور الترجمة الانجليزية للمجلد الأول من الرواية في العام الماضي وترجمة المجلد الثاني منذ شهور ، اتسع نطاق شهرته خارج اليابان ، وأصبح يقارن في كثير من الأحيان بديكنز ، ومارك توين ، وذلك لمقدرته الفائقة على إبداع مجموعة من الشخصيات الهزلية الحية تجعله يزعم أحياناً أن العالم غير محق في اتهامه للشعب الياباني : بأنه لا يتذوق الفكاهة ولا يحبذ المرح .

أما الرواية « منزل نير » فهي تحكي قصة عائلة من طوكيو بأجيالها الثلاثة ، ترجع جذورها إلى فلاح فقير من فترة « الميجي » ، تدير مستشفى للأمراض النفسية إلى أن يتم تدميره في الحرب . هذا المستشفى بما فيه من شخصيات مريضة وغريبة يرمز إلى اليابان ، رغم محاولته أن ينفي ذلك بقوله « أسرتي هي التي كانت تدير المستشفى وأفرادها هم المرضى .. وليست اليابان هي المجنونة بالطبع » .

يأتي وقت تضعف فيه الأسرة من جيل إلى جيل . فبعد الشخصيات القوية في فترة « الميجي » فترة التطور السريع لليابان نصل إلى شخصيات عادية في « فترة الشووا » . لذلك يقول المؤلف إنه يصف الانتقال والتغيير من الأكبر إلى الأصغر .. من الأقوى إلى الأضعف ، لذلك جعلت شخصية والدي وهو تتسوكيشي في الرواية تبدو أصغر مما كانت عليه في الحقيقة » .

أسلوب الرواية وبناؤها يعكسان الحالة الوطنية المتغيرة لليابان ... الانتقال من حالة عدم الاكتراث بالحرب العالمية الأولى إلى التطلع إلى المستقبل إلى تنامي الوطنية في الثلاثينيات ، ثم أخيراً إلى فترة ما بعد الحرب .

والكاتب يجاور بين تاريخ أسرة نير والأحداث الهامة التي تزامنت مع تطورها مثل زلزال طوكيو المدمر في ١٩٢٣ ، ونهوض طوكيو من بين الانقاض لتصبح من كبريات المدن العالمية .. وصعود العسكرية ، وغزوات الصين والحروب التي نجمت عنها ، وقصف بيرل هاربور وهي الحدث الهام الذي ينتهي به المجلد الأول من الرواية .

وفي المجلد الثاني يتحول الأسلوب من السخرية الخفيفة إلى الفكاهة السوداء التي تمتزج بمأساوية حادة ، مع أحداث جسام مثل معركة بحر المرجان والقنبلة الذرية والغزو الروسي لمنشوريا وسخالين في أغسطس ١٩٤٥ ، والتي استطاع الروائي توظيفها ليعكس الأعباء النفسية والمادية لها على شخصياته .

والرواية بمجلديها هي حياة عائلة « موكيشي سايتو » والد الكاتب . أما الكاتب فيظهر هو نفسه في شخصية « شوجي » وهو شاب كسول من شباب ما بعد الحرب ، كما تظهر أمه في شخصية « روكو » القوية التي لاتستسلم ويظهر أيضاً شقيقه في شخصية « شينشي » .

والمؤلف يقول إن توماس مان يعتقد بأن الفن يصف العالم عن طريق رسم الشخصيات « وأنا عندما فكرت في أفراد عائلتي ابتداء من جدي « كيشيرو » وجدت عدداً من الشخصيات الغريبة لدرجة شعرت معها بأنني أصف جزءاً من اليابان » .

ورغم أن شخصياته بها الكثير من المبالغة ، إلا أنه يرى أن شخصية الجد كانت فعلاً شخصية رجل قوي ، يعجب بظاهر الأشياء ، بينما يمثل الأحفاد فترة ما بعد الحرب حيث الاكتئاب .. المرض الذي يسيطر على الجميع .

من الأعمال الشهيرة لنفس المؤلف سلسلة كتب « دكتور مانبو » التي تحكي مغامرات خيالية يقوم بها طبيب على احدى السفن أثناء رحلة بحرية عبر أوربا . ورغم الشهرة التي تحققت له ، إلا أنه يعتقد أن كتابه « الأشباح » الذي صدر في سنة ١٩٧٤ أكثر كتبه حساسية وأقربها إلى نفسه ، لأنه يتناول وفاة والده وشقيقته وأصدقائه .

مؤخراً .. انتهى الكاتب من رواية عن المهاجرين اليابانيين الأوائل إلى البرازيل .. وفي مقابلة أجريت معه في منزله في طوكيو منذ فترة قريبة كانت تبدو عليه السعادة الغامرة باحتفالات ذكرى انتهاء الحرب لأنه يرى أن « الانسان المهزوم .. يصبح أكثر تعقلاً وأكثر حكمة ... ! »



موريتمر آدلر : متعته الحقيقية هي الوصول إلى القارىء العادي

بها الخبرات ، وهي حقائق ثابتة ولا لما كان لدى البشرية قاعدة مشتركة للتفاهم ولا كان لديها قيم عامة مثل الخير والعدل والحق وهي قيم يؤمن آدلر بها تماماً .

وهو يأخذ على « هوبز » و« هيوم » وآخرين تأكيدهم أن عقل الانسان أداة حس أكثر منه أداة تفكير وينتقد « دارون » بشدة لاعتباره الإنسان مجرد حيوان يمتلك وسائل إدراك حسية أرقى أكثر منه كائن حي وأنه الوحيد بين الكائنات الحية الذي يمكنه فهم أو تصور الأفكار المجردة مثل الصواب والخطأ .

و« آدلر » قاس أيضاً وبنفس الدرجة على « الحتميين (٤) مثل ماركس على أساس أنه إذا كانت جميع النتائج مقررة ومعروفة سلفاً كما يقولون لما كان هناك إنسان مسئول عن أفعاله .

وخلال الكتاب كله يحاول المؤلف وباصرار شديد أن يعيد الفلسفة الحديثة والقارئ - بالطبع - إلى الحقائق الإنسانية الثابتة والقيم الأخلاقية كما تعرفها الفلسفة الكلاسيكية ولا يطيق صبراً مع أي محاولة لتفسير تلك الحقائق والقيم على أنها آراء قديمة .

« لو كانت الفلسفة مجرد رأي لما كانت هناك أخطاء فلسفية . » وهو يعتقد أن آراءه لن تجد قبولاً ورغم ذلك فإن متعته الحقيقية كما يقول هي في الوصول إلى القارئ العادي فهو يعتبر نفسه فيلسوف كل الناس .

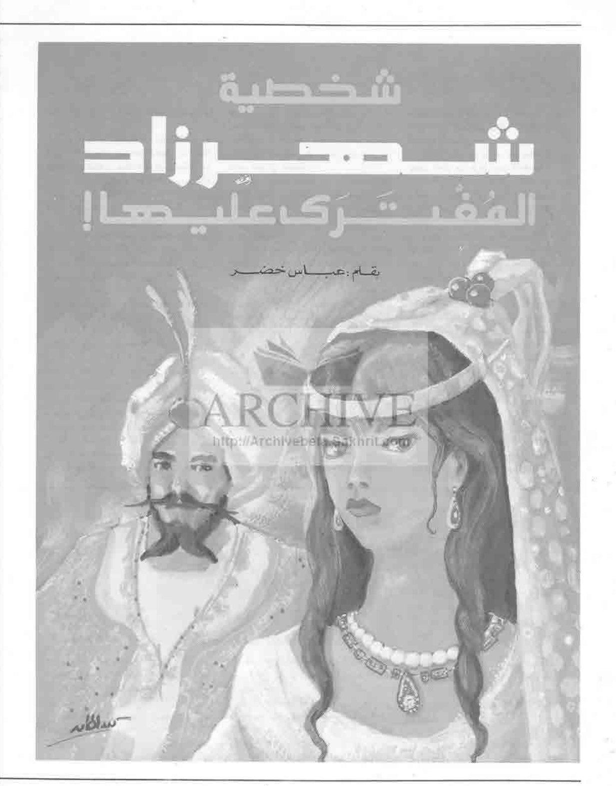
هوامش

(١) راهب وفيلسوف وعالم لاهوت إيطالي (١٢٢٥ - ١٢٧٤)

(٢) التجريبية مذهب يقول بأن المعرفة كلها مستمدة من التجربة

(٣) نسبة إلى توما الاكويني .

(٤) الحتمية مذهب يقول بأن أفعال المرء والتغيرات الاجتماعية ... الخ هي ثمرة عوامل لا سلطان للمرء عليها .


شخصية
شهرزاد
المُفتَرىٰ عليها!
بقلم: عباس خضر

« شهرزاد » راوية حكايات ألف ليلة وليلة فتاة فدائية ، إذ تعرضت لسيف الملك شهريار الذى فتك ببنات المدينة ، وأرادت أن تفديهن ، فوضعت نفسها أمام النطع والسيف ، متحدية ، بعزيمة صادقة وقلب حديد .

هذه الفتاة لابد أن تكون على مستوى عظيم من الخلق ، وهي الى ذلك قد تسلحت بالعلم والحكمة والمعرفة ، وأصرت على أن تواجه السفاك بهذا السلاح ، تريد إصلاحه وتقليم أظفار الشر فيه ، وهى أظفار قد نبتت واستطالت من جراء جريمة شنعاء ارتكبتها زوجته فقتلها وقتل العبيد ، وحقد على النساء جميعا ، ولم يقف نهر الدم عند ذلك ، بل امتد جريانه حتى شمل بنات المدينة ، ولم يبق الا شهرزاد بنت وزيره ، ندبت نفسها للخطب الجسيم ، والجميع يتوقعون أن يلحق رأسها برؤوس من سبقنها من البنات ، ولكنها استطاعت أن تروض الوحش فى شخص شهريار .

كيف حدث ذلك وكيف استلت سخيمة الرجل التي تكونت في نفسه من هول ما رأى ؟

فعلت ذلك شهرزاد بشخصيتها العجيبة .. بما قصت عليه من حكايات أغرقته في دوامتها فنسي ماكان ..

قالوا إنها حصلت علما وحكمة مما قرأت من كتب ، لم يكن ما تقصه عليه فارغاً ليس فيه إلا التسلية والانبهار ، بل كان جداً في صور هزل ، كان الهدف أن تصحح ما في نفسه من خطأ ، وتغير حقده على جميع النساء .

الجارية تودد

قالت له مرة فى حكاية « الجارية تودد » : إن امرأة بزت جميع الرجال من فقهاء ومفسرين ومحدثين وأطباء وفلكيين وغيرهم ، وجعلتهم يشعرون بالعجز العلمي أمام علمها الغزير وفهمها العميق .

ذلك أن الجارية تودد قالت لسيدها الشاب الذي أضاع ثروته ولم يبق عنده غيرها ـ قالت له :

إذهب بي إلى هارون الرشيد وبعني له ، ولا تقبل في ثمني أقل من عشرة آلاف دينار ، وأنا كفيلة أن أقنعه بأني أساوي أكثر من ذلك .

وفي مجلس الرشيد قالت تودد :

« إني أعرف النحو والشعر والفقه والتفسير والحديث واللغة والبلاغة ، وأعرف فن الموسيقى وعلم الفرائض والحساب والقسمة والمساحة وأساطير الأولين ، وأعرف القرآن العظيم ، وقد قرأته بالقراءات كلها ، وأعرف مافيه من الناسخ والمنسوخ والمدني والمكي وأسباب التنزيل وأعرف الحديث الشريف دراية ورواية ، ونظرت في علوم الفلسفة والرياضة والهندسة وعلم المنطق . وضربت العود وعرفت مواقع النغم ومواقع حركات أوتاره وسكناتها ، وبالجملة فإني وصلت إلى شيء لم يعرفه الراسخون في العلم » .

فلما سمع هارون الرشيد كلامها على صغر سنها تعجب من فصاحة لسانها ، والتفت إلى مولاها وقال : إني أحضر من يناظرها ويسألها في جميع ما ادعته ، فان أجابت دفعت لك ثمنها وزيادة ، وان لم تجب فأنت أولى بها .

هذه الجارية أعلم مني

واستدعى الخليفة العلماء والفقهاء والقراء والأطباء والمنجمين والحكماء والفلاسفة والمهندسين . وحضروا جميعا وناقشوها كل فى تخصصه ، فأجابت إجابات جعلت بعضهم يقول : يأمير المؤمنين ، هذه الجارية أعلم مني .. وكانت كلما فرغت من إجابة أحدهم عن أسئلته قالت له :

ـ قد سألتني ماسألتني ، وأجبتك ، وإني أسألك فأجبني .

ـ سلي ماشئت .

وتوجه إليه ما يعجز عن إجابته ، فتقول :

ـ يا أمير المؤمنين مره يخلع جبته أو طيلسانه وأنا أجيب عن سؤالي ..

ـ أجيبي أولاً وأنا آمره .

ثم تقول الإجابة الصحيحة ، فيأمره الخليفة بخلع جبته أو طيلسانه ، ويخرج بدون الجبة أو الطيلسان مقهوراً مهزوما .

وقد تضمنت المناظرة علماً غزيراً ودقائق في كل فرع من فروع المعرفة في سياق قصصي ممتع .

وبعد المناظرة العجيبة قال لها الخليفة : هل تعرفين شيئاً من آلات الطرب ؟ قالت : نعم فأمر بإحضار عود ، تناولته ، وضربت عليه وغنت ، فطرب أمير المؤمنين وقال لها : بارك الله فيك ورحم من علمك . ثم أمر بإحضار المال ، ودفع لمولاها مائة ألف دينار ، وقال لها :

ـ يا تودد تمني علي .

ـ تمنيت عليك أن تردني إلى سيدي الذي باعني ، ولا تسترد منه الثمن .

ـ لك ماتمنيت وزيادة .. خمسة آلاف دينار لك أنت .

قالت شهرزاد للملك شهريار :

ـ فاعجب أيها الملك الرشيد من فصاحة هذه الجارية ومن غزارة علمها وفهمها في كل أنواع المعرفة ، وانظر إلى مروءة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

جريمة الرواة والمنشدين

كيف يتصور المرء أن شهرزاد ـ وتلك صفاتها ـ تنطق بألفاظ الفحش والخنا ؟

وبخاصة أنها « تعالج » أزمة الملك مع زوجته ، فكيف تخاطبه بمثل ما أغضبه بقتل العذارى واحدة إثر واحدة ؟

من أين إذن جاء مايشتمل عليه بعض الحكايات من القليل الذي يجرح الحياء ويخدش الخجل ويصور الفسق في صور مثيرة مغرية ؟ إنه لابد من تزويد الرواة والمنشدين ، وهو الذي دعا رجال الشرطة والقضاء في مصر يصادرون النسخة التي كانت تطبع وفيها ذلك الرجس ويحكمون بالغرامات على من كان يطبعها وينشرها .

أفكانوا يتركونها وقانون الآداب العامة قائم يحمي من كل مايخل بالآداب العامة ؟

ومن تزويد الرواد أن بعضهم كان يحب « السمك المقلي » فأقحمه على الموائد مع الأطعمة الفاخرة في بعض الحكايات .

وقامت قيامة الكتاب والصحفيين احتجاجا على مازعموه من المساس بالتراث والحرية ،

وأكثرهم لم يقرأ التراث ولا حتى ألف ليلة وليلة ، أما الحرية فما أكثر ما يرتكب باسمها !

وفى من كتبوا وثاروا لذلك كاتبات وصحفيات ، وكان أجدر بهن أن يلزمن جانب الحياء .

جنوا على ألف ليلة

والعجيب أن هؤلاء الكتاب حاربوا الأفلام السينمائية الهابطة التى تعتمد على الإثارة بعرض الانحرافات ، ومازالوا يحاربون أفلام الفديو التى من هذا القبيل . وحسنا فعلوا ويفعلون . ولكن كانوا على العكس من ذلك فى الدفاع عن التراث الفاحش . إنهم جنوا على ألف ليلة وليلة بدفاعهم هذا . كأنهم سلموا بأن الفحش فى أصله ، ودافعوا عنه بفحشه ، وهو فى أصله — كما بينا — مبرأ من الفحش . وقد أشار وكيل النيابة إلى نسخة من الكتاب مطهرة بقلم المرحوم أحمد رشدى صالح . وإلى نسخة أخرى كتلك صدرت عن دار الهلال ، فالكتاب لم يصادر لذاته وانما لما ألصق به .

وامتد دفاع المدافعين عن المجون والفساد إلى كتب التراث الأخرى المشتملة على حكايات المجون وأشعار المجان مثل « أخبار أبى نواس » وبئس أبو نواس وبئس التراث الذى يشتمل على أخبار المجان والمجون . وبعض مؤلفى هذه الكتب يحاول أن يبرر ذلك بأنه فكاهات لا بأس بها .. والواقع أن ذلك ، أى كتابة هذه « الفكاهات » كان فى زمانهم حين كانت الكتب مخطوطة غير متداولة بين قراء كثيرين ، انما كان المؤلف يؤلف للخاصة وخاصة الخاصة ، ويشبه الحال فى ذلك مايلجأ إليه بعض الناس الآن عندما يريدون أن يتفكهوا بالنكات الخليعة ، فيلتفتون الى الصغار الموجودين فى المجلس ويأمرونهم بالذهاب الى حجراتهم واستذكار دروسهم ..

أما الآن والكتب تطبع وتصير فى متناول القراء جميعا صغارا وكبارا ، فتية كانوا أو فتيات . فانه لايليق مطلقا أن يكون الكتاب أداة مفسدة كأفلام الفديو الفاسدة المفسدة .



وعلى أى حال ليس كلام أولئك المؤلفين مسلما مقبولا ، بل هو مرفوض . ومجونهم مرذول وغير مقبول فى زماننا هذا الذى انتشرت فيه الطباعة والقراءة ، ولا يجدى أن نقول لأحد الأولاد : دع هذا الكتاب واذهب الى حجرتك واستذكر دروسك ..

ليس هذا كذاك

وبعض الكتاب استشهد فى دفاعه عن التراث « الماجن » بما ورد فى القرآن الكريم من آيات فى الجنس مثل قوله تعالى :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك . قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لايفلح الظالمون ، وقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين » .

نلحظ أولا أن الآية تضمنت تنفيرا من الفاحشة وحثا على التعفف . ونقول ثانيا إن ماورد فى القرآن الكريم من أمثال ذلك إنما كان موضوعيا جادا وبألفاظ مهذبة . وكذلك مايرد فى الفقه وفى العلم الطبيعى ، ليس فيه إغراء ولا فيه مايجرح الحياء .

وهو يهدف الى معرفة الأحكام والعلم بالحقائق ، على خلاف مافى التزيدات المضافة الى ألف ليلة وليلة ، ومافى كتب التراث الأخرى من الحكايات والعبارات المجونية الفاحشة ، ولا يقصد بهذا وذاك الا الإثارة والتظرف الوقح ، هنا كلمات وعبارات وتصويرات جنسية مغرية لاتختلف كثيرا عما اشتمل عليه كتاب « رجوع الشيخ إلى صباه » الممنوع من التداول . وغنى عن البيان ان الاستشهاد هنا غير ممكن بحكم الحياء ونظافة الكلام ، وكذلك بحكم القانون الذى يحفظ الآداب العامة ويحمى المجتمع من السوء والفحشاء .

إن الأولاد يدرسون فى المدارس التلقيح فى النبات والحيوان دراسة علمية موضوعية ترمى الى المعرفة البريئة المجردة من « قلة الأدب » ولاضير فى هذا لخلوه من الإثارة .

تحية إلى رجال الشرطة والقضاء الساهرين على أمن الناس وحماية المجتمع ماديا ومعنويا ، وتحية إلى كتاب الف ليلة وليلة البرىء مما دسه فيه الفاحشون ظلما وجهلا ونسبوه إلى الأديبة العظيمة الفاضلة : شهرزاد .

عباس خضر

الآمال.. والموت المُزَخرَف

شعر: حسن توفيق

بعينيكِ آمالي التي يرتجيها العمرُ مذْ باتَ قلبي مؤرقًا
وتعشقُ فيكِ الروحُ نُضرةَ أيامي ونبضَ كآبتي
كأنكِ وعدٌ في عيون الجميلات اللواتي نأى عنهن ركبُ صبابتي
وجئتِ .. فجاء .. الوعدُ كي يتحقَّقَا...

* * *

أريدكِ قربي ـ آه ـ لكنَّ أمواجاً من الخوف تُقبلُ
فنحن التقينا فوق أرضٍ مدمَّاةٍ بها الحبُّ أعزلُ
يُخوِّضُ في المستنقعاتِ وبالأحجارِ يرشقُه الأوغاد : أيّانَ يرحلُ
وبالغشِّ يُسحَلُ

* * *

أخاف من العدوى وأن تكذب النجوى وأن تشهدَ الأحلامُ موتاً مزخرفًا
يعللنا أن الحياةَ بها تسري فنبقى نهلِّلُ
لما زال فينا مَنْ نراه يضلِّلُ
ومازالت الأشجار تثمرُ حيَّاتٍ ويصعقُ سجنُ الأفقِ طيراً مرفرفًا

* * *

تقولين لي : حاذرْ.... ستفتحُ باباً للهواجسِ تدخلُ
تنفَّسْ شذى روحي ودعْ عنك ظلًّا يستطيبُكَ عابسًا
صحيحٌ بأنّا حين نشهدُ أقمارَ البراءةِ تأفلُ
تداهمنا الحُمَّى.... ولكننا لن نصلحَ العالَمَ الذي تكوَّمَ يابسًا

رفيقةَ أحزاني هو الفقر يغتالُ الحديقةَ في الروحِ التي تتفتحُ
هو الفقر طاغوتٌ يطوِّحُنا مثل الغصون المخوَّخه
فكيف سنُفلحُ
إذا نحنُ أحببنَا فسرنا فوقَ أرضٍ ملطخه

* * *

تشهيتُ فيك الوعدَ... قلتُ : حبيبتي
وأطلقتُ عصفوري الظمئَ من العشِّ الذي كَمْ تَبعثرا
لعلَّ مع الأيام تثمرُ لقياكِ ابتساماً منوَّرًا
يلاقيه أناشيدي فتنفضُ أوراقَ انتظارى حديقتي

* * *

عَلَى أننا لسنا نسير كما نرجو.... فكَمْ خابَ مأملُ
وماذا سنفعلُ
سوى أن نشدَّ الأزرَ.... قلبي يناديكِ ابتهالاً ويأملُ
وقلبك يسقيني الأمانَ من النبعِ الذي ليسَ يبخلُ

* * *

أصاحبتي... قلبي بحبِّكِ مأسورٌ ترنَّم مغرمًا
فلا تلفظي قلبي إذا تهتُ في الأرض الشحيحةِ مرغمًا
وهاهي آمالي بعينيكِ زهراتٌ تفتَّحْنَ أنجمًا
فلا تتركيني أسأل الريحَ عنهما ..

بقلم: جمـــــال قطــب

فارس الحرس

من خلال لقاءاتنا على هذه الصفحات ، لاشك أن قراءنا قد تبينوا الهدف المزدوج لاستعراضاتنا الفنية على مدى السنوات الماضية ألا وهو الاستمتاع الوجداني بما نقدمه من روائع الابداعات العالمية لأساطين الفن العظام ، وإلقاء الضوء على الحقائق العلمية والتاريخية التي واكبت هذه الأعمال الخالدة . أو بمعنى آخر استيعاب المعلومة الثقافية في اطار من الجمال الفني المثير !

ومن المعروف أن مدارس الفن ونزعاته واتجاهاته غالباً ما تساير التحولات والتطورات الاجتماعية وقد تصحح مسيرتها في بعض الظروف .. وهذا ما حدث — مثلاً — في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، حيث وجدنا أن فنون القرن الثامن عشر في معظم دول أوروبا قد انحرفت إلى الرونق والإبهارات البصرية والانغماس في الزخرف والتنميق ، دون اعتبار للقيم الفنية وروح الأصالة والابتكار .. تلك التي كانت من سمات فنون عصر النهضة الذهبي في القرنين السابقين . وظلت هذه الممارسات المبهرة تقلد أساليب فناني عصر النهضة وتسير على نهجهم دون أن يكون للفنانين مقومات العبقرية الفنية التي كان يحظى بها هؤلاء الأفذاذ السابقين .. ولذلك سميت فنونهم بطراز التهجية والباروك والروكوكو وغيرها من الأسماء التي تعني التقليد والتزويق والتنميق ، وأصبح الفن هيكلاً جميلاً مبهراً يفتقر إلى روح الجدية والتعمق والتجديد .

وقد عرفنا في لقاءات سابقة كيف هبت رياح التغيير من الجذور مع إطلالة الثورة الفرنسية التي زلزلت الكيان الفرنسي عام ١٧٨٩ ، وتزعم هذا التغيير في مفهوم الفن (جاك لويس دافيد) الذي انتخب سنة ١٧٩٢ عضواً بالجمعية الوطنية ضمن قادة الثورة الكبار وأصبح الحاكم بأمره في كل ما يتعلق بشئون الفن آنذاك . ومن موقعه الدكتاتوري القيادي ، فرض على الفنانين العودة إلى مناهل التراث والميثولوجيات الوطنية ذات الأسلوب الرصين المتزن والجمال الرياضي الذي يتميز به الفن الاغريقي القديم .. وبذلك نبذ الفنانون أساليب البهرجة الغارقة في الطلاوة والنعومة المترفة .. وعادوا إلى كلاسيكية الأجداد .. وأطلق على هذه النزعة المرتدة : الكلاسيكية الجديدة ، أو الكلاسيكية العائدة .

ودارت عجلة الأحداث .. وتوالت التقلبات السياسية والاجتماعية .. وانتهى دافيد بنهاية نابليون ونفيه إلى (سانت هيلانة) .. فقد نفي الفنان بدوره إلى بروكسل من عام ١٨١٦ حتى وفاته عام ١٨٢٥ ولكن (الكلاسيكية الجديدة) ظلت سائدة بزعامة تلامذته من أمثال (جرو Gros) و آنجر Ingres) ردحاً من الزمان .. وتهاوت قبضتها عاماً بعد عام ، حتى منذ أواخر عهد دافيد نفسه .. لأن الفنانين — كطبيعة الفن ذاته — لا يحبون إملاء الأوامر والشروط وفرض المناهج والحجر على قرائحهم وملكاتهم .. ولذلك رأينا فناناً مثل (تيودور جيريكو Theodore Gericault) يتمرد تمرداً سافراً على مدرسة دافيد المتزمتة ويشتق لنفسه ولغيره من الفنانين المتحمسين ، منهجاً مشحوناً بالانفعال والحركة والحيوية .. عرف باسم (الرومانتيكية) .

والرومانتيكية في الفن شيء غير الرومانسية .. بل نقيض لها .. فالأولى تقوم على مبدأ المبالغة في تصوير الأحداث الدرامية والمشاهد التراجيدية ، بعكس الثانية التي تعني التحليق والشاعرية . والواقع أن كلمة (رومانتيكية) مشتقة من لفظة (رومان Roman) ومعناها في اللغة الفرنسية قصة درامية أو حكاية ، وقد اعتمد الفن الرومانتيكي ، منذ البداية ، على المبالغة والانفعال في تجسيد الأحداث : فالحركة أشد عنفاً من الواقع ، والأبطال أعظم بطولة ، والأشرار أشد فتكاً وشراسة ، والنساء أروع فتنة وجمالاً .. فهو أسلوب لا يعترف بالرزانة ولا يطيق الصمت والاتزان .. وحتى في رسم الأبطال والفرسان والخيول ، نجد أن المحارب لابد أن تستثار قوته ، والحصان لابد أيضاً أن يتقلص حركة وانفعالاً ! كل هذا يجسده الفنان في كفاءة فنية متحررة وعاطفة متقدة واحساس ساخن بروح الحدث وايحاءاته الدرامية المروعة !

وقد رسخت المدرسة الرومانتيكية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وأنتج فنانوها عدداً من آيات الفن الرفيع .. وإذا كان تيودور جيريكو هو أول من رفع لواء هذه النزعة الواقعية العاطفية العنيفة ، فإليه أيضاً يرجع الفضل في تحطيم قيود (الكلاسيكية الجديدة) التي كبلت عزائم الفنانين وكبتت ميولهم وملكاتهم ومشاركتهم الوجدانية في أحداثهم المعاصرة ! واللوحات الرومانتيكية ، قد لا تثير فينا اليوم أي شعور بالاستغراب ، إلا أنها كانت تعد حينذاك ثورة على التقاليد المرعية والمثاليات التي التزم بها الفنانون كدستور أجبروا على ألا يحيدوا عنه قيد شعرة واحدة !

وكما نقول دائماً ، فالرواد هم الذين يخلدون في ضمير الفكر الانساني وفي سجلات التاريخ .. واليوم ونحن نشاهد أعمال جيريكو في متحف اللوفر وفي غيره من المتاحف العالمية ، حري بنا أن نتمثل الفنان الثائر وهو يعرض رقبته للمقصلة الرهيبة في كل لحظة .. لإيمانه بانطلاقة الفكر وتحطيم الأغلال التي كبلت بصائر المبدعين في عصره وحالت دون الخيال المبتكر والتعبير عن الانفعالات النفسية المتصارعة .وإذا كانت الحركة الرومانتيكية قد بدأت بالفن كمظهر من مظاهر الفردية في مجتمع الطبقة الوسطى الجديدة التي تمخضت عنها التحولات الاجتماعية في فرنسا والتي عرفت (بالبورجوازية) ، إلا أنها سرعان ما امتدت إلى العالم كله في الفن وفي مجالات الفكر والشعر والمسرح ، وانتشر الأدب الرومانتي (أوالرومانتيكي) في جميع أنحاء أوروبا ، فظهر في فرنسا على يد هوجو ودي موسيه ، وفي إنجلترا على يد شيللي وبايرون ، وفي ألمانيا على يد جوته وشيللر ، كما ظهر في روسيا على يد بوشكين .

نعود إلى فناننا الفرنسي رائد الرومانتيكية تيودور جيريكو لنجده كالزهرة التي عطرت الأجواء بأريجها .. ولكنها سرعان ما اقتطفتها يد القدر وهي لم تبلغ أوج تفتحها وازدهارها .. فقد وافاه الأجل المحتوم قبيل افتتاح (صالون باريس) لعام ١٨٢٤ ببضعة أيام .. ذلك المهرجان الفني العالمي الكبير الذي أودعه آخر وأهم روائعه الخالدة .. وكانت وفاته اثر وقوعه من فوق حصانه وهو لم يزل في الثالثة والثلاثين من عمره !

وعلى الصفحة المقابلة نرى إحدى روائع جيريكو التي رسمها عام ١٨١٢ وهو في سن العشرين وأسماها فارس الحرس الامبراطوري .. ولنتأمل روعة التعبير .. وعنف الحركة وحرارة التفاعل وذروة الانفعال ! وتعتبر هذه اللوحة من أولى اللوحات التي بشرت بالرومانتيكية وانطلاق الثورة الفكرية من عقالها .



العلم هو المستقبل

تقديم : لبنى الريدي

أحدث طرق الاسترخاء



الاسترخاء على الطريقة اليابانية

يعتبر التوتر العصبي مرض العصر ، خاصة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، ولذلك فكر اليابانيون في وسيلة طبيعية لا تعتمد على الأدوية المهدئة لعلاج التوتر والوقاية منه . وتستقي هذه الطريقة جذورها من التراث الياباني المتميز بتدريبات التأمل لسيطرة الروح على الجسد .

في إحدى عيادات العلاج النفسي في طوكيو يجلس المريض في مقاعد ذات شكل خاص أقرب الى شكل بيضة كبيرة مبطنة من الداخل باللون الأسود ، وأمام هذه المقاعد منظر طبيعي ضخم لغابة خضراء وينابيع مياه . وزودت المقاعد بأجهزة تسجيل وسماعات ترسل مجموعة من الأصوات لا رابط بينها ، فهي خليط من أصوات الطبيعة مثل صوت زخات المطر وزقزقة العصافير والعواصف الرعدية ، وأصوات آلية مثل ايقاع مرور القطار وأزيز الطائرة النفاثة . ويتخلل كل ذلك عزف للجيتار الياباني .. ويستمر إرسال كل صوت من هذه الأصوات لمدة دقيقتين .

وأثناء استماع المريض لهذه الأصوات ، يقوم الطبيب بقياس رد الفعل لكل صوت يستقبله عن طريق رسم الذبذبات الكهربية للمخ ، مستخدماً جهازاً متطوراً يستطيع توضيح التغيرات المفاجئة التي تطرأ على مزاج المريض . ويحصل الطبيب في نهاية هذه الجلسة على تحليل يضع على أساسه البرنامج الصوتي الأمثل الذي يناسب كل مريض ، ويمنحه الاسترخاء المنشود .

ويجد المريض في الزيارة التالية الشريط العلاجي الخاص به . ويوضح الطبيب المعالج أن المخ يرسل في حالة الاسترخاء موجات ذات ترددات خاصة تتراوح بين ٨ و١٢ هرتز وتسمى موجات « ألفا » وأنه لكي يحافظ الانسان على توازنه النفسي والعصبي عليه أن يستمتع بموجات « ألفا » لمدة ساعة يومياً .

ويؤكد الطبيب أن مرضاه يصلون إلى حالة الاسترخاء بعد ساعة واحدة على الأكثر من الاستماع إلى الشريط العلاجي المعد للحصول على موجات « ألفا » .

أقوى كمبيوتر في العالم

الكمبيوتر « كراي ــ ٢ »

أنتجت المعامل الأمريكية أقوى جهاز كمبيوتر في العالم واسمه « كراي ــ ٢ » فهو يستطيع إجراء مليار عملية حسابية معقدة في الثانية ، ومعنى ذلك أن أداءه أسرع مليون مرة من أفضل ميني كمبيوتر موجود حالياً في الأسواق . وهو رقم لم يسبق تحقيقه من قبل .

وتتسع ذاكرته لتخزين ٢٥٦ مليون كلمة ويتميز « كراي ــ ٢ » بأنه يضم أربعة مراكز للعمليات الحسابية ومعالجة البيانات ، وهي تعمل بالتوازي فيما بينها ، وتعتبر ذاكرة الكمبيوتر مشتركة للمراكز الأربعة .

ولتحقيق أكبر سرعة ممكنة لانتقال الالكترونات داخل الدوائر الالكترونية اضطر المهندسون إلى تقريب هذه الدوائر إلى أقصى حد من بعضها البعض . ولذلك فان « كراي ــ ٢ » يتميز بصغر حجمه الذي لا يتناسب مع قوته وقدراته . ولكن تقارب الدوائر يخلق مشكلة تبريد ، لأن الحرارة الضخمة المتولدة أثناء تشغيل هذه الدوائر تهدد بسرعة تلفها ، وهي مشكلة كل الأنظمة الاعلاماتية القوية . إلا أن تبريد « كراي ــ ٢ » يتم بشكل مبتكر لأن الجهاز بكامله مغمور في حمام من مادة فلوريد الكربون التي تعمل على تبريد الحرارة .

والغريب أنه بالرغم من الامكانات المذهلة لهذا الكمبيوتر الذي بدأ عمله مؤخراً ، فان المعامل تستعد لانتاج « كراي ــ ٣ » الذي يتوقع الباحثون أن يكون أسرع وأكفأ عشر مرات من « كراي ــ ٢ » . ولكم أن تتصوروا !! .

قارئ إلكتروني لفاقدي البصر

القارىء الالكتروني

يحقق هذا الجهاز الالكتروني الصغير مزيداً من حرية الاطلاع لفاقدي البصر ، فهو يتيح لهم قراءة أي نص مطبوع أو مكتوب . ويتكون هذا الجهاز الذي لا يزيد حجمه عن حجم آلة كاتبة صغيرة من :

• ميكروكاميرا الكترونية للتعرف على الحروف والكلمات المكتوبة ، وهي مزودة بجهاز صوتي مساعد لتنبيه القارئ عند تخطي سطر من السطور . فالكفيف يمسك بهذه الكاميرا الصغيرة في يده ويحركها على النص المكتوب .

• ميكروكمبيوتر يقوم بتحويل النبضات الالكترونية المستقبلة من الكاميرا إلى حروف مرة أخرى .

• شاشة في جانب الجهاز تظهر عليها الحروف « بالبرايل » بحيث يتعرف عليها الكفيف باللمس .
• لوحة مفاتيح كتب فوق كل مفتاح وظيفته « بالبرايل » ويستطيع الكفيف بواسطة هذه المفاتيح تشغيل الجهاز أو إيقافه أو تعديل البعد البؤري لعدسات الكاميرا للتقريب أو تكبير الحروف .. الخ .

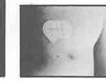
كما أن هذا الجهاز الذي يسمى « دلتا » مزود بذاكرة طاقتها التخزينية ٢٥٦ حرفاً ، وهي تسمح بالاحتفاظ بما سبق قراءته لاعادته مرة أخرى على الشاشة عند الحاجة .

وتزن « دلتا » أربعة كيلو جرامات ، وهي تعمل ببطارية ١٢٠ فولت تؤمن ٨ ساعات تشغيل متواصلة قبل إعادة شحنها .

ولا يتطلب هذا الجهاز القارئ سوى ١٠ أيام من التدريب ، ويمكن توصيله بعدد من الأجهزة الالكترونية مثل طباعة « برايل » أو ميكروكمبيوتر .. الخ

طريقة جديدة لتناول الدواء







لقطتان : القرص اللاصق لعلاج الذبحة الصدرية ..ثم كيس يحتوي الدواء لعلاج الجلوكوما

يشهد عالم الدواء تغيرات جذرية ، فلقد بدأ استخدام نوع جديد من الأدوية تصل مباشرة إلى العضو المراد علاجه دون أن تعاني من أي تحلل أو تغيير عند مرورها خلال أنسجة الجسم المختلفة .

فالأدوية في شكلها الحالي تفقد الكثير من تأثيرها وفاعليتها نتيجة تعرضها للانزيمات التي يفرزها الجسم سواء في القناة الهضمية أو الكبد أو حتى الدم ، والتي تؤدي الى تحللها .

ومن ناحية أخرى فان بعض نواتج هذا التحلل قد تكون ضارة ، خاصة عند تفاعلها مع أدوية أخرى أو بعض أنواع الطعام والكحوليات .. ولذلك فإن الأطباء يشبهون الدواء التقليدي بقنبلة عشوائية تصل إلى هدفها ، ولكن بعد أن تكون قد لوثت الجسم بفضلاتها .

ولتفادي هذه الأخطاء ، توصل الباحثون إلى طرق مختلفة تسمح للدواء ببلوغ هدفه مباشرة دون أن يتعرض لأي تحلل .

ولقد تمت تجربة دواء للمعدة يتخذ شكل برشامة صغيرة صنع غلافها الخارجي من مادة عضوية قابلة للانتفاخ عند مرورها في القناة الهضمية ، مما يجعل البرشامة تقف في المعدة ولا تستطيع المرور إلى الاثنى عشر ، وعندئذ تفرغ العقار الفعال داخل المعدة حيث يتم امتصاصه مباشرة من خلال الغشاء المخاطي المبطن لها .

كما يقدم الطب شكلاً آخر من الدواء يتم امتصاصه من خلال الجلد ، ولقد استخدم هذا النوع من العلاج في حالات الذبحة الصدرية حيث يلصق قرص صغير يحتوي على مادة « الترينيترين » على صدر المريض (كما توضح الصورة) وينفذ الدواء تدريجياً من خلال الجلد إلى القلب والشرايين التاجية . واستخدمت نفس الفكرة في علاج « الجلوكوما » مع اختلاف بسيط ، فلقد تم تثبيت كيس صغير بين كرة العين والجفن الأسفل وصنع جدار هذا الكيس بحيث يفرز الدواء ببطء داخل العين .

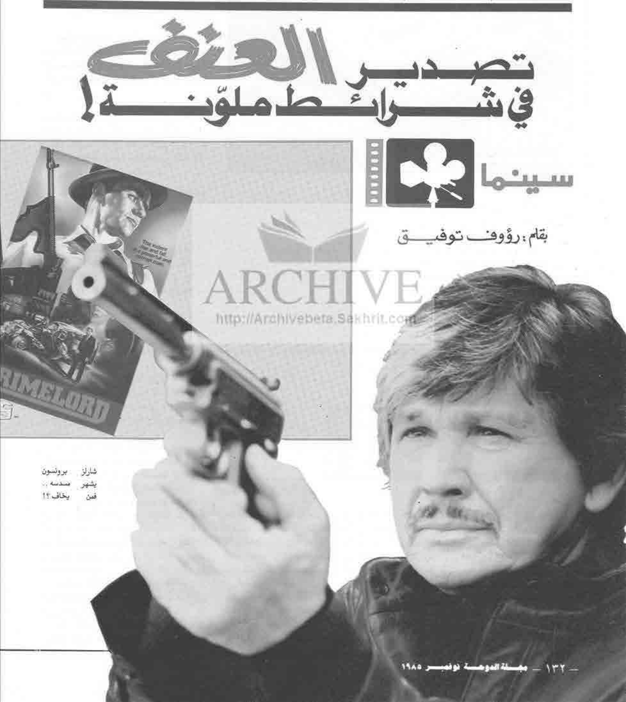
وتتميز هذه الطريقة الجديدة بأنها طويلة المدى ، فلا يحتاج المريض إلى تغيير القرص اللاصق أو الجيب إلا بعد عدة شهور قد تصل إلى سنة .

لم يكن الأمر يحتاج إلى ضوء أخضر ، لكي تكتسب ظاهرة أفلام العنف ، طابعاً خاصاً ومتميزاً في السينما الأمريكية .. ولكن جاء تصريح الرئيس « ريجان » ليبارك هذا الاتجاه ، عقب حادث الطائرة الأمريكية المختطفة في بيروت منذ شهور .. إذ قال فيما يشبه الدعابة ، عند استقباله للرهائن الامريكيين بعد الافراج عنهم : « لقد شاهدت فيلم (رامبو) .. وأصبحت أعرف كيف أتصرف في المرات القادمة » !

تصدير العنف في شرائط ملوّنة !

سينما

بقلم : رؤوف توفيـــق



شارلز برونسون يشهر مسدسه .. فمن يخاف ؟!

اكتسبت هذه العبارة أهمية شديدة ، ليس فقط بين منتجي وموزعي أفلام العنف ، ولكن بين المراقبين المحللين لاتجاهات السينما الأمريكية وتأثيرها على المجتمع .

فقد كانت هذه هي السابقة الأولى التي يعلن فيها رئيس أمريكي ، العلاقة بين السياسة والسينما بهذا الوضوح !

والذي أثار الدهشة .. أن هذا الفيلم (رامبو) نموذج للأفلام الرديئة التي تمجد العنف والقوة بشكل ساذج ومتوحش .

ولكن الواضح أن الاشادة بهذا النموذج من الأفلام ، كان على أساس أنه يقدم الحلم الأمريكي الجديد ، لصورة البطل الذي يتحدى الصعوبات ، ويقهر الأعداء بلا خوف أو تردد .. والذي لا يعرف لغة للحوار ، سوى لغة العنف وسفك الدماء .. أحياناً بقبضة اليد الفولاذية .. وأحياناً بالمدفع المتدفق دائماً بالنيران .. والحل دائماً يبدأ وينتهي بمنطق القوة !

« الوهم » .. بالانتصار !

فهذا البطل الأمريكي الجديد .. هو الذي كان يستطيع إنقاذ الطائرة الأمريكية من مختطفيها ، وفك أزمة الرهائن في دقائق .. كما فعل « رامبو » ، عندما اقتحم معسكرات الجيش الفيتنامي لتخليص الأسرى الأمريكيين .. فقام بالمعجزة بمفرده .. وحقق نصراً أسطورياً عجزت عنه كل أسلحة الجيش الأمريكي ، وقادته ، ومخابراته طوال سنوات مريرة ! !

ها هو البطل الأمريكي ينتصر على شاشة السينما .. ليعوض الهزيمة في الواقع ..

وكأن المطلوب هو خلق هذا « الوهم » بالانتصار والقوة !

ومن هنا .. لاقى فيلم « رامبو » رواجاً تجارياً هائلاً .. وبلغت ايراداته ١٤٠ مليون دولار خلال سبعة أسابيع فقط من عرضه في دور السينما بالولايات الأمريكية وحدها !

وجاء تصريح الرئيس الأمريكي ليثبت أقدام الفيلم .. ويمنحه مزيداً من الشرعية والقدوة !

وتحول « سيلفستر ستالون » بطل الفيلم والذي شارك فى تأليفه وقام بإخراجه .. تحول إلى بطل شعبى تطبع صوره على الملابس والملصقات داخل المنازل .. ويتحلى الصبية والمراهقون بنماذج من الأسلحة التي استخدمها في الفيلم .

وهنا .. مكمن الخطورة . أن يصبح العنف وسفك الدماء ، هو قمة البطولة والمثل الأعلى .. وأن تصبح أدوات العنف هي الحلية التي يتزينون ويتفاخرون ويحلمون بها !

منذ أعوام قليلة ــ أقل من ثلاث سنوات ــ كانت السينما الأمريكية تروج لمخلوقات الفضاء .. وخلقت أسطورة « إي . تي » ، ثم أسطورة « جيداي » ، وامتلأت الأسواق والمكتبات بنماذج من البلاستيك والخشب والفيلين لكل هذه المخلوقات .. ومضت الأعوام القليلة ، لتصبح هذه النماذج الكارتونية ، وكأنها من عصور الرومانسية الغابرة .. ولتحل محلها نماذج وصور « رامبو » !

ونشطت الأسواق الأمريكية لتصدير البطل الجديد إلى أسواق العالم ، لتفرضه بقوة الدعاية ، ليصبح البطل المرغوب المنتظر !

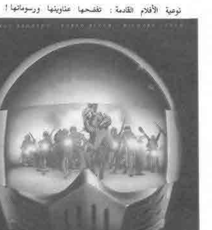
وليس غريباً بعد هذا .. أن تقف الجمعيات والمنظمات التي تدعو للسلام العالمي .. ضد هذا التيار الزاحف من السينما الأمريكية .

اسرائيل تدفع بالمليارات ! !

ولكن السينما الأمريكية في سباقها الرهيب من أجل الربح والانتشار .. تصطاد تلك اللحظة ، وتتشبث بها ، لتستثمرها إلى آخر رمق .



نوعية من اعلانات الأفلام الجديدة : عنف ورعب وشباب يحاول اثبات وجوده ! !



نوعية الأفلام القادمة : تفضحها عناوينها ورسوماتها !



« رامبو » أو الممثل « سيلفستر ستالون » بعضلاته البارزة والاسلحة في كل يد !

تصدير العنف في شرائط ملونة !

وهاهو المنتج والمخرج الاسرائيلي « مناحم جولان » يعرض على بطل « رامبو » ــ سيلفستر ستالون ــ أجراً مقداره ١٢ مليون دولار نظير دوره في فيلم جديد بعنوان « فوق القمة » سيخرجه جولان لحساب شركته « كانون » ! !

وليس الرقم هو مايثير الدهشة ــ رغم أن إحدى المجلات الفرنسية ترجمته إلى الفرنكات . فوصل إلى ١٠ مليار « فرنكي فرنسي » قديم (! !) ولكن مايثير الدهشة والترقب هو ما الذى سيفعله هذا المخرج الاسرائيلي بتلك الأسطورة الأمريكية الراهنة . وإلى أي اتجاه سوف يحرك الخيوط ؟ !

والمعروف تماماً .. وكما كتبت مراراً في مقالات السينما بالدوحة .. أن هذا المخرج الاسرائيلي « مناحم جولان » انتقل بنشاطه من السينما الاسرائيلية إلى قلب السينما الأمريكية .. وكون مع شريكه « جلوباس » شركة انتاج وتوزيع سينمائية باسم « كانون » ، تضخمت وانتشرت بطريقة أخطبوطية في أمريكا وكندا وأوربا وآسيا وفي مدة لم تتجاوز السنوات الخمس .

ومن يدفع ١٢ مليون دولار كأجر لممثل .. فهو لا يغامر مع المجهول .. ولا يبتغي بالطبع وجه الفن .. خصوصاً إذا كان اسرائيلياً مدرباً على أساليب القنص والخداع .. وتسانده المؤسسات الصهيونية العالمية !

من يقدم عنفاً أفظع ؟ !

وإذا كان الضوء الأخضر ، أعطى الشرعية لسينما العنف .. فهذه السينما كانت موجودة من قبل .. ولكنها لم تصل إلى هذا الحد من الانتشار والكثرة العددية ، والشراسة في الموضوعات .. كما حدث خلال العامين الماضيين .

فقد أشارت الاحصاءات التي أجريت على أفلام السينما الأمريكية .. أن نسبة أفلام العنف تزداد سنوياً بمعدلات مخيفة .. فمن عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٢ .. كانت نسبة الزيادة ٢٣٪ .. ولكن في عامي ٨٣ ، ٨٤ زادت النسبة إلى ٦٨٪ من جملة الانتاج السينمائي الأمريكي ..



« المجانق وسحب القنابل » ومن يحمي الآخر في عالم عنيف » لوحة مرسومة لفيلم أمريكي

ويمكن ملاحظة هذه الزيادة من خلال نظرة سريعة على برامج الأفلام التي تعدها الشركات السينمائية الأمريكية .. لتغزو بها العالم خلال العام القادم ــ ٨٦ .. ومن قراءة لعناوين الأفلام وتأمل بعض لقطاتها المرسومة على الملصقات والاعلانات التي تبشر بها .. نستطيع أن ندرك كم من قذائف الدم والرصاص ستنهمر على رؤوس المتفرجين !

وهناك مباراة معلنة لزيادة الشهية للعنف .. من خلال العبارات المصاحبة لهذه الأفلام .. وكأن الأمر تحول إلى سوق للقتلة والسفاحين .. من يهشم العظام ويفقأ العيون .. ويحرق المزارع والمساكن .. وينسف الجسور والخزانات ؟ !

والمسألة محسوبة .. من يقدم المزيد ؟

فقد أشار أحد المحللين لفيلم « رامبو » .. أنه يتضمن حوالي مائة وخمسين عملاً من أعمال العنف .. ومعنى هذا أن الفيلم الذي سيتفوق على « رامبو » هو من يسجل رقماً قياسياً جديداً في أعمال العنف ! !

الحصار من كل جانب

وحصار المتفرج بمشاهد العنف .. لا يقتصر على السينما فقط بل أصبح العنف هو المادة الرئيسية للمسلسلات التليفزيونية .. ودلت الاحصائيات أن مسلسلات العنف زادت بنسبة ١٠٠٪ خلال خمس سنوات فقط ! !

وأصبح من المعروف أن الموضوعات التي تدور حولها تلك المسلسلات .. تحكي العنف في الحروب وبالذات الحرب في فيتنام .. ثم العنف في الفضاء بين مخلوقات الكواكب وسكان الأرض .. ثم موضوعات العنف اليومي بين اللصوص والبوليس وعمليات السطو والاغتيالات .. الخ ..

وانتقل العنف إلى برامج ومسلسلات الرسوم المتحركة التي تقدم للأطفال .. واخترعت المعامل الأمريكية شخصيات خارقة تلهب خيال الأطفال .. وتنمي في داخلهم بذرة العنف والغضب المدمر ..

وقد حذرت كل المؤسسات والمنظمات التي تهتم بالطب النفسي ، من خطورة هذه التغذية اليومية الفاسدة التي يلتهمها الأطفال والكبار على السواء .. وأعلنت كثير من الدراسات والأبحاث التي تؤكد أن نسبة العنف في التعامل اليومي ومن خلال الرؤية المجردة للشارع الأمريكي .. هي نتيجة طبيعية للشحن المستمر ، بمشاهدة العنف سواء من التليفزيون أو السينما ..

ولكن رغم هذه التحذيرات .. فإن تجارة العنف تزداد عمقاً واتساعاً .. وتزداد انتشاراً في جميع أنحاء العالم ، من خلال شبكات التوزيع الأمريكية التي تصدر هذه الشرائط الملونة إلى محطات

التليفزيون المختلفة ، والى دور العرض السينمائي .. مسبوقة بحملات دعاية مكثفة .. ومستفيدة بأسماء كبار النجوم ، وبإمكانات التكنولوجيا الأمريكية في المعامل والاستوديوهات .. وحيث يبدو كل شيء ، جيد الصنع ، جذاباً ، مثيراً للخيال !

وهكذا تسلل وباء العنف إلى العالم !

المخرج الذي تنبأ بما حدث

ومن المثير ، أن أحد مفكري السينما الأمريكية ، قد تنبأ بظاهرة العنف المتوحش .. وأخرج فيلماً منذ أربعة عشر عاماً قدم فيه رؤيته للمستقبل ، بعنوان « البرتقالة الميكانيكية » !

وأحدث الفيلم أيامها صدمة للمشاهدين وللنقاد أيضاً .. وأعتبره بعضهم أنه نموذج مخيف « لأفلام العنف » !

ولكن هذا المخرج الأمريكي « ستانلي كوبريك » كان قد أذهل عشاق السينما في العالم ، قبل هذا الفيلم بثلاثة أعوام .. حينما قدم تحفته السينمائية « ٢٠٠١ ، أوديسة الفضاء » متنبئاً فيها بالصراع بين الانسان والآلة المعقدة التي اخترعها ليكتشف بها الفضاء ..

وعرض هذا الفيلم عام ١٩٦٨ وسجل « ستانلي كوبريك » أنه كان من أوائل المخرجين الذين تعرضوا لهذا الموضوع المستقبلي برؤية ثاقبة فيها العلم والفكر والفن .

ثم كان فيلمه التالي عام ١٩٧١ ، وهو الذي يحمل عنوان « البرتقالة الميكانيكية » يتنبأ بالعنف القادم ..

وسألوه لماذا اختار هذا الموضوع عن الرؤية المستقبلية للعنف .. بعد أن كان في فيلمه السابق يحلق في الفضاء .

قال المخرج « ستانلي كوبريك » :

« أثناء المحاولات الأولى لاكتشاف الفضاء .. كثيرون ادعوا أنه من الخطأ للانسان أن يخوض في اكتشاف الفضاء ، بينما لا يستطيع ذلك الانسان أن يتعامل مع جاره على الأرض .. ولكن الكثير مما حدث بعد ذلك ، وبعض ما أوردته في فيلم : « ٢٠٠١ ، أوديسة الفضاء » أصبح مألوفاً بالفعل .. وبالمثل كل الاكتشافات الطبية والعلمية ستصبح مألوفة وطبيعية في المستقبل .. وانني أرى المستقبل مليئاً بالعنف والشذوذ .. عالم مشوش مضطرب .. عصر يتميز فيه متوسطو وكبار العمر ، بالمزيد من اللامبالاة والفتور وعدم الثقة بالنفس ، وسرعة التأثر بالنقد .. بينما يسيطر العنف على الصغار وينشرون توترهم » !

العنف والسياسة

وفيلم البرتقالة الميكانيكية ، مأخوذ عن رواية بنفس العنوان للكاتب « انتوني بيرجس » وقد قام المخرج « كوبريك » بكتابة السيناريو .

وتدور أحداث الفيلم في المجتمع الانجليزي .. حيث نتعرف على ثلاثة شبان لم يتجاوزوا العشرين من عمرهم .. مازالوا طلبة بالمدارس الثانوية .. متعتهم العنف لمجرد العنف .. ضرب العجائز واغتصاب النساء .. ويقع زعيمهم في قبضة الشرطة .. إنه أكثرهم شراسة وقسوة (يلعب الدور : مالكولم ماكدويل) .. لتبدأ رحلة العذاب داخل السجن الانجليزي .

إنهم يعاملونه عند الاستقبال بمنتهى القسوة .. الضرب والتعذيب .. ويأتون له بالمدرس الذي كان يشكو منه دائماً .. انه الآن يفرغ كل ضيقه منه وشماتته . ويبصق المدرس عليه .. ويضربه رجل البوليس .. والشاب يتأوه بصوت مجروح : « العنف يلد العنف » بينما المدرس لا يكف عن الشماتة وهو يقول له « ها أنت أصبحت قاتلاً .. سفاحاً » .

ويصدر الحكم عليه بالسجن .. لينتقل الفيلم إلى الجزء الثاني منه .. حيث يقرر العلماء بموافقة وزير الداخلية الانجليزي اجراء تجارب جديدة لاستئصال العنف .. ويبداون تجاربهم على هذا الشاب .. ويترقبون النتائج لاستغلالها في الدعاية لبرنامجهم الحزبي .. أي أن المسألة كلها سياسة !

ولكن ماهي هذه التجربة العلمية ؟ .. انهم يضعون ذلك الشاب داخل حجرة مظلمة ويعرضون





أعلى : كلينت استوود .. راعي البقر الباحث عن قيثام جديدة .. والصورة الأخرى : مالكولم ماكدويل ، الذي لعب بطولة فيلم البرتقالة [illegible]



استخدام كافة وسائل العنف في السينما

تصدير العنف
في شرائط ملونة !

عليه مشاهد عديدة من عمليات العنف .. مشاهد صورت خصيصاً تتضمن كل أنواع العنف والقسوة .. والمفروض أن يشاهدها كلها بعيون مفتوحة ، وحتى يتحقق هذا تماماً ، فإنهم يشدون جفون العينين بنوع خاص من القطرة ، حتى تظل العينان قادرتين على العمل لفترات طويلة دون إغلاق الجفون ! انها الرؤية الاجبارية .. أو العقاب بالرؤية !

والغرض من هذه التجربة العلمية .. هو تحطيم الإرادة .. وتحطيم كل الدوافع للعنف .. فهذا الشاب يخضع للمشاهدة الاجبارية لساعات طويلة لمدة خمسة عشر يومياً ، مع حقنه بحقن خاصة للتهدئة وسلب الارادة . حتى يصرخ الشاب من شدة الألم ، ومن توالي جرعة العنف والاشمئزاز .. ويطلب أن يغلقوا عينيه .. « لقد اقتنعت بأن العنف شيء مروع جداً » .

ويشعر العلماء ورجال السجن والمسئولين في وزارة الداخلية .. أن التجربة العلمية قد نجحت تماماً .. ويعقدون اجتماعاً موسعاً يحضره رجال الاعلام المتخصصون في علم الجريمة ، ليشاهدوا هذا « الانسان » الذي تم اصلاحه !

ويضعون الشاب تحت الأضواء الباهرة ، ويحضر وزير الداخلية ومعه بعض رجال الحزب ، ليتوجوا هذا الانتصار الجديد لحزبهم !

وتبدأ أمام الحاضرين مجموعة من التجارب لاستفزاز الشاب ودعوته لاستخدام العنف .. ولكنه أصبح جسداً بلا حياة .. هادئاً .. مذعوراً .. كلما استفزوه للعنف ، كلما أعلن عن استيائه ، واشمئزازه .. حتى أنه يعلن استسلامه التام ويلعق بلسانه حذاء رجل حاول استفزازه !

ويفرح وزير الداخلية بهذه النتيجة .. وان كان أحد رجال الدين يعترض ، ويعلن أمام كل الحاضرين : أن هذا الانسان لم ينصلح حاله .. بل إن إرادته قد تحطمت .. وفعل الخير لن يأتي إلا بالاختيار .. وأين الاختيار هنا ؟!

ويضيع هذا الصوت بين ضجيج الباحثين عن انتصارات جديدة للحزب الحاكم .. ويخرج الشاب ليواجه الحياة من جديد .. ويكتشف أنه لا يستطيع التأقلم .. محطم تماماً .. يصطاده اثنان من رجال الشرطة وينهالون عليه ضرباً .. ويكتشف أنهما صديقاه اللذان كانا يشاركانه جرائمه الأولى .. ويصرخ متألماً « العالم كله لا يريدني .. انني أعاني » .

ويكتشف أحد رجال المعارضة ما حدث لهذا الشاب ويحاول استغلاله سياسياً لفضح التجارب التي أجريت عليه .. ولكن الحزب الحاكم يسرع بنقل الشاب إلى أفخر مستشفى في العاصمة ويأتي وزير الداخلية ليدلله ويرجوه ألا يورطه في مواجهة مع المعارضة .

ويدرك الشاب اللعبة السياسية التي تدور حوله .. فيغالي في طلباته .. ووزير الداخلية يوافق على كل شيء .. وفجأة تظهر على باب الغرفة بالمستشفى فتاة رائعة الجمال .. فيتحرك الوحش بداخله .. ويدرك الشاب أنه عاد إلى حالته الأولى ويصيح فرحاً بأعلى صوت .. « لقد شفيت » .

بينما يظن وزير الداخلية أنه نجح في لعبة السياسة .. فيبتسم لعدسات المصورين في سعادة وانتصار .

وينتهي الفيلم ساخراً في ادانة كاملة لضراوة المجتمع وصراع السياسة ..

فلقد أخضع هذا الشاب إلى تجارب معملية ، بالصدمات والأسلاك والمثبطات والحقن المهدئة .. ولكن هذه الرأس الآدمية لن يتغير ما بداخلها بمحاولات غسيل المخ .. وانما التغيير يبدأ من الخارج .. من المجتمع ككل !

رد الاعتبار .. والبحث عن بطل

وتحقق ما تنبأ به المخرج « ستانلي كوبريك » في فيلمه منذ ٢٤ عاماً .. ساد العنف .. وجاءت السياسة لاستثمار العنف وليس لاستئصاله .



العنـــف والـــرعب يجتمعان وكأن مشاكل العالم الحقيقية قد انتهت إلى الأبـــــد !

العنف القادم الذي تستغله السياسة في الارهـاب

فبعد هزيمة الجيش الأمريكي في فيتنام .. والاحساس بالمأساة والتورط داخل كل بيت أمريكي .. كان لابد من كسر حدة هذا الحزن والمرارة .. وبدأت السينما تخلق انتصارات وهمية ، لاعادة الاحساس بالقوة .

فالمقاتل الأمريكي كما تصوره السينما الآن .. هو مزيج من طرازان وسوبر مان وجيمس بوند .. وأخيراً هو « رامبو » ذو القوة العضلية الهائلة والارادة الحديدية

وهو أيضاً راعي البقر النبيل ، الذي يقف بجوار المظلومين ويستجيب لنداءاتهم .. لينتقم لهم من الأعداء بحكمته وهدوئه وقوة مسدسه الذي لا يخطئ الهدف أبداً ! !

وليس من باب المصادفة .. أن يعود النجم الشعبي المحبوب « كلينت أستوود » ليمثل ويخرج فيلماً عن راعي البقر ، المخلص ، والمنقذ .. فهناك قرية يصلي أهلها من أجل حدوث معجزة تنقذهم من القراصنة الذين يهددون أمنهم .. فتستجيب لهم السماء (!!) .. ويظهر « كلنت أستوود » ممتطياً حصانه الأبيض ليؤدب الأعداء ويحصدهم الواحد تلو الآخر بمجرد لمسة ساحرة من اصبعه على زناد مسدسه .

والفيلم اسمه « الفارس الشاحب » ..

وقد استقبل الشباب الأمريكي هذا الفيلم بحماس بالغ .. وسط حملة دعاية منظمة وذكية تستهدف احياء الفارس الأمريكي القديم ، ذلك الرمز المرتبط بالقوة والصلابة ..

وتصدرت صورة « كلينت أستوود » أغلفة أكبر المجلات السياسية الأمريكية ، وأفردت الصفحات خلال شهور متتالية قبل عرض الفيلم ، وبعده .. للحديث عن شخصية « أستوود » وعقد المقارنات بينه وبين الرئيس « ريجان » في مدى الشعبية .. وبينه وبين « ابراهام لنكولن » في مدى الشبه بملامح الوجه (!!)

ولم يعد خافياً سر هذا الاهتمام المتجدد بهذا الممثل .. ولكن أبلغ تلخيص للموقف ، عبر عنه أحد الكتاب الفرنسيين عندما قال عن « كلينت أستوود » : « إنه الباحث عن فيتنام جديدة » !

* *

ومن حق السينما الأمريكية أن تصنع الأساطير والأوهام .. وتتاجر بالعنف وتستخدمه كيفما شاءت ..

ولكن من حقنا نحن المشاهدين أن نعرف الحقيقة .

ومن واجبنا أن نغلق الأبواب أمام هذه التجارة المسمومة .. وأن نضع الحدود لما نستورده من هذه الشرائط الملونة .

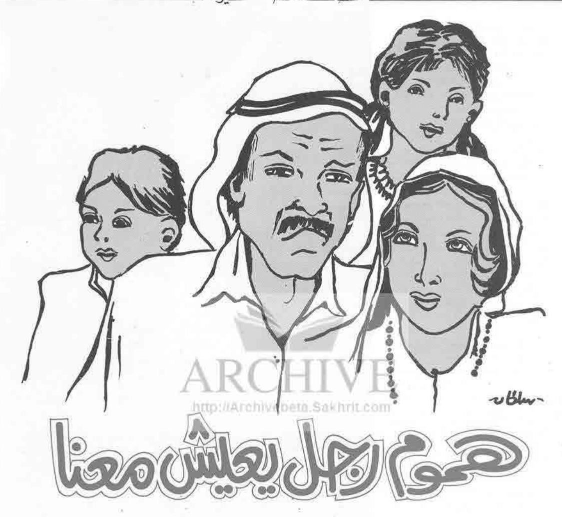
فقد يكون العنف جميلاً ومنعشاً بالنسبة لهم .. أما بالنسبة لنا ، فبالتأكيد ليس كذلك !

رءوف توفيق

« سوبر مان » ما زال موجودا .. وهو مستعد لأية كارثة !


كواليس زعماء الجريمة


عنف الشباب في لقطة ..



هموم رجل يعيش معنا

بقلم: بشـــرى نـــاصر

فتحت باب عربتي.. وجلست خلف المقود.. دفعت بمفتاحي.. ورحت أُدير محركها بطريقة آلية. إندفعت الآلة.. وراحت عجلاتها تلتهم الشارع المسفلت.. كما تندفع كل يوم.. الأمس.. وقبله.. الأسبوع الماضي.. والشهر الماضي. بحركة آلية أيضاً.. امتدت يدي تدير جهاز الراديو.. تنساب أغنية رخيصة.. امرأة تدلل على أنوثتها بطريقة ممجوجة.. راحت أصابعي تعبث في المؤشر بحثاً عن شيء يتناسب وذوقي. سمعت زوجتي مرة تردد هذه الأغنية في المطبخ.. فثرت. الأشجار تبدو من خلال نافذتي المقفلة ـ لضرورة التكييف ـ مكتظة، متلاصقة.

إشارة المرور توقفني.. وكالمعتاد أيضاً.. أنتظر.

الضوء الأصفر،

ثم الأخضر،

ثم أنطلق.

انطلقت ورأسي فارغ.. ليس من جديد يفرضه الواقع.. ماذا حدث هذا اليوم مختلفاً عن ما قبله؟ أو عن الشهر الماضي، بل قل عن العام الفائت؟

إنني أدور كدوران عجلات عربتي الأمريكية تلك.

موظف..

عدت من دراستي الجامعية.. أحمل شهادتي دون اعتزاز أو فخر، خطوة آلية تحدث لأي شاب في قرننا الحالي.. كنتيجة حتمية أو قرار جاهز لما بعد الثانوية العامة.. وعينت في وظيفة جاهزة.. وماذا يعقب الوظيفة؟! لقد أصبح من الضرورة جداً الآن الاستقرار.. قال أبي. ـ توجد بنت الحلال.. جاهزة.. فقط قل إنك تريدها.. قالت أمي.

أنا موافق.. خرجت من فمي.. ورقص كثير من أصدقائي في عرسي.. وتساقطت الأوراق

النقدية ذات الحجم الكبير نقوطاً .. من أجل عيني ، أو من أجل المظاهر الخادعة .. لا أدري .. فللمظاهر وهج يغشى العيون .. ويعمي البصيرة .. كلنا منافقون .. ولكن المشكلة للأغبياء وحدهم .. الذين يجهلون كيفية التوفيق بين اللا أخلاقية التي تسكن أعماقنا .. والممارسات الأخلاقية ظاهرياً . وجدت نفسي أباً لثلاثة أطفال ..

ترس الحياة يدور .. والأيام لا تتوقف لتنتظر واحداً منا .. استقبلت وظيفتي الجديدة .. ومكتبي الجديد .. ومنصبي الجديد . رئيس لقسم في دائرتي .. كان فرحي يومها .. فرح طفل يمتلك لعبة جديدة .. الفرح كان فقط لأنها جديدة ..

بدأت مخيلتي تحبك مشاهد قديمة .. مشوشة .. كأنها استجابة لفوضى العالم .. كان يسيطر علي إحساس بالدونية والتفاهة .

أية قوة أدعي ؟

لست غير جرذ ضخم لايحمل نفسه فوق طاقتها . أتراني أتمتع بشئ من الحقيقة ؟ إني أتسلم مرتباً .. آكل .. أسكن إلى امرأتي .. ينتفخ بطنها ، وتنجب ، يزداد عدد المخلوقات الصغيرة المنضوية تحت لوائي .

رجل .. ينجب كثيراً .. وفي ظهره الكثير من الذكور . فهل يثبت ذلك أنني حي ؟ هاأنت ياصديقي ستعود إلى منزلك لتبدأ لعبة القناع .. ستلقي بالتحية .. تدخل غرفة الطعام .. تأخذ مكانك المعتاد على المائدة .. تجيئك الزوجة بأصناف الطعام المعتادة لتملأ معدتك .. ليس من ضرورة للتجديد .. فلماذا تكلف نفسها بالبحث عن طقوس رائعة ؟

ما الذي يحدث لي ... هل هو الاسم الذي يفجر في الذاكرة عالماً من البوح والأسرار ؟

الاسم .. هو ذلك الذي يعود بي إلى حديقة الطفولة .. فأرتد نحوها كالحالم .

وهاأنا ... مع الظبية التي أحببت ..

راشد علي خلف ...

شقيقها يحمل نفس الاسم .. وليست هي المصادفة التي دفعت بأوراقه في ملف لتحمل توقيعي ... حتماً هي ليست المصادفة . التقيت بوجهها المبارك .. حين كنت مخلوقاً فاضلاً .

بالمناسبة : ماهي الفضيلة ؟ هل هي المزاوجة بين النفس والعالم ؟ (إن النفس هي ذلك الجزء الذي يخصني .. ويتحتم علي الدفاع عنه ..) قالت : طهرني من أدران الفكرة ... خذني حيث كوخ يكفيني .. حيث النفس هادئة بالقناعة . في الغابات .. تتساوى العصافير .. وتتعانق حبات الرمل . حيث التلقائية وحدها تحدد الرغبات .. لم أكن وقتها بطلاً شكسبيرياً ، أمقت دون كيشوت ، لم أتح لمخيلتي العنان لتنطلق وراء حرب لا طائل وراءها .

كان الزواج بها حرباً من النوع الدونكيشوتي .. فلماذا أجازف ؟ ولكنه كان حلماً شرعياً مباحاً .

لماذا لم أمنح نفسي فرصة الاسترسال فيه ؟ لماذا إعتدت قتل كل رغبة تتأجج بداخلي حتى تتحول إلى هم مقلق ؟ كان يتوجب علي الاستمرار في دوري ليصل إلى ذروة التأزم حتى تنتهي فصول حياتي بفصل حر .. يتمرد على قواعد المسرح المألوفة .. والمتفق عليها .. فلا يحدث .كما اعرف : أن يقتنص « الممثل العابر » دور البطل .. أو أن يسقط البطل في منتصف العرض .. كما يحدث لي الآن .

ماتزال عربتي تقودني .. وهمومي تقودني .. والذاكرة تقودني .. كحصان أبيض بري .. منطلق في السهول .

كم يحلو لي العودة إلى حظيرة الطفولة .. كنت مهووساً بالبحث عن كنه الماء .. لم أكن أكتفي بالمعرفة العابرة .. الشائعة ، بل أطمح إلى الشامل المحدود . ماذا أقرأ الآن ؟ لا شئ .. غير الصحف اليومية التي لا أتكلف بشرائها .. بل تجئ إلى مكتبي كل صباح .. كما يسبقني فنجان قهوتي الأول . أحملها إلى المنزل .. فتمدها الزوجة على مـــــائــــــدة الطعام كي لايتســــخ المفرش .. وتلقي بصفحاتها ومخلفات الأكل في القمامة . إنني أساعد بشكل أو بآخر على إشاعة الرذيلة .. ليست هي الرذيلة بالمفهوم المتعارف عليه .. ذلك المفهوم الساذج .. ولكن .. إنها ذلك الشعور بالتآمر على



التلقائية والعفوية والبساطة .. إذ ... حتى عند لقائي بزوجتي .. تموت العفوية وتختفي .. لا أدري ماهي الحقيقة .. هل هي التي تخدعني في كل مرة ؟ واستسلم للرقاد تحت هاجس كلمات مخادعة .

كانت عربتي توشك أن توصلني المنزل .. وتناقضاتي تتزايد حدة وتوتراً .. أصبح الآن .. لزاماً علي أن أتهيأ للظهور على مسرح الأحداث لأعيد صياغتها من جديد .. وبالصورة التي كان يجب أن أتخذها من قبل .. الساعة تتجاوز الثانية وعلي أن أبدأ خطوتي ، حربي ، تمردي .. لأحصن نفسي ضد كل ميكروب ..

أثارني مرأى الشارع الممتد والمؤدي إلى منزلي .. أثارت حفيظتي تلك التدخلات البشرية من أجل الجمال .. فردوس قاس ..شوهته أيد بشرية

آه .. ماذا بعد .. هل نعيد من جديد بناء حضارة القوة والخلود ؟ بينما تمتلئ بالمتناقضات ويسكنك اليأس والخوف ؟ هل هو الإسم الذي يدفع بدمك إلى رأسك بعد أن كبتت فورانه المدنية الجديدة .. والخوف اللاواعي ؟ الفعل .. هو السيد .. والقرار هو الطريق . لافرق أن تكون ضحية أوشهيداً .. بدأت أشعر بالجوع يقرص أمعائي .. ليت الزوجة الآن تعاتبك .. تحزن .. تنتظرك عند الباب .. لتسألك : لماذا تأخرت .. كدت أموت قلقاً .. ولكن ذلك لايحدث .. إنها آلة .

لقد حدث ذلك مرة .. تأخرت فيها .. لأمر طارئ .. ومع ذلك .. فقد اكتفت بدفع الطعام إلى معدتها ومعدة أولادها .. ورفع حصتي من الغداء .. واكتفت بالتعليق : سأجهز غذاءك . غذاؤك وحدك .. وليس غذاءنا .. حسناً فقد فهمت .

مباغتة .. ودون تصور مسبق .. ما الذي حدث .. يبدو أن أفكاري انحدرت بي .. أو أن المقود هذه المرة خانني .. أو ربما هو من كابح السرعة .. لا أدري ... الظلام يحيط بي .. وثمة شئ ساخن يسيل على وجهي .. أين ذهبت مفاصلي ؟ اني لا أشعر بيدي .. ولا ظهري .. سقطة قوية .. لا أعرف بالضبط ماهي .. ولكن .. فلأتبين الأمر .. يبدو أنني وعربتي دخلنا تحت شاحنة كبيرة .. عربتي ليست في وضعها المعتاد الأنيق ، الزجاج يملأ دشداشتي المحشوة بي .. كل ذلك يحدث في سرعة خاطفة .. والسائل الأحمر الحار يملأ فمي .. ويتدفق من فتحتي أنفي .. أشعر بسخونته تغسل وجهي .. ثمة خطأ ما .. خطأ في اتخاذ القرار .. ولكنه يبقى في النهاية قراراً .. حتى ولو تدخل القدر في تحويره .. ابتسمت بهدوء .. يبدو أن زوجتي ستنتظر عودتي طويلاً هذه المرة ... طويلاً جداً .. وربما ستتناول عشاءها مع أبنائها بكل هدوء .

أصل وصورة





يعتبر المهاتما غاندي أكبر زعيم سياسي أنجبته الهند في العصر الحديث (١٨٦٩ ــ ١٩٤٨) .. وبين أصل وصورة هذا الزعيم هناك سبعة اختلافات بسيطة ، إذا استطعت التعرف عليها ، ففي انتظارك جائزة



استراحة الدوحة





مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة :

رووف

المثل يقول



هذا الرسم الكاريكاتيري يعبر عن مثل شعبي عربي .. إذا تعرفت على المثل فلك جائزة .

لوحة لم تتم



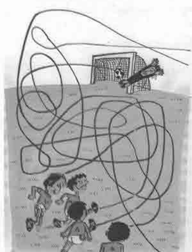
هذه اللوحة التي لم تتم لفنان عربي راحل اشتهر بدور الفتى الأول أكثر من أربعين سنة متوالية .. أكمل اللوحة وتعرف على الشخصية لتحصل على جائزة .

دوري الكاريكاتير



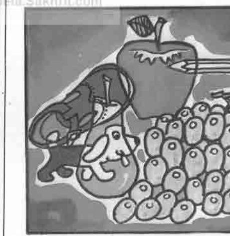
اقتحم أحد اللاعبين أرض اللعب كالصاروخ ، وسجل هدفاً قوياً في مرمى الخصم .. هل تستطيع أن تحدد من هو صاحب هذا الهدف ورقم فانلته ؟.. حاول حتى تحصل على جائزة .

هات أجمل تعليق



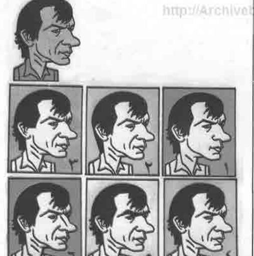
هل تستطيع أن تجد تعليقاً خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيري ؟ .. حاول وأرسله إلينا لتحصل على جائزة

لأقوياء الملاحظة فقط!



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة .. إذا استطعت التعرف عليها ، أرسل لنا الحل في انتظارك جائزة

يخلق من الشبه أربعين



اللوحات الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية الشاعر معين بسيسو الذي كان من آخر مسرحياته « محاكمة كتاب كليلة ودمنة » .. من بين هذه اللوحات واحدة تشبهه تماماً وفي البقية اختلافات بسيطة .. تعرف عليها لتحصل على جائزة

الورقة الأخيرة

بقلم
عبد الله الجفري



أبها.. المدينة الرائعة!

كانت نظراتي تستطرد خلف السحب الرمادية الخفيفة ، ولكنها لا تقدر أن تعود ! كانت السحب تغري تلك النظرات أن تدخل فيها ، وأن تغيب في تلافيفها ، وأن تنغمس وتبزغ كنجمة تطل على تلك المساحات العريضة الواسعة من أرض بلادي !

وكنا عندما نذهب إلى لندن ، أو نقرأ عنها .. نصفها بأنها مدينة الضباب ، وكنا نرى أهل لندن يركضون من رصيف إلى آخر كلما انتشرت الشمس في الناحية الأخرى ، والشمس هناك نادرة ، ولكننا كنا نحن بعكس أهل لندن .. ننتقل من الرصيف الذي انتشرت فيه الشمس إلى الرصيف الآخر بحثاً عن الغيم ، أو عن الضباب ، وكنا نسمي هذا الضباب : جواً شاعرياً ، فنحن نفتقد الفيء وهم يفتقدون الشمس ، وكل منا يفتش عن الذي ينقصه !

أما عندما وصلت إلى مدينة أبها في جنوب المملكة : فالشعور قد اختلف ، والحب أيضاً يختلف !

لقد جمعت في عيني : الشمس والمطر. فقد كانت الشمس ساطعة والمطر ينهمر ، أو كأنني أخاله هو الطقس « العربي » تماماً !

ولقد ركضت تحت السحب وبين الأشجار ، وصعدت الدروب الجبلية العالية ، وفي صدري كما أحسست : زخات ندية من الغيث والاطمئنان والراحة النفسية !

كانت مدينة أبها كما شفة تبتسم وتمنحك التعارف السريع والعميق ، وكانت ابتسامتي تزهر على رؤوس الجبال ، وتتفتح على حفافي الوديان ، وتدعوني أن أتمدد كجذع شجرة ، وأن أتدلى كغصن قد أينع ، وأن أتمرجح كخصلة شعر تتوج رأس حسناء على الفطرة.. لم تشوه المدينة نفسيتها ، ولم تضحل الماديات عواطفها !

كنت عاشقاً لهذه الطبيعة التي أراها تلون رمال وحجار بلدي ، وكان الحب في صدري مكنوناً ومباحاً تماماً كتوافق الشمس والمطر في لحظة واحدة !

وعندما وقفت على سطح جبل في منطقة السودة بأبها .. رأيت هذه السحب فتنة ، وسمعتها غزلاً وبوحاً ، ووجدت النفس الأصيلة للإنسان حينما كنت أشاهد جبال تهامة ووديانها وقد غمرها الضباب !

تلك لوحة رائعة .. اكتشفتها في بلدي بمعان تختلف عن كل اللوحات الجميلة التي شاهدتها في رحلاتي الكثيرة خارج بلدي !

وحينما كانت نظراتي تشرف على تهامة وتختفي في السحب وتبزغ منها .. كان الحب في صدري ينبض ويتهدج ويتدفق ، وما تمنيت ... سرمدية ، أحلى وأجمل من سرمدية هذه الوديان ، وتلك الجبال ، والسحب فوقها ترخ الغيث فتخضر كل بقعة أراها ، وكل بقعة تلاحقها نظراتي فتضيع وراءها !

والتقيت هناك بسائح شقيق جاء من منطقة الخليج العربي ليقضي أيام عيد الفطر في أبها ..

ـ وسألني قبل أن يعرف لهجتي : هل أنت من الخليج ، أم من السعودية ؟!

ـ قلت له : نحن واحد إذا أردت العرق واللغة والعقيدة والأرض !

ـ قال سعيداً : صدقت ، ولكني أقصد من سؤالي : أين تسكن ؟!

ـ قلت : أسكن مدينة جدة ، وجئت إلى أبها هارباً من رطوبة البحر ومن حرارة الطقس في جدة !

ـ قال : إني أحسدكم على هذه الطبيعة ، وأشعر بالأسف لأنني لم أكتشفها إلا قريباً ، فقد كنت أذهب في كل صيف إلى أوربا ، ولكني في العام الماضي عرفت عن أبها وجئت إليها ، وقررت أن أزورها كل صيف ، فهنا مع الطبيعة الجميلة أجد الهدوء الذي افتقدناه في المدن الكبرى .. أجد نفسي !

ـ قلت : وهل زرت الباحة ، الطائف ، والسراة ، والجنوب كله ؟!

ـ قال : أبداً .. أشعر أن أبها أعطتني كل شئ !

ـ قلت : أبها معطاء ورائعة في طبيعتها ، ولكن لكل منطقة ذكرتها لك جمالاً وانعاماً وحسناً .

ـ قال : سأراها ، ولكني أتطلع إلى مزيد من الخدمات في هذه المناطق ليزداد عدد الزائرين لها .

ـ قلت : أوافقك ان المنطقة تحتاج إلى مزيد من الخدمات رغم أن المشاريع تتضاعف فيها كل عام . ولكن هناك عبارة قالها بعض الذين كانوا يعرفون أبها والجنوب قبل عشر سنوات . وشاهدوها اليوم بالصورة الجديدة .. فلقد قالوا : إن من لم يشاهد الجنوب ، وأبها بالذات ، قبل عشر سنوات ..

لا يستطيع اليوم أن يلحظ الفارق الكبير والشاسع . فقد أقامت الدولة في هذه المنطقة الكثير من الانجازات التي حسنت من خدماتها وشكلها ، واستطاع الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير أن يحدث التغيير ويشق الطرق ويعيدها ويجعل السواح يصلون إلى السودة ، والمحالة ، وإلى رؤوس الجبال ، ويهبطون الوديان . وقامت الدولة بشق الطرق وربط الجنوب كله بالطرق الطويلة المسفلتة .

ـ قال : سأذهب ـ إذن ـ إلى الباحة ، بالسيارة !؟

ـ قلت : كل الطرق مرتبطة .. من هنا إلى الباحة ، والطائف ، ومكة وجدة والرياض ، من هنا إلى الجنوب كله .

ـ قال ضاحكاً : هل تصدق .. لقد اكتشفت شاعراً في أعماقي !

ـ قلت : لأدعك مع الشعر ، ولأذهب ، فمازلت أطارد نجمة خلف غيمة حبلى بالمطر ! !

* جدة